الميـــاه العائمـــة

صميم الشريف

الميــاه العائمــة

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقـافة – دمشـق ٢٠١٥م

المياه العائمة / صميم الشريف .- دمشق - الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م .- ٣٥٢ ص؛ ٢٥سم.

١- ٨١٣,٠٣ ش ر ي م ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ش ر ي م
٣- العنوان ٤- الشريف

مكتبة الأسد

تمهيد

يبذل المارُّ في الأحياء الصغيرة الداخلية لحي السبع طوالع والتي أطلق عليها العديد من الأسماء، جهداً كبيراً كي لا تغوص قدماه في الماء الآسن المترشح من نهر بردى، الذي يخترق الحي والذي قامت على طرفيه البيوت القديمة، المتينة منها والمتداعية في خط طويل متعرج وفق سير النهر.

كانت أبواب بيوت إحدى الضفتين تبعد عن المياه عدداً من الأمتار، وترتفع قليلاً عنها، بينما تشرف بيوت الضفة الثانية على النهر مباشرة دون أن يفصلها عنها سوى ممر ضيق للمشاة، وأبوابها تقع في أزقة خلفية تنتهي بالأحياء الأخرى التي تمتد على طول النهر، وتنتهي مع النهر عند (باب توما)، الذي ينطلق لوحده من إسار تلك الأحياء، ليفيض في غوطة دمشق، وكان يصل بين الضفتين عدد من الجسور الخشبية المتداعية، لا يتجاوز عرض الواحد منها متراً واحداً، ويخيل لمن يجتاز أحدها، بأنه سيهوي به بين لحظة وأخرى، وكانت هذه الجسور سبيل الانتقال الوحيد بين الحي الكبير وأحياء دمشق الأخرى، إلا أن علاقة هذا الحي كانت ترتبط إلى حد بعيد بحي العمارة الذي يعدُّ العمود الفقري لها، على الرغم من قربه الشديد من سوقي الحميدية والبزورية اللذين يُعدَّان بدورهما قلب دمشق وحياتها.

وكانت المياه المترشحة عن النهر تشكِّل مع مياه النهر الشحيحة شبه الراكدة وخاصة في الأزقة التي يستوي فيها النهر مع المنازل تقريباً مستنقعاً يغرق الحي بأكمله في موسم الشتاء، بينما تتراجع عنه كثيراً في أشهر الصيف والخريف، لتجد السراطين والضفادع وحيَّات الماء والديدان وغيرها مرتعاً خصباً تمرح فيه بأمان. وكان البعوض يشكل على صفحة الماء مع إطلالة تباشير

الدفء، تجمعات كبيرة، فيطير في حلقات ويمس أثناء طيرانه الدوراني سطح الماء، أو يحط على الأعشاب النامية في المياه ليزرع سرفاءه، أو ليلتمس الراحة، ثم لا يلبث حتى يرتد محلقاً عند أول حركة غريبة يشعر بها.

وكان سكَّان الحيِّ يلجؤون في الشتاء حين ترتفع المياه، وتستولي بأوحالها على قسم كبير من الضفة، إلى وضع أحجار ثقيلة على مسافات متقاربة كي يتمكنوا عن طريقها من التنقل من مكان إلى آخر، وكانت الحياة تسير في الحواري المتفرعة عن حي السبع طوالع على وتيرة واحدة: الرجال يذهبون إلى أعمالهم في الصباح، ولا يعودون إلا بعد غياب الشمس، وجلهم من العمال الذين يعملون في المعامل الصغيرة الناشئة التي تقع في ضواحي دمشق، كمعمل الإسمنت، ومعمل الكبريت، ومعمل المعلبات، ومقالع الأحجار، ومطحنة القدم وغيرها، أو من الأجراء الذين يعملون في الأفران والمطاعم والمقاهي والمتاجر المختلفة، وكان هؤلاء يجتمعون دائماً وأبداً في المقهى الذي يقع عند تصالب الشوارع في العمارة، يدخنون ويشربون الشاي ويستمعون إلى الحكواتي ويستعرضون المشاكل والأمور التي يصادفونها في يومهم.

وإلى جانب الذين يعملون توجد فئة أخرى، لا تزاول عملاً ما، وهؤلاء يخرجون من بيوتهم في الصباح شطر المقهى، ليجلسوا فيه منتظرين أن يطرق العمل باب المقهى ليدعوهم إليه، وكان هؤلاء يشعرون بضعة وذل وخيبة اعتادوا عليها مع الزمن، فكانوا لا يعودون إلى بيوتهم إلا في ساعة متأخرة من الليل، ليتجنَّبوا القلاقل التي قد تحدث لهم مع نسائهم.. وعلى العموم كان رجال الحي ميّالين بطبعهم إلى حياة الخمول والكسل التي أورثهم إياها النهر الراكد بجوارهم، الأمر الذي دفع بأكثر نسوة الحي إلى العمل مع أولادهن ليأمنَّ غائلات العوز، وكن يحترفن شتى الأعمال، ويقذفن بأولادهن إلى الأسواق لتعلم شتى الحرف، كي يؤمّنوا بدورهم كفاف يومهم، وبالتالي كي يستطيع الحي الاستمرار في الحياة.. هذا الحي الذي يشبه وحشاً غريباً فاغراً فاهه، ومحدقاً بالمياه المرزغية بنظرات تشبه نظرات محتضر في النزع الأخير.

/ ١ /

كان كل شيء هادئاً ساكناً في الحي إلا من صياح بعض الصبية الذين وجدوا تسلية لهم في تعقب صغار السراطين في مياه النهر الراكدة القليلة العمق، وكانت عتمة المساء قد أخذت تزحف على كل شيء في الحي رغم شمس تشرين التي لم تأو بعد إلى مضجعها، عندما خرج أبو دياب من منزله، ونظر إلى الأولاد الذين كانوا يغوصون بأقدامهم الصغيرة في المياه الآسنة، ثم سار متوكئاً على عصاه دون أن ينهرهم كعادته، فقد ملّ ذلك وكان يحاول جهد طاقته أن يخفي أثناء سيره العرج الخفيف الذي أصابته به الرطوبة التي أورثته التهاب المفاصل المزمن، فيتكور على بعضه كأنه يجلس القرفصاء كلما انتقل من حجر إلى آخر كي يتحاشى الوحل، وكي لا يتلوث سرواله الوحيد الذي يذهب به إلى رفاقه في المقهى. وكان كلما استراح عند حجر من الأحجار التي غدت ممراً طبيعياً لتقادم العهد عليها، داعب بعصاه المياه دون أن يتضايق من الرائحة الزنخة التي وهبتها المياه لساكني الحي جميعاً حتى غدت جزءاً لا يتجزأ منه.

لم يكن أبو دياب مسناً، فهو لم يتجاوز منتصف العقد الرابع من عمره، غير أنَّ مرض التهاب المفاصل هدمه، ولم تستطع الأدوية التي كان يجد صعوبة في شرائها من دفع هذا المرض عنه، وعندما تزوج لم يكن يرغب حقاً في الزواج، إلا أنَّه لم يستطع أن يمنع عن قلبه تلك العاطفة التي جاءته عن طريق فتاة تعمل عند أحد الموسرين، وتتردد صباح كل يوم على الفرن الذي يعمل فيه لتتسوق الخبز، فنشأ بينهما ود انقلب إلى حب تكلل بالزواج، وهو بعد لم يزل في الثامنة عشرة من عمره، وخلال سنوات قليلة كانت قد أنجبت له خمسة من الصبية وبنتاً واحدة.

اجتاز أبو دياب الحيَّ وانعطف في طريق جانبي يقود إلى مقهى العمارة. وهو يردُّ أثناء سيره على تحية بعض جيرانه، وحين غدا عند المقهى توقف

قليلاً، ولم يلقِ بالاً إلى الحركة والحياة اللتين كانتا تملآن مصلبة العمارة، ولا إلى الأنوار الزرقاء النيلية اللون التي أضيئت بغتة.. كان ثمة أمر يؤلمه ولا يملك له حلاً، وما لبث حين أيقظه هدير الحافلة المسرعة، ولفحه الغبار الذي أثارته عند مرورها أن حدث نفسه مستسلماً:

- يجب أن أنتقل من هذا الحيِّ مهما كلفني الثمن.

وتناهى إليه ضجيج المقهى فتنهَّد ثم ولج المكان.

كان المقهى ككلِّ أمسية يغص بالروَّاد من سكَّان الحيِّ والأحياء المجاورة الذين انتشروا حول الموائد القليلة، وضجيج المذياع يطغى على مناقشات الزبائن وضحكاتهم، ودخان النراجيل والسجائر أعطت رائحة للمقهى اعتادها الرواد مع مرور الزمن حتى باتت جزءاً منهم، ورأى أبو دياب رفاقه قاسم والشيخ سعدو، والمختار صالح الذين اعتاد الجلوس إليهم قد تحلقوا حول طاولة النرد، وكان يقرقر في نرجيلته، فتوجه نحوهم، وقبل أن يقرئهم السلام كان قد اتخذ مجلسه وصفَّق طالباً هو الآخر نرجيلة أسوة برفاقه. قال المختار وهو يلقي بالنرد:

- كيف الحال؟ .

فردَّ أبو دياب وأمارات الحزن تغرق كل وجهه:

- لا بأس...

وسأله الشيخ سعدو:

- كيف حال ابنتك اليوم؟!.

- تركتها في حالة سيئة، فهي لا تكاد تفيق من غيبوبتها، وتعي ما حولها قليلاً حتى تعود إليها الحمى بعد ساعات أقسى مما كانت عليه، ليس لها أمل في الشفاء إلا إذا انتقلت من هذا الحي..

ساد الصمت بين الجميع، وترك قاسم والمختار اللعب جانباً، ثم قال قاسم وهو شاب ممشوق القامة أسمر:

- وطبيب البلدية....

فأجاب أبو دياب وهو يغالب الدمع في عينيه:

- لقد أخذتها إليه ليفحصها، وليتك تعرف كيف فحصها!.. لقد نظر إليها من وراء منضدته نظرة قصيرة، ثم كتب لي وصفة أحالني بعدها إلى صيدلية البلدية لتصرف لي الدواء وهو يقول دون اكتراث: بنتك معها (ملاريا) من النوع الخفيف، أعطها من حب الكينا الذي كتبته لها، واحدة قبل النوم وأخرى عند الصباح، وستشفى بعد أيام... مع السلامة.. لقد مضى على ذلك ثلاثة شهور والبنت لم تتقدم خطوة واحدة نحو الشفاء، إذا لم أقل أنها ساءت عن ذي قبل، وكلما ذهبت لمراجعة الطبيب طردني وهو يصيح متذمراً أنا مشغول.. عندي أكثر من ألف مريض، ماذا تريدني أن أفعل، خذها إلى طبيب آخر إذا لم يعجبك علاجي.

وتنهد قاسم بينما قال الشيخ سعدو وهو ينفث دخان نرجيلته في الفضاء:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بلاء الحي من النهر، ولن يشفى السكان من الأمراض إذا لم نعمل على تخليص الحي من النهر، وعندما يتم لنا ذلك سيعود الحي أنضر مما كان في الماضي.

وسأل المختار باستغراب:

- ومن سيخلصنا من النهر؟! ألا تذكرون ما حدث عندما ردمنا جزءاً منه قبل عامين؟! لقد غرمتنا البلدية جميع الأضرار التي نجمت عن ذلك.

وأجاب الشيخ سعدو:

- أنا لا أقصد ردم النهر، إنما ردم الأجزاء التي أصبحت مستنقعات صغيرة، وتضييق مجراه، وعندما يصبح مجرى النهر ضيقاً فإن المياه تدفع بعضها بعضاً، وتجري بصورة طبيعية وتجرف معها كل ما من شأنه أن يؤذي الحي كالأمراض وغيرها، فما رأيكم؟؟ .

وصاح قاسم متسائلاً:

- ومن يقوم بهذا العمل؟! لقد ذقت السجن في المرة الماضية، وتعطلت عن العمل مدة كافية، ولولا الوساطات التي بذلها بعض أصحاب الخير عند رب العمل لبقيت حتى اليوم عاطلاً لا أجد عملاً... لا.. لا.. الأحسن أن تفتشوا عن وسيلة أخرى غير هذه..

وقال أبو دياب:

- لم يبقَ أمامي سوى الهرب من هذا الحيِّ إلى آخر، وأنا شخصياً عزمت على بيع البيت، وسأفتش على بيت آخر تدخله الشمس ولا تغيب عنه قبل غروبها.. نحن لا نرى للشمس وجهاً إلا في أشهر الصيف، وحتى في أشهر الصيف فإن نورها لا يصل إلى أكثر من النوافذ العليا.. انظروا.. انظروا ماذا فعلت الرطوبة بساقي.. انظروا إلى الآخرين.. إلى بيوتكم.. إلى عائلاتكم، هل يخلو بيت من مرض هل يخلو بيت من شكوى، كل ذلك بسبب النهر.. من مياهه القذرة التي لا تحمل في طياتها إلا الموت البطيء الأشوه.. وقاطعه الشيخ سعدو وهو يحك رأسه ويركز من وضع عمامته مخاطباً رفاقه:

- لماذا هذه الثورة، يجب أن تفهموا ما أرمي إليه، لن نغادر الحي، وسننجح في ردم أجزاء النهر التي نوهت عنها إذا لجأنا إلى الطريق السليم.

وسأل المختار:

- أين هو الطريق السليم، دلني عليه...

وأجاب الشيخ سعدو:

- أنت مختار الحي وتسأل عن ذلك؟.. الأمر بسيط، سندور بعريضة تتضمن طلبنا وتحمل تواقيع سكان الحي جميعاً، ونرفعها إلى المسؤولين، وهؤلاء سيقومون بدراستها ثم ينفذون ما جاء فيها، لأن من واجب الحكومة أن تسهر على راحة الناس جميعاً..

- الحكومة.. لا، إنها لن تهتم بمثل هذه الأمور.

- ولماذا؟؟.

- لأن الحكومة تخضع للفرنسيين والإنكليز الذين يحتلون البلاد.. إنها حكومتهم...

قال قاسم ذلك بصخب نبه إليه أكثر رواد المقهى... وهدأ المختار من ثائرته بينما صاح الشيخ سعدو على النادل طالباً ورقاً وقلماً.. وسأل أبو دياب:

- لم كل ذلك يا شيخ سعدو؟

- سأكتب العريضة الآن وسنوقعها نحن وجميع الموجودين هنا من سكان الحي ثم نطوف بها على الباقين.

- فكرة لا بأس بها إذا جربناها.

ثم طأطأ رأسه وتابع قوله:

- لقد صبرت كل هذه الأيام ولا تضيرني أيام أخرى وإن كنت واثقاً من النتيجة.

وصفق المختار طالباً الشاي، وأصر أن تكون على حسابه. ولما نهض الجميع بعد ساعة من الزمن قال المختار وقد توقف عند باب المقهى:

- فاتني أن أذكركم بأن جابي المالية قد جاءني اليوم متوعداً بأنه إذا لم يدفع أصحاب البيوت ما عليهم من ضرائب المسقفات المتراكمة منذ أكثر من خمس سنوات فسيحجز على ما يجده من متاع ليسدد بأثمانها بعد بيعها ذمة الخزينة.

وسأله قاسم:

- وكيف يلجؤون إلى هذا ولم يبلغونا شيئاً؟ .

- لقد بلغتكم المالية عشرات المرات، وأنتم تتلكؤون بتسديد ما عليكم..

- وهل علم أهل الحي بذلك؟.

- لقد بلغتهم بنفسي بيتاً بيتاً، وسأدور عليهم مع الجابي الموفد من الخزينة لتحصيل ذلك، وسأساعد أهل الحي قدر استطاعتي وليكن معلوماً بأنني لا أستطيع مقاومة أوامر المسؤولين.

قال أبو دياب وهو يستريح على كرسي قرب الباب:

- لا يوجد في الحي كثير من المستأجرين، وغالبية السكان يملكون بيوتهم منذ عشرات السنين وراثة، ولم يفكر واحد منهم بهجر البيت الذي نشأ فيه، وأتوقع أن يحدث كثير من الأمور غير المستحبة، وحبذا لو تعطي المالية فرصة ثانية كي يتدبر السكان أمرهم خلالها.

وقال الشيخ سعدو معقباً على ذلك:

- لندع الأمر على تيسير الله فهو على كل شيء قدير.

ردَّ المختار :

- في كلِّ الأحوال ليمتنع أي واحد منكم إذا كان لا يملك دفع الضريبة المستحقة عليه من فتح باب بيته، لأن القانون يمنع اقتحام البيوت إذا كان أصحابها غائبين.

وترافق الجميع باتجاه الحي وكانوا يقفون قليلاً بين الحين والآخر ليتمكن أبو دياب من الاستراحة حتى تفرقوا باتجاه منازلهم.

- ٢ -

استيقظت سميرة من نومها، عندما أخذت العصافير تخرج من أعشاشها التي اتخذتها في سقوف المنازل وتملأ الجوَّ زقزقة وفرحاً، وتمطت قليلاً وهي ترفع عن جسدها الغطاء، ولكنها ما كادت تحس اليقظة في كيانها حتى قفزت من فراشها، وهرعت إلى النافذة، فأزاحت ستارها بحركة سريعة، وفتحت مصراعها الواحد، وألقت نظرة سريعة كلها لهفة نحو نافذة معينة في البيت المقابل الذي يقع على الضفة الثانية من النهر، ولما تأكدت من أن النافذة مغلقة، تطلعت عبر الشارع فرأت سرباً من السنونو الذي فاته الرحيل يصفق بجناحيه طائراً فوق النهر على مسافة قريبة، وكأنه يعوم فوق صفحة الماء بسرعة مجنونة وهو يطلق صيحات مليئة بالنشوة والغبطة المبطنة باليأس لضياعه عن الأسراب التي رحلت.

وعادت سميرة تتطلع إلى النافذة المقابلة، ولم تلبث طويلاً حتى ارتدت إلى داخل الغرفة، تلاحقها وسوسة المياه وزقزقة العصافير لتبعث في أعطافها الحياة، وأخذت تتلهى في ترتيب الغرفة القليلة الأثاث، وهي تختلس بين الحين والآخر نظرات متلهفة إلى النافذة، حتى إذا انتهت من لمِّ شعث الغرفة وترتيبها، عادت إلى الوقوف وراء النافذة، ونظرت مرة أخرى إلى النافذة المقابلة حتى إذا استشفت السكون، ألقت نظرة عابرة إلى بعض الأجراء والصناع المتوجهين إلى أعمالهم ثم انفتلت إلى الداخل، وهي تسعل سعالاً خفيفاً دون أن تغلق النافذة، أو أن تقي جسمها من نسيم الفجر البارد الذي كان يلسع جسدها الذي لا يستره سوى قميص النوم الوحيد البسيط، ومن ثم غادرت غرفتها لتنظف البيت قبل أن تستيقظ أسرتها المكونة منها ومن أبيها المتقاعد عن العمل، وأمها التي أضحت هي المعيل الحقيقي..

الداخل إلى هذا البيت، يجد عندما يجتاز الدهليز الضيق في منتصفه تماماً غرفتين متقابلتين، صفت في الأولى التي تقع إلى اليمين، أرائك ومقاعد قديمة تعود في عمرها إلى أكثر من ربع قرن بينما علقت على الجدران بعض الصور لأفراد الأسرة الأحياء منهم والأموات، وغطى أرضها العدسية اللون بساط مهترئ في بعض جوانبه، بينما ربض في وسط الغرفة الثانية التي كانت أصغر من الأولى سرير مخلع اتخذه الزوجان منذ زفافهما فراشاً لهما، وانتصبت في إحدى زواياها خزانة تآكلت في بعض أجزائها، حشرت فيها كل الأشياء التي لم تجد لها مكاناً في أنحاء البيت، كما قامت قرب الباب مدفأة صغيرة كانت تبعث في بعض الأحيان الدفء إلى من يلتف حولها.

وينتهي الدهليز بعد ذلك إلى باحة صغيرة قام في أقصاها سلَّم يقود إلى الغرفة الوحيدة التي وجدت فيها سميرة عالمها الخاص، تنفرد فيه عن أمها وأبيها، وتحت السلم مباشرة، قام حوض صغير يستمد مياهه من بئر ذات يد ضاغطة كابسة، أما المطبخ فصغير ويقع إلى جانب السلم ولا يحتوي إلا على

عدد ضئيل من الأطباق وبعض القدور النحاسية، وطبّاخ معدني يعمل على الحطب، وغير ذلك من الأشياء الأخرى التي لا يعيش المطبخ بدونها.

كانت الأم في أول عهدها بالعمل، تغادر البيت في الصباح الباكر وتعود في المساء، غير أنَّها في الآونة الأخيرة أصبحت لا تغادر البيت إلا عند غياب الشمس، ولا تعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، وفي أحيان أخرى لا تعود إلا في صبيحة اليوم التالي.

وكان الأب بدوره يلج المقهى صباحاً ولا يغادره إلا في أول الليل، أما سميرة فغدت بعد أن منعها أبوها عن المدرسة تلازم البيت أو تزور صديقاتها الكثيرات من سكان الحي.. كانت في السادسة عشرة من عمرها سمراء اللون، ذات شعر أسود فاحم طويل تجمعه كلما خرجت إلى السوق تحت منديلها الأسود الطويل، هيفاء القد، حوراء العينين، ناهدة الصدر، وكانت تأمل إلى وقت قريب في زوج يضمّها إليه في حنان، غير أنها مذ رأت الفتى الوسيم (سعيد) ابن جارتهم زهرية، وهي تتمنَّى أن تصبح زوجة له، إذ شعرت منذ أخذت تترقب ذهابه وإيابه ونظراته وابتساماته الطافحة بكل معاني الحب، بشيء غريب يشدها إليه بقلق، وكانت لا تجد عندها الشجاعة لمحادثته وإن كانت تجد عزاءها في تلك النافذة التي ترقبه منها كل صباح ومساء، والنافذة الأخرى، التي كان لا يفتحها هو الآخر إلا ليشبع عينيه من جمالها أو ليقرئها السلام في إيماءة خفيفة من رأسه، دون أن يلحظه إنسان آخر غير تلك الصبية المفتونة به.

حين أوشكت سميرة هذا الصباح أن تنهي تنظيف البيت تناهى إليها نقاش حاد بين أمها وأبيها، ولم يكن من عادتها استراق السمع، غير أن النقاش الذي كاد ينقلب إلى شجار عنيف، جعلها تقترب رغماً عنها نحو غرفتهما المشتركة، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الاستماع فأصاخت:

كان أبوها هو الذي يتحدَّث، وكان يتكَّلم بلهجة عنيفة:

- منذ شهرين وأنا أتجاهل أين تذهبين كل مساء..

وسمعت أمها وهي تجيبه بلهجة جافة:

- إني أعمل.. أعمل ليل نهار، لأعيلك وأعيل تلك المسكينة التي لا ذنب لها.

- وما نوع العمل الذي تزاولين؟! .

- إني أعمل في البيوت التي تطلبني كي أستطيع أن أؤمن لك أجرة المقهى الذي تذهب إليه كل يوم.. أنا أقوم بالعمل المفروض أن تقوم أنت به.

- أنت تعلمين بأني لا أستطيع القيام بأي عمل منذ وقعت من أعلى البناء الذي كنت أعمل فيه، وشفائي يتطلب وقتاً..

- ألم تشفَ بعد، أم أن شفاءك سيستغرق العمر كله!

- أتتجاهلين ما قاله الطبيب، أم أنت غريبة عن البيت وزوجك..؟

- لقد وعيت كل ما قاله الطبيب..

- إذاً، لمَ الاحتجاج..

فصاحت مستنكرة:

- لأنه قد مضى عليك سنة كاملة، وأنت قاعد دون عمل، لقد ألزمك الطبيب بالراحة ستة أشهر ولكنك اعتدت حياة الكسل..

- لك الله يا أم سميرة، ألم أراجعه ثانية ونصحني بوجوب الراحة التامة ستة أشهر أخرى ومنعني من مزاولة أي عمل آخر قبل انقضاء سنة كاملة!! أتظنين بأني راغب عن العمل عازف عنه؟!.. أبداً... أنا أقدّر العمل الذي تقومين به.. أقدّر كل ذلك، ولكنني سمعت ليلة أمس همساً ولغطاً في المقهى يمسني ويمسُّ شرفي، ومن أجل هذا سألتك عن كنه عملك الذي تزاولين ومازلت أنتظر الجواب..

- اسمع، إذا كنت ستلقي بأذنك للقيل والقال فستتعب نفسك وتتعبني، وإذا شئت فلن أغادر البيت منذ اليوم وأرجو أن تدبر أمرنا أنت بنفسك..

- أنا لم أقصد شيئاً، كل ما هنالك، أريد أن أعرف نوع العمل الذي تزاولينه ليطمئن قلبي..

تنهَّدت أمُّ سميرة ثم قالت:

- حسناً هل أروي لك ما احترفت من أعمال.. لقد اشتغلت كما تعرف بمعمل المعلبات (كونسروة) بنصف أجرة أي عامل آخر. وغسلت الملابس وأقوم إضافة إلى ذلك بتنظيف البيوت...

فقال زوجها مقاطعاً:

- كل هذا أعرفه، غير أني أريد تفسيراً لعودتك المتأخرة كل ليلة وخاصة أن رواد المقهى أخذوا يثرثرون ويلغطون .

فقالت الأمُّ متلعثمة وقد أخذت بالعبارة الأخيرة:

- أحياناً.. أجل أحياناً.. أنت تعرف الجنود وتعرف كيف يتحرشون بالنساء مستغلين لباسهم العسكري، والظلام المفروض علينا بسبب الحرب، فإذا لم أجد إنساناً يرافقني نحو الحي فإني أضطر للمبيت عند الأسرة التي أخدم عندها، فإذا ما وجدت حارساً أو شخصاً يرضى بمرافقتي فإنني أصل البيت متأخرة نوعاً ما.

- هكذا إذاً...

قالها بتشكك ثم أردف وكأنه اقتنع:

- حسناً.. لقد أزحت عن صدري كابوساً ثقيلاً.. وعلى كل حال حاولي أن تجدي لك عملاً آخر غير هذا الذي يبتلع صحتك ببطء، وبذلك ندفع عنا ثرثرة الناس وتقولاتهم .

وتمتمت الأم بانكسار وقد هدأ روعها:

- حسناً، كما تريد، سأحاول، غير أني لن أقوم إلا بالعمل الذي أجد فيه راحتي..

وابتسم الزوج راضياً وهو يقول:

- والآن إليّ بقدح من الشاي.

وأدركت سميرة أن أمها ستكشف وجودها فأسرعت نحو غرفتها قافزة كعصفور التين حتى توسطتها، ومن ثم هرعت نحو النافذة لترى سعيداً، وما كادت تراه يملأ فراغ نافذته، حتى أشرق وجهها، ولبثا برهة يتبادلان النظرات والابتسامات والإيماءات وهما يودان في أعماقهما لو يعتنقا إلى الأبد، وكانت كلما سمعت خطوات مارٍّ في الطريق، اختفت وراء الستار، حتى يمضي فتعود من جديد إلى وقفتها في النافذة ترقب حبها في تدله وشوق، وكانت أمها قد بدأت تناديها بصوت عال عندما ابتعد سعيد عن النافذة، وهو يومئ إليها بتحية الوداع، وانتظرت حتى أغلق نافذته وانصرف من البيت، وظلت ترقبه إلى أن ابتلعته أزقة الحي ثم أغلقت بدورها نافذتها، وخرجت من غرفتها وأطلت برأسها نحو باحة البيت الصغيرة وصاحت بدورها تسأل أمها:

- أتريدين شيئاً؟؟.

وعلا صوت أمها من المطبخ:

- انزلي اشربي الشاي..

عندما دخلت سميرة غرفة والديها، وجدت أباها يتهيأ للخروج. كان في العقد الخامس من عمره، ولم يكن فظاً، وإن بدا في غاية الضعف أمام زوجته التي يحبها ويخاف منها في وقت واحد، وشخصيته مذابة في كيانها، يستوحي منها أعماله وتصرفاته، ولم يك طويلاً كما لم يكن قصيراً، وعيناه تدوران أبداً في محجريهما كأنهما تبحثان عن شيء ما وثيابه على تفاهتها نظيفة تكسبه مع الشيب الذي أوغل في عارضيه وقاراً محبباً ورفاقه ينادونه بعلي الحجار حتى غلب عليه هذا الاسم، وحين رأى ابنته هذا الصباح قال لها متخذاً لهجة الأب الذي يعطي السطوة لأبنائه:

- ما بالك تلازمين غرفتك دائماً؟

فأجابت الأم:

- سميرة.. الله يرضى عليها. إنها تريحني كثيراً، أنت تذهب إلى مقهاك، وأنا إلى عملي وهي تقوم بتنظيف البيت وطهو الطعام، وعندما تنام أكون أنا ما زلت في عملي وأنت ما زلت ملازماً مقهاك.

فقال الأب وهو يدور بعينيه بحيرة:

- لعنها الله من عادة سيئة، إني لا أكاد أصدق متى يسمح لي بالعمل كي أنصرف إليه وأريحك من متاعب العمل.. وعلى فكرة، لا تنسي ما اتفقنا عليه.

فقالت الأم وقد اربدّ وجهها:

- هل سنعود للموضوع من جديد، دعني أصرّف الأمور ريثما تتمكن من العمل.

وهزَّ الأب رأسه، وجرع بقية قدحه مرة واحدة ثم عرج إلى الطريق بعد أن صفق الباب بشدة.

نظرت سميرة إلى أمها.. كانت تبدو على وجهها في تلك اللحظة أمارات الراحة لانصراف زوجها. لم تكن قد تجاوزت الثلاثين من عمرها وجمالها من النوع الغريب الذي يُشعر المرء بأنه أمام فتنة طاغية لا يعرف أين مصدرها الحقيقي، أهي كامنة في عينيها الكبيرتين النجلاوين الواسعتين أم في فمها الذي يخيل لمن يراه بأن الابتسامة لا تفارقه أبداً أم في بياضها الناصع وشعرها الفاحم المنسدل على كتفيها اللذين يخلعان عليها جمالاً أخاذاً؟! كما أن ثوبها الفضفاض لا يكشف عن مفاتنها الأخرى، إلا أنها لو ارتدت ثوباً أنيقاً غير هذا لبدت فتنتها طاغية كرائحة زهرة برية من الأزهار الغريبة السامة التي تعطي لمتنسِّم عبيرها النشوة، ثم لا تلبث هذه حتى تلقيه صريعاً مفتوناً بها، ورغم أن الأم لم تورث ابنتها شيئاً من هذه الفتنة إلا أنها أعطتها جمالها الغامض الذي لا يستطيع الإنسان أن يعرف أين يكمن مصدره الحقيقي.

وتمطَّت الأمُّ وتثاءبت ثم قالت لابنتها:

- ما زلت تعبة، سأنام قليلاً، لعلي أجد بعض الراحة قبل العودة إلى عملي عند المساء.

وقالت سميرة وهي ترشف قليلاً من الشاي:

- إنك تجهدين نفسك كثيراً، ألا أستطيع مساعدتك؟.

فابتسمت الأم واقتربت من ابنتها وطبعت على جبينها ووجهها عدداً من القبلات، ثم قالت:

- ثقي يا سميرة بأني لا أعمل إلا من أجلك، لقد سئمت هذه الحياة.. سئمت وجه أبيك الذي يحاسبني كل يوم عن كل قرش أربحه لينفقه في المقهى دون عناء.

فقالت سميرة في براءة:

- ولكنه مريض!.

- أجل.. إلا أنه ليس بعاجز عن القيام بأي عمل آخر، ألا ترين جارنا أبا دياب، عنده ستة أطفال ولا يستطيع السير على قدميه كما يجب، ومع هذا فهو ما زال يزاول عمله في الفرن. إن الذي يفكر في بيته يخلق لنفسه عملاً من تحت الأرض. إن أباك اعتاد الكسل، ولا توجد في الأرض قوة تقنعه بالإقلاع عن ذلك.

وسألت سميرة أمها وهي ترتب من وضع الغرفة:

- ألا أستطيع مساعدتك.. لقد سئمت أنا أيضاً الجلوس بين هذه الجدران الأربعة.. إني أكاد أفقد عقلي من الوحدة التي أعانيها كل يوم.

وفكَّرت الأم قليلاً ثم قالت:

- أنت ما زلت صغيرة وعندما يحين الوقت ثقي أن أباك لن يوفرك..

ثم أردفت مغيّرة الحديث:

- ماذا تقولين لو اشتريت لك ثوباً جديداً غير هذا الذي عندك...

- ومن أين لنا المال؟..

- سأشتريه من المال الذي أقتصده خفية عن أبيك..

وهزت سميرة رأسها وهي تقول باستسلام:

- في كل الأحوال أفضل أن أعمل على أن أبقى هكذا دون عمل...

فقالت الأم وهي تربت على كتف ابنتها:

- حسناً.. حسناً ستشتغلين في يوم من الأيام.. أما الآن فدعيني أستريح قليلاً..

وأخذت سميرة تجمع أكواب الشاي بينما استلقت الأم على السرير وهي تقول:

- أيقظيني مثل العادة عند الظهيرة..

ولم تجب سميرة، وخرجت بعد أن أغلقت باب الغرفة وراءها بهدوء.

- ٣ -

وقفت مياه النهر عاجزة أمام نفايات البيوت التي تراكمت في وسط النهر وبعض أطرافه، ولم تستطع الموجات الصغيرة قذف الأقذار وسوقها أمامها أبداً، وكان صبية الحي يلعبون كعادتهم أبداً بجوار النهر أو يغوصون بأقدامهم الصغيرة في مياهه الكالحة التي لم تعرف في حياتها لوناً واحداً ثابتاً وكان الجسر الخشبي الصغير، هو ملاذهم الوحيد عند أوبتهم من مدرسة التجهيز الأولى التي تقع بعيداً عن الحي، وكانوا يجدون متعة واختصاراً للوقت في آن واحد، حين يحتالون على جابي الحافلة ويتهربون دائماً وأبداً من دفع قيمة ركوبهم في ذهابهم وإيابهم لقاء صفعات كثيراً ما تكون قاسية حين يفاجئهم بها الجابي على غفلة منهم، وكانوا نادراً ما يتركون أمراً في المدرسة لا يتدخلون فيه، حتى بدوا أمام رفاقهم قوة لها خطرها وإذا ما عادوا من المدرسة سيراً على الأقدام وهم قلّما يفعلون ذلك، تحرَّشوا ببعض طلاب المدارس الأخرى أو سخروا من سالكي

الطريق، أو تعقبوا تلميذة جميلة أو فتاة ظريفة تحاكيهم سناً، كل ذلك كي يخلقوا لأنفسهم متعة تلازمهم حتى نهاية الطريق.

على هذه الوتيرة من الطرب كانوا يمضون الأيام والأسابيع والشهور، وكان من بينهم أحمد ابن أبي دياب الذي استهوته في غدواته وروحاته بنت جميلة تصغره بقليل أعجبه منها ضفيرتاها المنسدلتان على ظهرها، ووجهها الشاحب الذي تزينه ابتسامة حزينة، وأحس أحمد مع مرور الأيام وعلى فترات متقاربة أن شيئاً ما في داخله يهتز طرباً كلما لمحها أو شاهدها، وغدا يتهرب من رفاقه كي يستطيع مرافقتها عن كثب خلال غدوها ورواحها إلى المدرسة.

وخطر له ذات يوم أن يتعقبها ليعرف أين تقطن، وتملكته الدهشة والغبطة معاً حين رآها تتجه نحو الحي الذي كان يقطن فيه فسار بعيداً بجوار النهر يتبعها كظلها، إلى أن انعطفت في زقاق جانبي مسدود، ورآها عندما وصل إلى مدخل الزقاق تطرق باب منزل يقع في صدر الزقاق وفجأة وجد نفسه يطلق من شفتيه صفيراً منغوماً اعتاد أن ينادي به رفاقه، فاستدارت البنت نحوه ونظرت إليه طويلاً قبل أن تبتسم وتغلق الباب خلفها، وانتظر طويلاً دون أن يدري لماذا، وطفق يصفر اللحن نفسه ويردده ونظراته متشبثة أبداً بنوافذ البيت وبشرفته الصغيرة، ولما يئس من رؤيتها ألقى نظرة أخيرة وهمّ بالمسير، وما كاد يفعل حتى لمحها واقفة خلف النافذة، فجمد في وقفته، وأخذ يتطلع إليها من بعيد، والفرح يهز كيانه. وعندما حال غبش المساء بينه وبين رؤيتها، وقف يرقب شبحها ثم لوَّح لها بيده مودعاً وانصرف والدنيا لا تتسع لفرحته.

كانت أصوات الشجار تعلو متنافرة مختلطة ببكاء طفل صغير عندما صاحت زوجة أبي دياب بأولادها:

- اهدأ أنت وإياه.. جاء أبوكم..

وبدَّد من تجهُّم الأب وألمه تصايح أولاده والتفافهم حوله فانصرف إليهم يداعبهم قليلاً ويصيح فيهم حيناً، والأم تغري أطفالها بالنوم إلى أن استسلموا إليه

صاغرين، عدا أحمد الذي جلس بجوار أبيه صامتاً يصغي إليه ويفكِّر في الوقت نفسه بالضفيرتين الشقراوين.

وجلست الأم أخيراً إلى زوجها وسألته:

- صار معك شيء جديد؟!.

فتجاهل سؤالها والتفت إلى ابنه وسأله:

- أراجعت دروسك؟!...

فتلكأ أحمد قليلاً قبل أن يجيب:

- سأقرأ دروسي في الصباح الباكر كعادتي..

- عال، مليح.. والآن هل لك أن تذهب إلى غرفة أختك وتتحقق من نومها.. ثم توجه بحديثه هامساً إلى زوجته عندما غدا أحمد عند الباب..

- أريد أن يستمرَّ في دراسته حتى النهاية.. إنه شديد الحساسية..

فقالت زوجته متأففة:

- وماذا سنستفيد من دراسته، إننا لن نربح من ورائها شيئاً، لقد آن الأوان لتجد له عملاً يساعدك عن طريقه في تأمين خبزنا كما ينبغي.

- لا.. أبداً..سأعمل جاهداً في تسهيل سبل الدراسة، فإذا ما نال شهادة الدراسة المتوسطة (البروفيه) عيّن معلماً في إحدى القرى فأفادنا براتبه واستفاد وربما تمكن أيضاً من متابعة دراسته.

- أتظنُّ ذلك...

- أجل يا أم أحمد.

- أنا أرى غير رأيك لأنه يمضي أكثر أوقاته في الطرقات والأزقة، والأفضل أن نلحقه بعمل نستفيد منه منذ الآن..

- إنه ما زال صغيراً..

- صغيراً.. كم كان عمرك عندما بدأت العمل؟! .

- وضعي يختلف.. كان أبي جاهلاً لا يقدّر العلم. وأنا لا أريد أن أورث ابني السيئات التي ورثتها عن أبي، لهذا يجب أن يتمم دراسته لأنها مفتاح أي عمل. ولا تنسي بأن الشيخ سعدو هو الذي نصحَ بذلك خاصة بعد أن رأى خط أحمد الجميل.

- طيب.. والآن حدثني بالموضوع الأهم، هل جدّ جديد معك؟! .

- أبداً.. المعلم مصرّ على أن أترك العمل لأني أصبحت عاجزاً على حدّ زعمه..

- وماذا ستفعل؟!.

- أمهلني حتى نهاية هذا الشهر فإذا شفيت في هذه الفترة من الروماتيزم كان بها وإلا...

- ما هذا الذي تقول، أبعد هذه السنوات الطوال يتخلى عنك؟ لقد كنت أعقد عليه الآمال.. كنت أظنه رجلاً طيباً، ومع هذا فأنا أعرف جيداً بأن عملك وراء الفرن لا يتطلب كثيراً من الحركة و...

فقاطعها أبو دياب قائلاً:

- الحقيقة يا أم أحمد، أنا أعاني كثيراً من ألم ساقي وراء الفرن، لقد طلبت إليه أن ينقلني إلى عمل آخر في المخبز ولكنه رفض.

- بعد كل هذه السنوات ويرفض لك طلباً كهذا..

- على كل حال عرفت جيداً غايته، هو لا يريد أن يتخلى عني...

- إذاً لمَ أنذرك؟ .

- لكي يعرض عليّ فيما بعد العمل عنده بأجر أقل مما أقبض الآن.. إنه خبيث كما ترين.

- يااللئيم.. ثم تابعت بعد فترة صمت:

- وماذا ستصنع الآن؟!.

- لا شيء، سأتمم عملي حتى نهاية الشهر ثم أرى ما يخلق الله، وعلى كل حال سأسعى وراء عمل آخر غير هذا.

- وإذا لم تجد؟.

- أعود إليه عندئذ ثانية..

- وإذا رفض!!.

- لن يرفض.

- لنفترض وجود مثل هذا الاحتمال فماذا تفعل عند ذاك..

- سأجد عملاً آخر رغم ألم ساقي.

- أبداً، إن أحداً لن يقبل أن تعمل عنده وأنت بمثل هذه الحالة، لا تقاطعني، لو كنت أنا رب عمل لرفضتك..

- طيب.. طيب.. أنا معك ولكني سأشتغل حتى ولو اضطررت للتسول..

- إن هذا لا يكفي، والأيام سريعاً ما تمضي وسرعان ما تجد نفسك دون عمل..

صمت أبو دياب قليلاً ثم سأل مستسلماً:

- وماذا تقترحين؟.

فأجابت بعد تفكير قصير:

- ليس أمامك سوى التفتيش منذ الصباح على عمل لأحمد لقد غدا فتياً، والجوع لا ينتظر حتى ينال شهادته ويصبح معلماً.

فأجاب أبو دياب محتداً:

- أبداً.. يجب أن يتمم دراسته، لقد قلتِ قبل قليل إنَّ الأيام سريعاً ما تمضي، وكلها سنة وتمضي (والله يعين).

فصاحت بغضب ونزق:

- بلا مدرسة.. بلا قرد.. أمينة مريضة بالملاريا منذ زمن بعيد وأنت كذلك مريض والأولاد يلزمهم كل شيء فلا يمكننا والحالة هذه أن نفتح أفواهنا للهواء..

- دعيني.. دعيني أفكر في هذا الأمر. وإياكِ أن تخبري أحمد بشيء قبل أن أبتّ برأي.

- طيب، كما تريد.. ولكن عليك أن تتأكد بأن هذا هو الحل الوحيد..

- حسناً.. حسناً.. هاتِ عصاي، سأذهب إلى المقهى قليلاً .

- ابقَ معنا، انسَ المقهى ليلة واحدة.

- لا... ضروري أن أذهب لأعرف ما تم بشأن العريضة..

- أية عريضة؟ .

- عريضة الاسترحام التي حدثتك عنها بشأن النهر .

- الله يلعن المقاهي والذين أمروا بفتحها.

وقهقه أبو دياب وهو يتوكأ على عصاه، وربّت على ردفي امرأته وهو يقول:

- لن أتأخر.

عندما خرج أبو دياب من الغرفة، وجد ابنه أحمد جالساً على مصطبة الغرفة فسأله:

- لم أنت جالس هنا؟.

فأجاب متردداً:

- كنت أنتظرك لأتحدث إليك.

وردَّ أبو دياب وهو يتخذ وضعية الأب الحازم بعد أن أدرك أن ابنه قد استمع لبعض الحديث الذي دار بينه وبين زوجته:

- دع ذلك إلى الغد.

فقال أحمد متشبثاً:

- سأرافقك حتى نهاية الزقاق وستتوكأ علي ريثما أحدّثك عما بنفسي.

وأطرق الأب وهو يخفي ابتسامة غلبته على أمره فقد وجد ابنه يتخذ في طريقة حديثه لهجة الواثق مما يريد فقال له ملاطفاً:

- ألا يمكن إرجاء ذلك إلى الغد؟ .

- لن أعيقك كثيراً ولن أحدثك إلا في الطريق..

عندما صفق أبو دياب الباب خلفه لسعت وجهه ووجه ابنه نسمات باردة، ضمت في طياتها رائحة النهر الزنخة.

وفجأة قال أحمد:

- ألا تستطيع يا أبي أن تجد لي عملاً؟!.

وصمت الأب مفكراً، كان يعلم أن ابنه سيسأله شيئاً من هذا القبيل، لذا قال بلهجة قاسية:

- عليك أن تفكر في دروسك فقط..

- ولكن يا أبي يجب أن أساعدك.

- قلت عليك الاهتمام بدروسك ومدرستك، ولا شيء غير ذلك.

كانت لهجة الأب قاسية لدرجة جعلت أحمد يخجل وينكص على عقبيه، وأحس الأب بالألم الذي دفعه إلى نفس ابنه البكر فاستدار نحوه قائلاً بلطف:

- أحمد.. يا أحمد.. إلى أين؟ ألم تقل إنك ستساعدني في المسير حتى نهاية الزقاق.

وعاد أحمد بخطوات متباطئة وقد ظهر الحزن في عينيه وحركاته جلياً.

وقال الأب بعد فترة صمت مطيباً خاطره:

- غداً.. عندما تصبح شاباً تستطيع أن تعمل معي لنجني لأمك المال الذي تروم، أما اليوم فلا تفكر بغير دراستك.

وكانا قد وصلا إلى نهاية الحي فطبع الأب على وجنة ابنه قبلة ثم تابع سيره حتى دخل المقهى.

وجد أحمد نفسه بعد أن ترك أباه وحيداً، فأخذ يفكر قليلاً، ثم أخذ يقفز قفزاً سريعاً على الأحجار المرصوفة حتى إذا وصل إلى البيت وقف أمامه متردداً ثم تابع سيره إلى أن أشرف على الزقاق الضيق المسدود فأخذ يصفر لحناً دارجاً، وهو يأكل بنظراته الدار المظلمة البعيدة التي كان يشع من إحدى نوافذها النور، وكله أمل في أن يرى شقراءه الصغيرة، وكأن أمنيته أبت إلا أن تتحقق، فما كاد يتابع الصفير قليلاً حتى ظهرت خلف الزجاج بوجهها البريء كالزهرة البرية، وبدت نظراتها حائرة وهي تحاول اختراق الظلمة التي تغمر الطريق كأنها تفتش عن شيء معين، وكادت تبتعد عن النافذة حين رأت فجأة فتاها يلوح لها بيده من تحت عمود النور ذي الضوء الأزرق الذي كان يقف عنده، فلم تجسر على تحيته، واكتفت بمراقبته والنظر إليه، وشعر أحمد بالسعادة تغمر كيانه، وسيطر على مشاعره سرور كبير، فتوقف عن الصفير، واكتفى بدوره بالنظر إليها، ولبث واقفاً يرقبها وترقبه، إلى أن لمحها تختفي بسرعة ولم يطل الأمر بعد ذلك فقد انطفأ النور دافعاً إلى قلبه الكرب والحزن.. كان يود لو يراها واقفة هكذا تنظر إليه وينظر إليها، إلى الأبد، واستمر في وقفته فترة أخرى وكله أمل، ثم تساءل بينه وبين نفسه: ترى ألا يمكن أن تكون واقفة في الظلمة وراء نافذتها؟ .

وارتاح إلى هذا الخاطر، فاقترب من بيتها بخطوات محاذرة حتى غدا قرب المنزل وكان في كل خطوة يخطوها يحدق عبر الظلام نحو النافذة بعينين جائعتين عله يستشف شيئاً وراءها، ولما يئس عاد أدراجه نحو آخر الزقاق ووقف قليلاً تحت عمود النور وقد اندفع إلى قلبه شعور غامض أنها ما زالت خلف الزجاج، فرفع يده محيياً ثم اتجه نحو الجسر الخشبي القريب ووقف في منتصفه يرقب سير المياه البطيء ويصيخ إلى نقيق الضفادع الذي كان يعكر صفو السكون. وملأت خياشيمه رائحة الزنخ التي يضج منها النهر نفسه، وأسلم

عينيه إلى بريق المعلبات الفارغة الكامنة في قاع النهر قليل العمق، واستسلم إلى خياله ولم يدر مقدار الوقت الذي مر عليه وهو في وقفته هذه، وكل ما يعرفه أنه استيقظ من أحلامه على ضفادع قفزت فوق سطح المياه هاربة من جرذ كان يلاحقها، فعكرت صفحة الماء التي كانت تبدو لأحمد رغم حلوكتها رائقة إلى حد ما. ومزق السكون بكاء طفل رضيع، ونظر أحمد نظرة ساهمة طويلة نحو الزقاق المسدود ثم قفل عائداً نحو البيت وهو يصفر لحناً آخر لا يدري أين حفظه.

- ٤ -

لم يكن الشيخ سعدو عالماً فاضلاً، كما أنه لم يكن شيخاً جاهلاً، ولم يعرف عنه في يوم من الأيام بأنه استغلَّ الدين في قضية واحدة، كان ينظر إلى الأمور نظرة سطحية من خلال الواقع ويعالج الأمور ببساطة يخالها المرء تنطوي على كثير من الدهاء والذكاء.. كان يعمل إماماً في مسجد الحي الذي لا يعرف بالضبط من الذي قام ببنائه، ويقتضي الإنصاف أن نقول إنه شغل هذا المنصب مجاناً فترة طويلة إلى أن ارتأت مديرية الأوقاف أن تعينه أخيراً إماماً ومدرساً في هذا المسجد، ولما كان المسجد صغيراً، وروّاده من طبقة الكادحين فقد غدت مهمته سهلة، فلا أسئلة دينية عويصة، ولا طلاب دين يقصدونه، واكتسب مع مرور الزمن خبرة واسعة في شؤون الحي جعلت السكان يلجؤون إليه في عموم مشاكلهم ليجد لها حلاً، وكان كثيراً ما يوفّق في حل قضايا الحي العويصة حتى طبع في قلوبهم الحب والاحترام. كان الشيخ سعدو في أول أمره يقطن في المسجد، ولبث مقيماً فيه فترة طويلة إلى أن تزوج من أرملة في الحي وقطن معها في البيت الذي ورثته عن زوجها المتوفى وكان إذا ما استعصت عليه مسألة من المسائل ولم يجد لها حلاً، استعان بالمختار صالح في إيجاد حل لها وهكذا كان الاثنان يتعاونان من أجل خير الحي، وما فكرة العريضة وتقديمها إلى المسؤولين إلا واحدة من قضايا كثيرة عرضت لهما في الماضي واستطاعا حلَّها بشتى الطرق..

وفي تلك الليلة حين اتخذ الشيخ سعدو مجلسه في المقهى إلى جانب رفاقه وهو يتمتم ببعض البسملات والتعاويذ سأله أبو دياب مستفهماً:

- ماذا تم بالعريضة التي ستقدمها للمسؤولين؟ .

وأجابه الشيخ بعد أن قطع بسملاته وتسبيحاته:

- إن صبي المقهى يجمع التواقيع عليها من سكان الحي الموجودين هنا ولن تمر دقائق حتى يتم ذلك.

وقال أبو دياب وهو يهرش رأسه:

- أتعتقد بأن عريضتنا هذه ستلقى عناية من المسؤولين؟ .

فأجاب الشيخ سعدو:

- ما على الإنسان إلا أن يسعى، والله من وراء القصد.

وساد الصمت، ونظر أبو دياب في ما حوله، وكأنه يجلس في المقهى للمرة الأولى في حياته.

كان أكثر الزوار يتلهون بلعب الورق أو النرد، وآخرون يقرقرون بنراجيلهم، والنادل يصيح بين الحين والآخر على الطلبات، والحاكي الهرم يرسل أصواتاً حادة متخرشة ممزوجة بأنغام كانت تضيع في الجو الخانق دون أن يعلق في الأذن شيء منها.

وكان أبو دياب يراقب النراجيل المصفوفة على الرف، وحزمة النرابيش التي علقت على مسمار صدئ، وصور أبي زيد الهلالي وعنترة، وآدم وحواء وقد جمعت بينهما أفعى حملت بين أنيابها تفاحة شهية، وصوراً أخرى أُلصقت جميعها بغير نظام حين انتبه إلى قاسم وهو يقول مدهوشاً:

- سيرفعون ثمن الخبز يا جماعة.

وران الصمت للحظة ثم قال المختار الذي اعتاد مثل هذه الأمور:

- الحكومة لا تجسر على ذلك.

وقال أبو دياب:

- كنت أود أن أقول لكم ذلك ولكني نسيت، لقد بلَّغ أحد رجال الشرطة اليوم صاحب الفرن الذي أعمل فيه قرار زيادة سعر كيلو الخبز نصف فرنك.

وصاح الشيخ سعدو:

- ما هذا الذي تقول؟.

فردَّ قاسم:

- خذ واقرأ ما جاء في الجريدة بهذا الخصوص.

وتناول الشيخ سعدو الجريدة من قاسم وأخرج نظارته وثبتها على أرنبة أنفه، وتطاول المختار بعنقه ومد رأسه من وراء كتف الشيخ سعدو الذي أخذ يقرأ الخبر حتى إذا انتهى من ذلك خلع نظارتيه بينما قال المختار:

- سأُبلغ هذا القرار غداً باعتباري مختار المحلة.

وقال أبو دياب:

- خير الله موجود بكميات كبيرة فلماذا يرفعون سعر الخبز ؟ .

وجاء الرد سريعاً من قاسم:

- الحرب.. ألا يعني هذا شيئاً عندك... إن الحلفاء يصادرون كل شيء ليرسلوه إلى جيوشهم في الجبهات البعيدة.

وكان المختار والشيخ سعدو يحبان الاستماع إلى قاسم وهو يتكلم ويعلمان بأن قاسم وإن ترك المدرسة قبل أن ينال السرتفيكا، غير أن الحياة علمته الكثير كما يقول، وهو عادة يجمع فئة ضئيلة من الصناع والأجراء إلى كثير من المثقفين الذين ينتمون إلى جمعية تعمل سراً، فيستمعون إلى عدد من الأساتذة فيها وهم يشرحون الأمور السياسية الغامضة وعلاقتها بالحياة الاقتصادية العامة.

وتمتم أبو دياب:

- لن أرسل ابني غداً إلى المدرسة.

فسأله قاسم:

- ولماذا ؟؟ .

فأجاب أبو دياب:

- إن ارتفاع ثمن الخبز سيجعل الطلبة غداً في غليان، وسيعلنون الإضراب ثم يخرجون في تظاهرة لا تلبث حتى تصطدم بقوى الأمن، وسينقلب الأمر إلى مجزرة يذهب ضحيتها عدد كبير من الطلاب، ومن ثم تغلق الحكومة المدارس، ولا تعيد فتحها إلا بعد أن تهدأ الحوادث.

فقال قاسم:

- الحق هو ما تقول، ولكن يجب أن لا تنسى أيضاً أن دخول جيوش الحلفاء بلادنا قد خلق في بلادنا صراعاً سياسياً عنيفاً.

وتوقف عن الكلام قليلاً، وتلفت حوله في حذر، ثم قرَّب رأسه من رؤوس زملائه وتابع هامساً:

- إن الإضراب غداً في ظاهره يعود إلى ارتفاع ثمن الخبز، وفي حقيقته مجرد إثارة قلاقل من أجل أسباب أخرى بعيدة.

وسأل المختار مقاطعاً:

- وما هي الأسباب البعيدة ؟ .

ونظر قاسم إلى الجميع نظرة تعجب ثم قال:

- الأسباب البعيدة هي الصراع الدائر بين كتلتين سياسيتين على الحكم.

وسأل الشيخ سعدو:

- أي كتلتين ؟ .

وأخذ قاسم نفساً طويلاً من نرجيلته ثم قال:

- عندما طردت جيوش الحلفاء جيش فرنسا الذي يدين بالولاء لفيشي ودول المحور، قامت نتيجة لدخول هذه الجيوش كتلتان سياسيتان الأولى هي التي تتربع على الحكم اليوم وتخضع لتأثير النفوذ الفرنسي الذي تمثله فرنسا الحرة والثانية

لتأثير النفوذ الإنكليزي الذي دخل مع الجيش الإنكليزي المحتل، والكتلتان تتصارعان من أجل الوصول إلى الحكم نتيجة لتصارع الدولتين السياسي.

وخفض المختار من صوته وهو يسأل:

- هل تعني بأن رئيس الجمهورية وحكومته ينفذان سياسة فرنسا ؟.

- أجل.

- فهمت، فهمت..

وسأل الشيخ سعدو:

- ومن يمثل الإنكليز؟ .

فأجاب قاسم:

- الذين ينادون بالتخلص من الحكم الحالي.

- ومن هم؟

- اعفني من ذكر الأسماء، وقريباً يتكشف لكم كل شيء.

وفجأة قال أبو دياب الذي بقي صامتاً طوال الوقت:

- إذاً، فالخاسر في هذا الصراع لن يكون سوى الشعب.

وتمتم الشيخ سعدو وهو يهز رأسه موافقاً:

- الحق هو ما تقول، لن تفيد المظاهرات في هذا الظرف غير أنها ربما أفادت في إرجاع ثمن الخبز إلى ما كان عليه سابقاً.

وقال أبو دياب:

- هراء.. ماذا ستفعل الحجارة مع كل هذه الجيوش، إنها لن تكون إلا مجزرة.. مجزرة وحشية، لأن الحرب ما زالت قائمة، وبلادنا قاعدة مهمَّة للجيوش الحليفة.

وعقَّب الشيخ سعدو على كلام أبي دياب:

- الحقيقة أن الإضراب إذا تجاوز الغرض الذي قام من أجله فقد يدمرون البلد، وقد يكون..

فقاطعه قاسم محتداً وهو يقول:

- إنني ما زلت مصراً على أن الإضراب سيكون سبباً مباشراً لقضايا سياسية أخرى، ولا يجب أن ننسى كيف كنا نقوم قبل الحرب بمظاهرات لأسباب تافهة فلا تلبث حتى تتحول إلى مظاهرات دامية، تطالب بطرد المستعمر من البلاد فماذا كان يحدث بعد ذلك؟ كانت تذهب حكومة لتأتي غيرها أكثر ولاءً للمستعمر أو أكثر اعتدالاً من التي سبقتها وهكذا دواليك، والشعب يقدم دماءه دوماً على مذبح حريته.

فقال المختار:

- ذاك الظرف يختلف عن هذا.

وقال أبو دياب مصمماً:

- على كل لن أرسل ابني غداً إلى المدرسة.

وقال قاسم باحتداد:

- لو أن كل أب يفعل مثلك لماتت في البلاد الروح الوطنية، وما وقود الروح الوطنية في النفوس سوى أحداثٍ كهذه، تبدأ صغيرة ثم تأخذ في التضخم حتى تجرف في طريقها كل فاسد.

ووافق الشيخ سعدو والمختار على كلامه، ولما وجد أبو دياب نفسه قد أخطأ في رأيه قال:

- سأدع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي ولن أحول بين ابني وما يبغي حول هذا الموضوع.

وعقب الشيخ سعدو:

- إن مثل هذه الحوادث تفتح أمام جميع الطلبة آفاقاً للتفكير في قضايا الوطن، هذا إلى جانب دور المعلمين المهمّ الذي يقوم بالدرجة الأولى على تغذية الروح الوطنية وإلى تنبيه الطلبة إلى الأخطار التي تحيق بالوطن والتي تكمن وراء كل حادث.

وأمّن الجميع على كلام الشيخ سعدو ثم ساد بينهم الصمت قليلاً إلى أن قطعه أبو دياب مغيراً مجرى الحديث:

- لم يأتِ جابي المالية الذي حدثتنا عنه قبل يومين..

فتبسم المختار وهو يحكُّ صلعته ثم قال:

- ادع للإمام الذي ذهب بنفسه إلى مديرية المالية واستطاع أن يؤجل تحصيل الذمم حتى أول الشهر.

وقال الإمام عندما وجد رفاقه يحملقون فيه بتساؤل:

- هذا صحيح.. ورجائي أن يكون سكان الحي عند حسن ظن المسؤولين كي تنفع شفاعتنا عندهم دائماً، ولا حجة لديهم فالجميع من عامل وموظف يقبض في أول الشهر.

وضحك قاسم وهو يقول:

- جميع الموظفين سيقبضون رواتبهم ناقصة هذا الشهر وكذلك العمال والمستخدمون.

وسأل الشيخ سعدو:

- ولماذا ؟ .

- لقد فرضت الحكومة ضريبة جديدة يسري مفعولها ابتداء من أول الشهر القادم.

وتساءل المختار وأبو دياب معاً:

- ضريبة جديدة ؟!!.

فأجاب قاسم:

- أجل وأطلقوا عليها اسم ضريبة دخل الرواتب والأجور.. وملخصها أن كل موظف ومستخدم وعامل ستُقتطع من راتبه ضريبة تتناسب مع تمتعه بالراتب الذي يتقاضاه.

فصاح المختار مدهوشاً:

- ولم كل هذه الضرائب ؟ .

- كي يسدِّدوا بها رواتب الموظفين وشؤون الدولة والالتزامات الأخرى التي تربط البلاد بالحلفاء.

- وما هي هذه الالتزامات ؟ .

- إنها غير محدودة، كنفقات الجيوش الحليفة، وقضايا التموين وغير ذلك مما لا أعرفه.

وبغتة قال أبو دياب مغيراً دفة الحديث وموجهاً كلامه للمختار:

- أتعلم يا صالح بأن معلمي سيفصلني عن العمل بدءاً من أول الشهر.

فصاح المختار ونربيش نرجيلته معلقاً بين أسنانه:

- ولماذا ؟ .

- قال إني أصبحت عاجزاً عن العمل نظراً للمرض الملم بساقي.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

قالها الشيخ سعدو بدهشة ثم أردف:

- وماذا ستفعل؟! .

فقال أبو دياب مستسلماً:

- ليس لي سواكما، أنت والمختار.. أرجوكما بل أتوسل إليكما أن تدبرا الأمر معه، أو أن تجدا لي عملاً على الأقل أسد به رمق أسرتي، وثقا بأني لن أنسى صنيعكما مدى الحياة.

فرد الشيخ سعدو:

- اتكل على الله، سنرى ما نستطيع أن نفعل من أجلك.

وعندما انصرفوا من المقهى في تلك الليلة كرر أبو دياب رجاءه بينما كان الشيخ سعدو يقول له:

- ضع أملك في الخالق عز وجل، فهو القادر على كل شيء.

- ٥ -

نهضت سميرة كعادتها كل صباح، بعد أن تبادلت النظرات مطولاً مع جارها الذي انصرف إلى عمله وأخذت تفكر في الورقة المطوية التي كان يلوح لها بها وتساءلت بينها وبين نفسها:

- أتكون رسالة؟ .

ثم هزَّت رأسها وأردفت تحدث نفسها " أجل إنها رسالة، لا يمكن أن تكون غير ذلك، وفكرت قليلاً... إنها لم تحدثه قبلاً ولم ترد على تحياته إلا في الفترة الأخيرة، ولم تقابله قبلاً، وهي فعلاً لا تجسر على ذلك، ولا تستطيع أن ترد على تحيته في الطريق خوفاً من أن يراها سكان الحي فيتندرون بسيرتها، وسرعان ما يمرغون اسمها في الأوحال، وهي لن تأخذ منه شيئاً في الطريق، اللهم إلا إذا وجد وسيلة لا ينتبه إليها أحد.. وارتاحت إلى هذا الخاطر، فجلست وراء النافذة، ترقب النهر الجائع إلى المياه، وترمق السابلة القلائل بعين حذرة، وصورة جارها سعيد لا تفارق مخيلتها، إلى أن سمعت أمها تناديها كعادتها لتشرب الشاي ".

كانت أمها تشرب الشاي وحدها، ولم تجد أباها في الغرفة، وعجبت لخروجه مبكراً، وتملكها العجب أكثر لأنها لم تره من نافذتها وهو يخرج، وسيطر عليها إحساس بالخوف من أن يكون قد لمحها وهي تتبادل الابتسامات والتحيات مع سعيد دون أن تنتبه إليه، وسألت أمها مستفهمة:

- أين أبي؟ .

فأجابتها وهي تتمطى بتكاسل:

- لقد خرج مبكراً.. ادَّعى بأنه سيستلم عملاً اليوم.

فهتفت سميرة بفرح:

- أحقاً؟.

- هل صدَّقت بسرعة هذا الهراء، إنه لن يجد عملاً.

ثم أردفت عندما رأت ابنتها تفتح عينيها بدهشة:

- لا تنظري هكذا كالبلهاء، كل هذا حجة كي يجتمع برفاق المقهى منذ الصباح.

وصمتت سميرة وأخذت ترتشف الشاي بهدوء، وترقب أمها التي كانت تتقلب على السرير ثم قالت:

- سألت عنك يوم أمس جارتنا فوزية.

- ماذا تريد؟.

- لا أدري، قالت إنها جاءت لتزورك فقط.

- ها.. ألم تقل شيئاً؟.

- بلى، سألتني عن عملك.

- وبماذا أجبتها؟ .

فهزَّت سميرة رأسها نفياً بينما أردفت الأم:

- دعيني منها، سأحاول أن أنام قليلاً، وإذا جاء أحد لزيارتنا فأنا لست موجودة، اللهم إلا فوزية.

وصمتت قليلاً ثم قالت:

- لقد كان عملي يوم أمس شاقاً، غسيل وتعزيل ومسح بللور.

وخرجت سميرة دون أن تتفوه بكلمة وأغلقت الباب خلفها بهدوء كعادتها، وانصرفت إلى غرفتها لتخلو إلى نفسها.

كانت الورقة المطوية تشغل قلبها ونفسها وتفكيرها، ترى ماذا تحتوي؟ وعمَّ يحدِّثها هل هناك شيء آخر غير الحبِّ؟؟!..

وحاولت أن تفتش بين أفكارها عن شيء آخر يمكنه أن يحدثها عنه، ولكنها لم تجد سوى الحب الذي يملأ عليها قلبها ومشاعرها وحياتها..

وفكَّرت قليلاً.. ترى ألم تنسَ القراءة طوال هذه المدة التي انقطعت فيها عن المدرسة.. وقفزت من مكانها واندفعت في كل ركن تفتش عن كتبها المدرسية فلم تعثر على شيء، وانتابها القلق. وهرعت إلى سقيفة المطبخ

الصغيرة، ثم إلى غرفة الزوار، وهي تفتش برغبة جارفة دون جدوى، ولم يبق أمامها سوى غرفة والديها، ماذا تفعل، هل توقظ أمها، أم ترجئ ذلك إلى ما بعد؟ وانتابتها الحيرة... لقد تركت المدرسة بعد رسوبها بالصف الثالث، ومنذ ذلك الحين لم تمسك بيدها كتاباً أو جريدة كي تحافظ على المستوى الذي وصلت إليه.

نظرت إلى غرفة أمها طويلاً، ثم اقتربت من باب الغرفة وفتحته بحذر، ودخلت على رؤوس أصابعها.. كانت أمها مستغرقة في النوم، وقبل أن تبدأ بحثها في أرضية نوافذ الغرفة اختلست نظرات سريعة نحو أمها ثم شرعت تفتش بحذر وعندما لم تعثر على شيء توجهت نحو الخزانة فعالجتها قليلاً، دون أن تأبه للصرير الذي انبعث منها، وحبست نفسها وتيبست في وقفتها عندما تحركت أمها في فراشها وتقلبت قليلاً، ومن ثم فتحت باب الخزانة بحذر، وفتشت في أرجائها بسرعة فلم تعثر على أي كتاب فيها، ورأت محفظة أمها، ولم تدر ما الذي دفعها لأن تفتحها، وندّ عنها صيحة دهشة رغماً عنها، فقد كانت المحفظة تحتوي على مبلغ كبير من المال، لم تر مثله في حياتها كلها، وأُغلق عليها الفهم، واندفعت إلى ذهنها المشاحنة التي جرت بين أمها وأبيها، والتي أدت إلى شجارهما بسبب عملها الغريب الذي تزاوله في الليل.

وأيقظتها أمها من تساؤلها حين أخذت تتحرك من جديد في فراشها، فتركت المحفظة وأغلقت الخزانة، وهي تنظر نحو أمها المستغرقة في النوم نظرات غريبة، ثم هرعت إلى باحة الدار وقد انتابها صراع عنيف.. من أين لها هذا المبلغ؟ إن أباها لم يملك مثله طوال حياته، ونسيت كل شيء عن كتبها المدرسية، فجلست عند الدرج ترمق غرفة والديها، وقد هالتها الفكرة السوداء التي جثمت على رأسها تأبى تحولاً. وفكرت في أبيها! ترى ماذا يفعل لو شاهد هذا المبلغ بنفسه؟!، ألا يفكر مثلها؟! ألا يسأل أمها من أين أتت بكل هذا المال؟! إن الريبة وجدت سبيلها إلى قلبه في كنه العمل الذي تزاوله، ولكنه لم يعثر على

دليل يدينها، أو أنه أغلق عينيه وتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً، إنها تسمع كثيراً عن جرائم ارتكبت من أجل الشرف وهي لا تريد لأمها هذا المصير ولا تعتقد أيضاً بأن أباها يرضى بأن يصبح شرفه مضغة في الأفواه.

وأحسَّت بالضعة فجأة، وودت لو تدخل على أمها وتذبحها، ولكنها لم تأنس من نفسها الشجاعة ولعلها اطمأنت إلى أن المال ربما كان أمانة عند أمها غير أنها ما لبثت أن طردت عن نفسها هذا الخاطر حين تساءلت: ترى من يضع مبلغاً كبيراً كهذا أمانة عند أحد من الناس في مثل هذه الظروف؟!.

وشعرت حين أخذت في طهو الطعام بأن كل شيء في البيت دنس حقير، وتدفقت الدموع من عينيها ثم أخذت تبكي بصوت منخفض حين جالت صورة سعيد في مخيلتها وهو يلوح لها برسالته المطوية، وعندما هدأت نفسها صعدت إلى غرفتها وقد وطدت العزم على أن تتعقب أمها حين تخرج من البيت لتكتشف حقيقة العمل الذي تزاوله.

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بقليل حين غادرت الأم البيت، ولم تمض دقائق على ذهابها حتى غادرت سميرة البيت لاحقة بأمها على مسافة بعيدة، وكانت الأم تسير بخطى عادية حتى إذا وصلت إلى مصلبة العمارة، عند تقاطع الشوارع تجنبت المرور من أمام المقهى، ثم سارت باتجاه ساحة الشهداء. وابنتها تلاحقها ببطء على مسافة غدت نوعاً ما قريبة، وكانت الأم تتلكأ أمام بعض الباعة، فتتفحص البضاعة قليلاً ثم لا تلبث حتى تواصل سيرها ببطء كأنها ليست في عجلة من أمرها، وكان الشارع الممتد على طول خط الحافلات في أوج صخبه، وحركة السير تدعو إلى اليأس، وخاصة عند المفرق المؤدي إلى سوق الهال، وكانت الحافلات لا تنقطع عن ضرب الجرس لتنبيه المارة من خطر الدهس، والشاحنات الكبيرة تطلق نفيرها، وصياح الباعة يختلط مع صرير الحافلات ونفير السيارات وصفارات شرطة المرور فيتكوَّن منها جميعاً خليط عجيب من الضوضاء.

وتملَّكت سميرة الدهشة من الزحام، وبدا ذلك غريباً عليها وهي التي اعتادت أن تلازم البيت ولا تتجاوز الحي إلا إذا خرجت في شأن من شؤونها، وخشيت أن تفلت أمها من مراقبتها وسط الزحام فسارعت في خطواتها وركزت نظراتها على ظهر أمها، ولم تكترث لتعثرها مرتين متتاليتين كما أنها لم تعبأ بالذين صاحوا حين تعثرت وتلقت ركبتها الأرض:

- الله.. الله يجيرك يا ست.

ولم تهتم لألم ركبتها، كان يهمها فقط ألا تغيب أمها عن عينيها.. واجتازت نهاية الشارع وأصوات الباعة ترن في أذنيها، ونهرها حوذي صائحاً:

- روحي من الدرب يا حرمة.

وسمعت صبياً يغني أغنية قديمة لفريد الأطرش اعتادت أن تسمعها من مذياع بيت الجيران، قبل أن تشرف على ساحة الشهداء.

وارتاحت نفسها حين وجدتها أقل زحمة من الشارع الذي كانت فيه قبل قليل، فزفرت زفرة قوية وتنهدت، ثم تبعت أمها التي كانت قد وقفت في تلك اللحظة عند الساعة الكبيرة تنتظر مع بعض المارة الحافلة المسرعة القادمة من على ضفة نهر بردى، وما كادت الأم تصعد الحافلة برشاقة حتى هرعت سميرة بدورها نحو الحافلة، وكادت تهم بالركوب حين سمعت صوتاً يناديها:

- سميرة.. سميرة.

وتلفتت لترى من يناديها، ثم وقفت مذهولة.. كان سعيد ابن الجيران يقف غير بعيد عنها وثيابه مغبرة، ووجهه طافح بالبشر، وقد حمل في يده صرة.

وأدارت له ظهرها، وقد انتابها خوف غريب لذيذ جديد عليها، وتعلقت نظراتها بالحافلة التي كانت قد أتمت دورتها ووقفت من جديد عند الجهة المقابلة أمام العدلية، ورفعت نصف الغطاء الأسود عن وجهها لترى وجهة سير الحافلة، فقرأت على الحافلة كلمة (المهاجرين) وعند ذاك أرخت غطاءها وهمَّت بلحاق الحافلة قبل أن تسير، غير أنها سمعت سعيداً يناديها من جديد متعجباً:

- سميرة.. سميرة..

فجمدت في وقفتها، وأحست بقلبها يتوقف عن الحركة، وشعرت به واقفاً خلفها تماماً وأنفاسه تلفح رقبتها، فاحتارت في أمرها، وأي السبل تسلك، وتناهى إليها صوت زمارة جابي الحافلة، ثم تابعت بنظراتها الحافلة وهي تنطلق مسرعة في الطريق الذي أتت منه، وهي تحدث ضجيجاً وقعقعة ذكراها بطفولتها عندما كانت تذهب إلى المدرسة، وأدركت أخيراً بأنها أضحت وحيدة في الساحة، رغم الزحام العادي الذي كان يملؤها، وإنها واقفة إلى جوار سعيد الذي تحبه، والذي لم يسبق لها أن حدثته قبلاً، وأنست من نفسها الشجاعة حين تبينت أنها بعيدة عن عيون سكان الحي، وحبست أنفاسها منتظرة أن تسمع صوته مرة أخرى، ولم يخب ظنها إذ سرعان ما استأنف هتافه الهامس:

- سميرة.. سميرة. أنا سعيد.. سعيد..

التفتت نحوه وغضت طرْفَها حياءً، ولمحت بنظرة سريعة الفرح العظيم الذي كان يغمره والذي بدا في حركاته، واحتارت في أمرها ثم ما لبثت حتى سارت بدلّ واسترخاء في الطريق الذي جذبها إليه برفق، وهو يسألها:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟.

كانت تتوقَّع هذا السؤال، ولا تريد الإجابة عليه، فقالت وهي تباطئ في خطواتها:

- لمن هذا البناء الفخم؟ .

فضحك وقال:

- أتتجاهلين أنها السرايا.

- السرايا؟!.

- أجل هنا مقرُّ الوزراء والموظفين..

واستندت على حاجز النهر الحجري وقالت:

- انظر نهر بردى، يبدو هنا أكثر جمالاً.. أليس كذلك؟.

- كذلك يبدو في حيِّنا الذي يخترقه..

- لا.. إنه يصل إلى حيِّنا جافاً.. اللهم إلا من الأقذار.

- تطلَّعي هناك.. إلى تلك الفجوات، إنَّ مياهه تتوزَّع منها على عدد من الأقنية، بينما هو يتابع سيره فيخترق كلَّ الأحياء التي تسبق حيَّنا والأحياء الأخرى التي تأتي بعده حتَّى يفيضَ في البساتين.

- إنَّه لا يبدو سيئاً وقبيحاً كما هو الحال في حيِّنا..

- عين الحكومة ساهرة هنا على تنظيفه والعناية به، لأنه يقع في قلب المدينة.

فقالت سميرة مغيرة الحديث:

- آن أوان عودتي إلى البيت.

- أبمثل هذه السرعة؟!.

- يجب أن أعود قبل عودة أبي.

- أأستطيع أن أقابلك غداً؟..

- لا.. أبداً.

- ولماذا؟ سنكون هنا بعيدين، وفي غفلة من العيون، وقد نذهب إلى السينما إذا جئت مبكرة أو نتجول في الشارع الجديد الذي يعملون على شقه قرب المقبرة الفرنسية.

- السينما.. أبداً لا أستطيع، وأنا لا أدخلها إلا في الأعياد.

- إذاً، سنتجوَّل في الشارع الجديد، ولن يرانا أحد هناك على الإطلاق.

- لن أستطيع مقابلتك أبداً، وأنت نفسك يجب ألّا تحبِّذ لقائي، ولنترك ذلك إلى المصادفات.

- ولماذا.. لماذا طالما أحبك... وتحبينني...؟!

واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة كحمرة الشفق عندما يتوارى إثر مغيب الشمس، وارتبكت وحاولت رغم المنديل الذي يحجب وجهها أن تخفي سرورها واضطرابها فلم تستطع.. وبعد صمت قصير، سألها وكانا قد عادا الهوينى باتجاه جسر فيكتوريا:

- ماذا تشتغل؟!.

- فاعل عند الإنكليز.. وأنتهي من عملي كل يوم في الساعة الرابعة تقريباً.

ثم أردف بعد قليل:

- هل أراك غداً هنا في مثل هذا الوقت؟؟ .

فتلكأت في الإجابة وحاولت التخلص فلم تفلح، وتذكرت أمها فاعتراها ألم وصاحت دون أن تعرف سبباً لصياحها:

- لا.. لا أستطيع.. لا أستطيع...

ونظرت إليه.. كان جامد الوجه، زائغ النظرات، حاول أن يتكلم فارتجفت شفتاه دون أن يقوى على النطق، كان يشعر أنه فقد كرامته، ومع هذا أعاد رجاءه بصوت خافت:

- ليكن، إذاً، بعد غد إذا كنت لا تستطيعين غداً.

ورقَّت نظراتها ودنت إليه من وراء منديلها الأسود هامسة:

- ليكن بعد غد بعيداً عن هنا..

وأشارت بإصبعها نحو الجسر ثم قالت:

- سألقاك هناك.

وكانا خلال الحديث قد أتما سيرهما عائدين من حيث أتيا، وقاربا الوصول من موقف الحافلات وعند ذلك قال سعيد مداعباً:

- سأنتظرك هنا منذ الآن.

وضحكت برقة وهي تحاول الابتعاد عنه، غير أنه لحق بها وأخرج من عبِّه ورقة مطوية وهو يقول:

- هذه الرسالة لك، لقد نسيت أن أضعها في مظروف.

وأخذت الرسالة بتمنع ثم أخفتها في صدرها، وأسرعت في سيرها حتى غابت عن نظراته وقد ابتلعتها زحمة المساء.

اختلت سميرة بعد عودتها مباشرة في غرفتها، فارتدت منامتها على عجل، وأخرجت رسالة سعيد وحاولت أن تقرأ فلم تستطع، كان الخط رديئاً، وركاكتها في القراءة حالت بينها وبين فك رموزها، إلا أنها استطاعت قراءة العبارة الأولى بسهولة لأنها تبينت فيها اسمها، وتخيلته يهمس في أذنها:

عزيزتي سميرة....

وأحسَّت برجفة لذيذة تسري في كل كيانها فعكفت على الأسطر القلائل تحاول فك طلاسمها من جديد إلى أن تبينت فيها ما يلي:

عندما أستيقظ في الصباح على وجهك المنير يا سميرة، وهو يطل عليَّ من النافذة، أستبشر به الخير، وأعرف بأن يومي كله خير ورزق كريم..

وتوقفت نهائياً بعد هذه الجملة، ولم تستطع وسائلها التي عرفتها في المدرسة من فك ما تبقى من العبارات القليلة المتبقية في الرسالة..

وأطفأت أخيراً النور وجلست على كرسي صغير خلف النافذة ترقب من الظلمة القابعة فيها نافذة الغرفة المقابلة.

كانت تبدو سعيدة، وهي تسترجع في ذاكرتها المقابلة المفاجئة التي جرت بينها وبين من تهوى، وكانت تسترد نفسها من خيالها كلما سمعت خطوات في الشارع، وكلها لهفة في أن يكون القادم فتى أحلامها، حتى إذا تبينت في القادم رجلاً آخر من سكان الحي عادت إلى الحادث تجتره ببطء وهي تحاول جاهدة أن تبعد عن ذهنها صورة أمها وهي تركب الحافلة.

وتناهى إليها نقيق الضفادع، فمدَّت رأسها من النافذة تحاول جاهدة وهي ترمق مياه النهر المتباطئة أن تتعرف على أمكنة تلك الحيوانات الصغيرة التي

لا يخطر لها الشدو إلا في الظلام حتى إذا تعبت في البحث والتنقيب، وزخمت أنفها رائحة النهر الزنخة، نظرت إلى أنوار الطريق الزرقاء الباهتة ثم ارتدت إلى مقعدها، ونقيق الضفادع الرتيب يدوي في أذنيها.

وفكَّرت في سعيد قليلاً ثم في رسالته، فعلَت وجهها ابتسامة سعيدة تبددت حين تذكرت أمها من جديد، ولا تدري ما الذي جعلها تجد ذلك الشبه بين نقيق الضفادع وأمها، ولعل شدو الضفدع في الليل واختفاءه في النهار هو الذي حدا بها لأن تجد ذلك التشابه بين أمها التي تنام نهاراً وتعمل ليلاً. وتساءلت:

- ترى..! أي عمل تزاوله أمها؟! .

وحاولت أن تبعد الفكرة عن رأسها، ولكن صورة المال الذي رأته في المحفظة جعلتها تتساءل أيضاً: أيوجد عمل يدر مثل هذا المال إلا ذلك العمل الشائن الذي تسمع به؟ !.

وأخلدت إلى نفسها، وأغمضت عينيها، وكأنها تبتهل إلى الله أن يكون ظنها خاطئاً.. وحاولت أن تبعد صورة أمها عن خاطرها وأن تهرب من هواجسها، فعادت إلى التطلع نحو النهر، ورأت عند الجسر الخشبي صبياً عرفت فيه أحمد ابن جيرانهم، واختفى فجأة نقيق الضفادع فأدركت أن الفتى ضرب حجراً في المياه ليسكنها، ولمحت من بعيد شخصاً قادماً تبيَّنت فيه والدها، فأغلقت النافذة واستكانت خلفها حتى سمعت صرير الباب وهو يفتح ويغلق بعد قليل بعنف، ثم سمعت صوت أبيها يصرخ عليها منادياً. فترددت قليلاً وهي تتسمع إلى النداء، ثم تمددت في فراشها بعد أن قررت بينها وبين نفسها ألا ترد على ندائه.

وتكرَّر صياح الأب وهي قابعة في فراشها، حتى هدأ فأدركت أن أباها أيقن أن ابنته نائمة، وما كادت تتأكد من دخول أبيها غرفته حتى عادت إلى فتح النافذة وكانت السماء قد بدأت تمطر قليلاً، إلا أنها لم تعبأ بها حين رأت النور في غرفة سعيد، وهمَّت أن تشعل نور غرفتها بدورها لتنبهه إلى وجودها ولكنها أحجمت خوفاً من أن يشعر بها أبوها فيعود إلى صياحه.

وانتظرت خلف النافذة قليلاً وقد أخذت الأمطار تهطل بغزارة ووجدت زخات من المطر طريقاً إليها عبر النافذة فشرعت تضرب بين الحين والآخر رأس سميرة وجسدها متسربة من خلال منامتها الرقيقة، وهي تأمل أن يطل سعيد عليها كعادته، ولكنه لم يفعل كما توقعت إلا عندما هدأت الأمطار وفوجئ بها واقفة في فراغ نافذتها، فأسرع إلى النور يطفئه وجلس بدوره خلف النافذة ينظر ويشير إليها في الظلمة إشارات غامضة لم تفهم منها شيئاً.

ولبث العاشقان إلى ما بعد منتصف الليل وهما ساهران يرقبان بعضهما بعضاً ويتمتعان في الوقت نفسه رغم برودة الليل الحزينة بمنظر مياه النهر وهي ترتفع جارفة معها الأوساخ وكل العوائق الأخرى الموجودة فيه، وعندما سمعت سميرة صوت خطوات آتية من بعيد مدَّت رأسها جيداً وعلى ضوء مصباح الطريق الأزرق الشاحب اكتشفت شبح أمها فانتابها رعب لم تدرك كنهه، أهو خوفها من أن يكتشف سعيد بأن القادمة هي أمها أم خشيتها أن تعرف أمها شيئاً عن حبها لسعيد؟..

واحتارت في أمرها، ولم تجد نفسها إلا وقد لوحت بيدها لسعيد مودعة ثم انفلتت إلى الداخل بعد أن أغلقت النافذة وأخذت ترقب سعيداً دون أن يراها، ولبث هذا واقفاً برهة ولم يغلق نافذته إلا حين سمعت صرير الباب يفتح للمرة الثانية ثم انصفاقه معلناً قدوم أمها.

ترى بماذا تجيب سعيداً إذا هو سألها عن عودة أمها المتأخرة.. ألا يساوره الشك بدوره في كنه العمل الذي تزاوله إن استفسر عن ذلك!!.

وودَّت لو تعرف الحقيقة في تلك اللحظة لتعرف كيف تجيبه عندما يسألها، وشرد تفكيرها لحظة ثم تساءلت: أنا لم أعده باللقاء، ولست مرغمة على ذلك، ثم ما هي الصلة التي تربط بيني وبينه كي أجتمع به غداً.. وهتف هاتف في داخلها: إذاً، لِمَ تنتظرينه كل صباح ومساء عند النافذة؟ إن السبب الذي يدعوك إلى ذلك هو السبب نفسه الذي يدعوك إلى مقابلته بعد غد.. إنه الحبُّ..

وأحسَّت بقلبها يخفق خفقاناً سريعاً، ووجدت نفسها في زحمة من الأفكار تتدافع عليها مرة واحدة، وتتوزعها بين حبها لجارها، وبين حقيقة العمل الذي تقوم به أمها، ولم تجد نفسها إلا وقد غرقت في بكاء صامت، وكما يفعل صغار الأطفال حين يطعنون في مقدساتهم، وجدت في وسادتها اليابسة ملجأ تخفي فيه ما يعتلج في نفسها.

وتوقفت بغتة عن بكائها، وجلست في فراشها، وأصاخت السمع، فتبينت بعد لأي أن شجاراً ناشباً بين أمها وأبيها، فضربت الغطاء بقدميها ونهضت لتقف عند قمة الدرج.. أرهفت سمعها، ولما لم يصلها شيء من الشجار الدائر في الغرفة، هبطت السلم المبتل بماء المطر على رؤوس أصابعها ووقفت عند رأس باحة البيت لا تجسر على الاقتراب من غرفة أبويها خوفاً من أن يفاجئها أحدهما.

وأصاخت ترجو أن تسمع شيئاً ينير الأفكار التي تعصف بها فلم يصلها شيء يذكر، ودفعها الفضول إلى الاقتراب لتسمع جيداً الحوار الدائر بين أمها وأبيها وأحست بالبرودة تسري إلى جسدها من قدميها الغارقتين بمياه المطر المتجمعة قرب نافذة الغرفة فلم تعبأ، وجمعت بعضها أمام نافذة الغرفة دون أن تأتي بحركة تشعر بوجودها.. كان صوت أبيها يصلها ثابتاً قوياً وهو يقول:

- لن تذهبي غداً إلى عملك..

ولمحت أمها من النافذة تخلع ثيابها وتضعها كيفما اتفق على المقعد الوحيد وهي تقول:

- عندما تستلم عملك الذي نوَّهت عنه سأكفُّ عن العمل بكل تأكيد.

وقال الأب وهو يهزُّ رأسه ويدور بعينيه في أنحاء الغرفة:

- اسمعي يا سعدية.. المختار صالح وعدني أن أستلم عملاً خلال هذين اليومين وعلى هذا فلن تذهبي غداً إلى عملك..

نظرت سعدية إلى زوجها ثم قالت:

- هل أنت جادٌّ في ما تقول ؟..

- ولم لا، طالما سأشتغل؟.

- حسناً أنا معك سأستمر بعملي إلى أن تستلم العمل الذي وعدك به المختار.

- دعك من هذا، فأنت لن تذهبي، يعني لن تذهبي..

قالها بلهجة قاطعة جعلت قسمات سعدية تجمد قليلاً ثم تمالكت نفسها فضحكت وهي تقترب من زوجها وكانت في تلك اللحظة لا ترتدي شيئاً من ثيابها سوى القميص القصير الذي يكشف عن كل مفاتنها، وجلست في حضن زوجها وتناولت شفتيه بقبلة مجنونة طويلة وهي تقول:

- مضى وقت طويل على المرة الأخيرة التي قبلتني فيها..

وأدركت من العبارات الأخيرة بأن أمها تمكنت عن طريق الإغراء من فرض رغبتها على أبيها.. وشعرت بالتقزز فجأة وانقباض غريب يعتريها وبالإعياء يهدها.. كانت الحركات السعدانية التي يقوم بها أبواها في تلك اللحظة هي آخر ما كان يجول في خاطرها.. وفجأة سمعت أمها تصرخ صرخة مكتومة كلها غبطة ورأت الجسدين مكومين متهالكين فوق بعضهما دون حراك وهما يرتجفان مرتعشين.

لم تدرِ سميرة كم لبثت واقفة وهي ترقب أبويها، غير أنها عندما شاهدتهما قد أخذا في ارتداء ثيابهما ابتعدت عن النافذة قليلاً، ثم هرعت مهرولة على السلم تبغي غرفتها، وكادت تتعثر وهي تتجه في اضطرابها نحو سريرها، حتى إذا احتواها ورفعت الغطاء حتى نهاية رأسها، تزاحمت عليها الخواطر وعصف برأسها المشهد الذي اكتحلت به عيناها، والعبارات الأخيرة التي فاهت بها أمها.

ولم تدرِ كم بقيت على هذه الحالة وحين استردت نفسها أحست بأنها بحاجة إلى الهواء وشعرت وهي تفتح النافذة بأنها في حاجة ماسة إلى الضحك والبكاء معاً، ومع هذا تركت دموعها تتحدر على خديها بصمت ثم ألقت نظرة حزينة باكية نحو نافذة سعيد المظلمة، وارتفع نحيبها وهي ترمق مياه النهر الزاحفة نحو اللانهاية.

- ٦ -

يقع منزل المختار صالح في أول الحي، وصالح لم يكن في أول أمره مختاراً، إلا أنه منذ نعومة أظفاره لازم مختار المحلة واشتغل عنده أجيراً لقاء طعامه وكسائه، وحين ألحقت بالمختار أحياء أخرى رفض صالح وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره العمل دون أجر، واضطر المختار الذي بلغ من العمر أشده أن يدفع له أجرة من أرباحه التي كانت تأتيه عن طريق العرائض المختلفة. ويمكن القول إن المختار الحقيقي لتلك الأحياء كان صالح نفسه، ولعله أدرك في قرارة أعماقه بأن مصيره في النهاية أن يحل محل المختار المسن الذي يقترب من القبر بسرعة، وصحَّ ما توقعه صالح بعد عدد من السنين مرَّت عليه كالكابوس الثقيل، وكان ذلك بعد اندلاع الحرب بنحو عامين وخشي صالح أن تعين الحكومة بديلاً عن المختار الراحل فاقترح على الشيخ سعدو وبعض سكان الحي أن يدعموه ليتولى شؤونهم، فدار بعريضة كتبها بنفسه ووقعها مع الموقعين من سكان الحي وكان يقول لكل من يتلكأ عن التوقيع الذي تعرفه أحسن من الذي ستتعرف عليه.

وهكذا قدَّم العريضة بنفسه مع وفد يمثل الأحياء ولاحق القضية بهمة أسفرت في النهاية عن تعيينه مختاراً للحي وللأحياء المجاورة.

وكان المختار صالح ذكياً لا يتكلم إلا بمقدار، يأخذ أكثر مما يعطي ووضع بينه وبين نفسه ثمناً لكل ختم يختمه على عريضة ما. فعريضة فقر الحال كانت مجاناً للفقراء، ونصف ليرة سورية للميسورين، وطلب الزواج لا ينزل ثمنه للجميع عن الليرة الواحدة، واستغل ضائقة الخبز خير استغلال، فكان لا يعطي وثيقة (خبز الفقير) التي تعطي حاملها الحق بشراء الخبز بثمن منخفض قبل أن يقبض لنفسه ثمناً لها خمس ليرات على الأقل، وكذلك كانت الحال في وثائق قسائم السكر، الأرز، والمحروقات وما شابه ذلك. ومن هنا نشأت ثروته التي ضاعفها عن طريق استثمارها، فشارك صاحب المقهى وتعهَّد أن يقدِّم

عمَّالاً للجيش الإنكليزي، فكان يقبض عن كل عامل لقاء تعيينه مبلغاً يتراوح بين المئة والمئتي ليرة، واشترى عدداً من المنازل بمنطقة نائية كي لا تتفتح عليه عيون الحي، وإلى جانب ذلك كان يعرف كل كبيرة وصغيرة عن جميع السكان ويتظاهر بالقلة والمسكنة ولا يبخل على أحد فيما يطلب منه، والكل قانع راضٍ عنه وعن تسعيرته التي كان يسوس بها الناس جميعاً، وكان وحيداً عزباً يذهب إلى عمله وقت صلاة الصبح فيفتح دكانه الواقعة عند مصلبة العمارة التي اتخذها مركزاً له.

ومن يرى المقاعد الكثيرة المصفوفة داخل الدكان والطاولة المخلعة والمحبرة الجافة، وصالحاً الجالس وراء منضدته يحسب أن المختار عاكف على حل مشاكل الحي بينما هو في الحقيقة عاكف على حل قضاياه الخاصة، وحين ينتهي من ذلك يذهب إلى المقهى ليحل فيه قضايا سكان الحي على أنغام أركيلته الخاصة، فيبصم العرائض التي لا تكاد تنقطع.. وأما أصدقاؤه الخلص، فقد اختارهم بعناية، منهم الشيخ سعدو، والعامل قاسم، وأبو دياب، فيجتمع إليهم كل أمسية حتى ينقضي الشطر الأول من الليل ثم ينصرف برفقتهم، فيعود إلى بيته ولا يخرج منه إلا عند صلاة الصبح.

وكان بحكم مهنته كثير الاحتكاك بنساء الحي حذراً في معاملته لهن لا يغوي منهن إلا التي يلمس عندها الاستعداد لتقبل مغازلاته فيستقبلهن في بيت آخر يملكه بعيداً عن الحي كي لا يثير الشبهات، وكان يقدِّر جمال من تقع في حبائله بثمن يتناسب مع قيمة الجمال، شأنه في ذلك شأنه في سائر العرائض والمعاملات التي تمر عليه.

على هذه الوتيرة التي يغطيها مظهر من الهدوء والأمانة والتقوى، كانت حياة المختار صالح تسير أو بالأحرى كان يكيفها كما يريد ويشتهي.

اتجه صالح عقب صلاة العشاء كعادته إلى المقهى وجلس في الركن الذي اعتاد الجلوس فيه وأخذ يقرقر بنرجيلته منتظراً صحبه، وسرعان ما أقبل الشيخ

سعدو وبرفقته قاسم فانضما إلى المختار وأخذوا يرشفون الشاي ويتندرون بشتى الأحاديث ثم وفد عليهم علي الحجار فجلس بعد إلحاح وهو يدور بعينيه إلى أن سأله الشيخ سعدو:

- ماذا تعمل في هذه الأيام يا أخ علي..

فتنهَّد علي الحجار وقال:

- ما زلت عاطلاً عن العمل.. واليوم حاولت العمل من جديد في (الورشة) التي يعمل فيها قاسم ولكني لم أستطع، فقد شعرت بالتعب يشل مفاصلي، وظننت بادئ ذي بدء بأن هذا يعود إلى انقطاعي عن العمل زمناً طويلًا، فاسترحت قليلًا ثم عاودت العمل غير أن الألم ما لبث أن عاد متسرباً إلى ظهري بصورة أقوى ذكرني بالآلام التي أصابتني حين وقعت من البناء الذي كنت أعيش فيه.

وظهرت على وجهه أمارات الألم ثم أردف:

- كنت أودُّ أن أريح امرأتي من العمل الذي تزاوله، ولكن كما يبدو لا حيلة لي في الأمر.

ولمعت عينا المختار، وأزاح النرجيلة عن فمه وسأل:

- وماذا تشتغل؟! .

- تعمل في تنظيف البيوت وغسل الملابس وما شابه ذلك.

وقال قاسم موجهاً حديثه للمختار:

- ألا يمكنك يا صالح أن تؤمن له عملاً عند الإنكليز..

فأجاب المختار مفحماً قاسم:

- إنَّ العمل عند هؤلاء يتطلب جهداً، وألم ظهره لا يساعده على ذلك.

فقال الشيخ سعدو:

- أليس بالإمكان أن تدبِّر له عملاً لا يتطلب جهداً كبيراً..

وقال قاسم مؤكداً:

- أنت تستطيع ذلك دون شك..

وغرق المختار في موجة من التفكير، وران الصمت على الآخرين الذين كانوا ينظرون إليه مستفسرين.. كان المختار يفكر في زوجة علي الحجار، ويقدر جمالها في الوقت نفسه.. كان يشتهيها منذ أمد بعيد، ويسمع عنها حكايات كثيرة لم يتحقق منها، ومع هذا فقد واتته الفرصة فلم لا يتأكد من ذلك بنفسه.. إنها تساوي أكثر بكثير من تعيين هذا الجلف عاملاً عند الإنكليز ولا مانع عنده إطلاقاً إذا رضيت أن تصبح عشيقته..

وتخيلها عارية أمام عينيه فجرض بريقه، وكاد يسترسل في خياله غير أنه تنبه إلى نفسه حين سمع الشيخ سعدو يرحب بأبي دياب بحماس.

والتفت المختار نحو أبي دياب، ورحب به بدوره ثم قال لعلي الحجار:

- راجعني غداً، سأرى إذا كنت أستطيع مساعدتك..

- الله يطول عمرك مختار صالح..

قالها علي الحجار، ووجهه يطفح بالأمل والشكر، ثم نهض مستأذناً وانصرف لينضم إلى رفاقه الذين كانوا يقامرون على منضدة نائية.

وقال الشيخ سعدو بعد انصرافه:

- تطلع إليه يا صالح، أنت وحدك تستطيع إنقاذه من هذا الداء.

وردَّ المختار وصورة زوجة علي الحجار ومشيتها المغناج تداعب أفكاره:

- لنتكل على الله، فهو وحده القدير على كل شيء..

ثم غيَّر مجرى الحديث سائلاً أبا دياب:

- أما زالت السماء تمطر؟! .

فأجاب أبو دياب:

- الله يبعث الخير.. لم تنقطع منذ البارحة.

وسأله الشيخ سعدو:

- كيف ابنتك أمينة اليوم..

- الأعمار بيد الله.. إنها تزداد سوءاً ولا أدري ما أنا فاعل لأجلها.. لو كنت أملك مالاً لعرضتها على طبيب آخر يستطيع شفاءها.

وتوقف عن متابعة كلامه ليسأل من جديد:

- هل قابلتم معلمي؟! .

فأجاب الشيخ سعدو:

- لقد اتفقت مع صالح على الرواح لعنده غداً.

وصمت أبو دياب قليلاً ثم قال:

- زاد سعر الكيلو نصف قرش فقط.

وقال المختار:

- عندما وجدت المدينة هادئة اليوم، أدركت بأن تنفيذ البيع بالسعر الجديد سيكون يوم غد، لقد تبلغت الأمر بدوري قبل صلاة المغرب بقليل.

وقال الشيخ سعدو متأففاً وهو يرشف الشاي بصوت مسموع:

- يجب أن تنتهي هذه الحرب كي تعود الحياة سهلة طبيعية.

وقال المختار هامساً:

- بلغني أن (أبا علي) سيخطب خطاباً مهمّاً هذه الليلة، فما رأيكم لو نستمع إلى خطابه عندي في البيت.

فردَّ قاسم:

- ما فائدة الخطب.. الحرب غدت بالنسبة إليه يائسة وسيصبح محاصراً من كل الجهات.

وأجاب المختار:

- أنت واهم.. لا تدري من أمور الخدع الحربية شيئاً، غداً ترى الاختراعات العجيبة التي سيفاجئ بها الحلفاء.

وردَّ قاسم متحدِّياً بلهجة الاستفهام:

- ونزول الحلفاء في صقلية، ماذا تقول فيه؟!.

وقلب شفتيه بازدراء وقال:

- أفٍّ.. اسمعوا هذا اللغو..

واستفهم الشيخ سعدو بقوله:

- ماذا تعني يا صالح بأبي علي.

فنظر المختار فيما حوله متفحصاً ثم قال هامساً باحتراس:

- أتتجاهل أم أنك حقاً لا تعرف بأن الناس أطلقوا اسم (أبا علي) على الفوهرر؟.

- هتلر !.

- صه.. خافت من صوتك.

- (أبو علي) يعني هتلر..

- تماماً..

- ومتى أطلقت عليه هذه التسمية؟!.

- منذ دخول الجيوش الحليفة إلى بلادنا..

- ولماذا؟! .

- زيادة في الحرص وخوفاً من الاعتقالات.

وأردف المختار بعد قليل:

- أنت تعلم مقدار الحب الذي يكنُّه (أبو علي) لليهود وللحلفاء أيضاً، وعدو عدوك صديقك، ومن هذه النقطة بالذات نبع حب العرب له.

فقال قاسم مستنكراً:

- هتلر ليس بأحسن من هؤلاء.. الجميع طامع في بلادنا.. يريد أن يطرد الفرنسيين والإنكليز ليحلَّ محلهم.

فردَّ المختار بحماس:

- هذا غير صحيح.. غير صحيح إطلاقاً..

وأجاب قاسم بهدوء:

- لماذا يحارب إذاً طالما لا يريد استعمار العالم..

فقال المختار بسذاجة لا تتناسب والدهاء الذي يسوس به سكان المنطقة:

- لكي يعيد الحرية إلى الشعوب المغلوبة على أمرها وليخلص الدنيا من اليهود وشرورهم..

- أتتكلم جاداً أم هازلاً.!

- إني أناقشك كما ترى..

فقال قاسم بعد صمت قصير:

- إن هتلر يحارب أملاً في أن يضع يده على المستعمرات التي أضاعتها ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى وهو مستعد لأن يتوقف في اللحظة التي يتفاهم فيها مع الحلفاء على هذه القضايا. وصمت المختار في هذه المرة غير أنه أردف بعد قليل دون اقتناع:

- على كل سأستمع إلى خطابه فهلموا بنا.

واعتذر الشيخ سعدو بينما نهض قاسم وأبو دياب والمختار وانصرفوا من المقهى نحو بيت هذا الأخير. وقال قاسم حين غدوا في الطريق ورذاذ المطر الخفيف يداعب وجوههم:

- الموسم طيب هذه السنة، فالأمطار لم تنقطع طوال الشهور الثلاثة الماضية..

وردَّ المختار وهو يتأبَّط ذراع أبي دياب ليساعده في مشيته:

- الله يسمع منك، فخبز الناس يتوقف على ذلك..

وقال أبو دياب وهو يرفع ياقته جيداً، اتقاء الريح الخفيفة الباردة الآخذة بالنشاط :

- الله يبعث الخير.

وانتهوا أخيراً إلى بيت المختار وتحلقوا حول المذياع، بينما كان صالح يبعث الحياة فيه، ويحرك إبرته على إذاعة برلين. حتى إذا تم له ذلك غاب لحظات عن الغرفة ثم عاد يحمل بين يديه منقلاً نحاسياً أصفر اللون، أخذوا جميعاً يتدفؤون على ناره الخفيفة.

مضت ساعتان، وأوشك الليل على الانتصاف واختتمت إذاعة برلين برامجها وخطاب هتلر لم يذع على الناس. ونهض قاسم مع أبي دياب وودعا المختار، وخرجا إلى الطريق التي كانت هادئة إلا من صوت الأمطار التي دفعت القوة والحياة في أعطاف النهر الذي ارتفعت مياهه ارتفاعاً غير عادي.

وساعد قاسم أبا دياب في الوصول إلى بيته رغم الطريق التي امتلأت بالوحل والطين، ثم انصرف بدوره إلى منزله.

وأما المختار صالح فإنه ما كاد يأوي إلى فراشه، حتى أخذ يفكِّر بزوجة علي الحجَّار ويمنِّي النفس بوصالها، وهرب النوم من عينيه، فقام إلى النافذة يحدق منها رغم الظلام إلى مياه النهر وصورة سعدية تشغل كل عواطفه وأفكاره، وحين استسلم للنوم، كان صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الصبح.

- ٧ -

عندما دخل أبو دياب إلى بيته بعد أن ودَّع صديقه قاسماً في تلك الليلة، اعتقد أن جميع من في البيت قد أوى إلى فراشه، ولكنه ما كاد يرى النور مضاءً في غرفة الأولاد حتى تملكه العجب، وانتابته الهواجس، وقفز تفكيره إلى ابنته المريضة أمينة. وعندما ابتدرته زوجته من بعيد منادية . اطمأن نوعاً ما . واستفسر من بعيد وهو يعرج إلى الغرفة :

- خير إن شاء الله.. خير..

- كلنا بخير..

ودخل الغرفة وهو يسأل مستغرباً:

- لمَ لمْ تنامي إذاً؟! .

وأجابت الأم بعصبية:

- لقد سهرت حتى الآن لأشكو لك أحمد..

- وماذا فعل أحمد؟!

فقالت الأم مخاطبة ابنها:

- لا تتناوم.. قم وأجب أباك عن سبب تأخرك..

ثم التفتت نحو زوجها وأردفت وهي تساعده على خلع جلبابه:

- شرّف ابنك من الأزقة في الساعة العاشرة .

- ماذا تقولين؟!.

قال ذلك مستعجباً ثم صاح غاضباً:

- أحمد.. أحمد .

وردَّ عليه أحمد بصوت خائف ضعيف:

- نعم..

- تعالَ إلى هنا..

ونهض أحمد وهو يقول متلعثماً:

- كنت في اجتماع عند رفيق من مدرستنا..

- وظللت عنده حتى العاشرة..

- أجل..

وانهالت يد الأب بصفعتين متتاليتين وهو يصرخ:

- أنا ما عندي أولاد يتأخرون في الأزقة لأنصاف الليالي.. أجبني أين كنت؟! .

فقال أحمد ودموعه تنحدر على وجنتيه:

- قلت لك عند صديق لي من المدرسة..

- ما اسمه ؟..

- لا أعرف.. ولكنه في المدرسة معروف باسم (أبي زهير).

- رفيق لك ولا تعرف اسمه.. اسمع.. أنا لم أعهدك كذاباً فقل الحقيقة قبل أن أقذف بك إلى الطريق.

فقال أحمد بعد تفكير قصير:

- لقد انتخبت ممثلاً عن صفي في لجنة الإضراب..

فصاح الأب مرتاعاً:

- أنت انتخبت في لجنة الإضراب! .

فأجاب أحمد بقوة وثبات:

- أجل!! كل الصفوف في المدارس التجهيزية انتخبت ممثلين عنها ليؤلفوا لجنة الطلاب التي سيناط بها تقرير الإضراب أو عدم الإضراب.

وسأله أبوه مرتبكاً:

- أنت انتخبت في لجنة الإضراب؟! .

وهزَّ أحمد رأسه بالإيجاب دون أن ينبس بحرف.

وساد الصمت للحظات ثم تدفق الأب وقد ضاع صوابه:

- ألم أقل لك مئات المرات أن تبتعد عن الشغب، وعمَّا يسيء إليك عند أساتذتك ومدرِّسيك..

- بلى.. ولكنهم انتخبوني، واضطررت للاجتماع في بيت زميل من المنتخبين الأمر الذي أخرني عن العودة إلى البيت كعادتي.

وبلغ اضطراب أبي دياب الأوج واحتار ما يفعل ولم يجد أمامه سوى الاستفهام سبيلاً:

- ولماذا اجتمعتم؟!.

- سيرتفع ثمن الخبز بدءاً من صباح الغد ولهذا تداعت لجنة الإضراب للاجتماع لتدرس موقف الطلاب من هذا الأمر..

- وما موقف الأساتذة والمدير !؟ .

- إنهم يشجعون بوسائلهم الخاصة..

- ولكن.. ولكن لماذا؟ لماذا يشجعونكم؟.

- إن أساتذتنا لا يتركون درساً يمرُّ دون أن يثيروا ويذكوا الروح الوطنية في نفوسنا، وهم بعملهم هذا يبرهنون لنا عن إيجابيتهم، ونحن نبرهن بدورنا أنَّ الشعب واعٍ لكل قضاياه الوطنية.

ولم يفهم أبو دياب شيئاً من كلام ابنه المنمق، سوى أن هناك أموراً تدبر بخفاء وأن ابنه قد يذهب ضحية اندفاعه فقال:

- دعني من هذا اللغو الفارغ الذي لم أفهم منه شيئاً وقل لي ماذا قررت لجنتكم يا حضرة الوطني..؟

- أرجوك يا أبي لا تتهكم عليَّ.. واللجنة بعد هذا قررت الإضراب والتظاهر غداً احتجاجاً على رفع ثمن الخبز وعدم العودة إلى الدروس قبل أن يعود ثمن الخبز إلى ما كان عليه قبلاً.

- إذاً، فقد قرَّرتم الإضراب؟.

- أجل..

- لن تذهب غداً إلى المدرسة، وأقسم إن خالفت رغبتي فلن أسمح لك بالعودة إلى البيت.. أفهمت؟! هيا اغرب عن وجهي..

وتكوم أحمد بجانب إخوته وأخذ يبكي بصوت مرتفع، وقد ذهب النوم من عينيه بينما أطفأت أمه النور ثم خرجت مع زوجها فتوجهت إلى غرفتهما بينما تلكأ الأب الذي أخذ يصيخ إلى بكاء ابنه، ثم يحاول في الوقت ذاته أن يجاري زوجه التي علا شخيرها منذ تمددت إلى جواره وتذكر وهو يحاول أن يبعد عن أذنه نحيب ابنه قول صديقه قاسم:

- لو كان كلُّ أب يفعل مثلك لماتت في البلاد الروح الوطنية. وما ثورة الروح الوطنية إلا حوادث كهذه..

ولبث ساعة يقلب وجوه الرأي وبكاء ابنه يمزق مشاعره حتى استقر رأيه على أمر فنهض من فراشه محاذراً، وتوجه إلى غرفة الأولاد وفتح الباب وهمس:

- أحمد.. أحمد..

ولكن ابنه لم يجبه، فعاود النداء:

- أحمد.. أحمد.. لا تغضب، يمكنك الذهاب غداً إلى المدرسة.. ولكن احترس على نفسك..

فقفز أحمد من فراشه ورمى بنفسه على أبيه يعانقه ويقبله، وتبسم الأب وامتلأت نفسه بالحبور ثم عاد إلى فراشه فشد الغطاء حتى ستر وجهه وراح في نوم عميق.

- ٨ -

لم يقضِ أحمد الوقت كله في اجتماع لجنة الطلاب الذي تحدث عنه مع أبيه، إذ ما كاد الاجتماع ينتهي إلى اتخاذ قرار الإضراب حتى يمَّم وجهه شطر بيت صغيرته الشقراء، وحين رآها تشغل النافذة بجسمها النحيل وتستقبله بابتسامة فرحة أيقن بأنها كانت تنتظره. ووقف كعادته تحت عمود النور يختلس منها نظرات والهة ويتظاهر في الوقت نفسه بانتظار صديق له، كلما سمع خطوات غادٍ إلى الحي أو ذاهب عنه. واستفاق من نشوته وولهه، عندما سمع صديقه عدنان يسأله:

- ماذا تفعل هنا قرب بيتي؟!

فسأله أحمد بمرح:

- أتقطن هنا؟.

فأومأ عدنان برأسه وأشار إلى البيت الذي يتدلى منه الرأس الأشقر:

- أسكن هناك.. تعال معي..

واتجها نحو البيت وهما يثرثران، وفجأة سأل عدنان:

- قل لي، هل تقرَّر الإضراب غداً..؟

واتخذ أحمد صفة الشخص المسؤول وقال وهو يبتعد عن صديقه:

- ستعلم غداً صباحاً، إنه ما زال سراً..

- أرجوك أن تفصح قليلاً لأني أريد أن أطمئن أبي فهو يقول لي دائماً: على أكتافكم تقع مشكلة الخبز فإذا أعلنتم الإضراب وتظاهرتم، وأغلقتم سوق الحميدية رجعت الحكومة عن غيها وأعادت سعر الخبز إلى ما كان عليه.

وكانا قد وصلا إلى البيت، ونظرا معاً إلى الشقراء الصغيرة الجالسة خلف النافذة وقد تدلت ضفيرتاها خارج النافذة وهما تتأرجحان وفق هزات رأسها، ومن ثم همس أحمد متسائلاً:

- أختك !.

فردَّ عدنان فوراً:

- لا.. بنت جارتنا.

وعاد أحمد يسأل:

- ألا تسكن هنا ؟!.

- أجل.. إن أبي يملك غرفتين فقط من هذا البيت، وجارتنا أم إبراهيم، أم هذه البنت مع ولديها الصغيرين وبنتها هذه، يملكون غرفة واحدة، وقاسم صديق أبيك يملك الغرفة الأخيرة في هذا البيت، وطبعاً فإن المطبخ مشترك بين الجميع، وكثيراً ما تناحرت أمي مع أم إبراهيم من أجل المطبخ حتى كادتا أن تستغنيا عنه، وصارتا في أكثر الأحيان تطبخان الطعام في غرف النوم.. والآن ألا تريد أن تروي لي شيئاً عما سيحدث غداً..

فقال أحمد وكأنه لم يسمع سؤال صديقه:

- ما اسم جارتك الصغيرة هذه؟! .

فأجاب عدنان وهو يخبط بشدة على الباب:

- هيام..

وهمَّ أحمد بالانصراف، ولكن عدنان تمسَّك به وهو يقول:

- لن أدعك تتصرف قبل أن أعرف قرار لجنة الطلاب، هل أرسلتم أحداً إلى حمص وحماة وحلب كي يكون الإضراب عاماً شاملاً..

وفتح الباب في تلك اللحظة بينما كان أحمد يقول:

- لا أستطيع أن أخبرك به هنا غير أنني أستطيع أن أقول إننا أرسلنا خبراً إلى درعا والسويداء أيضاً.

- ادخل.. سنكون وحدنا في البيت وسنتحدث بحرية أكثر.

وأخذ أحمد يتمنع وعدنان يلح حتى استقر بهما المقام في غرفة رحبة نوعاً ما، عارية من الأثاث تقريباً، إلا من بساط ومدفأة وعدد من المقاعد..

وغمرت أحمد الغبطة حين رأى فتاته الصغيرة تحوم حول الغرفة التي جلس فيها وهي تتظاهر بمداعبة أخويها الصغيرين، وتطلق بين الحين والحين صرخات ضاحكة منغومة كانت تبعث بنفس عاشقها الرجل الصغير، رعشات من النشوة لا نهاية لها..

ومكث أحمد عند صديقه طويلاً وشرح له كل شيء عن خطط الإضراب والتظاهرة، وشعر في الوقت ذاته أنَّ أسرة صديقه تضايقت منه لأنه لم يتحرَّك للانصراف، حتى بعد أن مرَّ على اختفاء فتاته وقت ليس بالقصير، ولم تعد تظهر أبداً.. واصطدم عند الباب بعد ذلك، بامرأة حدقت فيه ملياً ثم سألته:

- أنت ابن أبي دياب..

فهز رأسه بالإيجاب، وعند ذاك تابعت الامرأة :

- سلِّم على أمك.. قل لها أمّ إبراهيم تسلِّم عليها، أنت تشبهها كثيراً..

وانتابه الذهول للحظات ومع هذا فإنه حين غدا في الشارع وحيداً، عاد إلى الوقوف تحت عمود النور، ولم يغادر مكانه إلا عندما أخذت الأمطار تزيد في شدتها وقوتها وقد اختفى شبح أمله من وراء النافذة.

- ٩ -

أخذ طلاب التجهيز الأولى يتجمعون في الباحة الكبيرة منذ الصباح الباكر على الرغم من الأمطار التي كانت السماء ما تزال تجود بها دون انقطاع.. وكان منظر رجال الدرك والشرطة الذين كانوا يطوقون المدرسة الكبيرة وهم مدججون بأسلحتهم وهراواتهم وتروسهم وخوذاتهم يبعث في نفوس الطلبة مزيداً من الحماس والغليان والتحدي.

وكان الطلبة يناقشون الطريقة التي تمكنهم من اختراق النطاق المضروب على المدرسة والخروج بالتظاهرة المقررة عندما قرع الجرس المدرسي، فهاجوا وماجوا وعلا ضجيجهم وانطلقوا ينشدون:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الموت إلا فجر مجد يتسامى
وتعاهدنا جميعاً يوم أقسمنا اليمينا
لن نخون العهد يوماً واتخذنا الصدق دينا
يا فرنسا لا تغالي وتقولي الفتح طالا
سوف تأتيك الليالي تطردي طرد الكلابا

وما كاد الطلبة ينتهون من الإنشاد حتى اعتلى أحدهم الحاجز الحجري الذي يفصل بين الباحة والممرات المؤدية إلى قاعات الدرس، ووقف خطيباً بين رفاقه مفتتحاً خطابه بقوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وهلَّل الطلاب وكبَّروا وحيّوا العروبة بهتافات مدوية ثم هدؤوا شيئاً فشيئاً لينصتوا إلى رفيقهم الذي أخذ يخطب:

- أيُّها الرفاق.. لقد أرادت الطغمة الحاكمة التي تأتمر بأمر فرنسا أن تمضي في إذلال شعبنا الأبي الذي يئن من نير الاحتلال.. أرادت أن تذله.. أن

تفقره.. أن تحرمه حتى من خبزه.. فرفعت ثمنه.. رفعت ثمن الخبز الأسود المر الذي يرغموننا على أكله.. الخبز الذي يصنعونه من مواد غريبة مستوردة، بينما تركت قمحنا الطيب.. خيراتنا العظيمة تذهب إلى الجيوش التي تحارب في الجبهات البعيدة لقاء قضية لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. ألا فلتسمع فرنسا.. ليسمع المتآمرون صوتنا الهادر.. ليسمع المتآمرون صوت ثورة الشعب العارمة.. ليسمع الاستعمار وأذنابه بأننا لن نعود إلى دروسنا حتى تتحقق مطالبنا العادلة.. مطالب الشعب في خبزه، وحريته..

وأخذ الطلاب يصفقون ويهللون ويهتفون:

- تسقط فرنسا.. ليسقط الاستعمار الغاشم..

وانطلقت فئة أخرى تهزج وتدبك:

ارحلوا يا كلاب عنّا..

ارحلوا هذا وطننا

ارحلي يا فرنسا عنّا..

ارحل يا مستعمر عنّا

كانت خطة لجنة طلاب دمشق تقضي بأن يجتمع طلاب المدارس التجهيزية كلها في المظاهرة التي تبدأ من ساحة الشهداء ومن ثم تتوجه التظاهرة إلى دار الحكومة.

وكان الاتفاق يقضي أيضاً بأن يغلق الطلاب الأسواق التي يمرون بها في أثناء اتجاههم نحو ساحة الشهداء، ووزعت الأسواق بحسب موقع المدارس من هذه الأسواق. فبوابة الصالحية وشارع الملك فؤاد من نصيب التجهيز الأولى وسوق الحميدية والسنجقدار من نصيب طلاب مدرسة التجارة وسوق الخضر وسوق الهال وشارع الملك فيصل من نصيب مدرسة الصناعة، وأما شارع جمال باشا ومحطة الحجاز وزقاق رامي فهو من نصيب التجهيز الثانية.

وكانت المشكلة التي واجهت طلاب المدارس تكمن في الحصار المضروب عليها من فرق الدرك والشرطة. وكان من الممكن أن تمرَّ التظاهرة

بسلام لولا هذا الحصار الذي خلق في نفوس الطلبة نوعاً من التحدي، إذ ما كاد طلبة التجهيز الأولى يخرجون من البوابة الكبرى وهم ينشدون أناشيدهم الحماسية حتى حاول بعض رجال الأمن اعتراض مسيرتهم ومنعهم من الخروج، وعند ذلك بدأت المعركة بعنف، وتراجع رجال الشرطة والدرك مفسحين المجال أمام الطلبة الغاضبين الذين شقوا طريقهم بسرعة عن طريق الحجارة التي أخذوا يقذفونها على رجال الأمن، وساعدتهم الأمطار التي كانت تهطل بشدة، فشقوا طريقهم متكاتفين وقد تمنطقوا بالعلم السوري بصورة جعلت قادة فرق الشرطة والدرك يقفون مذهولين، ومن ثم أصدروا أوامرهم بإطلاق النار في الفضاء إرهاباً، غير أن الطلبة الذين تمكنوا من الخروج توجهوا نحو شارع الملك فؤاد وهم يعلمون بأن رجال الشرطة والدرك يعانون المشكلة نفسها ولن يحاولوا إصابة أحد منهم.. وبسرعة مذهلة كان الطلبة يسيطرون على بوابة الصالحية وشارع فؤاد وحجارتهم تجد طريقها بسهولة ويسر إلى واجهات المخازن والمتاجر التي لم يغلقها أصحابها، وما هي إلا ساعة حتى وجدوا أنفسهم أمام مئات من رجال الأمن الذين سدُّوا في وجوههم الطرق المؤدية نحو ساحة الشهداء. وأخذ الرصاص يلعلع والحجارة تدوي وتسقط بين رجال الأمن في قسوة وعنف، غير أن فرق الأمن اضطرت تحت ضغط طلبة المدارس الأخرى القادمة من الجهات الأخرى إلى التراجع، الأمر الذي دفع بالطلبة إلى القيام بهجوم اخترقوا فيه الحواجز والمتاريس التي أقامها رجال الأمن، لتصبح أخيراً ساحة الشهداء مفتوحة أمام جموع الطلبة التي تدفقت نحوها بكل قوة ومن كل الجهات، وكان باستطاعة أي متفرج على ساحة المعركة، عن كثب، أن يرى من خلال تهاطل الأمطار الغزيرة، عشرات الطلبة الذين ألقي القبض عليهم، وعشرات غيرهم مصابين بمختلف أنواع الإصابات..

ولم يقف رجل الشارع العادي مكتوف اليدين أمام قسوة المعركة التي يرى، وهكذا نبعت فجأة مظاهرات ضخمة استغلت الثغرات التي أحدثها الطلبة في

هجومهم على ساحة الشهداء، فولجت منها بدورها، ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت ساحة الشهداء بالألوف من أبناء الشعب، وكانت الساحة مسرحاً لمعركة عنيفة، وتطورت إلى هجوم عنيف على دار الحكومة..

وبدأ الرصاص ينهمر كالمطر المتساقط من السماء على الناس فسقط عشرات القتلى، وانقلب الذهول الذي أصابهم لفترة من الوقت لمقتل إخوانهم إلى حماس كبير فاندفعوا وقد أعمى الحقد قلوبهم نحو (العدلية) فحطموا الباب، وأخرجوا الموظفين والسجناء المؤقتين وأضرموا النار فيها، ثم اندفعوا نحو دار البلدية فأحرقوها، ثم يمموا هادرين نحو دار الحكومة وقد حوصرت من جميع الجهات. فجوبهوا بسيل من الرصاص كان يتساقط على الألوف الزاحفة، التي لم تعبأ بالخسائر الفادحة التي كانت توقعها في صفوفهم أيضاً الرشاشات المنصوبة على شرفات وأسطحة دار الحكومة. وفجأة صاح صائح:

- المصفحات يا شباب..

وأدرك كلُّ إنسان من المتظاهرين أنَّ المصفحات ستحصد مَن بقي حياً منهم، فاندفعوا دون وعي باتجاه التجهيز الأولى، وداست الأقدام في ركضها السريع عدداً من الأطفال ورغم هذا كله كان الطلبة يحاولون جاهدين عرقلة وصول المصفحات فأحرقوا عدداً من السيارات الحكومية التي وجدوها في طريقهم ونجحت عمليتهم هذه وما كادوا يصلون إلى المدرسة ويستقرون في باحتها ويقيمون المتاريس خلف الأبواب حتى طوقت المصفحات الفرنسية ورجال الدرك الفرنسي والشرطة البريطانية مع فرق الشرطة والدرك السورية التي تأتمر بأمر الاحتلال، المدرسة من جميع أطرافها والرصاص ما زال يلعلع والسماء ما زالت تذرف دموعها بغزارة والطلبة ما زالوا يرشقون كل هذه القوى من على السّطوح بالحجارة.

كان يخيل للمارِّ من أمام التجهيز الأولى بأن جبهة حربية قد أقيمت حول قلعة من القلاع الحصينة، فالمصفحات التي كانت توجه رصاص رشاشاتها

نحو مصنع الأبطال بدت هادئة بعد صدور الأوامر بوقف إطلاق النار على الطلبة العزل، والدوريات العسكرية تقطع الشوارع المحيطة بالمدرسة جيئة وذهاباً، والشوارع تكاد تكون مقفرة من الناس، والأحجار المختلفة الأحجام تناثرت هنا وهناك حتى ملأت أكثر الطرق. أما مصنع الأبطال فقد جثم عليه السكون وخيم عليه الصمت، وبدا هادئاً بعد الكارثة التي حاقت بعشرات الطلاب الذين سقطوا بين قتيل وجريح، وكانت الدلائل كلها تشير إلى أن الهدوء لا يمكن أن يعود إلى المدينة بعد هذه الكارثة، ولعلّ المغنم الوحيد الذي ربحه الطلاب في هذه المعركة، الاتفاقية التي تم عقدها بين ضابطين يمثل أحدهما الكولونيل سترلينغ من القوة البريطانية والثاني يمثل الجنرال كوليه من القوة الفرنسية وبين لجنة طلاب دمشق، وقد تعهد الضابطان بعدم التعرض للطلاب ولأفراد الشعب الذين أسهموا في المعركة والذين لجؤوا إلى المدرسة على أن يتوجهوا من المدرسة فوراً إلى بيوتهم متفرقين بينما تعهدت لجنة الطلاب بأن يلتزم الطلاب وجميع المحاصرين تنفيذ ذلك وعدم التعرض لأي جندي من جنود الفرق المطوقة للمدرسة بالإهانات، وأن ينصرفوا بهدوء دون هتافات أو ما شابه ذلك.

وكان الطلبة قد تبلغوا في أثناء ذلك نبأ تعليق الدروس في جميع مدارس سورية إلى أجل غير مسمى، وكان هذا النبأ وحده بالإضافة إلى الكارثة التي منيوا بها كافياً لأن يدفع إلى نفوس الطلبة مزيداً من الألم واليأس والحقد على الاستعمار وعلى الفئة الحاكمة التي تأتمر بأمره. وخلال الساعتين اللتين تلتا هذا الاتفاق، كانت المدرسة قد خلت من الطلاب، ولم تتقيد السلطات بالاتفاق المعقود فألقت القبض على أغلب أعضاء لجنة الطلاب وعلى عدد كبير من أفراد الشعب.

وكانت ساحة الشهداء تبدو من خلال تساقط الأمطار الذي لم ينقطع طوال النهار حزينة، كئيبة، وآثار المعركة تزين مع الأوحال كل أرجائها والساعة الكبيرة مهشمة إلا من النور الكهربائي المنبعث منها والذي كان إلى ساعات

يبعث الحياة والنور في ميناء الساعة الزجاجي، وأما الدار العدلية والبلدية فقد بدتا بعد إطفاء الحرائق التي أشعلها المتظاهرون فيهما كأنهما خرابتان ينعب فيهما البوم، وبالإضافة إلى ذلك كان عدد من السيارات المهشمة والمحترقة مبعثرة في أرجاء الساحة، والدخان ما زال يتصاعد منها، وكانت هناك حافلتان مقلوبتان اتخذهما الشعب متراسين أثناء المعركة ليحمي عن طريقهما نفسه من الرصاص، وعدا ذلك كان كل شيء يبدو حزيناً كئيباً في المدينة التي هجعت مبكرة في ذلك اليوم، وعيونها الدامعة ترمق بألم النصب التذكاري الذي وقف شامخاً في وسط الساحة وقد ضم إليه بفخر عدداً آخر كبيراً من الضحايا.. ضحايا الحرية.

* * *

- ١٠ -

كان منسوب المياه يزداد في نهر بردى تبعاً لازدياد تهاطل الأمطار، وكان من الطبيعي أن ترتفع مياهه نتيجة لاستمرارها دون انقطاع خلال الأيام الثلاثة الماضية، وكان النهر رغم شح مياهه وانقطاعه في فصل الصيف يشكل في بعض الأحيان خطراً كبيراً على دمشق وأحيائها القديمة والقرى التي تسبقها إذا لم يتدارك المسؤولون في بلدية دمشق خطره في الوقت المناسب، غير أن المسؤولين الذين شغلتهم أحداث اليوم العاصف لم ينتبهوا إلى الكارثة التي كان يخبئها النهر للمدينة الحزينة في طياته.

وكانت المياه المنحدرة من أعالي الجبال نتيجة لذوبان الثلوج، تجد طريقها في سهولة ويسر إلى النهر الذي أخذ يتمدد عند منبعه دافعاً بالمياه الراكدة إلى الأمام بسرعة بدت بطيئة في سيرها أول الأمر، ثم غدت معجلة تشق طريقها عبر المجرى الضيق في الوادي الذي يسبق المدينة. غير أن ازدياد الأمطار والمياه المنحدرة من كل مكان، جعلت النهر لا يستوعبها كلها فطفت على الحقول الواقعة

على طرفي النهر وأخذت تسير بدورها مندفعة بسرعة مخيفة في الوادي جارفة في طريقها كثيراً من جذوع الأشجار وعدداً من الصخور كانت تحدث مع هدير المياه دوياً مرعباً. وحاول بعض موظفي قرى الوادي الاتصال هاتفياً بدار البلدية التي كانت في ذاك الوقت طعمة للنيران دون جدوى. وما كادت المياه الموحلة تصل إلى مضيق الربوة حتى كونت مع المياه الأخرى المنحدرة من الأنهر الصغيرة المتفرعة عن نهر بردى نفسه مجرى عريضاً اجتاح طريق السيارات الضيق وأفسح المجال للمياه الزاحفة وسيلة الاتصال، ومن ثم ارتفعت المياه ارتفاعاً خطيراً وهي ما زالت تسير في زحفها مواكبة النهر نحو اللانهاية.

ومع غبش المساء اجتاح بحر هائل من المياه الموحلة قرية كيوان، وهديرها يصمُّ الآذان، فهدمت عدداً من البيوت وجرفت عدداً آخر معها، وصياح الأطفال وولولة النساء يطغى في شدته وهلعه على صوت أذان المغرب الذي كان يؤديه مؤذن بعيد.. وكان يُرَى على صفحة المياه المسرعة كثير من الكراسي والمناضد والفرش والأغطية، وعدد من الرؤوس الصغيرة التي كانت تغور وتطفو، وكثير من أفراخ الدجاج وأنواع مختلفة من الدواب وجدران كاملة من اللِّبن مائلة، كانت تذوب في المياه تدريجياً دون أن تقوى على إعاقة المياه التي كانت تبتلع كل شيء في دواماتها. وغدا أخيراً طريق دمشق النائمة مأساتها مفتوحاً أمام الوحش الفاغر فاه، وما مضى وقت طويل حتى اصطدمت المياه بجدران المخازن والملاهي القائمة على ضفة النهر الواحدة عند جسر فكتوريا ثم توغلت فيها لتغرق ما تحتويه بينما أضحت ضفتا النهر لقمة سائغة للمياه، فحاصرت الدوائر الرسمية القائمة على الضفة اليمنى من كل جانب بينما تغلغلت لتروي جوعها ونهمها في كل المتاجر والمخازن التي عثرت عليها في الضفة اليسرى. ولم تترك لنفسها الفرصة لتستريح، إذ هرعت متهافتة لتحتلَّ ساحة الشهداء ولتمسح بكل قسوة آثار المعركة التي جرت فيها صباح ذلك اليوم. وطفت على كل شيء، فغمرت سوق علي باشا الضيق المسقوف والمقهى القائم على ناصيته ثم تسربت منه إلى سوق الخضار واستراحت إلى اكتشافها فتوغلت في المرائب القائمة هناك والمتاجر الهادئة، وكان كل شيء مفتوحاً أمامها

فسارت حتى عادت للاتصال ثانية بالمياه المندفعة في شارع الملك فيصل لتتدفق من جديد على كل متاجر الدجاج والأرانب والطيور المختلفة والمتاجر الأخرى القائمة على طرفي الشارع، واستمرت المياه تخرب وتتلف في طريقها كل شيء، وهي أبداً مواكبة لمجرى النهر الذي لم يشعر في حياته كلها بمثل الحياة التي تنهض فيه اليوم.

كان حرس الأحياء هم أول من انتبه إلى الخطر، فانطلقت صافراتهم تولول في هدوء الليل، معلنة الخطر الداهم، وفي الوقت نفسه أخذوا يقرعون الأبواب وينبهون سكان الأحياء التي يمر فيها النهر، إلى خطر الفيضان، وقطعت إذاعة دمشق المحلية ذات البث الضعيف برامجها، فنبهت الناس ودعت أصحاب المخازن والمتاجر إلى المبادرة فوراً لإنقاذ ما يستطيعون إنقاذه. وكان المذيع قد أعلن قبل قليل نص إلغاء قرار حظر التجول الذي صدر بسبب المظاهرات الدامية التي عمت المدينة، ثم أخذ المذيع يذيع أنباء المناطق المنكوبة بصوت متهدج لم يستطع كتمانه، وينم في الوقت ذاته عن الكارثة الكبيرة التي حاقت بالمدينة الهرمة.

وعندما بدأت المياه تغزو منطقة السبع طوالع، كانت فرق الإطفاء قد أخذت تعرقل بوسائلها زحف المياه المخيف، وتساعد سكان الأحياء في الرحيل، واشترك الجيش المحتل إلى جانب الأهالي في منع الكارثة من الاشتداد، وكانت الرفوش والمعاول تدك البيوت المتداعية، وتلقي بأكياس الرمل في طريق المياه الهائجة.

وهكذا هرع سكان الأزقة الداخلية الذين يجاورون النهر بملابسهم البيتية يسوقون أمامهم أطفالهم ونساءهم إلى الشوارع البعيدة خوفاً من خطر الفيضان، دون أن يعبؤوا بالأمطار التي ما زالت تواصل تهطالها.

وكان سكان الأزقة الداخلية في حي السبع طوالع الذين أووا في تلك الليلة مبكرين إلى بيوتهم بسبب منع التجول، قد انتبهوا إلى خطر ارتفاع مياه النهر، وعندما أخذ الحارس يقرع الأبواب ويأمر السكان بالرحيل انتابت النساء موجة من الهلع، وعلا الصريخ واشتد بكاء الأطفال الذين كانوا لا يعرفون لماذا يبكون.

وكانت المياه قد أخذت تلامس أبواب المنازل حين خرج أبو دياب مع أطفاله يسير بعرجه المخيف خلال الدرب الضيق الذي كان لا يفصله عن النهر أي حاجز، يحمل بين يديه، أصغر أطفاله، بينما أمسك كل من أولاده الآخرين بأيدي بعضهم بعضاً حيث انتهى الأخير بأحمد الذي سار كأبيه بجانب النهر خوفاً من أن تنزلق قدم أحد إخوته، فيكون مصيره الهلاك في النهر، وأما الأم فقد حملت على ظهرها ابنتها المريضة وقد دثرتها بغطاء كيفما اتفق، وسارت بها خلال المياه الآخذة بالارتفاع خلف الركب الطويل الذي سار أمامها. وكانت أسرة أبي دياب تعيق مسير باقي سكان الحي، ورغم حراجة السير وتهاطل الأمطار، وغزو المياه السريع للضفة التي يسيرون عليها كان أحمد لا ينفك ينظر حوله محاولاً من خلال الظلمة أن يتبين وجه شقرائه الصغيرة من بين الأشباح المختلفة الأحجام التي كان لا يعيق سيرها سوى أسرة أبي دياب. وتعثرت أمُّ دياب فجأة فهوت بحملها على الأرض مستقبلة المياه ولم يعبأ الموكب المرتاع بسقوطها، فصار يقفز من فوقها يريد النجاة بالأرواح الكثيرة التي ترافقه، ومع هذا فقد أعاق سقوطها السير، وحدث هرج ومرج وارتباك في صفوف الموكب والتفت أحمد نحو أمه يبغي مساعدتها، وفي تلك اللحظة اختل توازن إخوته الممسكين بأيدي بعضهم بعضاً، وقبل أن ينتبه إلى الخطر الذي عرّض إخوته له، صدم أفراد مسرعين الأجسام الصغيرة وخلال لحظات سريعة، تمزق الحبل الصغير وابتلعت اللجة أصغر جسدين لم يقويا على تحمل الصدمة، وصرخ أحمد والتفت أبو دياب الذي وصل حينذاك إلى المفرق المؤدي إلى الأحياء الخارجية على صراخ ابنه، فلم يرَ شيئاً، كان الناس يركضون مسرعين، وكانت الأمُّ ما تزال تحاول أن تمنع عن نفسها الاختناق، وأخيراً استطاعت أن تنهض بحملها شيئاً فشيئاً، وأن تحافظ على توازنها وأخذت تسير بجانب الجدران وقد أخذ جسدها يرتجف تبعاً لارتجاف ابنتها التي أخذت الحمى تنتابها بشكل عنيف حتى خيل للأم بأن صوت اصطكاك أسنان ابنتها يعلو على صوت اصطخاب المياه، وحمى الطريق. وأما أحمد فقد اندفع بأخيه الذي

علا بكاؤه وعويله إلى الوراء، غير عابئٍ بالناس وهو يصرخ منادياً أخويه الصغيرين اللذين ابتلعتهما اللجة. وكانت يده القابضة بقوة على يد أخيه تبدو كأنها تشنجت، ولم يعد يحس بشيء اللهم إلا بدفع الناس له حتى غدا عند أبيه وعيناه ما زالتا تحدقان بهلع في المياه، ثم لم يعد يدري ما يجري حوله فوقع على الأرض الموحلة جاراً معه أخاه وقد أغمي عليه.

كان علي الحجَّار قابعاً في غرفته عندما قرع الحارس الباب منبهاً إياه إلى الخطر، فصرخ منادياً ابنته ولما لم يلق جواباً، صعد الدرج إلى غرفتها وما كاد يفتح الباب حتى استقبلته في الغرفة ظلمة داكنة، ورأى شبحاً أبيض يقف عند النافذة سرعان ما تبين فيه ابنته فصاح محذراً:

- سميرة.. سميرة.. أسرعي.. أسرعي.. فيضان.. المياه صارت بالبيت.

والتفتت سميرة نحو أبيها مرتاعة، ولما هدأ روعها قالت له:

- سألحق بك حالاً..

وأجابها مضطرباً:

- لن أنتظرك حتى ترتدي ثيابك، الحقي بي عند المقهى..

ولم ينتظر جوابها، واستدار هابطاً الدرج، وما هي إلا لحظات حتى سمعت سميرة انصفاق الباب الخارجي، ومن ثم عادت إلى النافذة لتتابع النظر إلى سعيد الذي كان بدوره واقفاً عند نافذته رغم برودة الجو والمأساة التي أخذت تعصف بالحي، ومكثت برهة ترقب سعيداً ويرقبها، وعندما رأت إلى الطريق الذي امتلأ بزحمة السكان، استوعبت حقيقة الخطر الذي ستتعرَّض له، وعند ذاك فهمت معنى الإشارات التي كان يلوح بها سعيد ومع هذا بقيت واقفة تأبى الرحيل غير أنَّ سعيداً عاد يصيح من نافذته وكأنه ينبِّه غيرها:

- فيضان.. فيضان يا شباب.. اتركوا البيوت حالاً..

ومن ثم غاب من وراء نافذته دون أن يهتم بإغلاقها.

وأسرعت سميرة في ارتداء بعض ملابسها، وهبطت الدرج لترى المياه قد غمرت باحة البيت الصغيرة، وبدأت تستولي على أول درجة من درجات السلم، ومع هذا فإنها جازفت فقطعت الباحة دون أن تعبأ بالمياه التي غمرت ساقيها حتى أسفل ركبتيها، وما كادت تفتح الباب حتى تدفقت المياه منه تدفقاً غريباً. ورأت عبر الباب المفتوح الأمواج العاتية تقذف الطريق وتملؤه، وأدركت بأنها لن تستطيع المرور، ومع هذا حاولت الخروج إلى الطريق ولكنها ارتدَّت عندما لم ترَ أحداً من السابلة، وانتابها شعور بالوحشة وإنها هالكة لا محالة، ولم تجد في اضطرابها وسيلة أضمن من الالتجاء إلى غرفتها البعيدة عن المياه، وحاولت أن تغلق باب البيت فلم تستطع تحت وطأة ضغط المياه الشديد، فتركته للمياه تعبث به كيفما تشاء، واستدارت تبغي غرفتها، وكان عليها أن تشق طريقها عبر الأحجار والجذوع والأشياء الأخرى المختلفة التي جلبتها المياه، ولبثت ساعة تخوض وتتعثر وتقع في الأوحال إلى أن وصلت الدرج فأخذت تصعده متهالكة ببطء، كان يفرضه عليها الإعياء والجهد. وكانت تلقي نظرات زائغة نحو المياه الموحلة، وتصيخ بخوف ورعب إلى صخبها، وجلست أخيراً عند باب غرفتها مرتعشة مذهولة، ولم تدرِ كيف تذكرت أمها فتساءلت: ترى أين هي الآن، هل منعها حظر التجول من العودة إلى البيت؟! وتمنت في أعماقها أن تكون أمها بعيدة عن الحي كي لا يصيبها مكروه حتى ولو كانت في مكان مشبوه..

وطال تساؤلها وهي مكومة على بعضها ترتعد من الخوف والبرد وقد انتابتها مختلف الهواجس، وكلما حاولت أن تصرف تفكيرها عن المحنة التي تعانيها والوحشة الغارقة فيها، ازدادت إعياء وتفكيراً في المياه التي كانت تأكل الدرج الخشبي ببطء درجة درجة، وحاولت أن تحصي عدد الدرجات التي التهمتها المياه النهمة فلم تفلح إذ لم يخطر لها في يوم من الأيام أن تحصي عدد درجات السلم الذي تصعد وتهبط عليه يومياً عشرات المرات.

ونظرت حولها يائسة.. كانت المياه تطوقها من كل جانب، وندمت لأنها لم تستجب لنداء أبيها واستسلمت للمصير الذي كان يقودها إليه تفكيرها فمدت ساقيها على الفسحة الصغيرة التي تسبق غرفتها، وأسندت جسدها ورأسها على باب الغرفة بإعياء، وشعرت بمنظر المياه يلقي بها في دوامة غيبوبة عميقة لا نهاية لها، فرفعت ذراعيها في حركة يائسة تسد بكفيها أذنيها لتمنع عن رأسها ذاك الدبيب المروع الملتهم لرأسها وحواسها. وبقيت مشلولة عن الحركة، ثم انفجرت في بكاء صامت انقلب إلى تهدج، وارتفع نحيبها حتى اختلط بهدير المياه، وعيناها ما زالتا تحدقان في المياه الموحلة الجائعة.

كان كل إنسان يستطيع أن يرى منذ ساعات الصباح الأولى الكارثة التي حاقت ببعض أحياء المدينة وساحة الشهداء والشوارع المتفرعة منها، بوجه خاص..

واستطاع رجال الإطفاء والأهالي وجنود الاحتلال الذين كانوا يصوبون رصاصهم صباح اليوم السابق إلى صدور الطلبة وأبناء الشعب أن يسيطروا على المياه سيطرة تامة، كانوا جميعاً يعملون جنباً إلى جنب أقصى ما يستطيعون لدرء الأخطار والكوارث التي نجمت عن الفيضان.

وانقشعت الغيوم أخيراً، وهدأت الأمطار، وبدت الشمس عند ظهورها مشرقة والمياه العكرة لامعة راكدة دون حراك بعد أن سيطر عليها المكافحون وقد استسلمت للمصير الذي أخذت تقودها إليه الزنود المفتولة التي لم تعرف الراحة منذ ابتداء الكارثة، وكانت المياه الموحلة عائمة في كل مكان وقد انتشرت برك المياه الكبيرة والصغيرة على طول الطريق الممتد من مضيق الربوة حتى مشارف الغوطة، والناس يتفرجون على آثار النكبة بألم وأسى وكانت الكارثة أشد وضوحاً وقسوة في سوق علي باشا منها في الأسواق الأخرى، وتجار السوق المذكور ينظرون إلى بضائعهم من الفواكه العادية والمجففة، وربطات القمردين والنقوع التي أتلفتها المياه وواجهات محلاتهم وخشبيات العرض المهشمة عندما بدأت

المياه تنحسر في ذل وانكسار، وتتراجع في استرخاء نحو النهر الذي بدا جائعاً رغم امتلائه إلى مياه أخرى.

وكان بائع البسطرما الأرمني هو الوحيد تقريباً الذي نجت بضاعته من اللحوم المعلقة في حبل مدلًّى من سقف الدكان، غير أنَّ الفيضان حطم واجهة المحل البلورية، وكذلك لم ينجُ المقهى الصغير الذي يقع إلى جواره والذي اشتهر بتقديمه أفضل شاي في المدينة كلها من الأضرار التي أصابت السوق كله.

وعلى العموم كان جميع تجار سوق علي باشا وسوق التبن وشارع الملك فيصل، ينظرون بذهول إلى هول الكارثة التي أطاحت ببضائعهم ومحلاتهم التجارية، وكانت جذوع الأشجار والكراسي والمناضد وأفراخ الدجاج والأرانب المخنوقة في أقفاصها، والحمير وعدد كبير من المقاعد والفرش والملاءات تملأ ساحة الشهداء كلّها وجميع الطرق المتاخمة للنهر، والأخرى المتفرعة التي اجتاحتها المياه، ومنذ بدأت المياه بالتراجع وفرق الإنقاذ تعود إلى ثكناتها، زحفت جموع غفيرة من النساء والرجال والأطفال والتجار من الذين أصابتهم النكبة نحو قصر الحكومة صامتين وقد ضاقت الشوارع المحيطة بدار الحكومة على رحبها بالمنكوبين الذين اقتعد أكثرهم الأرض الموحلة، وبعد ساعة من الزمن، أطلّ عليهم من شرفة رئيس الوزراء موظف كبير طلب منهم العودة إلى أعمالهم بعد أن قرأ عليهم وعد الحكومة بالتعويض عليهم.

وتحرَّكت الجموع بعد تواري المسؤول من الشرفة تجرُّ بؤسها ونكبتها ومأساتها وقد خيَّم سكون خاشع على الساحة الكبيرة التي كانت مسرحاً عظيماً لنكبة المدينة العظيمة.

* * *

- ١١ -

عادت الحياة تأخذ مجراها الطبيعي في حي السبع طوالع والأحياء الأخرى المتفرِّعة عنه شيئاً فشيئاً ونسي المنكوبون وعود الحكومة، بعد أن ملوا مراجعة المسؤولين، وأصبح نصيب العرائض الكثيرة التي كتبها المختار، ودار بها مع الإمام على المسؤولين، الإهمال الذي يصيب عادة كلَّ الطلبات التي من هذا النوع.

وكانت كارثة أبي دياب في أسرته مريعة ولم تستطع فرق الإنقاذ من العثور على جثتي ولديه إلا بعد أيام، فقد أخرجتا مع كميَّات كبيرة من الطين، وقد أمسكت يد الجثة الأولى بيد الثانية وكان يستحيل على إنسان أن يتعرَّف عليهما بعد أن شوَّهت المياه والأوحال معالمهما. وتمَّ دفنهما دون ضجَّة، ولم يكن حاضراً عند الدفن سوى الأب وأصدقائه الثلاثة فقط. أما أحمد فقد بقي صريع الحمَّى والذهول مدَّة أسبوعين، وعندما أخذ يستعيد قواه ويرتدُّ إلى نفسه كان أبوه جالساً بالقرب منه فهمس منادياً:

- بابا.. بابا..

ركع أبو دياب بجوار الفراش وقد انهمرت دموعه وأخذ يبكي بصوت عال كالأطفال وهو يصيح بصوت فرح متهدِّج حاول جاهداً أن يجعله خافتاً:

- أنا هنا.. أنا هنا..

وكرَّر أحمد نداءه وهو يسأل:

- أين أنا؟! .

وقال الأب وهو يتغلَّب على نحيبه:

- في البيت.. في البيت..

- أين أمي؟!.

وأجاب الأب بلهفة:

- سأناديها لك..

وقطع الأب الغرفة الصغيرة بخطوات سريعة ملتوية وصاح منادياً زوجه:

- أمّ أحمد.. أمّ أحمد.. تعالي حالاً..

وخيّل للأب أنَّ دهراً قد مضى منذ نادى زوجته، وهمَّ بأنَّ يعيد النداء عندما رآها تلج الغرفة. وعندما رأت البشرَ يعلو وجه زوجها هرعت بدورها نحو ابنها الذي كان مازال يسأل بإلحاح عن أمّه.. وركضت الدموع في عيني الأمِّ وهي تنحني على ابنها وتمسح بيدها على جبينه وتقبِّله باكية وهي تهمس:

- أنا هنا يا حبيبي.. أنا هنا..

بدأ أحمد يرتدُّ إلى نفسه دون أن ينقطع عن الهذيان:

- لم أتبيّن مَن الذي دفعهما..

- كفى.. كفى يا أحمد..

- فجأة سمعتُهما يصرخان..

وصاح الأب مخافتاً من صوته:

- اهدأ يا أحمد.. جميعنا بخير..

- لم أعد أرى سوى المياه وهي تزداد ارتفاعاً.. وكنت أنت يا أمَّاه..

وعادت الأمُّ تقول:

- أنا هنا يا بني أنا هنا.. هنا..

واستمرَّ أحمد في هذيانه:

- كنت أنت على الأرض.. وأختي جاثمة على ظهرك ترتعش.. رأيتك تختنقين بالمياه، وأبي لا يستطيع مقاومة دفع الناس له، لقد رأيته يلتفت، ثمَّ لم أعد أرى غير المياه.. المياه.. وصريخ أخويَّ الصغيرين يعلو.. يعلو.. والناس يدفعونني أمامهم دون اكتراث.. وقالت أمُّه تهدّئه.. أنت بخير.. لقد أُغمي عليك ليس إلا..

وصمت فجأة وأخذ يحدِّق في وجهَي أمِّه وأبيه، ومدَّ يده يتلمَّس وجه أمِّه ثمَّ سألها بغتة:

- لمَ تبكين؟! .

ومسحت الأمُّ دموعها وحاولت أن تبدو هادئة:

- أنا.. أنا لا أبكي.. تطلّع إليَّ جيّداً.. أنا أبكي من سعادتي بابني، تطلّع إلى أبيك.. انظر كم هو مسرور لرؤيتك وأنت تتحدَّث..

وحاول الأب أن يتكلَّم فلم يستطع، فقد عقد الفرح لسانه وصار وجهه الموزَّع بين الابتسام والبكاء مضحكاً.

وفجأة قال أحمد:

- أنا جائع..

وصاحت الأمُّ بفرح:

- سآتيك بطعام شهي..

وسأل أحمد من جديد:

- ماذا حدث لي؟!.

وثأثأ الأب وفأفأ ثمَّ قال:

- لا شيء.. أغمي عليك من الزحام وأنا أحمد الله على سلامتك و.. وسلامة الجميع..

وأدار الأب وجهه بعد عبارته الأخيرة وحاول أن يغالب الدموع التي كانت تتفجَّر دوماً في عينيه كلما تذكَّر ولديه الغريقين والأوحال التي كانت تملأ فاهيهما..

ودخلت الأمُّ تحمل صينية الطعام وقد أشرق وجهها بابتسامة سعيدة انتزعت كلَّ حزنها، وقالت هامسة تخاطب زوجها:

- عوضنا به يا رجل..

وهزَّ أبو دياب رأسه وهو يقول:

- العوض من عند الله..

وجلسا قرب ابنهما يتسابقان في إطعامه وقد أحسَّا بالراحة وشعرا بنوع من السعادة كانا يفتقران إليها منذ كارثتهما في طفليهما اللذين ذهبا طعاماً للمياه.

وفجأة وجدا نفسيهما يتعانقان أمام ابنهما ويقبِّلان بعضهما بعضاً في نهم وشوق وأحمد يرقبهما بسرور واستغراب معاً.

لبثت سميرة يوماً كاملاً مغمى عليها وحيدة دون أن يهتمَّ لمصيرها أحد، وبقي الحيُّ معزولاً عن باقي الأحياء، لا يجسر أحد من سكَّانه على الاقتراب منه خوفاً من خطر الانهيار الذي قد يحدث نتيجة إغراق المياه لأكثر البيوت القريبة من ضفة النهر، ولم تنتظر سعدية التي انتابها القلق على مصير ابنتها قرار البلدية حول وضع بيوت الحي، إذ ما كادت تجتمع بزوجها وتعلم منه أنَّ ابنتها لم توافه إلى المقهى، حتى هرعت نحو البيت، وحاولت اختراق نطاق المياه للوصول إليه، غير أنَّ رجال الإطفاء حالوا بينها وبين غايتها، وعندما أخذت المياه بالتراجع نحو النهر، وانخفض منسوبها الفائض قليلاً، انتهزت الفرصة، فغافلت رجال الإنقاذ وانطلقت نحو البيت لا تلوي على شيء دون أن تعبأ بصفير الشرطة المتواصل.

كانت المياه راكدة في باحة البيت والباب مفتوح والسكون يعمُّ كلَّ شيء، وعندما توسَّطت سعدية الباحة الصغيرة أخذت تصيح منادية ابنتها دون أن تلقى جواباً، وحين توجَّهت نحو الدرج لمحت ابنتها ممدَّدة عند قمته على الفسحة الصغيرة، فصرخت مرتاعة وأخذت تقفز الدَّرج قفزاً، ثمَّ ارتمت على ابنتها الغائبة عن وعيها تقبّلها بجنون وتهزُّها برفق، ثمَّ كفَّت عن ذلك، وأخذت تتلمَّس الجسد الهامد الحركة.. كان بارداً متقلّص العضلات، فصرخت هلعاً حين خطرت لها فكرة الموت، وارتمت من جديد على الجسد، ووضعت أذنها عند مركز القلب، وأصاخت بكلِّ حواسها.. كانت ضربات القلب الواهنة تصلها ضعيفة خافتة، وأشرق وجهها، وطفقت تدلك جسد ابنتها ويديها وساقيها وكلُّها أمل، وأتعبتها عمليَّة الدلك، ولم تدرِ ما تفعل، وأخيراً تبيَّن لها عقم محاولاتها وابنتها معرَّضة للجوّ الذي مازال بارداً، فحملت ابنتها بعد جهد ودلفت بها إلى غرفتها، فمدَّدتها على السرير الهرم ودثَّرتها بعدد من الأغطية والملابس التي عثرت عليها، وأغلقت النافذة التي كانت الريح تعبث بها، ثمَّ عادت تدلك يديها وساقيها دون

ملل. وبعد ساعات أخذت سميرة حين أحسَّت بالدفء يدبُّ في جسدها النحيل تتحرَّك في فراشها، وفتحت عينيها وألقت نظرات زائغة في ما حولها، وهمست بصوت واهٍ ضعيف:

- سعيد.. سعيد..

وحاولت الأمُّ أن تتبيَّن ما تقول ابنتها فلم تفلح، غير أنَّ مزيداً من الاطمئنان اندفع إلى قلبها حين سمعت همس ابنتها، فاستمرَّت تدلك جسد ابنتها التي عاودت الهمس بصوت أكثر وضوحاً من ذي قبل:

- سعيد.. سعيد.

وتوقَّفت الأمُّ عن التدليك، وفكَّرت بالاسم قليلاً، وكأنَّها تذكَّرت شيئاً فألقت نظرة عجلى من النافذة نحو البيت المقابل فلم ترَ أحداً، ثمَّ ارتدَّت نحو ابنتها تحثُّها بوسائلها العودة إلى وعيها.

وأفلحت أخيراً محاولاتها، واستيقظت سميرة شيئاً فشيئاً حتى إذا تبيَّنت في الجالسة إلى قربها وجه أمِّها أخذت تشهق شهقات متلاحقة ثمَّ انقلب شهيقها إلى أنين، وما لبث هذا كله أن ضاع وسط البكاء العنيف الذي انفجرت فيه فجأة وقد شاركتها فيه أمُّها التي هدَّها الرعب والإعياء.

- ١٢ -

استيقظ المختار صالح من نومه عند الظهيرة خلاف عادته، فنهض عاقداً العزم على زيارة (فوزية) وتذكَّر وهو يغتسل زوجة علي الحجَّار، التي لم يعد يراها كثيراً في الآونة الأخيرة، وعلى وجه التحديد منذ كارثة الفيضان، وحتى جعله تفكيره الدائم بها يعاف الاجتماع بالنسوة اللائي سبق له وأغواهنَّ عن طريق فوزية أو دونها.

وخرج أخيراً من بيته، ويمَّم وجهه شطر بيت فوزية وطرق الباب. تناهى إليه صوتها وهي تدعوه للدخول، وانتظر المختار قليلاً ريثما تجذب فوزية الحبل

الذي ينتهي بمزلاج الباب من طرف وبحاجز الدرج من طرفه الآخر، ثمَّ دخل. كانت فوزية تنظر كعادتها من خُصِّ النافذة العُلوية قبل فتح الباب لأيِّ طارق حتَّى إذا عرفت في الطارق شخصاً تعرفه جذبت الحبل المربوط في الحاجز عند قمَّة الدرج، ودعت الطارق إلى الدخول.

وأغلق المختار الباب خلفه وصعد الدرج إلى غرفة فوزية مباشرة، وجدها تنتظره عند قمة السلم بملابس البيت التي كانت تكشف عن لحمها المتهدّل مرحِّبة به.

واستقرَّ به المقام أخيراً في الغرفة، وأخرج سبحته وأخذ يعبث بها قليلاً بينما انصرفت فوزية تهيِّئ القهوة على طبَّاخ كحولي صغير من النحاس الأصفر في الغرفة نفسها وتتبادل معه الحديث، وأخيراً سألته:

- ما الذي جعلك تزورني مبكراً هذا الصباح؟! .

فتثاءب صالح ثمَّ قال متضاحكاً:

- أتتجاهلين أم ماذا؟! .

فتظاهرت فوزية بالتفكير قليلاً ثمَّ قالت:

- فهمت.. جئت من أجل سعدية.. أليس كذلك؟!.

- تماماً..

وساد الصمت لحظة قدَّمت خلالها القهوة لصالح ثمَّ اتخذت مكاناً لها بالقرب منه وقالت:

- زرتها قبل الفيضان ولم أجدها وتركت لها خبراً عند ابنتها.

وسأل صالح وهو يرشف قهوته:

- ألم تتصل بك منذ ذلك الحين..

- أبداً..

ثم أردفت:

- الحقيقة بدأت أشكُّ بصحَّة المعلومات التي زوَّدتني بها، لأني كامرأة مجرِّبة عليمة بشؤون النساء كان عليها أن تتصل بي بأية وسيلة، لأنَّ النسوة اللائي اعتمدنَ بيع الهوى يسرعنَ عند أول إشارة للاستفسار. وعلى كلِّ حال سأعاود الكرَّة اليوم، فربما نجحت في لقائها واستدراجها.

وعند هذا الحدِّ نهض المختار وأخرج من جيبه عشر ليرات، دسَّها في يد فوزية وهو يقول:

- لكِ منّي ضعفها إن جئتني بها.

وأطلقت فوزية ضحكة ماجنة وهي تقول:

- سآتيك بها.. اطمئنَّ بالاً..

وضحك المختار وهو يقرصها في فخذها ثمَّ انصرف مُوقناً أنَّ امرأة علي الحجَّار ستصبح من نصيبه..

- ١٣ -

كانت فوزية أولى ضحايا المختار الغراميَّة من سكّان الحيّ، فهي لم تُرزق بأطفال من زوجها المُتوفّى، وحاولت بعد موت زوجها، أن تجد رجلاً يرضى الزواج بها ليعيلها، أو أن تجد عملاً تعيش من ورائه دون جدوى، فلجأت إلى المختار صالح لكي يساعدها في محنتها، فصار يعدها ويواعدها، ويمدُّها بالمال بين الحين والآخر، ويقوم بزيارتها حاملاً معه دائماً ما يحتاج إليه كلُّ بيت من مؤونة وما إلى ذلك..

وقرَّرت فوزية بينها وبين نفسها الإيقاع بالمختار والزواج منه، وظنَّت بأنَّها تستطيع ذلك، وهو الذي اعتاد أن يطريها، ويطري جمالها كلَّما سنحت له الفرصة، ورآها في أحسن زينتها التي باتت تتعمَّد الظهور بها كلَّما زارها، أو كلَّما وفدت عليه في دكانه وأخذ خيالها يُجسم لها هذا الأمر حتى باتت لا تفكر إلاّ فيه. كانت تود الاحتفاظ به وبخيراته التي يغدقها عليها بقوة، حتى لو اضطرها

الأمر لأن تغدو عشيقته، وأصبحت مع مرور الأيام تستسهل الأمر، وتنتظر اللحظة التي يجازف فيها المختار فيطلب منها ذلك.

ذات يوم دعاها المختار إلى بيت في حي الشعلان لتعمل عند أسرة ثرية يعرفها، فذهبت برفقته على مضض، تحمل معها نياتها الطيبة، ولكنها ما كادت تدخل ذلك البيت، ويغلق الباب من دونها حتى عرفت أنه صاحب البيت.. ولم تخرج فوزية من البيت، إلا لتعود إليه كل يوم وقد أضحت عشيقته.

اكتشفت فوزية متأخرة في المختار، زير نساء، وتعرفت بنفسها على نساء كثيرات غيرها يترددن على البيت نفسه الذي تتردد عليه، وثارت أول الأمر بدافع من حبها وغيرتها، وحاولت أن تقطع علاقتها به، غير أنها لم تستطع، فقد اعتادت موارد المختار الدائمة، ولم تجد أمامها سوى الارتماء من جديد في أحضانه، وكان من الممكن أن تبقى وفية للمختار، ولكنها اكتشفت بأنها تستطيع أن تمارس لعبة الحب مع أي رجل آخر لقاء أي مبلغ من المال. وكان من الممكن ألا تنحدر نحو هذا المنزلق، ولكن المختار دفعها إلى ذلك عن طريق النسوة اللائي تعرفت. وخلال فترة قصيرة من الزمن، وجدت نفسها ترتع بالمال الكثير، وإنها في غنى عن هبات المختار نفسه، غير أنها لم تستطع الانفصال عنه، لأن مصالحها التقت مع مصالحه، فصارت تلبي رغباته التي كانت تنحصر في إفساد نسوة على غرارها، أو إغواء بعض نسوة الحي اللائي كان يشتهيهن، فكانت تفلح أحياناً وتفشل في أحيان كثيرة.

على هذه الوتيرة، غدت حياة فوزية، وأخذت الإشاعات تنتشر حول سلوكها، وتتضخم، حتى أقلعت نساء الحي عن زيارتها إلا قلة من اللائي اخترن المصير نفسه، وكانت فوزية على الرغم من هذا كله الامرأة المفضَّلة عند المختار، كما كان المختار رجلها المفضّل.

عزمت فوزية على زيارة زوجة علي الحجار، علّها تستطيع إغراءها وإغواءها، وكان تفكير فوزية منصرفاً بالدرجة الأولى إلى الاستفادة من زوجة

علي الحجار، أكثر من مجرد تهيئتها وتقديمها إلى عشيقها، فهي تدرك وتقدر قيمة الجمال الذي تحمله زوجة علي الحجار، لذا كانت تريد لسعدية مصيراً يختلف عن مصيرها هي من ناحية العمل نفسه.. كانت تريد أن تقودها بنفسها إلى طلاب اللذة كما فعلت الأخريات معها، وكما تفعل هي الآن مع من يقع في شباكها لقاء جعالة معينة، وكانت فوزية قد اختطت لنفسها هذه الخطة منذ اكتشفت بأن الربح عن هذه الطريق أوفر وأضمن من بيع جسدها لراغبيه، حتى إنَّها أخذت تفكِّر في استئجار بيت وتأثيثه بأثاث يتفق والغاية التي تعمل من أجلها، ووضعت الخطة التي تكفل لها نجاح مشروعها هذا، ولم يبق أمامها سوى الاتفاق مع بعض النسوة اللائي يبعن الهوى سراً.

عندما أخذت تطرق باب سعدية، كانت قد هيأت في ذهنها طريقة الكلام، والخطة التي ستستدرج بها امرأة علي الحجار، وكان علي الحجار نفسه هو الطعم الذي وقع عليه اختيار المختار وفوزية للإيقاع بها..

ما كادت فوزية تتخذ مجلساً لها في غرفة الضيوف وترد على ترحيب سعدية بترحيب مماثل، وعتاب حار لانقطاع الزيارات فيما بينهما حتى أخذت تتكلم في الموضوع الذي جاءت من أجله دون لف أو دوران، فقالت تسألها:

- أما زال زوجك عاطلاً عن العمل؟! .

فأجابت سعدية وهي تتنهد:

- أجل، وبعد شهر يكون قد مضى عليه عام كامل دون عمل..

فقالت فوزية متعجبة:

- وهل سيبقى هكذا أبد الدهر.. لمَ لا يفتش عن عمل؟! .

- لقد وعده المختار بذلك، وهو مازال ينتظر هذا الوعد في المقهى الذي يلازمه مذ قعد عن العمل.

- ماذا تقولين.. المختار وعده..؟!

وأعقبت قولها بضحكة ذات مغزى ثم أردفت:

- أنا قادمة تواً من عند المختار.. فهو يريد ثمن ذلك..!

وتجاهلت سعدية المعنى البعيد الذي رمت إليه فوزية وتساءلت:

- وما هو الثمن الذي يطلبه؟! .

فجمعت فوزية شجاعتها وقالت:

- أنت! .

- أنا؟! .

هتفت سعدية بذلك، وكأنها فوجئت، بينما تابعت فوزية قولها:

- طالما سيجد له عملاً مريحاً ومربحاً، وطالما زوجك لن يعلم شيئاً..

وتظاهرت سعدية بالتفكير بينما كانت فوزية تتدفق كالسيل مستغلة صمت مضيفتها:

- سيبقى الأمر سرّاً.. لن يعلم به أحد سوى نحن الثلاثة، ولا يجب أن تنسي كرم المختار، وسخاءه، فهو سيغمرك بهدايا لن تستطيعي معها إلا أن تغيّري نمط حياتك.

- ولكن! يا فوزية..

فقاطعتها هذه قائلة:

- أريد أن أسألك.. ماذا ستخسرين.. بصراحة: أنت لن تخسري شيئاً.. بل أستطيع أن أؤكد لك بأنك ستربحين أضعاف ما ستقدمين له..

وسادت فترة من الصمت، تظاهرت أثناءها سعدية بالتفكير ثانية، بينما لبثت فوزية ترقب بحذر، وقد أدركت بأن الصيد على وشك الوقوع في الشباك المعدة له، ومن ثم قالت عندما طالت فترة الصمت:

- لو كنت مكانك لما رفضت أبداً هذا العرض، ولا تنسي بأن زوجك لن يجد عملاً إلا تحت هذا الشرط، ثم إن اللقاء برجل كالمختار لا يعني أن تمنحيه

الحب، وهو في الأصل لا يطلب منك هذا، إنه يريد التمرغ والاستمتاع بجسدك، وهو يستطيع هذا مع أية امرأة أخرى إذا..

فقاطعتها سعدية قائلة بسخرية:

- إذاً، ليختر امرأة غيري.!

وأيقنت فوزية بأن سعدية على وشك السقوط، فقالت وهي تتظاهر بالنهوض:

- على رسلك.. إنه كنز ثمين، وسيعين زوجك في عمل مناسب، ولن تخسري شيئاً وهو مستعد لجميع شروطك التي تطلبين، وإذا ما تم هذا الأمر، فسأدلك على طريق تغرفين منها ذهباً.

وانفرجت أسارير فوزية المبهوتة، وامتلأ وجهها بابتسامة كلها عهر، وقالت وهي تقترب من سعدية وقد انتوت أمراً.

- كان يجب علي أن أزورك منذ زمن بعيد..

- هل أدركت الآن، بأني في غنى عن المختار وأمواله وهداياه..

- أدركت ذلك يا عزيزتي الماجنة..

- سأسلمه نفسي لينال مني ما يرغب ويشتهي لقاء إبعاد زوجي عن المدينة أو إيجاد عمل ليلي له، علماً بأني أستطيع ذلك عن طريق صديقي الضابط الإنكليزي، ولكني لا أريد أن أثير عنده الشبهات والشكوك..

فقالت فوزية، وهي تعانق سعدية فجأة وبلا مقدمات، وتقبلها قبلة داعرة في شفتيها:

- فهمت يا سعدية فهمت..

فقاطعتها هذه بصدق وقد بُوغتت بحركتها الماجنة:

- ولكنّي يا فوزية لا أستسيغ مثل هذه الحركات، ولا أظنك امرأة شاذة؟! .

كانت فوزية نموذجاً غريباً على المجتمع الدمشقيّ الذي يتمسّك بالأخلاق الكريمة، مؤمناً بالمثل القائل: (تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها)، ورغم تظاهر سعديّة بالموافقة المبدئيّة على العمل مع فوزية إلاّ أنّها كانت في قرارة نفسها تنظر إليها باحتقار ما بعده احتقارٌ، وتراها جرثومة فاسدةً تريد أن تصيد الجسد السوريَّ السليم المعافى خُلقاً وإباءً وكرامةً.

في حين كان الواقع يشير إلى وجود نماذج مشرقة تعكس الصورة الحقيقيّة للمرأة السوريّة المثقّفة الواعية، التي تشاطر الرجل حبّ الوطن والحرص عليه، وإعداد الجيل الذي ينهض بمهمّة تحرير الوطن وبنائه مستقبلاً.

* * *

- ١٤ -

كان المقهى خلاف عادته، غاصاً بروداه الذين انتشروا حول المناضد والطاولات والأخاوين المبعثرة دون نظام، يدخنون نراجيلهم وتبغهم، بعضهم يرقب سحب الدخان الصغيرة المتعرجة المنطلقة في فضاء المقهى، وبعضهم الآخر انصرف إلى اللعب أو تبادل الحديث في مختلف الأمور التي تشغلهم. وكان المختار يجلس مع الشيخ سعدو وأبي دياب، عندما وفد عليهم قاسم الذي قال فور اتخاذه لمجلسه بينهم:

- لم أرَ في حياتي كلها زحاماً على الأفران، كالزحام الذي شاهدته اليوم، وأقسم بأن نصف أهالي الشام، إن لم يكن أكثرهم باتوا ليلتهم على الخبز اليابس الذي دأبوا على تجفيفه وتيبيسه مذ ضغطت الحرب علينا بخناقها.

وأكَّد أبو دياب قول قاسم قائلاً:

- اليوم.. وزَّعوا نصف كمية الدقيق التي اعتادوا توزيعها على الأفران..

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

قال ذلك الشيخ سعدو، ومن ثم عاد إلى سبحته يبسمل بها دون أن يعلّق بشيء، وزفر المختار دخان نرجيلته في الفضاء وعقَّب معلقاً:

- كله من الميرة.. دوائر الميرة تلتهم كل شيء.. لم تترك شيئاً.. القمح، الشعير، العدس، الشوفان، الكرسنّة، الذرة.. كل شيء..

وقال أبو دياب وهو يتنهد بدوره:

- منذ صغري، وأنا أعمل في الأفران.. الحقيقة لم أرَ في حياتي، أعجب من الطحين الذي أخذوا يوزعونه في الآونة الأخيرة.. لا يمكن لأحد أن يحكم أو يعرف من أي المواد مزج أو حضّر، فإذا أضفنا إلى هذا كله، تلاعب أصحاب الأفران بالطحين المغشوش نفسه، وغشه من جديد، أدركنا مقدار رداءة الخبز المفروض على الناس..

فقال الشيخ سعدو مقاطعاً:

- من غشَّنا فليس منَّا..

فضحك قاسم وهو يقول:

- شيخ سعدو.. دعك من هذا الهراء، منَّا شئنا أم أبينا..

فاعترض الشيخ سعدو:

- أبداً.. أبداً.. وعلى كل حال، هي إرادة الله..

فصاح قاسم محتداً:

- مذ عرفتك يا شيخ سعدو، وأنت تلقي على كاهل الخالق كل أوزار البلد.. الاحتلال.. المظاهرات.. الاعتقالات.. الطوفان الذي اجتاح المدينة أخيراً..

وقال أبو دياب موافقاً:

- وأنا مع قاسم يا شيخ سعدو.. لا أوافقك أبداً على هذه الآراء..

وردَّ الشيخ سعدو بسرعة:

- افهموني.. أعطوني سمعكم.. مهلاً.. إن إرادة الله تتجلَّى في كل شيء.. في قيام الطلاب بالمظاهرات الدامية، بالفيضان، بالاحتلال، بالخبز،

بالغلاء.. كل هذا من إرادة الله. أما لماذا؟! فلكي يبصِّرَ المؤمنين بأحوالهم وليصبِّرَهم على ما يكرهون..

وردَّ قاسم هازئاً:

- أفهم من هذا، أن نقبع في بيوتنا منتظرين إرادة الله لتخلصنا من هذا المصير؟! قمْ يا عبدي لأقوم معك.

وقال أبو دياب:

- يعني، المقصود.. اجعل مع دعائك قليلاً من القطران..

وانتفض الشيخ سعدو وقال وهو مازال متشبثاً برأيه:

- في كل الأحوال، هي إرادة الله.. إرادته التي خلقت الحروب بين الكفار، وإرادته التي جاءت بهم إلى بلادنا، وإرادته التي..

فقاطعه قاسم مدهوشاً:

- ما هذا الذي تقول يا شيخ سعدو.. أتدري بأنك ألحقت بالخالق كلّ المصائب التي حلت ببلادنا، ولم تُلحق بنا نحن الذين نعيش في هذا البلد شيئاً..؟

وقال أبو دياب موافقاً:

- وأنا على الرغم من إيماني العميق، لا أقرُّك أبداً يا شيخ سعدو في ما ذهبت إليه..

وثار الشيخ سعدو، فرفع عقيرته قائلاً:

- إن كل هذه المصائب التي حلت ببلدنا، هي نتيجة الكفر الذي نوغل فيه.. السينما.. الملاهي.. الماخور.. الموسيقا.. الخمر.. الخمر التي بات الناس يتباهون بتعاطيها، ثمَّ انخراط آلاف المسلمين في جيوش الكفار.. كل هذا، وغير هذا كثير، هو سبب المصائب والكوارث التي يتجلى بها غضب الله عزَّ وجلَّ على عباده..

وقال المختار الذي اعتاد أن يصادق على كل ما يقوله الإمام:

- لا إله إلا الله.. ما في أعظم من الله وإرادته.. إلهي لا تميتنا إلا على الصراط المستقيم.

وقال أبو دياب بأسى:

- أنا إنسان بسيط، أقوم بواجباتي الدينية على أكمل وجه، ولم أعصَ له أمراً في حياتي.. فقدت ولديّ الصغيرين في الفيضان الأخير، وابنتي ما زالت مريضة، فهل أعتبر هذا غضباً من الله أم ماذا؟!.

فردَّ الشيخ سعدو بسرعة:

-إنه يمتحنك يا أبا دياب.. يمتحنك! .

- ولماذا أنا الرجل الفقير البسيط بالذات.. لماذا؟!.

ولم يجب أحد بشيء، غير أن قاسم قال موجهاً حديثه للشيخ سعدو:

- لم أكن أتصور نفسي في يوم من الأيام، بأني سأختلف معك، ولكني أقول، كما يقول الأساتذة الذين أجتمع إليهم دائماً، إنه يجب أن نفرق بين عبادة الخالق وروحانية الدين، وبين الأشياء المادية الأخرى، أنا مثلاً، أؤمن بالله، أو لا أؤمن به، هذا أمر يعود إليّ وحدي.. يعود إلى إرادتي وحدي، وإرادتي المنبثقة عن تفكيري الشخصي هي التي تقول لي: إن الخالق لا يريد منا سوى عبادته والإيمان به، وعدم مخالفة التعاليم السماوية التي تضمنتها الكتب المنزلة، وما جاءت به الرسل، وأما أن نقرن كل عمل نقوم به ونحمل مسؤوليته للخالق، فهو التدجيل بعينه.

- تدجيل! .

قال ذلك الشيخ سعدو، بغضب مقرون بالدهشة والامتعاض ثم ما لبث أن أردف داعياً:

- اللهم أرشدنا إلى سواء القوم الضالين... اللهم اهدِ كلَّ ضالٍّ ومنحرف...

فقاطعه قاسم متسائلاً:

- قل لي يا شيخ سعدو، بماذا تبرِّر مساعدة الجيش المحتل.. الجيش الذي نكَّلَ بالطلاب قبل الفيضان وبالأهالي، بماذا تبرِّر مساعدته للناس أثناء كارثة الفيضان ها..

- إنها هدي من الله عزَّ وجلَّ، لتخفيف الكارثة عن المؤمنين..

- هدي من الله.. ولكنهم في رأيك كفّار يا شيخ سعدو.. كفّار.

وارتبك الشيخ سعدو وأرتج عليه، وحار بماذا يجب، فالتفت حوله يائساً مستنجداً وعند ذاك قال المختار:

- أنا أقول لكم لماذا ساعدنا! ساعدنا لأنه في حاجة لنا. في حاجة لكدنا وعرقنا وخبزنا.. إنه لم يساعدنا، إلا لأنه شعر بالحاجة الماسة إلينا..

وظن المختار بأنه أفحم قاسم بحجته، فجلس جلسة كلها زهو، ولكنه ما لبث حتى وجد نفسه هو الآخر حائراً عندما ردّ عليه قاسم:

- لا.. يا مختار.. إن الجيش المحتل لم يفعل ذلك كما تظن، ترى لو أن الفرنسيين والإنكليز حصدوا سكان دمشق، هل كنا نستطيع أن نفعل شيئاً؟! بصراحة.. لا.. أما لماذا؟! فلأننا لا نملك سلاحاً أو مالاً نستطيع عن طريقهما مقاومة الاحتلال، وكل ما نستطيع القيام به، هو أن نحفر القبور لمن سقطوا صرعى برصاصهم، كما فعلنا بعد الإضراب الأخير..

- وما هو في رأيك السبب الذي جعل المحتل يساعدنا بجيشه لتخفيف الكارثة؟!.

قال المختار ذلك، ظاناً أنه وضع قاسم في مصيدة محكمة الإغلاق، غير أن الرد جاءه سريعاً:

- السبب إنساني محض، لا علاقة له بالاحتلال أو السياسة، والفيضان كان فترة الهدنة الوحيدة هذا العام بين الناس وقوى الاحتلال.. والسبب الإنساني هذا هو الذي حدا بقوات الاحتلال المتنافسة فيما بينها على البقاء في بلادنا،

إلى تقديم يد المساعدة للمنكوبين لإظهار حسن النية، في الوقت الذي لم تقدم فيه الحكومة شيئاً.

وساد الصمت قليلاً إلى أن بدده أبو دياب بقوله:

- أنا معك في ما تقول، لقد أعطوا المنكوبين كثيراً من الخيام، ووزَّعوا عليهم خبزاً، لم تحلم به الشام حتى في أيام ما قبل الحرب...

وأكد المختار كلام أبي دياب وكأنه يتابع ما يقوله:

- هذا صحيح.. ولا تنسوا المعلبات والفرش والبطانيات والأسرّة..

وقطع الشيخ سعدو استرسال المختار في هذا قائلاً:

- أرى أننا لن نستطيع أن نتابع النقاش، فأنت يا أخ قاسم، تحمل أفكار أولئك الأساتذة الذين تجلس إليهم بين الحين والآخر، وتنظر إلى الأمور من خلال ما يلقنونك من أفكار، بينما أنا لا أفكر، إلا من خلال إرادة الخالق العظيم وأنبيائه وأوليائه الصالحين.

وتوقف قليلاً عن الحديث حتى إذا وجد قاسماً عازفاً عن الردِّ تابع بحماس:

- أنت تنظر إلى الأمور كأنك الإله. أستغفر الله العظيم. أو كأنك خلقت نفسك بنفسك.. انظر نعمة الله عليك، تمعّن بها، ثم ناقشني من جديد في الأمور التي أثرتُ .

وهمَّ قاسم بالرد، غير أن أبا دياب قال مغيراً الحديث:

- دعونا من هذا، وخلونا في المهم.. ماذا تم في العريضة، هل تفضلون أن تتكرر مأساة الفيضان التي حلت بالحي؟!.

وردّ المختار مستسلماً:

- لقد نفضت يدي من هذه المسألة على الرغم من أن الشيخ سعدو مازال يناضل في سبيلها، وأعتقد بأن المسألة ميئوس منها.. لقد رفضوا أن يدفعوا تعويضاً للمنكوبين، فهل يرصدون مبلغاً كبيراً لسقف النهر..

وقال قاسم ملطفاً الجو وموجهاً الحديث للشيخ سعدو:

- بارك الله فيك يا شيخ سعدو، وإن شاء الله تتكلل مساعيك بالنجاح..

- لا مردَّ لمشيئة الله، أنا من جهتي، سأسعى وأكافح، ولن أدع هذه المسألة تمرُّ دون أن تنجح بإذن الله.

وقال أبو دياب منبهاً المختار:

- أرى علي الحجار قادماً نحونا، ترى هل وجدت له عملاً؟ ..

ورد المختار:

- بإذن الله..

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام..

ردَّ الجميع على تحية علي الحجار، بينما كان هذا يتخذ مجلساً له قرب المختار صالح..

وصفَّق المختار بيديه يدعو النادل وهو يسأل علي الحجار:

- شاي أم قهوة ؟..

- لا أريد أن أثقل عليك..

- لا عليك.. سأطلب لك شاياً، فهو على الأقل ذو لون، بخلاف القهوة التي لم نعد نعرف لها طعماً حقيقياً..

- حسن.. شاي..

وارتفع صوت النادل صائحاً:

- واحد شاي ثقيل..

والتفت المختار نحو علي الحجار وهو يقول له:

- وجدت لك عملاً سهلاً..

- الله يديمك لنا وللحي يا مختار..

ونهض في تلك اللحظة أبو دياب والشيخ سعدو وقاسم، فودعوا المختار وعلي الحجار وانصرفوا بينما تابع المختار بعد انصراف زملائه قائلاً:

- وجدت لك وظيفة شاغرة جيدة، ولكنها بعيدة عن دمشق..

- لا بأس.. المهم أن أشتغل..

وهزَّ المختار رأسه موافقاً:

- صحيح.. المهم هو أن يشتغل الإنسان..

وسأل علي الحجار بحرارة:

- ومتى أبدأ العمل؟! .

وأجاب المختار وهو ينفث دخان نرجيلته في الهواء:

- غداً، في الساعة الخامسة صباحاً تأتي سيارة العمال التابعة للجيش الإنكليزي لتقلك إلى مركز عملك..

- أرجو ألا يكون بعيداً جداً عن الشام..

- الحقيقة يا أخ علي، في الوقت الحاضر، لا يوجد سوى هذا المكان شاغراً.. ربما بعد شهر أو شهرين، تنقل إلى دمشق، إنما المهم أن تباشر العمل.. شهران ويمران بسرعة.

- طيب.. طيب، وأين مركز العمل ؟..

- قبل كل شيء وبسبب وضعك الصحي ستعيَّن مشرفاً ومراقباً على العمَّال الذين يعملون في طريق حلب..

- حلب؟! .

قالها علي الحجار مستهجناً المسافة الكبيرة التي ستفصله عن بيته ومدينته، ولكن المختار تابع دون اهتمام باستهجان علي الحجار قائلاً:

- ليس تماماً.. على طريق حماة – حلب.. ستجلس على كرسي في خيمتك وتراقب منها العمال الذين سيعملون تحت إمرتك.

- في هذه الحالة لن أتمكن من الحضور أبداً إلى الشام..

- سأدبِّر لك الأمر، لتستطيع الحضور بعد الشهر الأول، ولن ينقضي الشهر الثاني حتى تكون قد انتقلت نهائياً إلى هنا..

-الحقيقة يا مختار، أنا مدين لك بالفضل، ولكن هل أستطيع معرفة الراتب الذي سأتقاضاه.!

-ستبدأ عملك بمياومة مقدارها خمس ليرات، وفي أول الشهر الثالث سترتفع تلقائياً إلى سبع ليرات، وأرجو أن تجعل علاقتك بالميجر (واطسن) جيدة، لأن بيده مفتاح كل هذه الأمور، بالإضافة إلى كونه مساعد الكولونيل (سترلينغ) الذي بيده الحل والربط في كل البلد.

- فهمت.. فهمت، ولكن قل لي يا مختار، كيف أشكرك..

وضحك المختار وهو يقول بينه وبين نفسه: (لقد خدمتني زوجتك قبل أيام خدمات طيبة لا تنسى)..

وقال علي الحجار بإصرار، إذ رأى المختار شارداً:

- أرجوك يا مختار.. أرجوك..

- ما دمت تصرُّ فاجلب لي معك من حماة شيئاً من اللبن..

- على عيني ورأسي.. كيس من اللبن وخروف..

- لا تثقل على نفسك يا رجل..

- أبداً.. أعوذ بالله.. فضلك على رأسي..

قال ذلك ونهض مستأذناً وهو يتابع:

-عن إذنك.. أريد أن أبشّر زوجتي..

- على رسلك، ولكن إياك أن تنسى.. السيارة تتحرك في الخامسة صباحاً، وهي عادة لا تنتظر أكثر من ذلك..

- شكراً.. شكراً..

- رافقتك السلامة..

* * *

دخل علي الحجار البيت كالعاصفة، يغمره الفرح، وكان يتوقع ألا يجد زوجته في البيت، ولكنه ما كاد يتوسط باحة البيت الصغيرة، حتى لمح امرأته رائحة غادية في المطبخ فصاح بها:

- سعدية.. سعدية.. عندي أخبار سارة..

ولم ينتظر حتى توافيه إلى صحن البيت بل اندفع نحو المطبخ وهو يتدفق بالكلام:

- لقد وجدت عملاً.. سأسافر غداً باكراً إلى حماة لاستلامه..

وتظاهرت سعدية بعدم التصديق، ورمقت ابنتها سميرة أولاً، ثم توجهت إلى زوجها:

- إلى حماة! .

ثم أردفت:

- أحقاً وجدت عملاً، أم ما زلت تجدف عليّ كعادتك منذ شهور! .

- لا.. أبداً.. هذه المرة، عملاً حقيقياً..

وتساءلت سعدية وهي تتجاهل:

- وما هو نوع العمل الذي ستقوم به في آخر الدنيا..

- عمل سهل.. سأراقب عمال الطريق فقط، وسأتقاضى لقاء ذلك خمس ليرات في اليوم..

- الحقيقة، سررتني.. لأني بدءاً من هذا اليوم سأتوقَّف عن هذا العمل الذي يرهقني ويذهب بصحَّتي..

- هذا ما كنت أودّ أن أقوله.. وأعترف إليك بأني فوجئت بوجودك في البيت لأني لم أتوقَّع عودتك المبكرة من العمل الذي تزاولين.

وقالت سميرة بفرح:

- آه.. أنا سعيدة يا أبي بذلك.

وردَّت سعدية على ملاحظة زوجها:

- ما حاجتي إلى العمل، طالما ستشتغل وتؤمّن كل شيء..

- سأرسل لك كل شهر مبلغاً يكفي احتياجك واحتياج سميرة..

وتساءلت سميرة بشجن:

- وهل سنُحرم من رؤيتك يا أبي مدة طويلة..؟

وفكَّر الأب فجأة في عبارة ابنته.. صحيح أنه لم يكن يراها كثيراً على الرغم من وجوده معها تحت سقف واحد، ولم يكن يبادلها الحديث إلا فيما ندر، ولم يسألها ذات يوم عما تريد وتحب وتكره، ويعاملها بخشونة أقرب منها إلى القسوة، إلا أن عاطفته نحوها كانت قوية.. لقد أدرك في لحظة بأنه كان مخطئاً معها.. لقد هزته عبارتها هذه، وأيقظت حنانه من هجوده الطويل، فاقترب منها، وضمها إلى صدره، وقبلها في رأسها وهو يقول وقد ترقرق الدمع في عينيه:

- لن أغيب طويلاً.. لقد وعد المختار بأن إقامتي لن تطول، ولن تتجاوز الشهرين..

- شهران..!

قالت سعدية ذلك باستغراب، بدا لزوجها، وكأنها تستكثر مدة غيابه، بينما كانت في حقيقة الأمر تستغرب قصر المدة؛ لأنها اتفقت مع المختار على أن يبقى في عمله بعيداً عن دمشق..

وردَّ علي الحجار على استغراب زوجته:

- لا بأس يا سعدية.. شهران ويمران سريعاً، ولن تكوني بعدهما مع سميرة وحدكما .

- طيب يا علي.. على خيرة الله..

- اعتنيا ببعضكما بعضاً، ولا تنسي يا سعدية ما قلتِ بالنسبة لعملك، إذ ليس من المعقول أن تبقى سميرة وحدها..

- اطمئن.. لن أشتغل، وسأرعى سميرة الرعاية التي تستحقها، وأنت فكّر بنا، وحاول أن تخطف رجلك لزيارتنا أثناء ذلك.

- سأحاول.

- والآن، اتركني مع سميرة.. إذ من الضروري أن نهيئ لك زاداً للطريق..

- لا تشغلي نفسك، فقط قليلاً من البيض المسلوق، والبطاطا...

- على عيني.. اذهب واسترح وسأوافيك بعد قليل...

* * *

- ١٥ -

لم يك يشغل أحمد بعد تماثله للشفاء وعودته للمدرسة، ثم نجاحه في امتحانات (البروفيه) سوى أمر واحد.. الشقراء الصغيرة هيام، التي لم يعد يشاهدها منذ أمد طويل، لا في طريقه إلى المدرسة، ولا عند أوبته منها، وها قد انقضت أيام الدراسة، وجاءت العطلة الصيفية دون أن يسمع عنها خبراً. واستبد به الفضول أكثر، عندما لم يعد يراها حتى في نافذة غرفتها التي اعتاد الوقوف عندها كل مساء، وكاد أكثر من مرَّة يسأل صديق أبيه قاسماً عنها، كلما رآه خارجاً من البيت الذي يملك فيه غرفة واحدة، غير أن قاسماً كان يكتفي بتحيته وسؤاله عن أبيه وأخته أمينة، ثم يتركه في وقفته ليتجه إلى المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه مع رفاقه.

عزم أحمد الذي لم يكن على صداقة وطيدة مع عدنان جار حسنائه الصغيرة، على زيارة هذا الأخير، وتوطيد صداقته معه أملاً في معرفة شيءٍ ما عن فاتنته الشقراء، وهكذا توجَّه مساء أحد الأيام نحو بيت صديقه، الذي ما كاد يراه حتى رحّب به ودعاه إلى الدخول وهو يقول مستغرباً:

- كيف تجرَّأت على زيارتي.. حقاً إنك لصديق طيب، إن أكثر الرفاق الذين تعرفهم أقلعوا عن زيارتي بسبب جيراننا..

وتساءل أحمد مستفسراً وهو يشير بيده نحو غرفة شقرائه الصغيرة:

- جيرانكم.!

- أجل..

ثم أردف مخافتاً من صوته:

- إن بنت جارتنا مريضة جداً..

فصاح أحمد وقلبه يثب بين ضلوعه وقد اضطرب ظهراً لبطن، وعلا الارتباط والاحمرار كل وجهه:

- مريضة!

فهز عدنان رأسه مؤكداً قوله:

- أجل، الشقراء التي سألتني عنها ذات يوم، إنها مصابة بمرض خطير، وقد منعتني أمي وإخوتي من اللعب معها أو مع أخويها الصغيرين، حتى إنَّها أخذت تقنع أبي في الآونة الأخيرة بالانتقال من البيت..

- وهل مرضها معدٍ؟! .

- إنها مصابة بالسل، وتؤكد أمي بأننا سنصاب بمثل مرضها إن اقتربنا من غرفتها..

وشرد أحمد بتفكيره، وأحس بالدنيا تدور من حوله، ووجه شقرائه الباسم يدور معها دوراناً مستمراً، وشعر بأنه موشك على الاختناق، وأنه بحاجة لرؤيتها، أكثر من أي وقت مضى.. وهمّ بالكلام، فأرتج عليه، وارتبك من جديد بينما تابع عدنان قوله:

- لن أقسرك على البقاء، وثق إذا كنت ترغب بالرحيل فلن أتأثر من ذلك، ولن يؤثر هذا على صداقتنا.

وقال أحمد وقد بدأ الهدوء يعود إليه:

- أبداً.. سأزورك دائماً، ثم إني زرتك اليوم لأبوح لك بشيء مهمّ يعتمل في صدري منذ زمن بعيد..

- هل أستطيع أن أخدمك بشيء..

- أجل.. أنت وحدك الذي يستطيع ذلك.. أنا يا عدنان عاشق..

- عاشق؟! .

ثم أردف بعد أن زال استغرابه:

- إني سعيد لأنك خصصتني بهذا السرِّ..

وتلعثم أحمد حياء وهو يقول:

- أنا أحبُّ هيام..

- هيام بنت جارتنا؟!.

فهزَّ أحمد رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم بينما اندفع عدنان قائلاً ومنبهاً:

- ولكنها مريضة.. مريضة جداً، وأمي تقول إن مرضها خطير..

- لا يهم.. المهم أنها تبادلني عواطفي، وربما لو رأتني تتحسن حالتها.. وأنا لا أريد أن تظن بأني حين علمت بمرضها هربت من وجهها خوفاً على نفسي..

- وهل تقابلتما قبل الآن..

- أبداً..

- أوَ تُسمِّي هذا حباً يا صديقي!.

- أجل، فالنظرات، والإشارات، والإيماءات المتبادلة بيننا، والتحيات، ووقوفي عند الجسر قبالة نافذتها، ووقوفها وراء النافذة وهي ترمقني دون أن تحوِّل نظراتها عني، كل هذا دليل على الحبِّ المتبادل فيما بيننا..

وران الصمت على الصديقين ثم قال عدنان متحمساً:

- سأرى إن كنت أستطيع شيئاً! .

- بل تستطيع..

- انتظر قليلاً، ريثما أتدبر الأمر.. إن والدتي ليست هنا.. سأرى أمها إن كانت تسمح بذلك، وأظنها لن تمانع، فهي ترغب بالترفيه عن ابنتها العليلة، انتظر قليلاً لأرى..

وأحسّ أحمد بأن دهراً طويلاً قد مرَّ عليه، قبل أن يعود صديقه ليدعوه قائلاً:

- هيا.. أسرع.. اصعد السلم، الغرفة الأولى إلى اليمين..

- كيف أستطيع أن أشكرك..

دعك من هذا.. أسرع إن والدتها امرأة طيبة، وقد رحبت بزيارتك كثيراً..

ونظر أحمد إلى عدنان طويلاً بامتنان، واغرورقت عيناه بالدموع، وشدّ على يدي صديقه، ثم ما لبث الصديقان طويلاً حتى تعانقا، ومن ثم خرج أحمد، وقلبه يصفق فرحاً بين جنبيه، وأخذ يصعد السلم بتمهل.

* * *

كانت الغرفة التي دخلها أحمد خلف أم إبراهيم وهي ترحب به، تبدو رغم ضآلة الأثاث واسعة مرتبة، وكان المصباح الكهربائي الوحيد المتدلي من سقف الغرفة يكشف عن وجود صبيين اقتعدا الأرض على طرحة عتيقة بعيدة عن فراش أختهما، وكان نور الغرفة قوياً نتيجة لانعكاس نور المصباح على مرآة (البيرو) العالية المصدفة التي تكاد تلامس سقف الغرفة، وكانت أدراج (البيرو) العريضة الكبيرة المصدفة تبدو في أبهى حلتها، كأنها جاءت تواً من عند البائع، وكان هناك غير ذلك، عدد من الكراسي الصغيرة، وطاولة لا ترتفع كثيراً عن تلك الكراسي التي صفت بحِذائها، ومقعدان كبيران نهضا حول النافذة، أما

أرضية الغرفة فقد مدَّ فوقها حصير غطى أرضية الغرفة كلها، وفوق الحصير وفي منتصفها تماماً فُرش بساط نظيف غطَّى بتناسق بعض جوانبها.

كان أحمد قد خلع حذاءه، ووضعه إلى جانب الأحذية الصغيرة، خوفاً من أن يتسخ البساط النظيف..

وقالت أم إبراهيم تنصح أحمد هامسة:

- لا تجلس قريباً منها..

وحاول أحمد أن يعمل بنصيحة الأم ولكنه لم يستطع، فقد كانت العينان الخضراوان اللتان أشرقتا لرؤيته، تدعوانه بصمت إلى الاقتراب من صاحبتهما.. واعتراه نوع من الاضطراب لم يدرِ سببه، ولاذ بالصمت دون أن يدري ما يفعل غير أنه ما لبث حتى جازف قائلاً:

- سأجلس هنا.. أنا معتاد الجلوس على الأرض.

وارتمى قبل أن يسمع جواب أم إبراهيم بجسده النحيل إلى جوار فراش هيام، وهو ينظر إليها بلهفة وقد دمعت عيناه، وفتش عن شيء يقطع به حبل الصمت، فلم يجد سوى كارثة الفيضان لتبرير غيابه الطويل لحلوته المريضة، فقال مخاطباً أم إبراهيم متردداً:

- لقد كنت مريضاً أنا الآخر، وقد منعني مرضي من زيارة أكثر أصدقائي.

فأجابت أم إبراهيم وقد أدركت وفهمت كنه العواطف التي تعتمل في صدر أحمد:

- دريت بكل شيء.. والحمد لله على سلامتك..

فتابع أحمد مرتبكاً:

- لم أدرِ كيف حدث ذلك.. فقط..

وغيّرت أم إبراهيم الحديث بقولها:

- ونحن أيضاً.. انظر ماذا ربحنا من الفيضان..

وأشارت إلى ابنتها ثم أردفت:

- لقد انتابها رعب مفاجئ، لم أدرِ كيف حدث.. كنا نسير مع الناس، نبغي النجاة، وفجأة صرختْ وهي تشير إلى النهر.. لعنها الله من ساعة، لقد عقد الرعب لسانها.. أجارنا الله من ساعة الغفلة..

ولم يعد أحمد ينتبه إلى حديث أم إبراهيم، إذ قذفه حديثها إلى يوم الكارثة، وألحت عليه صورة أخويه الصغيرين بعنف، وخيّل إليه بأنه يسمع صراخهما، ونحيب أمه، وأمينة رابضة فوقها، واللجة التي تبتلع أخويه. فرفع يديه إلى عينيه كأنه يحاول أن يحجب عنهما ما يتخيله، ولم يستيقظ من تخيلاته إلا عندما هزته أم إبراهيم برفق وهي تقول:

- أَبِكَ شيء يا بني؟!.

وأخذ تنفسه يتسارع كأنه في سباق طويل ثم قال وقد هدأ نوعاً ما:

- لا.. أبداً.. لا شيء.. كنت أتذكر الحادثة..

ووجمت أم إبراهيم قليلاً، وقد تذكَّرت بدورها الحادثة التي أودت بأخويه فقالت مغيِّرة الحديث:

- ما رأيكم بكأس من الشاي!

وأجاب أحمد وهو ينظر إلى هيام التي كانت تهز رأسها بالإيجاب:

- لا بأس..

واقترب أحمد في جلسته أكثر من هيام، فيما طفقت أم إبراهيم تهيئ الشاي.

ووجد نفسه يلمس جبينها الذي نقل إليه حرارتها المرتفعة قليلاً، فارتعد، وقد زاد ترقرق الدمع في عينيه، وحاول أن يخفي ذلك وأن يمنع نفسه عن البكاء، فشاغل نفسه بتحركات أم إبراهيم ثم بقرفصتها بجانب الباب، وهي توقد

طباخ (البريموس)، ولم يعد إلى هيام إلا عندما سمعها تقول له بصوت واهن ضعيف:

- أحمد..

- أتريدين شيئاً؟!

فهزت رأسها نفياً ثم قالت:

- أريد أن أشكر الله..

- على ماذا؟!

- على المرض الذي أنا فيه..

- ما هذا الذي تقولين..

- أجل.. إذ لولاه، لما سعدت برؤيتك ولقائك والاستماع إلى حديثك.

- ستشفين عما قريب..

- أوَتعتقد ذلك؟!

- ولم لا.. ألم يخلق الله لكل داء دواء..!

- بلى!.

- إذاً..

- لقد بدأت أحبُّ حركاتك.. هزَّات رأسك التي لا معنى لها..

- لم أكن أتصوَّر أنَّ صوتك ينافس جمالك..

- هل سأراك دائماً؟!.

- طالما تسمح أمك بذلك.. أما إذا رفضت، فسأسهر قربك هناك..

وأشار بإصبعه عبر النافذة..

وتساءلت ضاحكة:

- عند عمود النور! .

وهزَّ رأسه ثانية وهو يقول:

- أجل.. عند عمود النور..

وران الصمت لحظة قبل أن يسأل أم إبراهيم:

- أتسمحين يا خالة بفتح النافذة.. إن رائحة غاز الطبّاخ تسيء إلى هيام..

وجاءه صوت أم إبراهيم من بعيد:

- كنت سأسألك ذلك..

ونهض إلى النافذة، ففتحها، وأطلّ منها، ولم يدر لمَ رمق عمود النور الذي اعتاد الوقوف عنده للحظات، ثم ارتد ليجلس من جديد إلى جوار حسنائه المريضة، وقد شاعت الفرحة في كل حركة من حركاته..أما هيام، فكانت في أوج سعادتها، تنظر بلهفة وحيرة إلى أحمد، غير مصدقة، وحاولت الجلوس في فراشها، وتمكنت بعد لأي عندما ساعدها أحمد في وضع الوسادة وراء ظهرها من الجلوس براحة.

أخذ أحمد يرشف الشاي ببطء متناهٍ، بينما جلست أم إبراهيم قربهما، وقد بدت الفرحة في وجهها بأجلى صورها لسعادة ابنتها ومرحها المفاجئ.

أطال أحمد المكوث بجوار فتاته وهي ممسكة براحته، حتى إذا غفت، وسحب راحته من يدَي فاتنته، استأذن أم إبراهيم التي كانت توسِّد ابنتها في الفراش جيداً، وتغطيها بعناية بالانصراف، فرافقته حتى الباب، دون أن تنسى أن تقول له وهو يرتدي حذاءه:

- يمكنك زيارتنا كلما وجدت متسعاً من الوقت..

فأجابها وهو يودعها:

- لا أدري كيف أشكرك.. أنت سيدة عظيمة..

وحين انحدر على الدرج، كان كل شيء مظلماً، فتلمس طريقه في الظلام حتى وصل إلى البوابة، فانطلق منها إلى الزقاق وهو يصفر بارتياح لحناً شائعاً، وعندما وصل إلى عمود النور، توقَّف بحركة لا إرادية، والتفت نحو النافذة الوحيدة المضاءة في البيت، ورأى فيها ثمَّة شيء يودعه، عرف فيه أم إبراهيم،

ولم يدرِ لمَ لوّح لها بيده، ثم تابع طريقه تحفّه السعادة، وتهزّ الغبطة كل أجزائه، وتغمر كل قلبه ونفسه وطاب له أن يقف على الجسر الخشبي، وأن يرمق مياه النهر متأملاً لمعان المعلبات الفارغة، والحشائش الليفية التي كانت تتكيف وفق دفقات الأمواج الصغيرة مسترجعاً كل دقائق زيارته لأم إبراهيم وابنتها.

وطال وقوفه على الجسر، كأنه صنم أسطوري على أحد جسور روما، حتى إذا تناهت إليه من بعيد ضربات عصا الحارس، انتبه إلى نفسه، فغادر الجسر متوجهاً إلى البيت بخطوات متمايلة سعيدة، حتى ابتلعته أزقة الحي وظلمتها.

- ١٦ -

لم تستطع سميرة أن تلاقي سعيداً إلى موعده بسبب الفيضان، وكانت رغبتها لذلك قوية، تتوق لو يدعوها ثانية إلى لقائه ولو بإيماءة من رأسه، ولكنه لم يفعل طوال الأيام التي تلت حادثة الفيضان، ومع هذا فإنه لم يغفل الوقوف خلف نافذته، ولم يغفل لقاء فاتنته من ورائها يوماً واحداً.. كان يكتفي بالنظر إليها والتفكير فيها.. لا يجد الشجاعة لأن يعيد إشاراته السابقة التي اعتاد أن يشير بها كأن الفيضان مسح كل الماضي.. وعاد ليبني الحب المترعرع بين النافذتين من جديد..

وحاولت سميرة من جانبها أن تشجعه بابتساماتها التي تستقبله بها دائماً دون جدوى، وظنت مختلف الظنون التي ذهبت بها مذاهب شتى، وتمنت لو لم تكن صريعة الحمى التي انتابتها في أعقاب الفيضان لتذهب إليه في الموعد الذي طلبه منها، ولكنها كانت في عالم آخر غريب عليها.. عالم لم تستيقظ منه إلا بعد ثلاثة أيام لتجد أمَّها تعتني بها، ولاحظت أنَّ أمَّها لم تعد تفارقها، تجلس معها، وتتطلع من النافذة مثلها، وتحذو حذوها في مراقبة نافذة جارها، الأمر الذي بعث في قلبها مزيداً من الشكِّ، وكانت تتساءل كلما استلقت في فراشها هل علمت أمُّها بالأمر..! هل اكتشفت علاقتها بسعيد؟! ولا تلبث حتى تجيب نفسها وهي تضحك:

ولكن ما هي العلاقة التي تربط بيني وبين سعيد؟! إنها حتى الآن ليست سوى نظرات عاشقين وجد الحب سبيله إلى قلبيهما عبر نافذتين متقابلتين يفصل بينهما النهر. وكانت إذا تعبت من التفكير، نامت وكلها أمل أن تستيقظ في الصباح على دعوة سعيد لها.. كانت في شوق إلى لقائه.. إلى حديثه وابتسامته التي تحبها.. إلى التجول معه في الطريق التي نوّه عنها. غير أن الأيام كانت تمضي مسرعة، وسعيد عاكف عن دعوتها، دون أن يعرف هو بالذات سبباً لذلك، وربما أحجم خوفاً من رفضها والفتور الذي قابلته به.

وفي تلك الليلة.. الليلة التي حلمت بخبر اعتزام أبيها السفر لاستلام عمله، استلقت في فراشها معتزمة أن تفصح لسعيد عن طريق الإشارات برغبتها في لقائه، كأنها وجدت في سفر أبيها متنفساً تنطلق منه وفق هواها ورغبتها دون أن تحسب حساباً لأمها، لأنها كانت واثقة من أن أمها لن تغير شيئاً من عادتها في الذهاب كل مساء إلى العمل الذي لم تستطع أن تكشف شيئاً عنه.

وتقلَّبت في فراشها كثيراً وهي تفكِّر في الوسيلة الناجحة، وقد عاد التشوش يغزو تفكيرها في تصرف أمها، وعملها الغريب، وقررت بينها وبين نفسها اكتشاف ذلك من جديد، كما قرَّرت أن تتفق مع سعيد على موعد للقاء مهما كلَّفها الأمر من مشقة وبذل.

* * *

لم يمضِ على سفر علي الحجار أربعة أيام حتى عادت سعدية مسيرتها الأولى في الخروج مساءً والعودة مع إطلالة الفجر وكانت تقول لابنتها قبل انصرافها:

- لا تنتظريني.. سأتأخر قليلاً..

وكانت هذه الأيام القليلة وحدها كافية لأن تفسح المجال أمام سميرة لتوطد علاقتها بسعيد المتدله بحبها، فكانت ترافقه في الشوارع البعيدة، وتلبي دعواته المتكررة، فيصطحبها معه إلى دور السينما، وكانت تسمح له بأن يقبِّلها في

وجنتها كلما أمن عيون الناس حوله والمحدقة أبداً في مشاهد الروايات المعروضة. وكانت تتمنى في أعماقها لو يقبلها في شفتيها كما يفعل أبطال الأفلام، ولكن كيف يقدم على ذلك.

وفكرت من جديد وقد استحوذت على مشاعرها الفكرة، ورغبة اللقاء.. إن أمها حتى ولو عادت قبل موعدها، فإنها تأوي إلى فراشها دون أن تفكر حتى بالسؤال عنها..

وهكذا عزمت على دعوة حبيبها إلى المنزل عندما يحل الظلام، ويقفر الشارع، وزيادة في الحرص، قررت أن تتعقب أمها لتعرف البيت الذي تعمل فيه وبالتالي لتأمن عدم عودتها ومفاجأتها.

* * *

لم تنسَ سميرة وهي تتعقب أمَّها أن تواعد سعيداً على اللقاء في ساحة الشهداء كعادتها، وعندما رأت أمها تستقل حافلة المهاجرين فعلت مثلها، وحاول الكمساري أن يدفعها نحو مقاعد السيدات دون جدوى فقد كانت أمها تجلس هناك، ولبثت تراقب أمها عن كثب إلى أن نهضت عند موقف البرلمان، فغادرت الترام ميمِّمة وجهها شطر شارع العابد، فتعقبتها عن بعد وهي مازالت تغذُّ السير حتى غدت عند ساحة السبع بحرات، فقطعتها باتجاه شارع بغداد وتابعت سيرها دون أن تتلفت خلفها، واستمرَّت في سيرها إلى أن انحرفت في طريق جديد يؤدّي إلى بساتين عين الكرش التي أخذت تلتهمها العمارات الحديثة، وأسرعت سميرة بدورها نحو الزقاق الجديد الذي شاهدت أمها تنعطف فيه، وتلكأت في سيرها عندما شاهدت أمها تلج بناءً حديثاً مكوناً من عدة طبقات، وجازفت فاقتربت من البناء المذكور، وأطلت برأسها نحو مدخل البناء فرأت أمها تدخل الدور الأول وتغلق الباب خلفها.

واحتارت سميرة في أمرها وهي تتساءل: ترى من يقطن في هذا البيت! أهو بيت شريف كما تدّعي أمُّها أم أنَّه بيت غير شريف؟.

وقفلت أدراجها من حيث أتت دون أن تحصل على جوابٍ شافٍ، وقد ارتاحت إلى خاطر جديد: ترى ألا يمكن أن يكون لأمها وهي على مثل هذا الجمال حبيب مثلها؟! .وأجابت نفسها: وماذا يمنع ذلك؟! وتساءلت: وأبي.. أليس زوجها.. وبرزت فكرة الخيانة تغزو عقلها ونفسها بشكل عنيف، فاستنكرت تصرف أمها وهي تسأل نفسها من جديد: كيف تسوّل لها نفسها خيانة أبي؟.. وقارنت نفسها بأمها ثم أجابت: أنا لا يمكن أن أخون سعيداً أبداً.. وتخيلت أمها تناقشها: ولكنه ليس زوجك.. واستيقظت من تفكيرها على نفير سيارة مرَّت بجوارها، فأغذّت السير نحو ساحة الشهداء وهي تقول موافقة: أجل إنه ليس زوجي.. إنَّ سعيداً ليس بزوجي، وهو حتى هذه اللحظة لم يطلب منها ذلك.. ترى ألا يمكن أن يخدعها.. ألا يمكن أن ينال منها وطره وينصرف دون أن يلتفت إليها؟!.. وأردفت وهي تدافع عن سعيد: أجل يمكن لأي إنسان أن يفعل ذلك، ولكن غير سعيد، وهو إذ لم يطلب منها الزواج حتى الآن، فلا ريب سيطلبه منها في المستقبل.. وتوقفت عن السير وقد واتتها فكرة فقالت تحدِّث نفسها بصوت مرتفع «لمَ لا أسأله ذلك طالما يحبني؟!».. وارتاحت إلى هذا الخاطر وقد عزمت أن تطرح عليه فكرة الزواج عندما تختلي به في غرفة نومها الصغيرة. وكانت في تلك اللحظة قد أشرفت على ساحة الشهداء، ورأت سعيداً يقف بجوار مبنى البلدية، فتوجَّهت نحوه معتزمة أن تكتشف ما يخبئه من خطط لمستقبلهما. وعندما رآها هرع نحوها، وحاول للمرة الأولى أن يتأبط ذراعها فلم تسمح له، فاكتفى بالسير إلى جانبها وانطلقا كعادتهما نحو شارع أبي رمانة الترابي الذي شُقّ حديثاً، واعتادا التجول فيه كل يوم تقريباً، دون أن تعيقهما الأتربة ومخلفات البساتين التي تملؤه..

* * *

أشارت سميرة من نافذتها إلى سعيد حين اطمأنت إلى خلو الزقاق من المارة تقريباً بالقدوم، وخلال دقائق كان سعيد يلج بيت علي الحجار وسميرة تغلق الباب خلفه وتصيخ السمع وتسأله هامسة:

- هل رآك أحد؟!

وردَّ سعيد بصوت مرتجف لا يكاد يسمع:

- أبداً..

- أخشى أن تعود أمك من العرس الذي ذهبت إليه..

كانت هذه الكلمة وحدها كافية لأن تجعل سميرة تنهض من فراشها كالأرنب المذعور، فارتدت منامتها التي لم تدر كيف خلعتها، ثم قفزت نحو النافذة تنظر إلى الطريق.. واقترب منها سعيد وأحاط خصرها وهو يرقب نافذته للمرة الأولى، وعند ذاك قالت تداعبه:

- متى أستطيع أن أرقب غرفتي من نافذتك..

وأجاب سعيد باسماً بثقة:

- قريباً عندما نغدو زوجين!.

- (زوجين..)

قالت سميرة ذلك، وكأنها فوجئت بأمر خطير جعل سعيداً يسألها مستغرباً:

- ألا تودِّين ذلك؟!.

فقالت وقد انتابها سرور جارف:

- إنها أمنيتي الوحيدة.. الأمنية التي أتوق إليها في حياتي كلها.. آه لو تعلم يا سعيد كم أحبك.. والتصقت به وأخذت تغمر وجهه بالقبلات.

وبعد فترة صمت قال سعيد هامساً:

- هل نتقابل غداً في المكان نفسه ؟

فأجابت متسائلة ومتجاهلة طلبه:

- متى يمكننا الزواج؟!.

فردَّ سعيد متباطئاً:

- يحتاج هذا الأمر إلى تهيئة الجو الملائم، ولا تنسي أن أبويك لا يمكنهما القبول بي دون مستقبل مضمون.

- صحيح.. ولكن مع هذا يجب أن تخطبني من والدي في أقرب فرصة كي لا نضطر إلى اللقاء مسارقة وفي غفلة عن الرقباء..

- حاضر.. وأنت لا تنسي أن تخبريني عن مجيء والدك كي أرسل أمي من أجل ذلك..

- آه.. ما أطيبك يا سعيد.. لقد كنت خائفة أن يكون الحب الذي بيننا من طرف واحد فقط..

- صه.. صه.. غداً إذا تزوجنا فستسكنين معي ومع أمي في هذا البيت الذي ترين نافذته من هنا..

ولبثا برهة متعانقين وهما يرمقان بصمت مياه النهر، ومن ثم قال سعيد:

- حان وقت انصرافي..

وأومأت سميرة برأسها موافقة دون أن تجيب، ومن ثم أطلت برأسها إلى الطريق حتى إذا وجدته خالياً قالت:

- أسرع.. فالطريق خالٍ..

وقبَّلها سعيد قبلة خاطفة ثمَّ غادر الغرفة، بينما ظلت سميرة واقفة في النافذة ترقب الطريق خوفاً من قدوم أمها المفاجئ، حتى إذا غدا سعيد في الطريق، توارت عن النافذة وانحدرت نحو باب البيت لتغلقه، دون ضوضاء، بعد أن تركه سعيد خلفه مواربآً كما أشارت عليه.

وحين عادت إلى غرفتها، ووقفت في نافذتها، كان سعيد بدوره يقف وراء نافذته ولبثا هكذا زمناً ثم أوى كلٌّ إلى فراشه دون أن يجد النوم سبيله إلى أعينهما..

كان كل واحد منهما يتذكر الحوادث التي مرت به، وكانت سميرة في غاية سعادتها.. صحيح أنَّ سعيداً جرَّدها من ملابسها وتعرَّى بدوره، وصحيح أنَّ جسديهما تعانقا برغبة وشوق، ونهل كل من الآخر ما يحبُّ ويشتهي، إلا أن سعيداً لم يحاول الاعتداء عليها.. لقد نال وطره منها دون أن يمسَّها بضرر أو أذى تُعاب أو تُعار منه في المستقبل..

وعندما أحسَّت بباب البيت ينغلق وبالضوء يغمر باحته الصغيرة، أغمضت عينيها وقد أدركت بأن أمها عادت من البيت الذي تعمل فيه، وحاولت النوم عبثاً، فقد عاد السؤال البغيض يلحّ عليها من جديد، ترى ماذا تفعل أمي في ذاك البيت؟!، وأخذ القلق يغزوها دون أن تجد تفسيراً، وأخيراً تعبت من التساؤل، ولم تستطع استجداء النوم إلا عندما قررت مراقبة البيت الذي ترتاده أمها لتزيح عن صدرها عبئاً ثقيلاً، علها تكشف الحقيقة المجهولة التي تغطيها أمها ببرقع العمل.. وقالت تحدث نفسها، . لمَ أظن بها السوء، ربما تعمل فعلاً عند أسرة كريمة، وعلى كل حال، سأعرف عاجلاً أم آجلاً سر ذلك البيت! .

وكانت تباشير الفجر قد بدأت تتسلل إلى غرفتها، عندما استسلمت للنوم وقد هدّها الحب والإعياء والتفكير في أمِّها وحبيبها وزواجها المرتقب.

- ١٧ -

كانت وزارة الاقتصاد، قد افتتحت مراكز لتموين السكان بالمواد الغذائية الرئيسية كالسكر والأرز والبرغل والصابون والمحروقات وغير ذلك، وقد استعانت وزارة الاقتصاد بعدد من خبراء الجيوش المحتلة لحصر حاجة الفرد الضرورية من تلك المواد، وأسهم هؤلاء إلى حدٍّ بعيد في التقتير على الأهالي، وفي التنظيم القاسي الشديد، وفي التفريق بين السكان حسب نفوذ العائلات وقوتها السياسية، وكان من نتيجة دراسة خبراء التموين، أن اقتصر بيع اللحوم على أربعة أيام في الأسبوع، أما باقي المواد التموينية فخضعت لمراقبة وزارة

الاقتصاد التي وزعت على كل عائلة دفتراً تموينياً مقسماً إلى إيصالات موزعة على عدد أشهر السنة، واستغل مخاتير الأحياء هذه الفرصة فوضعوا ثمناً خاصاً لكل دفتر يتناسب وقوة رب العائلة المالية، وهكذا كان باستطاعة أيِّ إنسان أن يرى في أيام الشهر كلها الجموع الغفيرة التي كانت تقف منذ الصباح الباكر عند مراكز توزيع المؤن، وهم ينتظرون دورهم في الحصول على المواد التموينية، حتى إذا أغلق المركز أبوابه بعد انتهاء الدوام الرسمي وبقي أفراد دون أن ينالوا حصصهم التموينية، عادوا في اليوم التالي من أجل ذلك. وكانت لجنة التوزيع تتكون في الغالب، من موظف تابع لوزارة الاقتصاد، وشرطي لحفظ النظام، ومختار الحي الذي يعرّف على أهالي منطقته، وموزع يساعد على اقتطاع الإيصالات المطلوبة من دفاتر التموين الرسمية، وكان كثيراً ما يتم الاتفاق بين الموظف والمختار على قبض الرشاوى من الأهالي لزيادة النصيب التمويني لهم على حساب الآخرين، أو للاعتناء بالمؤونة ونظافتها وخلوها تقريباً من الأجرام.. وكانت هذه العملية تتم بسرعة، فيدسّ صاحب الحظ السعيد الذي يملك مالاً أوفر من غيره مبلغاً يتناسب وما يريد في يد المختار، الذي يشير إلى الموزع إشارة خاصة، وسرعان ما يؤمن هذا لصاحب الرشوة المؤونة المطلوبة، وعلى العموم كانت كل المراكز التي افتتحتها وزارة الاقتصاد في المدينة تئنُّ من الزحام، وتشكو من تذمر الأهالي الذين كانوا لا يستطيعون شيئاً، لأنهم كانوا يودون قبل كل شيء الحصول على المؤونة بكل ما فيها من علل ليقوا عائلاتهم شرَّ الضائقة التموينية التي يعانون، وشبح الجوع الذي يخافون أن يمتدَّ إليهم.

وبصورة عامة فإن نظام البطاقات التموينية الذي لم يعتد عليه الأهالي ولم يعرفوه قبلاً، كان عاملاً مهمّاً في إلهاء الناس عن الاحتلال والأوضاع السياسية السائدة. وكان أشد ما يغيظ الأهالي الطحين الأسمر الذي كان سيئ العجن والنضج لمّا يغدو خبزاً، وكانوا يجيبون أنفسهم كلما تساءلوا عن قمحهم الطيب وخيرات وطنهم، بأن جيش الاحتلال هو الذي يأخذ كل شيء، ويستبدل كل شيء، ليرسل به إلى الجيوش المحاربة في الجبهات البعيدة..

* * *

كان المختار صالح يجلس إلى جانب الموظف المختص في مركز التوزيع الخاص بالحي على دكة عالية عندما رأى أبا دياب يقف بعيداً، وقد منعه ألم ساقيه عن شق طريقه كغيره وسط الزحام ليحصل على مؤونته الشهرية، فلوح له المختار بيده صائحاً:

- اقذف بدفترك يا أبا دياب..

ولم يحتجَّ أحد من الواقفين، لأنهم كانوا يعرفون عجز أبي دياب، واكتفوا بمشاهدة دفتره وهو يطير فوق رؤوسهم، ليتلقفه المختار، ثم ليشير إلى الموزع إشارة خاصة، انبرى على إثرها الموزِّع، وقد فهم مغزاها، وأخذ يكيل من أكياس الأرز والسكر الأكثر جودة بينما كان أبو دياب يسأل من بعيد:

- أما زال لون السكر أحمر؟!.

وأجابه المختار صائحاً:

- أكشف من ذي قبل..

وردَّ رجل كان يقف إلى جوار أبي دياب، وهو يتفقد حصته من المؤونة:

- لا تنتظر سكراً أبيض.. تلك الأيام لن تعود..

وقال آخر:

- إنها الحرب.. واحمد ربك على أنك تستطيع الحصول على مؤونة كهذه.. إن آباءنا يروون الأعاجيب عن الجوع الذي قاسوا منه، وعانوا من مرارته في الحرب العالمية الأولى.

وعاد الرجل الذي كان يتفحص مؤونته ليقول، وكأنه لم يسمع شيئاً:

- يخرب بيتهم على هذا الأرز، نصفه أحجار، ونصفه الآخر أوساخ وأدران.

وردَّ عليه آخر متهكِّماً:

- وهل تحسب السكر الأحمر الذي حصلت عليه خالياً من التراب؟!.

وقطع الحديث السائد بين هؤلاء المختار صالح وهو يصيح بأبي دياب:

- خذ دفترك، وأرسل ابنك أحمد ليأخذ المؤونة..

وردَّ أبو دياب من بعيد شاكراً:

- شكراً.. سأرسله إليك حالاً..

واستدار أبو دياب وهو يلوح بيده للمختار مودعاً، وأخذ يسير ببطء متوكئاً على عصاه، معتزماً الجلوس في المقهى، لينتظر أوبة ابنه من المدرسة، وفجأة سمع قاسم يقول له وهو يتأبط ذراعه على حين غرة:

- إلى أين يا أبا دياب!.

فنظر هذا إلى قاسم وضحك وهو يقول:

- أهذا أنت.. أراك حراً طليقاً.. ألم تذهب إلى عملك؟!.

- لا، فأنا أعتزم العمل عند الإنكليز، إنهم يدفعون رواتب مغرية..

- ماذا تقول؟! .

- الحقيقة.. سأترك عملي لألتحق بآخر عند الإنكليز..

- وكيف ستدبر ذلك؟!.

- لقد دفعت مبلغاً يسيراً إلى أحد الموظفين عندهم، ووعدني هذا بأن يوظفني في إحدى دوائر الميرة..

- الميرة؟!.

- أجل الميرة.. تلك الدائرة التي تصادر حبوب البلاد، وتتصرَّف بها وفق حاجة البلاد.

- وهل يحق لها أن تفعل ذلك؟! .

- أجل.. فالحرب جعلت المشرِّعين يسنُّون عدداً من القوانين تتفق ورغبة المحتل، منها، قانون الميرة، الذي تأسست بموجبه دائرة الميرة لمصادرة الحبوب..

- أيصادرون كلَّ الحبوب؟!.

- كل أنواع الحبوب التي يحتاجون إليها.

وصمت أبو دياب دون أن يحير جواباً، وهو يهزُّ رأسه مستغرباً ثم قال:

- كنت أحسب مهمة دائرة الميرة تنظيم واستلام وتوزيع الحبوب..

- لا.. إنها ليست كما تظن، وهي تعمل وفق إرشادات معينة..

- وماذا يفعل الفلاحون الذين تصادر حبوبهم.. أعني كيف يعيشون!.

- لا شيء..!

- وكيف ذلك.. إن هذا لمنتهى الظلم..

- اسمع يا أبا دياب، الميرة تفرض على كل فلاح ومزارع أن يزرع أرضه قمحاً أو شعيراً أو غير ذلك، وعليه أن يسلم مردود الأرض التي زرع بمقدار ما ترميه البذار.

- لم أفهم؟! .

وزفر قاسم زفرة قوية ثم قال:

- إن دائرة الميرة تحسب بأن كلَّ مدٍّ من القمح يعطي مردوداً بعد زراعته عشرين مدّاً، وبذار مدِّ الشعير أربعين مدّاً، وعلى هذا الأساس فهي تعطي الفلاح في كلِّ عام قدراً معيَّناً من البذار، وعليه أن يسلِّم في نهاية موسم الحصاد النسبة المطلوبة منه على الأساس الذي ذكرته لك.

- هذا هو الظلم بعينه..

- ولماذا؟!.

- لنفرض أنَّ فلَّاحاً بذر مدّاً أو مدَّين من القمح أو الشعير، ولم يكن المردود في موسم الحصاد يناسب ما تطلبه الحكومة أو مديرية الميرة التي تقول عنها فماذا يفعل؟!.

- عليه أن يتدبَّر أمره وإلا غُرِّم ما لا طاقة له به، قبل أن يُساق إلى القضاء..

- ولماذا؟!.

- لأن حسابات الميرة لا تخطئ..

- هذا لغو وكلام فارغ..

- ولماذا؟!.

- اسمع يا قاسم.. أنا خباز، قضيت كل حياتي في هذه الصنعة وأعرف جيداً مردود الحبوب في هذه البلاد، ففي سنوات الخير قد يرتفع مردود زراعة مدِّ القمح إلى أكثر من عشرين مداً.. إلى ثلاثين أو أكثر، ولكن في سنوات المحل، أو في السنوات العادية الأمطار فلا يزيد مردود مدِّ القمح عن خمسة أمداد، أو لا شيء بالمرة..

- اسمع يا أبا دياب.. أنا لا أفهم في هذه الأمور كثيراً، ولكن الموظف المختص الذي سيعينني قال أن أحفظ هذه الأشياء، وقد جلست معه في مقهى أنيق يختلف عن المقهى الذي نجلس فيه، ولا أخفي عليك بأني خجلت بملابسي البلدية هذه، غير أني أعجبت غاية الإعجاب بذلك المقهى، فلا نراجيل، ولا طاولات نرد تقرقع ولا ورق لعب، ولا ضوضاء، ولا شيء يشبه مقهانا على الإطلاق، إذا أنت ألقيت دبوساً سمعت رنته، وهم لا يقدمون فيه سوى القهوة، والقهوة فقط..

- لقد أثرت فضولي..

- وهو فوق ذلك مقهى صغير، لا يحتوي على أكثر من عشرة أخاوين، والأغرب من ذلك القهوة التي يضعونها على البخار..

- قهوة على البخار.. وكيف ذلك؟!.

- لا أدري، ولكني رأيت براداً فضياً، يشبه في استدارته سماور الشاي الموجود في المقهى الذي نتردد عليه، ولهذا البراد عدة مكابس يدوية، ما إن يضغط العامل المختص على أحدها حتى تسمع فحيحاً شبيهاً بفحيح حافلات المهاجرين الكهربائية ومن ثم تقدَّم إليك القهوة صافية مع قشدة رائعة تغطي سطحها..

- هذا عجيب!.

- والأعجب من ذلك، أنهم يقدمونها في أقداح الشاي..

- القهوة في فناجين الشاي..

- أجل، وقد استرعى انتباهي في هذا المقهى عدا الساقي الأنيق الثياب، الرواد أنفسهم .

- وما خطبهم..

- لا شيء.. كل واحد منهم يتأبط كتاباً أو يقرأ جريدة دون أن يتكلموا، وإذا تكلموا كانت أصواتهم هادئة لدرجة تستطيع معها أن تسمع أي حوار في الطريق دون أن تستطيع التقاط كلمة واحدة من حوارهم..

- وما اسم هذا المقهى!.

- لقد سألت الموظف الذي سيدبر لي العمل في الميرة عن اسمه، فأجابني مستغرباً لجهلي:

- إنه مقهى البرازيل..

- البرازيل!.

- أجل وسُمِّي كذلك لأن القهوة التي يقدِّمونها فيه . كما قال لي الموظف . تصنع من البنِّ البرازيلي.

- من البنِّ البرازيلي! وهل هو أفضل من البنِّ العدني؟!.

- إنها قهوة طيبة.. وأصدقك القول يا أبا دياب، إني سأنتهز منذ اليوم أية فرصة لأعاود الجلوس في هذا المقهى المثير..

- ولماذا؟!.

- لأني اكتشفت فيه أشياء أخرى جديدة..

- وما هي؟!.

- لقد شاهدت هناك أستاذاً كبيراً، دلني عليه الموظف وهو يقول: إنه من أكبر المفكِّرين في الوطن العربي..

- وما اسمه؟!.

- لم أحفظه، وإن عرفت أنه ينادي بأفكار طيبة، ويعقد اجتماعات سرية في البيوت، تحضُّ على التخلص من الاستعمار وجيوش الاحتلال..

وساد الصمت للحظات بين الرجلين، وهما يتابعان السير باتجاه مقهى مصلبة العمارة، وقاسم ما زال متأبطاً ذراع أبي دياب، ولم يلبث طويلاً حتى قال:

- إنه صاحب الأفكار التي يزودني بها بعض الأساتذة الذين أعرفهم.. لقد آن الأوان لألتقي به.. آن أوان التحرك.. إن كلَّ إنسان مدعوّ لأداء واجبه ضدَّ المستعمر..

وضحك أبو دياب فجأة دون أن يقول شيئاً، فسأله قاسم:

- ما الذي يضحكك؟! .

- لا شيء!.

- يجب أن أعرف!.

- الحقيقة أضحكني موقفك المتناقض.

- موقفي المتناقض؟! .

- أجل.. أنت تدفع رشوة لتجد عملاً عند المستعمرين، وتريد في الوقت نفسه الالتحاق بأصحاب الأفكار الطيبة الذين يعملون ضد المستعمرين فكيف تستطيع أن توفق بين هذا وذاك..

وصمت قاسم قليلاً وقد بدا له الأمر مستهجناً ثم قال:

- أنت تقول الحق.. لا أريد أن أبرر موقفي من الوظيفة التي أطمع بها، ولكني دفعت الرشوة وانتهى الأمر، وأنا لا أحب أن أخسر مالي، بعد أن خسرت عملي..

وقال أبو دياب وهو يتوقف ليستريح قليلاً:

- إن صاحبك المفكر الذي تقول عنه ليس الوحيد الذي ينادي بطرد المستعمر، فهناك الوطنيون والذين خلفوا الزعيم الراحل الدكتور شهبندر،

والسوريون القوميون والشيوعيون.. كل هؤلاء ينادون بطرد المستعمر، وعلى هذا فإن الأفكار التي ينادي بها صاحبك كما ترى ليست بجديدة..

وتنهد قاسم ثم أجاب:

- أنا لم أقابله بعد، ولكني سمعت بأن المبادئ التي تقوم عليها دعوته تختلف عن المبادئ التي تنادي بها الأحزاب الأخرى..

- وكيف؟!.

-لنبدأ من الأول، الوطنيون . أي الكتلة الوطنية . ينحصر نشاطها المعادي للاستعمار في الوسيلة التي تمكِّنها من طرد الحكَّام الحاليين لتحلَّ محلهم في الحكم، ولا تنسَ الوبال الذي جاؤونا به عن طريق معاهدة العام ١٩٣٦ مع الفرنسيين..

- أنا معك في هذا..

- مضبوط..

- فلم يبق والحالة هذه فئة أو حزب يعتمد عليه في النضال.. صحيح أن الشعب توَّاق للنضال ولكنه بحاجة لقيادة ولقياديين من أجل دعم هذا النضال..

- أولاً، إنه ليس بصاحبي، ولم أره ولم أجتمع به لا من بعيد ولا من قريب، غير أني سأسوق إليك بعض المبادئ التي ينادي بها..

- هاتِ ما عندك.. كلي آذان صاغية..

- حسن، إنه ينادي بالوحدة!.

- الوحدة؟! .

- أجل، وحدة الوطن العربي، وهو يقول في ذلك: إن الاستعمار يستشري في كل أجزاء الوطن العربي، في فلسطين والأردن والعراق ولبنان وسورية والمغرب العربي من أقصاه لأقصاه وفي مصر، وكل أجزاء الوطن العربي الأخرى، وإنه لا سبيل إلى الخلاص من الاستعمار إلا بالوحدة.

- إنها فكرة جميلة ولكنها خيالية.. إذ من يقوى على تحقيقها..

- نحن..

- أنتم؟!.

- أجل.. نحن العرب..

- دعك من هذا اللغو..

- لغو..

- أجل.. نحن هنا في سورية غير موحدين على الرغم من دعوة الحزب السوري القومي الصادقة من أجل الوحدة بين سورية ولبنان وفلسطين والأردن وبعض أجزاء العراق، فكيف نستطيع الوصول إلى الوحدة التي تنشد، والاستعمار يحول دون تحقيق أدنى متطلبات الوحدة بين سورية ولبنان.. لا.. لا.. إن كل هذا الذي تقول ليس سوى محض خيال..

وران الصمت على الصديقين وهما يحملقان في شرود ثم قال قاسم حين وصلا إلى المقهى:

- ألا تحب أن تتحد سورية والعراق مثلاً، في دولة واحدة..

- ليس أحب إلى قلبي من ذلك..

- إذاً، ما الذي يمنعك أنت وأنا والآخرون، هنا وفي العراق عن العمل من أجل ذلك..؟

- الاحتلال..

- والعراق محتل..

- ولكن!.

- دع (لكن) هذه، واسمعني جيداً لأني أبغي الانصراف، ثم تمعَّن في ما أقول: إنَّ أيَّ عمل يقوم في دمشق ضدَّ الاستعمار تجيبك عليه فوراً سائر المدن السورية، كحلب وحمص وحماة واللاذقية وغيرها، دون أن يتحرَّك لنجدتك العراق

أو الأردن أو فلسطين، أما إذا تمت الوحدة حتى في ظل الاستعمار، فسيصبح النضال مشتركاً، وستؤيد بغداد في ثورتها إذا ثارت، وعمان في مشاكلها.. لا تبقى قضية العرب قضية سورية أو عراقية أو أردنية أو غير ذلك، وإنما قضية الوطن العربي والشعب العربي في كل مكان..

- رويدك.. رويدك.. أرى أن هؤلاء الأساتذة الذين تجتمع بهم يسممون رأسك بأفكار طيبة، ولكنها خيالية، وكل ما أخشاه أن يدفعك هذا الحماس إلى السجن، فحاذر في كلامك وحماسك، ولا تبح به لأيِّ إنسان حتى ولو كان صديقاً.

- أشكر لك نصيحتك، غير أني أحب أن أسألك قبل انصرافي، ما رأيك بالأستاذ المذكور؟!.

- إذا كانت هذه المبادئ التي ينادي، فأرحب به من أستاذ، وأرحب به من نضال..

وتناهت إليهما ضوضاء قوية غير بعيدة عن المقهى الذي كانا يقفان عنده، فصاح قاسم منبهاً صديقه وهو يشير بيده:

- انظر.. انظر ما يجري هناك..

ونظر الاثنان معاً نحو عربة المحروقات التي وقفت غير بعيد عن المقهى، وقد تحلق حول البائع والعربة جمهور غفير حجب العربة وبغلها الهزيل، وكان البائع يستعين بالشرطي الذي يرافقه ليبعد عنه تسابق الناس وصراعهم على ما يحمل من وقود ويرفض أن يملأ أية صفيحة من الصفائح التي حملها سكان الحي قبل أن يقتطع القسيمة الخاصة بالشهر الذي هم فيه، وثمن الوقود مقدماً، وعندما يتم له ذلك، كان يدير صنبور البرميل الكبير الذي ركّب على العربة فيملأ صفيحة كلِّ ذي حظ سعيد.

وبدا البائع من بعيد متفقاً مع الشرطي على تفضيل بعض الأشخاص على غيرهم، وعلى بيع المحروقات أيضاً دون قسائم لقاء ثمن خاص.

وهمَّ قاسم من بعيد أن يصيح على الشرطي والبائع معاً محذراً، ولكن قرقعة الصفائح التي كان يحملها سكان الحي وطنينها المزعج حالا دون ذلك، ومع ذلك فإن رجلاً من الذين انتظروا طويلاً وحان دوره لملء صفيحته، انتبه إلى ما يقوم به الشرطي والبائع بعد فوات الأوان، إذ أعلن البائع أنَّ برميله الكبير قد فرغ، وأنَّه سيذهب ليملأه ويعود ثانية. وكان البائع قد اقتطع قسيمة من دفتر الرجل التمويني، وقبض كامل المبلغ المطلوب، وهمّ بأن يملأ آخر ما يحمله من وقود، عندما همس الشرطي شيئاً في أذنه، وغمز بعينه ناحية رجل كان يرتدي بزة أنيقة نوعاً ما: وتظاهر البائع بأنه غرق مع الشرطي في مسألة مهمَّة، فتناول صفيحة الرجل المتأنّق وملأها، ثم استدار نحو الناس صائحاً بملء فيه:

- راجع.. نصف ساعة فقط.. سأملأ البرميل وأعود..

وصاح رجل من الذين انتظروا طويلاً:

- نصف ساعة.. يعني، نصف سنة.. حتماً لن نراك بعد اليوم..

وصرخ الرجل الذي كان ينتظر من البائع أن يملأ له صفيحته بالوقود خاصة بعد أن قبض الثمن واقتطع القسيمة مستفسراً:

- أحقاً فرغ البرميل؟!.

أجاب البائع وهو يمد يده إلى جيبه:

- نعم يا أفندي.. خذ، هذه قسيمتك، وهذه نقودك..

وانفعل الرجل وصاح بهياج:

- لا آخذ شيئاً، حصتي هناك.. أخذها ذاك الرجل.. لقد سمعت الشرطي يحدثك بشأنه، ومن ثم فضلته عليَّ.. سآخذها عنوة، وأجعلك عبرة لمن اعتبر.. يا متلاعب.. يا محتال..

قال هذا، واندفع نحو الرجل المتأنق، واشتد الهرج والمرج، وعلا الصخب وحاول الرجل المتأنق أن يفرَّ بصفيحته من الرجل الآخر فلم يستطع، وتأرجحت

الصفيحة طويلاً بين الأيدي التي أخذت تتجاذبها، ولم تفلح محاولات الشرطي في دفع الهدوء إلى النفوس، وفجأة طارت الصفيحة في الهواء، لتستقرَّ على الشرطي والبائع معاً، وليندلق ما فيها على الأرض، وهي تحدث ضوضاء شديدة. واشتدت الجلبة، وحاول الشرطي إلقاء القبض على عدد من الأشخاص الغاضبين، وكان هذا التحدي صعباً في ذلك الحي الذي اشتهر بمواقفه النضالية، وبسرعة مذهلة، أغلق الحي متاجره، وانقلبت مصلبة بوابة العمارة إلى ساحة معركة، اشترك فيها أكثر الناس دون أن يعرفوا السبب، ووقفت الحافلة من بعيد، والسائق يرقب دون أن يجسر على المرور، وأصابت بعض الأحجار بعض ألواحها الزجاجية، فتهاوت محدثة ضجة قوية، دون أن تحرك ساكناً من جابي الحافلة وسائقها على الرغم من هروب الركاب الذين كانوا فيها.

وانطلقت صفارة الشرطي، وقد بدا في تلك اللحظة مجرداً من مسدسه، ممزق الثياب، دامي الوجه، وهو يطلب النجدة، غير أن استخدامه للصافرة لم يطل به، إذ سرعان ما حمله شباب الحي وألقوا به على الأرض مع صافرته. ولم تهدأ الحالة إلا عندما صاح صائح:

- الدورية.. الدورية يا شباب..

وخلال دقائق لم يبقَ في مصلبة العمارة سوى الحافلة التي شرعت في السير، وعربة المحروقات المهشمة، والبغل الهزيل الذي وقف يجتر ببطء، والشرطي وبائع المحروقات وقد صارا إلى حالة يرثى لها. وبدا الرجل الأنيق الذي فارقته أناقته، مغلوباً على أمره، وهو ينظر إلى قرارة الصفيحة التي اشتراها حتى إذا لمح فيها بقية من الوقود، أسرع بغنيمته لا يلوي على شيء.. وكان المنظر مضحكاً.. منظر المتأنق وصفيحته التي حفلت بالالتواءات والفجوات التي أحدثها فيها الأهالي أثناء المعركة التي بدَّدت من غضبهم واحتياجهم للمحروقات.

- ١٨ -

كان اليوم التالي من الأيام العصيبة التي مرت على سكان الحي، إذ ما كادت عقارب الساعة توغل قدماً نحو العاشرة صباحاً، حتى كان جباة المالية يطرقون الأبواب، مع مأموري الحجز ورجال الشرطة ومخاتير أحياء المنطقة كلها بما فيهم المختار صالح.

وتوزَّع الجباة المنطقة في ما بينهم، واصطحب كل واحد منهم شرطياً ومنفذاً للحجز وأحد المخاتير، وتلقى سكان الضفة التي ينتهي إليها الجسر مفاجأة الجابي بالوجوم، ولم يجدوا خلاصاً لهم إلا بإغلاق أبواب دورهم على أنفسهم.

وحاول الجابي ومنفذ الحجز الاستعانة بالشرطي والمختار دون جدوى، ولما يئسا من ذلك، لجأا إلى التهديد والوعيد مستعينين بالشرطي الذي بدا كأنه غريب عن الموضوع الذي يسعيان إليه، حتى إذا ناديا بالأفندي، تحرك متلفتاً فيما حوله ليتأكد من أنه الأفندي المقصود بذلك، وعند ذاك فقط، كانت أوداجه تنتفخ، فيرفع عقيرته مهدداً المختار بالويل والثبور إذا لم ينفذ ما يطلب إليه.

وارتاع المختار صالح، وتأكد له بينه وبين نفسه، بأن الشرطي قد يصغّر من شأنه أمام قومه، إذا هو استمر في تجاهل أهل الحي، وتأكيده المستمر برحيل بعضهم منه، وغياب بعضهم الآخر. غير أنه عزم في قرارته على الإيقاع بين الشرطي من جهة، والجابي ومنفِّذ الحجز من جهة أخرى، بطريقة يجنب فيها أهل الحي الوقعة السوداء التي تنتظرهم، فقرر أن يقودهم إلى الموسرين الذين يستطيعون دفع ما عليهم، وإرجاء متوسطي الحال والشغيلة، وهكذا أخذ يلقم الجابي ورفيقيه موسراً بين الحين والآخر، ويمر على العشرات الذين لا يستطيعون الدفع بخبثه ودهائه.

واستراح المختار إلى هذا، وظنَّ أنَّ الحيَّ قد نجا من قرارات الحجز المتخذة والتي ينوي الجابي تنفيذها بالمكلفين الذين تراكمت عليهم ضريبة المسقفات على مدى سنوات ولم يدفعوا، لأنهم في الواقع لا يملكون المبالغ

المطالبين بدفعها، وكان الجابي على دراية بعمله، فبعد جولة يسيرة على بعض المكلفين، أدرك لعبة المختار، فثار، وأرغى وأزبد، ورفض الذهاب إلى المقهى للتفاهم حول هذا الموضوع وأيقن المختار صالح بأنه وقع، وأن لا مجال للتهرب، خاصة وقد بدا له الشرطي الشاب ليس كالآخرين الذين اعتاد رشوتهم ببضع ليرات وعلبة من التبغ.

وتوقف الجابي عند مدخل أحد الأزقة وهو يتطلع في دفتره، ثم تساءل مخاطباً المختار:

- زهرية بنت أحمد عبد العال؟!.

وتظاهر المختار بالتفكير وهو يردد:

- زهرية.. زهرية بنت عبد العال.. أنت متأكد من الاسم!.

وأدرك الجابي لعبة المختار الجديدة التي دارت على التجاهل، فنظر نظرة ذات مغزى وقال:

- والله يا مختار لستَ بنافعٍ، لا ترغمني على ما أكره، وأنت تعلم إذا أنا طالبتك بما عليك لانكشفت في الحي.

وارتبك المختار، وحار في أمره.. كل شيء عدا أن يعرف سكان الحي ما يملك من عقارات وقال الشرطي بتصميم:

- يا مختار، خلِّنا أصحاباً، ولا تدع أهل الحي يتفرجون علينا..

وردَّ المختار وهو يكظم غيظه وقد ظهر الاضطراب في حركاته والفزع في عينيه:

- قلت لي زهرية بنت عبد العال.. عرفتها.. هذه اسمها أم إبراهيم.. الحارة كلها لا تعرفها إلا باسم أم إبراهيم..

- أم إبراهيم، غير أم إبراهيم.. لا أعرف، مطلوب منها ثمان وخمسون ليرة وعشرون قرشاً..

فقال المختار:

- مسكينة.. زوجها مات قبل خمسة أعوام .

- لم يكن يدفع ما عليه..

- طيب.. تفضلوا..

وسار المختار بخطى متثاقلة، يتقدم الجابي ومأمور الحجز والشرطي، وقد لاذوا جميعاً بالصمت، وكان الشرطي يرقب سير المياه البطيء، والمعلبات الفارغة الشديدة اللمعان عندما سمع المختار يقول للجابي:

- أم إبراهيم، امرأة طيبة مسكينة، لا تملك سوى غرفة واحدة في البيت الذي تسكنه، والمطبخ مشترك، وتعمل غسّالة، ولو قسمتها إلى عشرين شقفة لن تجد معها هذا المبلغ..

وردَّ الجابي بإصرار:

- ستون شقفة، مئة شقفة، لا يهمُّني! .

وسأل الشرطي بغتة:

- تعمل غسَّالة؟!.

وأجاب المختار موضحاً:

- امتهنت تنظيف البيوت والغسيل عند الأسر القادرة منذ مات زوجها لتدفع غائلة الجوع والعوز عن أطفالها الثلاثة..

وكانوا في تلك اللحظة قد وصلوا إلى بيت أم إبراهيم، ولم ينتظر الجابي مبادرة المختار فضغط جرس الباب ضغطاً متواصلاً، فأخذ هذا يرن رنيناً مستمراً مزعجاً.

فصاح المختار منبهاً الجابي:

- كفى.. إنها امرأة تحترم نفسها.. وهي لن تقفل الباب في وجهك حتى لو كنت تحمل موتها..

وعاد الشرطي يسأل مستفسراً:

- أأولادها صغار؟!.

- سترى بنفسك.. طفلان، وبنت أكبر منهما، أخذت تعاني منذ الفيضان مرضاً غريباً..

وقال الجابي بلؤم:

- ما من لزوم لكل هذا الكلام..

وانفتح الباب قبل أن ينهي الجابي كلامه، وبدت من خلال فرجته امرأة متوسطة العمر. غطت رأسها بغطاء أبيض، وعندما رأت المختار والشرطي ومن معهما، ارتدَّت إلى الخلف بعد أن ردَّت الباب ردَّة خفيفة، فاحتجبت وراءه، ومن ثمَّ عادت فسمحت لفرجة الباب أن تتسع وهي تقول مرحِّبة:

- أهلاً وسهلاً بالمختار.. تفضل..

وتلعثم المختار، وحار فيما يجيب، وهو أعلم الناس بأمرها غير أن تلكؤه لم يطل وما لبث حتى أوضح لها كل شيء متنصلاً من كل شيء..

وحارت أم إبراهيم في أمرها، فهي لا تملك المبلغ، ولا تعلم من أين تتدبر مبلغاً كبيراً كهذا، وحاولت أن ترجئ الأمر، فلم تستطع، وأخيراً قرَّرت أن تقدِّم لهم القهوة، علَّ قلب الجابي المتصلِّب يرقُّ فيمهلها بعض الوقت..

دعت أمُّ إبراهيم الأربعة للدخول، فرفضوا بادئ ذي بدء، غير أنَّ نفس الجابي الأمَّارة بالسوء جعلته يشير إلى الشرطي ومن معه بالدخول قائلاً لنفسه:

- إن لم أصب مالاً، حجزت على أنفس ما عندها من أثاث..

وعندما احتوتهم الغرفة، ورأوا جميعاً منظر المريضة الصغيرة والطفلين اللذين قبعا بجانب النافذة الوحيدة، رقَّ قلب الشرطي، بينما ظهر التردد على مأمور الحجز. أما المختار صالح فجلس إلى جانب هيام، وأخذ يداعبها ليلهيها عن الموضوع الذي جاؤوا من أجله، وفي الوقت نفسه انهمكت أم إبراهيم في إعداد القهوة.

وهمس الشرطي في أذن الجابي:

-ماذا ستجني من وراء إزعاج هذه العائلة الفقيرة.. أما عندك عيال؟

ولم يجب الجابي الذي بدا وكأنه يتلمظ، وهو ينظر إلى الشمعدانين النحاسيين والبيرو المصدف مباشرة، ولكنه قال متجاهلاً ما ذهب إليه الشرطي:

- الشمعدانات أو البيرو، يكفيان الضريبة وتزيد قليلاً...

وانتاب الشرطي الذهول بينما قال مأمور الحجز:

- أتفكر في هذا، وأنت تشرب قهوة هذه المرأة..

وقال الجابي متذمراً:

- حتى ولو كان أبي، سأحصّل منه.. لي نسبة معينة من المال الذي أجمعه.. والأموال التي أجبيها هي في حكم الميتة لتقادم العهد عليها، وأنا أحييها لأملأ خزانة الدولة وجيبي..

ثم رفع صوته مخاطباً المختار:

- أأفهمت أم إبراهيم بأن العشرين قرشاً قبل الثماني والخمسين ليرة!.

فضحكت أم إبراهيم وهي تردُّ عليه قبل المختار:

- لو كان معي يا أخ عشر ليرات، لما تركتك تدق بابي..

- والله يا أختي، لا أقدر.. الضريبة أو حجز أشياء تعادل قيمتها..

- أمهلني شهراً واحداً أتدبَّر فيه أمري!.

- ولا ساعة واحدة..

وران صمت عميق، وأدركت الصبية المريضة الموضوع، وألمت به، فأجهشت بصمت بينما ردد المختار وهو يرشف قهوته:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ونهض الجابي أخيراً وهو يقول:

- نعم يا أختي؟! .

فلم تجب فوراً، غير أنها قالت بانفعال هادئ:

- خذ ما يحلو لك.. مال ما معي..

- عال.. سآخذ إذاً الشمعدانين والبيرو..

- خذ أيَّ شيء عدا الشمعدانين والبيرو..

- لن آخذ سوى ما ذكرت.. وأنا أعرف عملي..

- أرجوك..

وارتفع نحيب الأطفال الثلاثة في نغم واحد مشترك مع الأم، دون أن يلين قلب الجابي أو يتراجع، وتدخل الشرطي قائلاً:

- لماذا تصرُّ على هذه الأشياء؟!.

فصاح فيه الجابي:

- لا تتدخل.. وظيفتك أن تساعد على تنفيذ أوامر الحكومة..

- لا.. زدتها يا حضرة الأفندي..

قال المختار ذلك بغيظ، وقد رأى بخبرته الواسعة، أو الوقيعة أضحت قاب قوسين أو أدنى، بين الشرطي ومأمور الحجز من جهة والجابي من جهة ثانية..

ولكن الشرطي لاذ بالصمت، فهو كما يبدو رحب الصدر، واكتفى بأن هزَّ رأسه، ثم عاد إلى مقعده الذي نهض عنه، وأخذ يخفف عن الطفلين الباكيين.

وفجأة قالت أم إبراهيم بصوت قوي:

- هل أنت تصرّ على أخذ الشمعدانين والبيرو..

فهزَّ الجابي رأسه بالإيجاب قائلاً:

- أجل..

- إذا كنت رجلاً، فحاول أن تنفذ ما تقول.. هذه الأشياء ملكي، وأنا سأحطم ما أملك فحاول أن تمنعني من ذلك إذا كنت رجلاً، ولن أسمح لأي إنسان بأن يحجز ما بقي لي من ذكريات زواجي وزوجي..

- اهدئي قليلاً..

قال المختار ذلك، وهو يحاول تهدئتها، ولكنها استمرَّت تقول بانفعال صائحة:

- هذه جميعها هدية عرسي.. أنت لا يمكنك أن تفهم إطلاقاً معنى ذلك، ولن أسمح لك أو لغيرك بأن يأخذها إلا على جثتي.. فهمت..

وحاول الجابي أن يقول شيئاً، ولكنها صرخت فيه:

- اخرج من بيتي.. اخرج من بيتي قبل أن أجمع عليك أهل الحي..

وأخذت ترتجف هادرة باكية، وهي تنشج وقد أوشكت على الإغماء وأطفالها يبكون دون أن تفلح محاولات المختار والشرطي في تهدئتهم، بينما كان مأمور الحجز يحاول سحب الجابي من يده والذي أخذ يصيح مهدداً المختار والشرطي:

- أنا موظف حكومة يا مختار.. سمعت الإهانات بنفسك، ستكون شاهداً عليها.. وأنت أيضاً يا سيد، يا مأمور الحجز، دوّن في دفترك قائمة بأسماء المحجوزات وساعدوني جميعاً على نقلها..

وعندما رأى الجابي جمود الجميع، تابع صياحه في وجه المختار وهو يعطيه قرار الحجز:

- خذ يا مختار، اقرأ عليها صيغة الحجز، دعها توقع، ثم ابصم بخاتمك..

ولكن الشرطي ظل ساكناً وقد امتلأت نفسه بالكره لتصرفات الجابي . انفجر هادراً وعيناه تومضان بالغضب:

- خذ الأغراض بنفسك.. أنا لست عتّالاً عندك، أنا منصرف..

وقال المختار حين رأى الشرطي يتوجَّه نحو الباب:

- في هذه الحالة لم يعد لي شغل..

- وأنا أيضاً..

قال ذلك مأمور الحجز، وهو يأخذ قرار الحجز من المختار الذي غدا بدوره عند الباب، تاركاً الجابي ينظر في ما حوله مذهولاً حتى إذا ارتدَّ إلى نفسه صاح بهم:

- طيب.. تذكَّروا أنكم تخليتم عن واجبكم.. وأقسم بالله لأرفعنَّ أمركم للمسؤولين..

ثم هرع بدوره خلف الشرطي والمختار ومأمور الحجز الذين غدوا في الطريق، بينما كانت أم إبراهيم تصيح وهي تغلق الباب وراءه:

- الله لا يوفقك، ولا يردك..

وعندما غدا الجابي في الزقاق، كان بعض أهل الحي قد تجمعوا، فخاف أن يمد أحدهم يده إليه بسوء، فأمعن في خطواته، حتى لحق بزملائه الغاضبين المتذمرين.

وكان الشرطي قد اتفق مع المختار على لفلفة الحادث، ومساعدة الجابي من جديد، إذا اتبع أسلوباً غير الذي لجأ إليه، وهكذا ما إن بدأ الجابي عتابه، حتى أقسم المختار يميناً مغلظة على الجميع عازماً إياهم على شواء، في المطعم القريب الكائن في مصلبة العمارة، تكون صلحاً فيما بينهم. ورفض وجه الجابي اللئيم أن يبتسم، وإن رضي بدعوة المختار مغنماً وتوفيراً لجيبه.

- ١٩ -

استطاع أحمد أن يدخل الربيع إلى الحي عنوة، بما حمله معه من زهر المشمش الذي قطفه من البستان القريب من الحي، فاجتاز الجسر المؤدي إلى الضفة الثانية، ثم انسرق في غفلة عن رفاق الحي إلى الزقاق المسدود الذي ينتهي ببيت أم إبراهيم، وكان أحمد قد علم منذ زمن بعيد من أم إبراهيم بأن السل بدأ ينخر في رئتي ابنتها، ولم يدرك أول الأمر كنه هذا المرض، وظنه كمرض البرداء والحميات الأخرى التي تصيب الإنسان، ولكن الخبر سرعان ما انتشر في الحي، حتى أصبحت أسرة أم إبراهيم شبه معزولة عن الناس، لا يزورها سوى أحمد الذي حاول أبوه أكثر من مرة أن يمنعه عن ذلك، فلم يفلح. ورضخ مضطراً أمام عناد ابنه، وترك له الحبل على غاربه، موقناً بأن الأعمار بيد الله، ومن أن الملل سرعان ما سيتسلل إلى قلب ابنه، فيقلع عن عادته اليومية التي لازمته مذ عرف أسرة أم إبراهيم، وكان أشد ما يروع أحمد ويزعجه هيام نفسها التي كانت تذوي في فراشها ببطء، وهي تنظر إلى الحياة من نافذة غرفتها، وكأنها تنظر في بئر عميقة لا قرار

لها. وكانت لا تجد سعادتها، رغم أوار الداء المشتعل في صدرها، إلاّ حين تغفو أمها من التعب، ويغرق أخواها الصغيران في النوم، فتستطيع وهي في فراشها، أن تثبت نظراتها في سقف الغرفة، وتستعيد عشرات المرات الأحاديث التي كانت تدور بينها وبين أحمد، وكانت سعادتها في تلك الليلة لا توصف حين سألها وهو يرتب أزهار المشمش في جردل الماء:

- كيف أنت اليوم!

- أنهكني السعال في الليل، وانتابني إعياء كبير لم أعرفه قبلاً..

- لا بأس.. ستنعشك أزهار المشمش..

- من أين جئت بها..؟

- من البستان المجاور..

- وهل تجشمت كلَّ هذا العناء من أجلي..؟

- كنت أودُّ أن أجلب حزمة أكبر.. ولكنَّ الناطور صاح بي من بعيد متوعّداً.. وأنت تعرفين النواطير..

- هل نالك سوء منه..؟

- أبداً.. وها أنذا والزهور كما ترين..

وضحكت وهي تتمطى قليلاً ثم قالت:

- لم أرتِّب شعري اليوم.. والحقيقة، أمي هي التي دأبت على تمشيطه مذ مرضت.

- أمك رائعة، وأنت أروع..

- ألا يزعجك منظري..

- بالعكس..

- وهل تراني جميلة رغم شعري المنفوش..

- إن المرء، عندما ينظر إلى جمال الفراشة، لا ينظر إلى لون جناحيها فقط أو إلى رأسها وحده، أو إلى أرجلها، وإنما ينظر إليها ككل، وأنا أنظر إليك ككل يا فراشتي الحلوة..

- كفى.. أرجوك.. أتدري يا أحمد بأنّي أنتظر أوبتك كلَّ مساء وأنّي أخاف أن تنقطع عن المجيء فجأة..

- أعلم ذلك.. ولن أنقطع عن زيارتي لك إطلاقاً..

- إني أحس إلى جانبك بالحياة تدب فيّ من جديد، ولا أدري ماذا كنت سأفعل دونك..

- لا عليك.. سألازمك إلى الأبد، ولن أفارقك لحظة..

وران الصمت بينهما للحظات، وبدا كأن الكلام قد انتهى، ولكن هيام ما لبثت أن سألته وهي ترنو إليه:

- بماذا تفكر؟! .

- لا شيء.. أين والدتك؟! .

- ستتأخر اليوم قليلاً..

- هل عادك الطبيب اليوم..

- أجل!.

- أخيراً.. الحمد لله، وماذا قال؟!.

- لا أدري، وجلّ ما فعله بعد أن فحصني طويلاً فحصاً دقيقاً، أن انتحى بالمختار والشيخ سعدو جانباً، وأخذ يتكلم معهما همساً، ثم تبادلوا الحديث جميعاً مع أمي خلف الباب..

- ماذا قالوا لها؟! .

- كنت أسمع نشيجها من بعيد، فلم أسألها، كما أنَّ الشيخ سعدو قبَّلني بعد انصراف الطبيب وطمأنني بشفاء قريب.

- أحقاً؟! .

صاح أحمد بذلك، وقد استبدَّ به الفرح، فأخذ يدور في الغرفة راقصاً دون أن يشعر بدخول أم إبراهيم التي عادت من عملها منهكة مكدودة، وعندما رأت أحمد يرقص طرباً، انفرجت شفتاها عن ابتسامة رضيَّة ثم قالت هامسة:

- الله يحفظك لأهلك..

وهرع أحمد نحو أم إبراهيم وأخذ يدور بها في الغرفة وهو يهتف بسعادة:

- ستشفى يا أم إبراهيم.. ستشفى..

ودمعت عينا أم إبراهيم وهي تصيخ لفرحة أحمد، وتنظر إلى ابنتها المدنفة العليلة الراقدة في فراشها دون حراك وقد عادت أقوال الطبيب تلحّ عليها بقسوة:

- يجب قبل كل شيء أن تنقليها من هذا البيت، إلى آخر يدخله الهواء وترتع فيه الشمس، لأني كما أرى لا تستطيعين إدخالها إحدى المصحات، ويجب العناية بغذائها، لأن علاج هذا المرض والقضاء عليه، يعتمد اعتماداً كلياً على التغذية الجيدة، ثم إن الوصفة التي كتبتها لها، تتضمن الأدوية التي يجب أن تستعملها فوراً..

لقد هزت رأسها آنذاك وهي تستمع إلى الطبيب ثم سألته:

- وإذا لم أستطع ذلك؟!.

قلب الطبيب شفتيه وهو ينظر إلى المختار والشيخ سعدو وقال:

- في هذه الحالة لا أضمن شيئاً..

- هل تموت؟!.

وأومأ الطبيب برأسه وهو يقول:

- وسيتمُّ ذلك بسرعة لأنَّ ابنتك الآن في أوج الطور الثاني، فإذا استطعنا إيقافه سننتصر عليه دون شك، أما إذا...

وصمت الطبيب عند هذا الحدِّ، بينما أجهشت الأمُّ بالبكاء، حتى كادت الدموع تخنقها واستيقظت أم إبراهيم على أحمد وهو يهزها قائلاً:

- لِمَ تبكين.. قولي.. أهناك ما يزعجك! .

وهزَّت رأسها نفياً، واعترى أحمد الوجوم، وحاول أن يقرأ أفكارها وقد تبخَّر مرحه، ونظر إلى هيام مستفسراً، فقلبت هذه شفتيها دون أن تحير جواباً..

وعزم أحمد على أن يكتشف الحقيقة من أمِّ إبراهيم نفسها، فتظاهر بالانصراف، ولكن الأمَّ تشبثت ببقائه راجية، غير أنه أصرَّ على الرحيل وهو يقول لها:

- دون شكّ، سبَّبت لك إزعاجاً، فيجب أن أذهب..

ونظرت أم إبراهيم إليه مطولاً ثم قالت وهي تعانقه:

- أنت لا تزعجني، وما أزعجتني يوماً.. مرض هيام هو الذي يزعجني..

- دعك من الحزن، ألم يقل الطبيب بأنها ستشفى..

- أجل..

ثم همست:

- ولكن ما الفائدة؟! .

والتقطت أذناه العبارة الأخيرة، فالتفت نحو هيام، فوجدها لم تنتبه، فقال لأم إبراهيم، وقد استمرأ عناقها، وحرارة جسدها وارتجافها فهمس بدوره:

- أريد أن أتحدث إليك قليلاً.. ما رأيك.

وطأطأت أم إبراهيم برأسها، وهي تنظر في عيني أحمد طويلاً..

* * *

عندما انصرف أحمد من بيت أم إبراهيم، كانت الدنيا سوداء في عينيه، لا يدري ما يفعل، لقد علم بكل شيء.. ولكن، كيف السبيل إلى البيت الصحي والغذاء الجيد، والأدوية الباهظة الثمن. وتلكأ عند عمود النور، ووقف قليلاً تحته، ثم نظر نحو النافذة المضيئة. كانت أم إبراهيم تلوّح له، وخيّل إليه بأنه يرى دموعها من بعيد، فرفع يده محيياً، ثم استدار يود لو يصبح كتلة من الظلام..

وقف أحمد على الجسر يرقب مياه النهر وهي تنساب رشيقة بين المعلبات الفارغة التي ينوء بها، والقاذورات المترسبة، والحشائش التي كانت تخطر راقصة وفق تراقص المياه المنسابة إلى ما لا نهاية. كان يود لو كانت قرارة المياه العميقة اللجة لا تصدم عينيه بالمنظر الرتيب الذي اعتاد أن يراه كل يوم.. كان

نقيق الضفادع يصل إليه تارة قوياً، وأخرى ناعماً، فيؤنس من وحشة تفكيره في المشكلة التي اعتزم أن يجد لها حلاً.. وفكَّر طويلاً ثم هزَّ رأسه مستسلماً وقد برز أمامه خيال هيام وخيال أخته.. لو كان بيته صحياً هو الآخر، لما أضحت أخته سجينة الملاريا.. لقد غدت هي الأخرى واهنة ضعيفة قريبة من الموت كما أن والده ما زال ينتظر جواب العريضة التي يدور بها الشيخ سعدو على المسؤولين. وتنهّد، وشعر بيأس كبير يغمره، وبألم عاصف يأكل نفسه.. إن كل شيء حوله يقوده إلى هاوية لا نهاية لها فهل يستسلم؟! هل يدع مصير هيام إلى الأقدار تتقاذفها كما تريد.. يجب عليه أن يتحدى الموت الذي يتربص بهذا الحي.. يجب أن يقتلعه من جذوره.. ونظر إلى مياه النهر، وأدرك في لحظة، استسلامها المطلق إلى المصير الذي تستسلم إليه، فهل يستسلم الحي كله إلى المصير الذي تقوده إليه مياه النهر الدائبة السير.. لا.. هو بالذات لن يستسلم، ويجب أن يفعل شيئاً، ولكن ما هو هذا الشيء الذي يجب أن يقوم به؟!

وفكَّر ثانية ثم تساءل متنهداً: ماذا ينفع التفكير، أيمكن أن تغدو هيام الرقيقة، حلماً يطويه التراب؟! ترى أيّ تراب في العالم يستطيع أن يملأ الحب المعتمر في قلبه؟!، وهزَّ رأسه هزّاً متداركاً وهو يردِّد بينه وبين نفسه: يجب أن أجد وسيلة، وهي موجودة حتماً.. أجل.. المال.. لا شيء غير المال، ولكن أين يجد المال اللازم لعلاجها وتغذيتها.. من أين يجلبه؟!، إن أباه يشتغل ويحصل على المال، وقاسم يشتغل ليحصل على المال، وأم إبراهيم هي الأخرى تعمل لتعيل أطفالها.. الجميع يعمل، فلمَ لا يعمل هو أيضاً؟!. وارتاحت نفسه إلى هذا الخاطر وانبثق في ذاته أمل صغير هزّ كل جوانحه فأخذ يردد:

- عليَّ أن أعمل أنا الآخر.. يجب أن أعيل هيام، لأساعدها على الشفاء.. وستشفى..

إنه الآن يشعر بالمسؤولية تجاه عاطفته، وتجاه من يحب، وما عليه سوى أن يقنع أباه بالعمل معه.. ولكن لا.. إن العمل مع أبيه لن يحقق الهدف الذي

يصبو إليه، إذ سيجرده من نصف أجرته، إذا لم يجرده من أجرته كلها.. عليه أن يجد عملاً لا يقاسمه فيه أحد.. عملاً يوفق فيه بينه وبين دراسته..

وتوقف تفكيره طويلاً عند الدراسة والمدرسة ثم ردد بخفوت:

- لعن الله المدرسة.. متى يأتي الصيف، لم تعد النتيجة تهمني في شيء.. رسبت أم نجحت.. المهم عندي أن أنتصر على مرض هيام، ويجب أن أنتصر عليه مهما كلفني الأمر..

وجلب انتباه أحمد فجأة، نور ينبعث من النهر، من مسافة جد بعيدة، وكان النور يتحرك ببطء تحت المنازل التي أدى تلاصقها إلى قيام جسر من البيوت المتلاحمة التي تجري من تحتها مياه النهر.. واشتد النور المتحرك أكثر فأكثر، وهو ينتقل هنا وهناك، وتبين أحمد على ضوئه رجلين كأنهما يجمعان شيئاً ما من فجوات ضفة النهر، ودفعه الفضول إلى معرفة ما يقوم به الرجلان، فتوجه نحو الضوء الآخذ بالاقتراب والذي اجتاز في تلك اللحظة الجسر المكون من البيوت المتلاصقة، حتى إذا غدا قرب الرجلين، وجدهما يسلطان الضوء على أوكار السلاطعين، ويجمعان ما يجدانه فيها، ثم يلقيان بها في كيس كبير يحملانه لهذا الغرض فسألهما مستغرباً:

- لمَ تجمعان كل هذه السلاطعين؟!.

فأجابه أحدهما دون أن يرفع رأسه:

- لنبيعها..

واستبدت الدهشة بأحمد فهتف مستغرباً!

- تبيعونها؟! .

وردَّ الرجل نفسه:

- أجل.. هي والضفادع..

- ومن يشتريها؟!.

- أصحاب المطاعم..

وفتح أحمد فمه مستغرباً، ولبث برهة يفكر في الأمر قبل أن يسأل من جديد:

- ولماذا يشترونها.. إنها لن تفيدهم في شيء..

وعاد أحد الرجلين يجيب متأففاً وهو يتنقل في النهر من أمام وكر إلى آخر برشاقة:

- جنود الاحتلال من أستراليين وفرنسيين وإنكليز يطهونها ويأكلونها وهم يحبون كثيراً هذا النوع من الطعام.

- ولكنه محرَّم..!.

ولم يجب أحدهما بشيء، بينما انصرف أحمد وهو يتلكأ في سيره، ويفكِّر في ما قاله الرجلان، وما كاد يدخل غرفته المشتركة مع أخويه، ويضع رأسه على الوسادة حتى برقت الفكرة في رأسه:

- لمَ لا أبيع أنا أيضاً السلاطعين والضفادع إلى أصحاب المطاعم..

وخفق قلبه لهذا الخاطر، وارتاح إليه وهو يردد بينه وبين نفسه:

- ستذهب هيام إلى المصح.. سأذهب معها، وستشفى..

ولبث طويلاً مسهداً، يعانق أحلامه، حتى ضمَّ إلى عينيه هيام، وراح معها في إغفاءة عميقة.

- ٢٠ -

تساءل علي الحجار، وهو يرى ابنته من بعيد تغذُّ السير بعيداً عن الحي باتجاه ساحة الشهداء.. أليست هذه سميرة؟! هي بذاتها.. ترى ماذا تفعل وحدها في هذا المساء، وإلى أين تتجه؟!.

ولمّا لم يجد جواباً مقنعاً، هرع خلفها، ولم يدرِ. لمَ أخذ يتبعها عن كثب دون أن يعترض طريقها، فقط، وجد نفسه يتبعها من بعيد دون أن تحس أو تشعر به، وكان علي الحجار قد استطاع إقناع رئيسه الإنكليزي بمنحه إجازة

يومين يرى خلالهما أسرته. وما كاد يستقل الشاحنة، ويجلس إلى جانب سائقها، حتى شعر بأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن صدره.. صحيح أنه لا يعمل شيئاً سوى مراقبة العمال، غير أن هذا العمل بالذات، مرهق إذا ما أعطاه المرء كفايته من العناية.. لقد مضت عليه سنة وبعض السنة مذ غادر دمشق، وراء هذا العمل، وها قد مرّ الربيع، وجرَّ وراءه الصيف، وبعض أشهر الخريف ولم ينقل بعد إلى دمشق كما وعده المختار صالح، وهو على كل حال راضٍ بعمله لا يتذمر من شيء، ولكن الحنين والشوق إلى زوجته وابنته برّحاه.. وكان كلما ذكر سعدية بينه وبين نفسه، لا يستطيع أن يمنع عن نفسه منظر جسدها البضِّ الذي يغطي شعرها الطويل الفاحم بعض مفاتنه، فيثور جسده، ويتمنى لو يطير إليها ليعتصرها بين يديه القويتين، كي يبرهن لها بأن الألم الذي كان يشكو من وطأته قد تلاشى، ويزفر زفرة خانقة وهو يتساءل:

- ترى أما زالت تعمل في الليل ؟..

ويجيب نفسه:

- ولكني حذرتها من ذلك..

ويتذكر المبلغ الكبير الذي يقتطعه من راتبه ليرسله إليها فيطمئن بعض الشيء.. إنه يحرم نفسه كل شيء من أجل زوجته وابنته.. ويبتسم عند ذاك بسعادة ويردف محدثاً نفسه، سأجدها في البيت حتماً.. لأنها دون شك تركت عادتها السيئة، فالمال الذي أرسله لها، يفيض عن حاجتها..

عاش علي الحجار الساعات الست التي قضاها في الشاحنة إلى جانب السائق، كأنها ست سنوات، وكان لا يشغله خلالها سوى جسد زوجته والخلوة التي يزمع أن يختلي بها وكان تفكيره يقوده دوماً وأبداً، إلى هذه النقطة بالذات، مهما نأت به الخواطر والهواجس، إلى أن لفظته الشاحنة قرب ساحة الشهداء، فتوجه نحو بيته حاملاً في يديه سلة من البيض، وكيساً من اللبن المصفى، حتى إذا فوجئ بابنته متجهة نحو الساحة التي قدم منها، وجد نفسه يتعقبها مستغرباً.

ونظر إلى منديلها الأسود الذي يخفي شعرها ووجهها، وإلى قامتها المديدة، عندما رآها تمتطي فجأة حافلة خط المهاجرين، فهرع يود اللحاق بها، غير أن الحافلة انطلقت ببطء تاركة علي الحجار يسبُّ ويلعن. وقفل راجعاً نحو بيته بخطى معجلة، يود أن يعرف من زوجته المكان الذي أرسلت إليه سميرة.

كان البيت خاوياً على بعضه، لم يجد أحداً، فانتابته كآبة قاسية، جعلته يرمي سلة البيض وكيس اللبن المصفى اللذين جاء بهما من مركز عمله، ومكث قليلاً يقلب وجوه الرأي، وعيناه تدوران في محجريهما بغضب، ثم حمل كيس اللبن وانطلق نحو المقهى ليجتمع إلى رفاقه، وليقدِّم للمختار صالح كيس اللبن الذي وعده به.

* * *

لم تنتبه سميرة وهي تتعقَّب أمَّها إلى أبيها وهو يتبعها بدوره، غير أنها عندما قفزت إلى الحافلة وهي تتحرك، لمحت أباها وهو يحاول اللحاق بالحافلة، فانتابها ذعر مفاجئ لم تدر كنهه، وأيقنت بأن عاقبتها وخيمة، وحمدت ربها على أنها رفضت استقبال سعيد في غرفتها كعادتها التي درجت عليها مذ عرفت شهوات الجسد على سريرها المخلع.. ونظرت إلى أمها الجالسة في القسم المخصص للنساء، وصرّت من بين أسنانها:

- كل ذلك بسببك.. ماذا سأقول لأبي عند عودتي؟! .

وفكرت قليلاً وهي تردد: يجب أن أنتحل عذراً مقبولاً..

ترجلت سعدية من الحافلة كعادتها، ولحقت بها ابنتها عن كثب، حتى أوشكت الأم أن تصل إلى البيت، وفجأة سمعت سعدية ابنتها تناديها، فالتفتت كالمسعورة، ورأت من وراء منديلها الرقيق الأسود ابنتها تقف غير بعيد عنها، فجمدت في وقفتها لحظات كانت كافية ليظهر عليها الارتباك ثم استردت جأشها وصاحت بانفعال غاضب في ابنتها:

- أتتعقبينني يا بنت الكلب.. ما الذي جاء بك..؟

ولم تترك لها الفرصة لتجيب، بل سحبتها من ذراعها وعادت بها من الطريق التي جاءتا منها.. وصاحت سميرة بصدق:

- أنت تؤلمينني!.

وردت سعدية بهمس غاضب:

- ما الذي جاء بك إلى هنا.. أجيبي!.

ورأت ابنتها تنظر إليها كالمعتوهة، وهي تهز رأسها مستنكرة، ولمحت بعض المارة وهم يرمقونها بفضول بينما قالت سميرة ببراءة:

- ما قصدت شيئاً.. إنما أبي..

وبدا أن الأمَّ لم تنتبه أثناء غضبها لعبارة ابنتها، فانتابتها الحيرة في ما تفعل.. هل تقفل راجعة مع ابنتها، فتسوي المسألة التي لحقت بها ابنتها من أجلها، ومن ثم تعود لاستقبال الزبائن من ضباط الجيش المحارب في الجبهات البعيدة، أم تصرف ابنتها بوعد تقطعه لها بالرجوع مبكرة هذه الليلة.. وعلا نشيج سميرة فجأة دون أن تدري لماذا، وأخذت تبكي وهي تقول بتحدٍ:

- أنا أعرف نوع العمل الذي تزاولين في هذا البيت، ولم أرغب في إزعاجك، غير أن أبي وصل تواً من السفر..

- ماذا.. أبوك؟!.

وغامت الدنيا أمام عيني سعدية، ولم تعد تهتم بشيء قدر اهتمامها بمدى علم ابنتها بنوع العمل الذي تمارسه.. ترى كيف تسرب إليها! من الذي أخبرها؟!.. وبدا الاضطراب واضحاً في حركاتها، وأخذ المنديل المسدول على وجهها يمتص حبيبات العرق الذي تصفد من جبينها ووجهها حتى بدت كأنها بقع دهنية لا سبيل إلى تنظيفها. .وتمالكت نفسها أخيراً، وسألت ابنتها:

- منذ متى تعلمين بذلك؟! .

- منذ أمد بعيد، ولولا قدوم أبي المفاجئ لما ناديتك..

وفجأة رقَّ صوت الأم وبدا حنوناً وهي تقول:

- انتظريني هنا.. سأغيب دقائق، ثم أعود إليك، لنعود معاً، يجب أن يرانا أبوك معاً، لأن ذلك يسرّه، وسيُسرُّ أكثر إذا علم بأننا كنا في زيارة لبعض معارفنا..

وغابت الأم لحظات داخل الدار الأنيقة، ثم عادت لتصطحب ابنتها في طريق العودة، والشك يغزو قلبها.. لقد قالت ابنتها إنها تعرف كنه العمل الذي تزاول فكيف عرفت؟! وخفق قلبها بشدة وهي تتذكَّر ابن الجيران سعيداً فتساءلت بينها وبين نفسها:

- أيمكن أن يكون هذا الشاب قد روى شيئاً، أو فعل شيئاً مع ابنتها حتى تجازف بتعقبها إلى المكان المشبوه.

وسارتا في الطريق يلفهما الصمت، وقد أبت الدموع أن تكفَّ عن المسيل عبر الخدِّ الأسمر الذي أغرق صاحبته في حزن وهمٍّ عميقين ودَّت معهما في قرارتها لو أنَّ الموت يخطفها لتستريح من العار الذي تتسربل فيه بسبب تصرفات أمِّها.

* * *

انقضى اليومان بسرعة على علي الحجار، وودَّ لو يستطيع تأجيل سفره أياماً أخرى، ولكنه لم يفلح في ذلك، ولم يكد يغادر البيت، حتى انفجرت سعدية من الغيظ صائحة أمام ابنتها:

- هذا الأحمق أبوك.. لو تعلمين كم جعلني أخسر خلال هذين اليومين، وحتى فوزية المخادعة لا أدري بكم سرقتني..

وهمست سميرة باستغراب:

- أبي وفوزية..

كانت حتى تلك اللحظة صريعة الأفكار بين الشكِّ واليقين في ما تقوم به أمُّها من عمل في ذلك البيت، وظلت حتى بعد عودتها مع أمها إلى البيت فريسة الظنون، تنفي عن أمها الحقيقة التي لا تريد أن تصدقها.. أما الآن قد

وضحت الحقيقة سافرة، وتبدد الشك في نفسها إلى يقين، وهي لن ترضى أو تسمح بذلك، عليها أن تمنع أمها عن ذلك مهما كلفها الأمر.. وعندما وصلت إلى هذا القرار قالت متحدية أمها:

- ومتى ستقلعين عن هذا العمل؟!.

وأدركت الأم، وهي الامرأة الخبيرة بأن ابنتها لن توافق بعد الآن على متابعة عملها، وبأنها ستعيق طريق الإثراء السريع الذي خططت له مع فوزية وأوغلت به بعيداً، فصمتت قليلاً لتتيح لنفسها مجالاً للتفكير والخروج من المأزق الذي وضعتها فيه ابنتها. ولكن سميرة تابعت قولها عندما طال سكوت أمها بغضب:

- ستقفين أمام مستقبلي.. أمام زواجي، إذ من يرضى الزواج بابنة امرأة داعرة.. وقفزت الأم كالملسوعة، واستدارت نحو ابنتها وانهالت عليها بصفعتين قاسيتين. تلقتهما سميرة بوجوم، ثم رمقت أمها بألم كبير، وهرعت نحو غرفتها وهي تتسلق درجات السلم قفزاً.

وشردت الأم، وارتعدت قليلاً، وقد أدركت أنها أخطأت، لأنها لن تستطيع خداع ابنتها التي تكلمت حقاً، وهي إن سكتت اليوم فلن تسكت في المستقبل، وستخبر أباها، وعند ذاك لا أحد يعرف ما يحدث، فقضايا الشرف في المدينة لا تمضي بسهولة ويسر، وقد تكون هي إحدى ضحاياها.. وتساءلت وهي في أوج انفعالها: ترى كيف السبيل إلى تلافي هذا الأمر؟!، وفكرت ملياً وهي تحوص في باحة البيت على غير هدى، وفجأة برقت الفكرة في رأسها، فشعرت بسرور لا يوصف لاكتشافها، وبحب غامر لابنتها لم تعهده من قبل، فأخذت تناديها حتى إذا لم تتلق رداً، اندفعت تصعد السلم نحو غرفة ابنتها، وما كادت تلج الغرفة، حتى ارتمت على ابنتها، وأخذت تقبلها بحنان في كل مكان تقع عليه شفتاها، وهي تعتذر، وسميرة مأخوذة، وقد بدأت الدهشة تستولي عليها شيئاً فشيئاً، لتبدد في الوقت نفسه شرودها وذهولها، ولم تلبث طويلاً حتى شاركت أمها عناقها وقبلاتها، وتغرقها بدموعها التي حبستها طويلاً دون أن تدري لماذا؟!.

التأم شمل الرباعي الذي اعتاد الجلوس في المقهى، والانزواء في ناحية قصية عنه، وقد لحظ الجميع ملابس قاسم الجديدة التي باتت تنبئ عن موظف بسيط في دائرة الميرة. وكما تغيرت ملابس قاسم، تغير بدوره بعد استلامه لوظيفته الجديدة، فأضحى كثير الكلام وخاصة في السياسة التي لا يشاركه فيها أصدقاؤه إلا بالاستماع والمناقشة، وكانت أصوات الرباعي تعلو في بعض الأحيان خلال المناقشات التي تتناول في الغالب الموضوعات العادية. وكان أبو دياب متكوراً في جلسته يرشف الشاي، وكأنه يرشف دواءً حراً، ولا يكف عن التذمر والشكوى من الآلام التي يعاني منها هو وأسرته كلما سنحت له الفرصة حتى ضاق به أصدقاؤه. وكان المختار صالح والشيخ سعدو يلعبان النرد، وكلٌّ يقرقر في نرجيلته دون ملل، حتى إذا تغلب الشيخ سعدو على المختار في نهاية اللعب، التفت هذا نحو قاسم وقال وهو يلوك الكلمات لوكاً:

- حدثنا عن صاحبك!.

- صاحبي؟!.

- أجل! ذاك الذي تلتقي به في مقهى البرازيل..

وضحك قاسم بامتعاض وقال:

- أتسمي أستاذاً كبيراً كهذا باستخفاف، صاحبي!.

- ماذا تريد أن أسمِّيه!.

- ما شئت، وثق بأن هذا لن يضيره في شيء، لأنه مفكر كبير، أما أنا فلست سوى تلميذ صغير من تلامذته .

وفجأة تدخَّل الشيخ سعدو بالحديث قائلاً:

- كيف تسمح لنفسك يا قاسم، وأنت الرجل المسلم أن تكون تلميذاً لذاك الذي يعتنق ديناً آخر...

- يا شيخ سعدو، اطلب العلم ولو في الصين، لذا لا تحاول أن تثنيني عن طريقي..

- أنا لا أثنيك عن شيء، وإنما أنصحك، ولا يروقني كصديق، وأخ أكبر منك سناً أن تدرس على يدي هذا الأستاذ، تمعَّن في ما حولك تجد كثيراً من المعلمين الأفاضل الذين يدرّسون الناس في حلقات يعقدونها في بيوت الله.. عندك مثلاً الأستاذ مبروك.. والأستاذ معروف والأستاذ مصطفى.. والأستاذ..

ولم يدعه قاسم يتم كلامه إذ قاطعه قائلاً:

- كفى.. كفى.. الأستاذ مبروك.. ذاك الذي قبَّل يد المندوب السامي ليرسله إلى فرنسا...

فصاح أبو دياب:

- ماذا تقول؟!.

- اسأل الشيخ سعدو..

وصمت الشيخ سعدو بينما تابع قاسم:

- وبعد ذلك أرسله المندوب السامي ليتابع دراسته في باريز..

وقال المختار صالح منتقداً المناقشات الشخصية.. ومحاولاً في الوقت ذاته إنهاءها بود:

- دعونا من المناقشات، فإنها لا تقود دوماً، إلا إلى المهاترات والمشاحنات..

وتنهّد قاسم ثم قال:

- ربما أسأت، إنما نحن جميعاً نعرف بأن الفرنسيين يحاولون دائماً تفريقنا إلى طوائف وشيع، ليتمكنوا من البقاء في بلادنا، وجلّ ما أردت قوله إننا كعرب، حاربنا الأتراك كأمَّة واحدة على الرغم من اعتناقهم للدين الحنيف، فيجب علينا في وضعنا الراهن، أن نقف من الفرنسيين والإنكليز موقفاً مماثلاً، دون أن نترك

لهم مجالاً لاختراق صفوفنا عن طريق الدين، ولهذا تلقى دعوة الأستاذ الذي حدثتكم عنه رواجاً بين صفوف المثقفين والطلاب، وهم يتزايدون يوماً بعد يوم..

ونظر قاسم في ما حوله باحتراس ثم قال:

- حضرت في الأسبوع الماضي اجتماعاً في بيت يقع في حي الشعلان، وكان عدد الحضور لا يزيد عن عشرين شخصاً، وعندما انصرفوا جاء غيرهم أيضاً، وأيضاً، وأيضاً.. هذا غير الاجتماعات التي يعقدها الأستاذ وزميله الأستاذ صلاح في الأحياء الأخرى والمدارس، وحتى في مقهى البرازيل..

وسأل الشيخ سعدو:

- وما هي صفات معلمك هذا؟!.

- إنه بسيط في كل شيء.. يتكلم بروعة.. صوته هادئ عميق، وأفكاره بعيدة عن التعقيد وخاصة عندما يتحدث عن العرب ورسالتهم الإنسانية الخالدة..

وصاح الشيخ سعدو منفعلاً:

- أية رسالة هذه.. هل هناك غير رسالة النبي الكريم صلوات الله عليه ورضوانه..

وردَّ قاسم بهدوء:

- إنَّ رسالة النبي العربي الكريم هي رسالة سماوية تشعُّ بنورها على الدنيا، تحضُّ على مكارم الأخلاق، وعلى الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، ونحن ورثتها، وهي لا تتناقض ورسالة العرب في العالم التي استطاعت أن تبني الحضارات العظيمة التي جاءت قبل الإسلام، والتي استمدت فيما بعد قوتها من الإسلام، واستمرت تشع بنورها على الإنسان الغارق في الجهل لترفعه إليه.

وبان الذهول والشكُّ في وجه الشيخ سعدو وهو يقول بغير اقتناع:

- أقسم بأن تعاليم أستاذك هذا ستقودك إلى التهلكة..

ووضع أبو دياب كأس الشاي الفارغة على الخِوان وقال يخاطب قاسماً كالحالم:

- وهل يستطيع أي إنسان الاجتماع به!.

- طبعاً.. وفي أي وقت..

- ربما حاولت الاستماع إلى إحدى ندواته في المستقبل..

قهقه الشيخ سعدو وقال مداعباً:

- ما هذا يا أبا دياب، هل فتنك قاسم بالحديث عنه..

واشترك المختار في الضحك مجاملاً، ولم يدرِ أحد منهم كيف قادهم الحديث بعد انقطاع طويل نحو مشكلة النهر، والمياه الآخذة بالجفاف، والأمراض التي يدفع بها إلى الحي في صيف كل عام.. وراق لقاسم أن يسأل الشيخ سعدو عن العريضة، وفتح أبو دياب عينيه، وأصاخ جيداً لردِّ الشيخ سعدو:

- ما في فائدة.. ما زلنا عند الوعد، وما زلنا نأمل بالوعد..

وقال أبو دياب:

- لقد مرَّت سنتان على ذلك..

وردَّ قاسم:

- وستمرُّ سنوات أخرى دون فائدة..

ولم ينبس المختار والشيخ سعدو بكلمة، فقد اعتادا أساليب الحكومة العقيمة، والمماطلات الأبدية في كل مشروع من المشاريع التي يطرحونها للتحقيق..

وقال أبو دياب:

- إذاً لن نستطيع أن نفعل شيئاً!.

وقلب الجميع شفاههم دون أن ينبسوا ببنت شفة.. وفجأة قال قاسم:

- عندي خبر لكم..

فصاح أبو دياب وسعدو معاً بينما ترك المختار نربيش نرجيلته يتدلَّى من فمه:

- وما هو؟!.

فابتسم قاسم قبل أن يجيب:

- انتويت الزواج!.

وهتف الجميع مستنكراً عدا الشيخ سعدو:

- الزواج!.

وأجاب قاسم مذهولاً من العاصفة التي قوبل بها:

- أجل الزواج.. إذا لم يكن عندكم مانع.. ثم هل هو أمر غير مستحب أم ماذا؟!

- لا، إنما يجب أن تحدد منذ الآن دخلك! .

قال المختار ذلك، دون أن يترك نربيش أركيلته، بينما قال أبو دياب وكأنه يتمم حديث المختار:

- لا تندفع وراء هذه الرغبة، تمعّن فيها وادرسها جيداً، لا تتورط مثلي.. لقد دفعني أبي للزواج، فبماذا أفادني أبي الذي زوجني ليرى له حفيداً قبل أن يموت؟! لقد مات قبل أن يراه.. مات دون أن يؤمّن لي عملاً ثابتاً أو مورداً ثابتاً، لم يترك لي سوى هذا البيت الذي أقطن فيه، ولولا أصدقائي.. لولاكم.. المختار صالح والشيخ سعدو لكنت أنطوي اليوم على جوع حقيقي..

- أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم يا رجل..

أخذ الشيخ سعدو يردد ذلك بينما استمر المختار على صمته وأبو دياب في حديثه:

- خذها نصيحة مني.. إذا لم يكن عندك دخل ثابت فلا تقدم على هذا الأمر.. الزواج حلو في أوله وعلقم عندما يمتلئ بجيش من الأولاد..

وقاطعه الشيخ سعدو مشجِّعاً قاسماً على الزواج بقوله:

- إذا فعلت ذلك يا قاسم تكون قد أكملت نصف دينك!.

وسأل المختار:

- هل تفكِّر في بنت معينة، أم تريدنا أن نساعدك على انتقائها!.

- في الواقع، وقع اختياري على واحدة، وآمل أن يوافق أبوها، فأنا أراها كثيراً في الطريق، وهي بالذات تروق لي وتعجبني..

- ومن هي؟!.

- ابنة علي الحجار!.

وصمت الثلاثة دون تعليق، فقد أضحى أهل الحي جميعاً يعرفون سلوك الأم، وعندما طال صمتهم صاح قاسم بانفعال:

- ما خطبكم.. لِمَ انتابكم الوجوم .

وقال المختار وهو ينظر إلى رفاقه نظرة تشجيع:

- لا شيء، إنما سكتنا لأن الراغب عليه أن ينتقي شريكة حياته انتقاءً موفقاً، والأمثال تقول: (ألقِ الجرة على تمها، تطلع البنت لأمها..) و(الأم الخواضة بنتها خواضة)..

وضحك قاسم وهو يردُّ على الجميع وموجِّهاً كلامه للمختار:

- ولهذا السبب لم تتزوَّج أنت يا مختار.. لقد أصبحت هرماً، ولم تعثر بعد على الزوجة المناسبة.

- سأعثر عليها في يوم من الأيام..

- أما أنا، فقد عثرت عليها في بنت علي الحجار، وأرغب بمساعدتكم في تحقيق زواجي منها.

وقال الشيخ سعدو:

- هذا أمر سهل يا قاسم، ولكن!.

- ولكن ماذا؟!.

وردَّ المختار:

- ألم تفهم الأمثال التي رددناها على سمعك، وما رمينا من ورائها؟!.لا.. لم أفهم.. ماذا تقصد؟!.

- أريد أن أسألك أولاً، ألا تقطن في هذا الحي؟!.

- بلى..

- ألم تصلك أخبار، شائعات، عن سلوك أمها..

- بلى، سمعت شيئاً من هذا، ولكني لا أقيم للثرثرة وكلام الناس وزناً..

وقال أبو دياب بعد صمت طويل:

- أنا أحبك يا قاسم، وأعتبرك كولدي أحمد، ولأني أحبك أنصحك بالزواج من بنت أخرى .

وصاح قاسم بغضب:

- ما بالكم هجتم ومجتم، وكأن الزيجة قد تمت..

وقال المختار:

- لنتكلم بصراحة.. هل تعرف أمها؟!.

- أراها أحياناً في الطريق..

- هل تريد أن تقضي وطرك منها.

- ماذا تقول؟!.

وغامت الدنيا أمام عيني قاسم، فقد توقع كل شيء إلا هذا..

- إذا كنت لا تصدقني اذهب إلى منزلها والذي افتتحته خصيصاً لأمور مشبوهة، والذي لا يزوره سوى ضباط الجيش الإنكليزي..

- أجاد أنت فيما تقول أم تهزل؟ .

- اسأل.. أمامك الناس جميعاً، وإذا كنت تثق بأبي دياب والشيخ سعدو فاسألهما، ثم إن مهنتي مختار الحي، ولأني مختار الحي يجب أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عن الحي وسكانه..

- وزوجها!.

- الزوج آخر من يعلم..

- ولماذا لا تخبرونه؟! .

- أنت تعرف ما يحدث في مثل هذه الحالات لو علم بذلك، ثم إن عمله يرغمه على أن يكون بعيداً عن الحي وعن أسرته..

وساد صمت قصير قال قاسم بعده:

- وما ذنب البنت في ذلك، هي سيئةٌ كأمِّها..

فصاح الشيخ سعدو مستنكراً:

- معاذ الله.. حرام يا شيخ.. وأنا نفسي كنت أريد أن أسأل سؤالك نفسه.. أجل ما ذنب هذه الصبية؟!.

وسأل المختار مستفسراً:

- أحدثتها؟!.

- أبداً، ولكني رأيتها مصادفة فبهرني جمالها..

- وكيف رأيت وجهها..

- لقد حسرت منديلها وهي تشتري من سمان الحي، فرأيت أجمل وجه يمكن أن تقع العين عليه..

وجرض المختار بريقه وساءل نفسه: أيمكن أن تكون صورة عن أمها.. إن أمها رائعة وأروع من عرف من النساء جمالاً وفتنة وإغراءً وحديثاً..

وقال الشيخ سعدو:

- لم تجيبوا على سؤالي: ما ذنب هذه الصبية البريئة؟! .

وسُرَّ قاسم بقول الشيخ سعدو إلى جانبه فقال بحماسة:

- أجل ما ذنب هذه البنت الصغيرة، وأنا إذا ما تزوجت منها فسيكون انفصال تام بيني وبين أمها..

ورد أبو دياب:

- أنت تقدّر الأمور من طرف واحد، فهل تعتقد بأن أي أم أو أي أب يرضى بالتخلي عن أولاده أو أن يتخلى الأولاد عن آبائهم.. لا.. لا يا قاسم، أنت قد تعي الأمور السياسية التي تجتاح البلاد ولكنك في مثل هذه الأمور مازلتَ غضاً..

وقال الشيخ سعدو حاسماً الموضوع:

- دعونا من النقاش، ولنقرر قبل أن ننصرف هل توافقون على ما يطلب؟!.

وهنا سأل المختار:

- ما رأيك أنت يا شيخ سعدو، لو كان عندك ولد فهل تزوجه ابنة امرأة سيئة السمعة؟!.

وغرق الشيخ سعدو في التفكير قليلاً ثم قال موجهاً حديثه لقاسم:

- أنا معك يا قاسم، إن ما تقوم به إنقاذ لنفسٍ بريئة.. إنقاذ لها من مصير رهيب ينتظرها.. إن لم يخطئني الظن على يدي أمها..

ونهض المختار بعد أن لفّ نربيش نرجيلته وهو يقول:

-على خيرة الله.. إذا كان هذا رأيك وسنقابل علي الحجار عند أوبته من حلب، ويمكنك يا قاسم أن تعتبر القضية منتهية منذ الآن..

* * *

انصرف الجميع نحو بيوتهم، وبقي قاسم وحيداً يجول في الطرقات والحواري المؤدية إلى بيته حذراً وفق خطة مدروسة، وكان يخرج بين الحين والآخر منشوراً يدسه في باب كل منزل يمر به أو دكان، ويلصق بعضها

على الجدران في غفلة عن الحراس، حتى إذا غدا قريباً من الزقاق الذي يقود إلى بيته، شاهد نوراً منبعثاً من النهر، فتملكه العجب، فاتجه نحوه، دون أن يهتم بولوج الزقاق نحو بيته، وعندما اقترب من النور كثيراً، رأى ابن أبي دياب أحمد يجمع شيئاً في كيس يحمله على كتفه وقد غاصت قدماه حتى الركبتين في المياه الآسنة فسأله متعجباً:

- ماذا تفعل عندك يا أحمد؟!.

- أجمع الضفادع والسلاطعين..

- ولماذا؟!.

- لأبيعها لأصحاب المطاعم..

- وماذا يصنعون بها؟! .

- يطهونها للأجانب..

- ماذا.. يأكلون الضفادع والسلاطعين..

- أجل!.

- حقاً إن هذا لعجيب..

وبتر أحمد الحديث وقال بسرعة وكأنه تذكر شيئاً هاماً:

- سيد قاسم.. فاتني أن أخبرك بأن هناك رجلين ينتظرانك في الظلام قرب بيتك...

- ينتظرانني.. قرب البيت..

- أجل.. أنت تعرف بأني أزور خالتي أم إبراهيم يومياً، وعندما زرتها هذا المساء، سألاني عنك، وأعادا الكرة عندما خرجت، ولم يتركاني وشأني إلا عندما تأكدا بأني لن أغادر الحي..

- ألا تعرفهما..

- لم أرهما في حياتي أبداً، ثم إن خالتي أم إبراهيم قالت إنهما من التحري..

- التحري..

وهمس أحمد هاتفاً:

- هذا هو الحارس، لقد اتفقا معه على أن يطلق صفيراً حاداً من صافرته مرتين متتاليتين إذا شاهدك، هيا أسرع وغادر الحي لتنجو بنفسك..

وحار قاسم في أمره، وأدرك بأن رجال التحري في أثره بسبب نشاطه المتزايد لدى جماعة الأستاذ، ولم يلبث طويلاً حتى حزم أمره، وهو يرى الحارس يقترب من بعيد، ومن ثم قفز إلى النهر وأخذ يخوض في مياهه راكضاً بقدر ما تسعفه حركته باتجاه معاكس لاتجاه مياه النهر والحارس معاً..

وانتبه الحارس إلى ذلك بعد لأي، فانطلق يملأ الليل صفيراً، وعلا الضجيج، وتجمع بعض المارة، وامتدت الرؤوس من النوافذ مستطلعة، ثم هدأ كل شيء في الحي إلا من أحمد الذي ظل يجمع الضفادع والسلاطعين بصبر، وقد بدأت تباشير الفجر تنبئ عن ميلاد يوم جديد.

- ٢٢ -

فقدت أم ابراهيم زوجها وهي في الثلاثين من عمرها، وكانت تجمع إلى مسحة الجمال الخفيفة حساً مرهفاً، وشعوراً رقيقاً، وعاطفة سخية، وإرادة قوية. وعندما رأت ذئاب الحي الجائعة تعوي خلفها، أدركت بأن طريقها شاقة، وأن عليها أن تقاوم الإغراءات كثيراً، كي تستطيع الاحتفاظ بشرفها وسمعتها.. لقد فكرت بالزواج بعد مرور عام واحد على وفاة زوجها، ورغبت صادقة في العثور على رجل قادر يرضى بالزواج منها، ويرضى بالتالي رعاية وإعالة أطفالها الثلاثة فلم تعثر على غايتها، ولم يتقدم إليها أحد ممن طمعت بهم. وهكذا طفقت تعمل غسَّالة في البيوت الموسرة لتعيل الأسرة الصغيرة التي أصبحت مسؤولة عنها، فكانت تذهب صباحاً ولا تعود إلا عند العصر منهوكة مكدودة، وهي مطمئنة لرعاية جارتها أم عدنان لأطفالها طوال غيابها..لقد حاولت طويلاً

أن ترمي شباكها وتنسجها حول جارها العازب (قاسم) الذي يقطن غرفة قريبة من غرفتها فلم تفلح، لأنها كانت لا تجيد فنون الغواية، ولأن قاسم بدوره كان لا يفكر في الزواج في ذاك الوقت، ومع هذا فإن أم إبراهيم لم تسلم من مؤامرات المختار صالح الذي افتتن بشبابها وأنوثتها إلا بصعوبة، كما أنها استطاعت أن تصون نفسها من مؤامرات فوزية المتواصلة التي لم تكف عن محاولاتها إلا بعد أن طردتها بالاشتراك مع جارتها أم عدنان من البيت طرداً..

لقد مرت على حياة الترمل، وعلى حياة الشقاء من أجل كفاف يومها ثلاث سنوات دون أن تتذمر أو تشكو، وكانت تتسول ملابس أطفالها وملابسها من عتيق ملابس الأسر التي تعمل عندها لتبدو في الحي مع أطفالها في حال طيبة، ومنذ اشتدت العلة بابنتها، أخذت تفكر تفكيراً آخر.. كانت تخشى أن يخطف الموت ابنتها، وباتت على استعداد للتضحية من أجلها بكل شيء، غير أنها في الوقت نفسه، كانت تخشى السقوط في شرك الرذيلة الفاغر فمه والذي استفحل مذ أصبحت المدينة مرتعاً لاستراحة الجيوش المحاربة، والذي تجلى في صورة فوزية والمختار صالح، وكان الإنسان الوحيد الذي بات يحتل مكانة خاصة في نفسها وقلبها هو أحمد ابن أبي دياب، إذ منذ مرضت ابنتها وهو يلازمها أبداً، يطرق الباب عند أوبته من المدرسة، ثم يلقي عليها بتحيته، ويدخل بحركة سريعة لطيفة، ليلقي بكل عواطفه وجسمه قرب الفراش الذي تقبع فيه ابنتها، كما كانت السعادة تهز أعماقها، كلما ألقى إليها بمحصوله اليومي من ثمن السلاطعين والضفادع..

كانت أم إبراهيم تنظر إلى أحمد بادئ ذي بدء نظرتها إلى فتى مراهق مفتون بفتاة تحاكيه في عمرها، غير أنها مع مرور الزمن، وجدت نفسها تنتظره هي الأخرى بلهفة تماماً كما كانت تفعل قديماً عندما كانت تنتظر أوبة زوجها كل مساء، وإذا تصادف وتأخر بعض الوقت تساءلت بينها وبين نفسها عن سبب تأخره، دون أن تجد تفسيراً مقنعاً لتساؤلها، فتحاول إخفاء ما يعتمل في نفسها تجاهه، ولا تلبث طويلاً حتى تسأل ابنتها في ذلك، فإن لم تحظ بجواب شافٍ،

وقفت تنتظر أوبته عند النافذة، فإذا ما رأته قادماً من بعيد، شاعت الفرحة في أعطافها، وأشرقت ابتسامة باهتة على وجهها، وسرعان ما ينتقل كل هذا إلى وجه صغيرتها العليلة، بينما تنصرف هي إلى المرآة، فتنتظر نظرة أخيرة إلى نفسها، دون أن تلفت إليها نظر ابنتها، أو تشعرها بذلك.

وكانت في كل مرة تقف فيها أمام المرآة لتلقي نظرة سريعة على هندامها وزينتها البسيطة، يعتريها نوع من الخوف المقرون بالرغبة، فهي لا تدري تماماً، حتى استيقظت عواطفها تجاه أحمد، وحاولت جاهدة مقاومة هذه العواطف دون جدوى، وباتت في صراع نفسي مع نفسها: فهي تعرف بأن أحمد يهوى ابنتها ومتيم بها، وتعرف بأن أحمد في الثامنة عشرة من عمره، ومع ذلك كانت تحس أنها بحاجة إليه، وأن عواطفها تجاهه، ربما لم تكن حباً، بقدر ما تكون اشتهاء، خاصة وقد بدا في الآونة الأخيرة بطوله الفاره، وشبابه المتألق، وبعينيه البراقتين، وبخيراته اليومية، الحلم الذي تتوق إليه كل امرأة.. أجل، كانت تدرك كل ذلك، وتدرك أيضاً بأن حبها واشتهاءها لأحمد، ربما كان مصدره شهوات جسدها الذي لم يصافح رجلاً منذ السنوات الثلاث التي مرت على وفاة زوجها، ولعل هذا هو السبب الذي حدا بها إلى التفكير في أحمد دون سواه، لأنه الوحيد الذي يتردد عليها دون خوف من الرقباء، والقيل والقال الذي ينهش في أعراض الناس.. صحيح أن المختار راودها عن نفسها خلال زياراته المتعددة بعد وفاة زوجها، ولكنها قاومته.. أما أحمد، فهي على استعداد لأن تقدم له كل شيء إذا التفت إليها كما يجب، ولم يعاملها كأم البنت التي يحب.

وعلى العموم، وإنصافاً لأم إبراهيم، فإنها لا تعرف تماماً، كيف ومتى ولد حبها لأحمد. ولا متى ترعرع فجأة ليعصف في جوانحها في غفلة عنها.. لم تجد نفسها سوى تواقة إليه.. لقد بدأ حبها صغيراً.. بدأ من عواطف الأمومة.. من حبها لابنتها وحبيب ابنتها، ثم تفتح في قلبها كالبرعم الصغير، ونما شيئاً فشيئاً، وكبرَ حتى غدا مرهقاً لها.. لقد فكرت جادة أكثر من مرة، أن تحدَّ من زياراته قبل أن تقطع دابرها، ولكن خوفها على ابنتها جعلها تقلع عن ذلك،

وبالتالي تمعن في حبه بصمت، أخذ يتجلى في مظاهر الزينة والإغواء التي تتغنى بها يوماً بعد يوم، وأحمد لاهٍ عنها غير مهتم سوى بابنتها هيام.

كانت أم إبراهيم تفكر بكل ذلك، خلال الصمت الذي يسود فترة الانتظار الطويلة، عند النافذة، أو أمام المرآة، ولم تكن ترتد إلى نفسها إلا عندما تسمع قرع أحمد الناعم على الباب، فتهرع لتستقبله، متعمدة أن تريه بعض عري صدرها لتجذب اهتمامه نحوها.. لقد حاولت صادقة أكثر من مرة، أن تصرف نفسها عن التفكير فيه فلم تستطع.. كانت طريقته في إلقاء التحية، تفتنها كمراهقة صغيرة، وابتسامته المشرقة أبداً على وجهه، تجعلها تلازم النظر إليه خلسة، وتصرفه الرجولي المبكر يذهلها، خاصة عندما يلقي إليها بربحه اليومي على طريقة أرباب البيوت. وكان الغيظ لا يعرف طريقه إليها، إلا عندما يناديها: خالتي أم إبراهيم، أو عمتي، وإن لم يعد يفعل ذلك في الآونة الأخيرة. وباتت تتوقع منه كل شيء، إلا أن أحمد لم يقم بعمل يشعرها فيه بانتباهه إلى إغرائها وإغوائها شبه الدائمين.

وعلى الرغم من تجاهل أحمد لرغبة أم إبراهيم، وتوق أم إبراهيم إلى حب أحمد، فقد كانت تعاني من اضطراب نفسي حاد، تتخبط فيه، ولا تجد مخرجاً منه. فهي تعرف بأن ابنتها تعاني من خطر موت حقيقي إذا لم يتوفر لها المال، وقد تزداد حالتها سوءاً إذا حاولت اغتصاب فتاها، والمال الذي تجنيه لا يكاد يسد رمق الثلاثي الصغير، وأما المال الذي يجلبه أحمد بين الحين والآخر، فهو وقف على تغذية ابنتها، وهو لا يكفي مع ما تقتصده ثمناً للأدوية التي تتجدد كل أسبوع، وهي أيضاً لا تعرف طريقة تستطيع معها، أن تجني ربحاً أكبر.. لقد حاولت في الماضي أن تستدين، ولكن أحداً لم يرض أن يقرضها قرشاً واحداً. وعزمت على أن تبيع حصتها من البيت الذي تقطن فيه، ثم أحجمت، إذ أين ستقطن مع ولديها وابنتها إذا باعت ما تملك، وهل تستطيع أن تستأجر غرفة غير هذه، وأن تلتزم بتسديد الإيجار في نهاية كل

شهر، وأدركت أخيراً حين أعياها التفكير بأن الوسيلة الوحيدة كامنة في أن تسلم مصيرها إلى فوزية، أو إلى المختار، وعندما فاضلت بين الاثنين، وجدت كلا الأمرين عسيراً عليها، ففوزية ستجعل منها تجارة رابحة، والمختار صالح سيلفظها بعد أسابيع من استسلامها له، كما فعل مع غيرها.. ولكن كيف تقدم على ذلك، وهي التي طردت فوزية من بيتها ذات يوم، وتخلصت من المختار بطريقة مشابهة.. إن المختار يحترمها اليوم أشد الاحترام، وعندما زارها مع الجابي طلباً للضريبة، عرض عليها خفية أن يسدد ما عليها، فرفضت خوفاً من أن يطلب الثمن منها فيما بعد، وفكرت في أن تستدين منه بعض المال غير أن فكرة المساومة التي عادت تحتل جزءاً كبيراً من تفكيرها صرفتها عن ذلك.

وكانت كلما قلبت وجوه الرأي، وجدت أن خير وسيلة، لتنسى مشاكل يومها، هي أن تستلقي على فراشها، وتغمض عينيها، ولكنها ما استلقت مرة أو أغمضت عينيها إلا لتفكر في أحمد، وفي وسيلة تمكنها من دفعه إلى أحضانها الظمأى التي لم تعرف رجلاً منذ أودى زوجها قبل سنوات.

* * *

كانت أم إبراهيم تفكر بكل هذا، وتسترجعه، وتناقش نفسها به، وهي واقفة عند النافذة، ترقب آخر الزقاق، منتظرة بلهفة مجيء أحمد، وقد وطدت العزم على أن تخضعه الليلة لرغباتها مهما كلفها الأمر، ورغم قرارها هذا، كانت تخشى ألا يتجاوب أحمد مع رغبتها، وتخشى أكثر، العقبة المجسدة في ابنتها المريضة المكومة بجانب النافذة.

وعندما وصلت إلى هذا الحد من تفكيرها، انتابها ضيق شديد، فأخذت نفساً طويلاً ثم نظرت ثانية نحو آخر الزقاق ثم قالت تسأل ابنتها:

- تأخر أحمد اليوم أليس كذلك؟!.

فأجابت هيام بإعياء وجهد:

- إنه لا يخلف وعداً معي.. قال ليلة أمس إنه سيتأخر قليلاً اليوم..

وهزت أم إبراهيم كتفيها دون اكتراث، وتابعت التطلع من النافذة، ثم صاحت بفرح لم تستطع إخفاءه:

- لقد جاء.. إنه يلوح لي بيده من بعيد..

وانفتلت نحو الداخل كالعصفور الدوري، ونظرت نحو ابنتها، وكبتت ما يعتمل في نفسها..

كان البِشر يطفح في وجه هيام الأصفر وهي تسوي شعرها، وكان يبدو عليها الإعياء أكثر من أي وقت مضى، وسألت أمها، وهي ترفع الغطاء حتى ذقنها:

- كيف أنا؟!.

- عظيم..

أجابت الأم، وهي تتطلع في المرآة، لترى هندامها المتواضع، ثم هرعت نحو الباب لتفتحه، وقد تعمدت أن تترك أزرار ثوبها مهملة، لتتيح لأحمد رؤية صدرها، وجانباً من فخذيها عندما تجلس قبالته، أو عندما تنحني لسبب من الأسباب وما أكثر أسبابها..

وطرق أحمد الباب، ودخل ووجهه طافح بالابتسامات، ويداه بالهدايا الصغيرة، ثم ألقى بثقله كله إلى جوار هيام، دون أن يلتفت إلى الأم أو ينتبه إليها كما يجب.

* * *

حاول أحمد أكثر من مرة، أن يقنع نفسه، بأن التصرفات التي تلجأ إليها أم إبراهيم لتلفت انتباهه وتثيره، ليست سوى تصرفات طبيعية لا تقصد من

ورائها شيئاً، وقد حاول صادقاً ألا يفكر في هذا الأمر، وأن ينأى بنفسه عنه، ولكنه لم يستطع.

وكانت أم إبراهيم تتظاهر دوماً بعدم الانتباه لنظرات أحمد الخجلى التائهة، فتقوم بحركة تدل على أنها اكتشفت شيئاً معيباً في ثوبها فتبتسم في وجهه مشجعة، وتعدل في ثوبها أو جلستها لتتيح له مشاهدة أجزاء جديدة من جسدها المخبوء وهي تتصنع الخجل.

وكان من عادة أحمد، ألا يغادر مكانه قرب فراش هيام إلا بعد أن تستسلم للنوم وعند ذاك، ينهض خفيفاً محاذراً دون صوت، فيودع الأم بابتسامة وإيماءة سريعة، ثم ينطلق إلى بيته.

وفي تلك الليلة، وبعد أن غفت هيام، ونهض أحمد يود الانصراف، أسرعت أم إبراهيم نحو الباب، فأطفأت النور، فيما كان أحمد يحاول الوصول إلى الباب صادقاً في الظلمة التي هبطت على الغرفة فجأة، فاصطدم بأم إبراهيم التي كانت تبحث عنه، وقبل أن يفيق من دهشته، كانت شفتا أم إبراهيم تطبقان على شفتيه، ويدها تقود إحدى يديه نحو صدرها العاري.

وعندما غدا في الطريق، كان يظن أن الذي مرّ به لم يكن سوى حلم طارئ لذيذ.. وحين استلقى في فراشه تلك الليلة، انتابه أرق شديد، وهو يحاول أن يتذكر كيف جرت الأمور منذ أطفأت أم إبراهيم النور، ولغاية تنهداتها المتلاحقة التي أرعبته والتي انتهت بغيبوبتها فوقه.

* * *

-٢٣-

تمكن قاسم بعد لأي من الخروج من النهر قرب الزرابلية، بعد أن اطمأن لخلو السوق من المارة والحراس على حد سواء، وكانت المياه قد بللته طوال الساعتين اللتين مرتا عليه وهو ينتقل في النهر تحت البيوت والجسور من مكان إلى آخر حتى وصل إلى جسر الزرابلية، واكتشف رغم الضيق الذي يعاني منه بأن البرودة التي سرت في أوصاله جعلت أسنانه تصطك كالمصاب بالبرداء..

لم يدرِ ماذا يفعل، وإلى أين يتجه، وإن أيقن بأنه استطاع تضليل مطارديه والهرب منهم، وفكر وهو يعمل على تجفيف بنطاله وحذائه الذي انقلب إلى كتلة من الوحل باللجوء إلى أحد أصدقاء الحي، ولكنه ما لبث أن استبعدهم واحداً بعد الآخر خوفاً عليهم من الضرر الذي قد يصيبهم بسببه.. وتنازعته الأفكار والهواجس وهو يقلب وجوه الرأي فلم يصل إلى نتيجة مرضية، ومع هذا انطلق على غير هدى فوصل إلى قرب السروجية الذي يقوم عند ناصيتها حمام الراس المشهور، فابتسم رغماً عنه وهو يتذكر حوادث الحمام اليومية التي باتت معروفة لكل الناس، إذ ما من فلاح أو بدوي شوهد ماراً من بعيد أو قريب، أو رجل اعتمر كونية وعقالاً، وساقته قدماه بقصد أو بغير قصد إلى هذه المنطقة إلا ووجد نفسه محاطاً بلفيف من مستخدمي وزارة الصحة وشرطة البلدية، فيجرونه جراً شاء أم أبى للاغتسال في الحمام بعد حلاقة شعر رأسه لوقايته من الحشرات الناقلة لحمى التيفوس. وبات حمام الراس مشهوراً بذلك حتى أن الغرباء عن المدينة كانوا يتحاشون المرور في تلك المنطقة خوفاً من شطط مستخدمي الصحة وسلاح النظافة الذي كانوا يشهرونه بمناسبة وغير مناسبة كلما شاهدوا كوفية أو رأواعقالاً، لدرجة أن أحد نواب العشائر لم ينجُ من هذا المصير على الرغم من تهديداته التي أشهرها..

ونظر قاسم إلى حمام الراس.. كانت أنواره مطفأة، والظلام مخيماً عليه، والحياة تكاد تكون شبه ميتة، والأنوار الزرقاء التي ترسلها أعمدة النور تضفي

مزيداً من الوحشة القاسية التي زادت وحشة ويأس قاسم الذي ما زال يفكر في مشكلته التي لم يجد لها حلاً..

وتفتق ذهنه أخيراً في أن يلجأ إلى أحد الأساتذة الذين اعتاد الاجتماع إليهم في حي الشعلان، وقرر إن لم يجد الأستاذ أن يبيت ليلته في بستان السبكي القريب من بيت الأستاذ المذكور. وارتاح لهذا الخاطر، وإن تردد قليلاً، غير أن صوت الحارس الذي جاءه من سوق الخجا القريب، قضى على تردده، فانحدر بسرعة في طريق السنجقدار باتجاه ساحة الشهداء بثبات وحرص وقد عزم على تجنب السير في الطرق الجانبية التي اعتاد رجال الأمن في الآونة الأخيرة اصطياد الهاربين من السياسيين والمطلوبين لأسباب مشابهة فيها، والسير في الشوارع الرئيسية التي بدت له من وراء الظلام الذي ترتع فيه شبه مقفرة.

وعندما وصل إلى المفرق الذي يقع فيه حمام الناصري، لفتت انتباهه أنوار الحمام الزرقاء، وخطر له على الفور أن يجازف بدخوله، فيستحم ويبيت فيه ليلته بطريقة طبيعية لا تثير الشك، ولكنه ما لبث أن أقلع عن ذلك عندما فكر بالصباح وما يجره الصباح من رجال الأمن إلى هذه المنطقة التي تعتبر قلب المدينة، وهكذا تابع سيره حتى وصل إلى ساحة الشهداء، فاجتازها وهو يستهدي بمصابيحها الزرقاء بعيداً عن دائرتي البريد والعدلية، وقريباً من دار البلدية وساعة ساحة الشهداء المظلمة، إلى أن غدا عند ضفة بردى التجارية التي تقوم على امتداد رصيفها حتى جسر فكتوريا المخازن التجارية التي كانت مقفلة والمشارب العديدة التي ما زالت مفتوحة، والملاهي المختلفة التي كانت أنوارها رغم نظام التعتيم الصارم تصل إلى الشارع واضحة..

وشجعته هذه الأنوار على السير بجوارها على الرصيف الضيق وقد استأنس بها دون أن يعبأ بالجنود السكارى الذين كانوا يدفعونه بين الحين والآخر عن غير عمد وهم يضحكون بغباء ويرطنون بلغاتهم المختلفة التي التقت على غير موعد في هذه البقعة من العالم.

ولمح من بعيد من خلال أنوار الملاهي المتسربة عدداً من رجال الشرطة تبين فيهم واحداً مدنياً عرف فيه رجلاً من رجال التحري الذين دأبوا في الآونة الأخيرة على ملاحقة جماعة الأستاذ، فاضطرب وحار في أمره، وأيقن بانكشاف خبره ولم يدرِ ما يفعل، وهمّ بأن يتوارى في مقهى (الطاحونة الحمراء) المغلق ولكنه لم يجد ما يتوارى وراءه، وخاف إن هو نكص على عقبيه ولاذ بالفرار أن يكتشفوا أمره، وكان قد غدا رغم تلكؤه عند ملهى الأليمبيا الذي خرج من بابه الهزاز ذي الضلفتين في تلك اللحظة عدد من الجنود الأستراليين وهم يعربدون. وواتته الفكرة، فلم يحجم عن تنفيذها، وبسرعة خاطفة اقتحم الملهى الذي كان يغص بالجنود المختلفي الجنسيات، ويضج بالفوضى والضحكات الماجنة، والموسيقا الصاخبة، وقد انتشرت فتيات الملهى وتوزعن هنا وهناك، بعضهن كن يجالسن الزبائن ويتفنن في الغواية والإغراء المكشوفين، وبعضهن الآخر انهمكن في مراقصة محبي الرقص من الجنود، وأُخريات وقفن عند المشرب يعببن الخمر مع خليط عجيب من الجنود الذين جاءت بهم الحرب إلى هنا.

وتلكأ قاسم عندما غدا داخل الملهى، وتردد فيما يفعل، فعيناه لم تصافحا قبلاً مثل هذه المشاهد الغريبة عليه، ولم يشاهد في حياته مكاناً يشبه هذا المكان على الرغم من تردده بين الحين والآخر على الخمارات النائية في باب توما.

كان الجو غريباً عليه، ولم يخطر له ذات يوم وهو ابن هذه المدينة بوجود مثل هذه الأمكنة الداعرة، بلى هو عرف الماخور العمومي، وتردد عليه وسمع بماخور (روبير) الخاص بالفرنسيين، وعلم بالبيت الخاص الذي يتردد عليه الإنكليز، ولكنه لم يعرف قبلاً بوجود مثل هذه الأمكنة.. كان يحسبها مجرد أمكنة خاصة بتقديم العروض الفنية الأجنبية التي كان لا يميل إليها.

وكادت الدهشة التي استولت عليه تبدد من خوفه واضطرابه، غير أن ذلك لم يطل به كثيراً، فتوارى وجلا خلف الباب الهزاز، وحسب دهراً طويلاً قد مرّ قبل أن يلمح رجل التحري وهو يتجاوز باب الملهى مع رجال الشرطة الذين

يرافقونه، وانتظر بعض الوقت وهو في مخبئه دون أن يعبأ بالجنود الذين كانوا يدخلون ويخرجون وقد حسبوه مستعصياً، ولم يغادر مكانه إلا عندما سأله الساقي الأنيق عما يفعل، فارتج عليه وخرج ليجد كل شيء هادئاً، فانعطف عند جسر فكتوريا باتجاه شارع الملك فؤاد ليشاهد عدداً من الجنود يقفون قرب صالة (ملكة) وهم يتناقشون بصوت عال مع حوذي إحدى العربات العديدة الواقفة بخيلها المسترخية. وعندما تجاوزهم وهو يرمق مطعم (سقراط) صاح به أحدهم فلم يعبأ، وتابع سيره معجلاً، غير أن هذا اندفع نحوه وجذبه من كمه وهو يصيح راجياً:

-فاطمة.. فاطمة..

وفهم قاسم بسرعة ما يريده الجندي الأسترالي الذي بدا بقبعة ذات حواف مستديرة ووجه أحمر محتقن وعينين زرقاوين، وسيماً رغم سكره الشديد، فردد عدداً من المرات وهو يشير برأسه نافياً:

- نو فاطمة.. ما في..

- نو فاطمة..

- نو.. نو..

وتركه الأسترالي وعاد بخطوات متعثرة نحو رفاقه الذين كانوا ما زالوا يعالجون الحوذي ويعالجهم وهو يصيح:

- نو فاطمة.. ما في..

تنفس قاسم الصعداء، وتابع شق طريقه نحو بوابة الصالحية، ونقاش الجنود مع الحوذي بدأ يتلاشى وينعدم وصوله إليه كلما تقدم في خطواته شيئاً فشيئاً، وتحاشى في سيره المحكمة المختلطة التي وقف عند بوابتها جندي شاكاً سلاحه، ثم انعطف باتجاه البرلمان لتغيب عنه نهائياً الأصوات التي كان يستأنس بها وليعود الظلام سيرته الطبيعية فيلتهم كل شيء حتى المصابيح

الزرق التي بدت في تأرجحها على أعمدتها كأعمدة المشانق التي التهمت ذات يوم في ساحة الشهداء عدداً كبيراً من المواطنين الذين نادوا بالحرية.

عندما وصل قاسم إلى تقاطع الشوارع عند البرلمان شاهد أحد الحراس يقف قرب مطعم (الكوكوريكو) وشاهد حارساً آخر يضرب بعصاه عمود النور قبالة مقصف (الروفوج) فتلكأ في سيره ومن ثم سار رابط الجأش فتجاوز تقاطع الشوارع متجنباً الحارسين معاً حتى أضحى قريباً من مدخل الزقاق الصغير الذي تقوم على طرفيه الخمارات الصغيرة، فسمع أحد الحارسين يناديه من بعيد:

- يا شب.. يا سيد..

وتوقف قاسم وقد أصابه ارتعاش خفيف، ثم تحسس جيوبه بسرعة يفتش فيها عن شيء يقاوم فيه إذا ما أصرّ الحارس على مرافقته إلى أقرب مخفر حتى إذا لم يعثر على شيء، استدار بثبات نحو الحارس الذي كان يتقدم نحوه ببطء وقال بصوت ثابت:

- أمر ! .

- معك سيجارة سيجارتان.. السوق مسكّر وبقيت أنا ورفيقي بلا دخان..

وتنفس قاسم الصعداء، بينما كان الحارس يتابع تقدمه حتى إذا غدا على مسافة قريبة كان قاسم قد أخرج علبة سجائره، فأشعل لنفسه واحدة وقال وهو يقدم العلبة للحارس:

- خذ العلبة.. البيت قريب، وأنا أستطيع تدبير أمري..

- شكراً يا أخ..

- يعطيك العافية..

وانصرف الحارس سعيداً بعلبة السجائر، بينما انعطف قاسم في في زقاق الخمارات الصغير فاجتازه بسرعة ليغدو وجهاً لوجه في الطريق المؤدية إلى حي الشعلان وقد بدأت تتناهى إليه وسوسة صنبور مياه الفيجة التي أقامها

(شعلان)، شيخ عرب (الرولا) الذي يقطن في الحي ليستقي منه الحي ما يحتاج من مياه الشرب، وعندما بات قريباً من بيت الأستاذ، وجده غارقاً في الظلام، وأصوات بنات آوى تصل إليه بوضوح من بستان السبكي القريب، ومع هذا جازف وضغط على زر جرس الباب فانطلق رنينه ليقطع سكون البيت.. وبعد لحظات حسبها دهراً، أطل رأس من النافذة العلوية يسأل:

. من هناك؟!.

وأجاب قاسم بلهفة وقد تبين صوت الأستاذ:

- أنا قاسم أستاذ عصام..

- قاسم؟!.

قالها الأستاذ عصام متعجباً ثم صاح همساً :

- لحظة.. نازل فوراً..

* * *

تأمل قاسم غرفة الاستقبال التي تركه فيها الأستاذ عصام لبعض الوقت، ريثما يهيئ له مكاناً يبيت فيه..

كانت الغرفة نفسها التي اعتاد الاجتماع فيها بالأساتذة والرفاق الآخرين كل أسبوع تقريباً، وهي غرفة رحبة نوعاً ما، تضم أثاثاً عادياً، ومنضدة مخمسة الشكل قصيرة القوائم نوعاً ما، مد فوقها غطاء مخملي تتوسطه مزهرية من النحاس الأصفر المطروق تضم بعض الورود البيتية.. فوق الباب تماماً علقت لوحة لفنان معروف تعبر عن الأمومة، وعلى الجدار المقابل للباب، قامت صورة فوتوغرافية كبيرة لضابط في الشرطة، عرف فيه والد الأستاذ المتوفى إبان الثورة السورية. وغير بعيد عن هذه الصورة، ربضت صورة أخرى أصغر حجماً للملك غازي الذي اغتاله الإنكليز، عندما هدد فرنسا وأنذر تركيا بالتدخل العسكري في سورية، إذا ما اتفقت الدولتان على ضم لواء اسكندرون إلى تركيا، ولم يرتفع صوت أي مسؤول عربي بعد اغتيال الملك الشاب وظلت سورية وحدها تقاوم الاحتلال والمؤامرات بعد

القضاء على الاضطرابات التي شملت العراق وسورية، إلى أن تم سلخ اللواء عن وطنه الأم على الرغم من المقاومة العنيفة التي قادها الأساتذة والطلاب في مدن اللواء، حتى اضطروا في النهاية إلى النزوح عن ديارهم إلى مختلف المدن السورية هرباً من المذابح التي قام بها المستعمر التركي ضدهم، وكلهم أمل في المستقبل.

كان قاسم قد اجتمع بالنخبة من هؤلاء الأساتذة والطلبة الذين انضموا إلى جماعة الأستاذ، خلال الاجتماعات السرية التي كانت تعقد في بيت الأستاذ عصام في الشعلان، وبيت الأستاذ عبد الرحمن في القنوات، وبيت المعلم شموط وحباب في الميدان، وفي بعض البيوت الأخرى المتفرقة في القيمرية والعمارة وباب توما وغيرها من الأحياء..

وكان قاسم قد اجتمع أكثر من مرة بالأستاذ المعلم في بيت الأستاذ عصام، وكان المعلم يجلس في صدر الغرفة تحت صورة الملك غازي، وعن يمينه صديقه الأستاذ صلاح وإلى يساره الأستاذ بسام..

وكان الأستاذ يتحدث ويتحدث طويلاً عن الأوضاع السياسية بصوته الهادئ العميق منوهاً بأهمية المقاومة والنضال ضد المستعمر بشتى الوسائل، ويرد في الوقت نفسه على الأسئلة التي كانوا يمطرونه بها، بمنتهى الهدوء والعمق، شارحاً كل كبيرة وصغيرة، وكان كلما ذهبت جماعة وفدت أخرى، وجلّها من الطلاب والمعلمين.

وفي الاجتماع الأخير، ألحّ الأستاذ على ضرورة الحذر، ونبّه إلى الأحداث الخطيرة التي ستتعرض لها البلاد، ودعا إلى الحيطة والكتمان، خاصة بعد أن استفحل نشاط الرفاق وعرفت السلطة أن وراء المنشورات والإضرابات الطلابية والمظاهرات الدامية تكمن جماعة الأستاذ..

واسترسل قاسم مطلقاً العنان لأفكاره، وكيف أن الأستاذ صلاح شرح لهم مسألة الاستقلال التي لوح بها المستعمر الفرنسي، قبل أن يأتي بالشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للبلاد دون انتخابات نيابية فقال:

- هذا استقلال، ستخرج به فرنسا من الباب لتدخل من الشبّاك، إذا صحّ ما يدعيه الجنرال كاترو، وأكثر من ذلك فإن الرئيس الشيخ تاج ورئيس وزرائه جميل الألشي الضالعين مع الفرنسيين سيخلقان صراعاً حاداً بين عملاء فرنسا وعملاء إنكلترا تحت ستار الوطنية، لذا يجب أن تعرفوا جيداً بأننا وأكثر فئات الشعب المؤمنة بالحرية سنتعرض لأقسى أنواع التنكيل والهجوم من كل القوى وعلى اختلاف أنواعها لأننا على حق ولأننا نمشي في الطريق الصحيحة.

وحكَّ الأستاذ ذقنه قليلاً ثم قال:

- لقد أوشكت الحرب على نهايتها، وهذا يعني إننا مقبلون على الأحداث الخطيرة التي نوهت بها، والذين يناوئون الفرنسيين في شخص رئيس الدولة والأجهزة التابعة له، يعملون سراً مع الإنكليز، أما الذين يتربعون اليوم في (السرايا) فهم عملاء الفرنسيين.

ونهض قاسم عن مقعده وهو يفكر فيما قد يحدث له، عندما دخل الأستاذ عصام قائلاً بترحاب:

- هلم بنا يا رفيق.. لقد هيأت لك مكاناً أميناً..

-٢٤-

لم يمكث قاسم عند الأستاذ عصام أكثر من أسبوع واحد، وخلال هذا الأسبوع علم بأن عدداً من الرفاق الذين تم اعتقالهم بتهمة توزيع مناشير سياسية محظورة سيفرج عنهم بعد أن أحيلوا للمحاكمة ودفعت عنهم الكفالات القانونية وأن عدداً من المحامين من الذين ينتمون لجماعة الأستاذ سيترافعون عنهم.

وعلى هذا قرر قاسم رغم إلحاح عصام بالبقاء عنده فترة أخرى من الزمن أن يعود إلى عمله، وأن يقدم نفسه إلى دوائر الأمن متجاهلاً السبب الذي يطلبونه من أجله، لأنه لم يضبط مرة واحدة وهو يوزع منشوراً، أو يقوم بعمل

معادٍ للحكم خلال الإضرابات والمظاهرات التي شارك فيها، اللهم إلا إذا كان رفاق المقهى والحي قد أبغلوا عنه وهذا أمر بعيد الاحتمال.

وهكذا يمم وجهه شطر عمله في دائرة الميرة، فثبت وجوده، وبرر غيابه بالمرض، ثم خطف قدميه مرتعشاً نحو دائرة الشرطة والأمن العام. وهناك طلب مقابلة موظف يعمل في قسم التحري ويعرف لدى أهالي دمشق باسم (أبي رياح). وما كاد هذا يراه حتى عرفه، فلم يقل شيئاً أمام زملائه، وإنما أخذ بيد قاسم وخرج به إلى الحديقة الملحقة بمديرية الشرطة، حتى إذا أمن العيون صاح به هامساً:

- ماذا جئت تفعل هنا.. أجننت!.

- علمت بأنكم تطلبونني..

- وما زلت مطلوباً.. وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى القبض عليك.

- ولماذا؟!.

- لمائة سبب وسبب، يا الله، انفذ بجلدك قبل أن يعرفك أحد..

واحتار قاسم في أمره، وإذ وجد أبا رياح يستحثه على الهرب فقد همَّ، ثم توقف عن ذلك والتفت إلى أبي رياح قائلاً:

- لا أعرف مكاناً ألجأ إليه.. اقبض علي..

- كما تشاء..

قال أبو رياح ذلك بعد تنهيدة طويلة وقد ظهر الامتعاض على وجهه.. كان يحب للشباب أن يأخذوا دورهم من أجل الوطن، وكان يشعر بالارتياح لكل عمل مناوئ للسلطة، ورغم أنه موظف بسيط في دائرة التحري، فالدائرة كلها عيون على موظفيها بفضل الكولونيل (كويتو) الفرنسي، ومع ذلك ما إن سار قليلاً ليودعه النظارة حتى برقت في رأسه فكرة فقال هامساً:

- تعال معي..

وسار قاسم إلى جانبه مستسلماً، فتركا الحديقة، وصعدا سلم دائرة الشرطة الرئيسي الذي يقود إلى الطابق الثاني حيث تقوم فيه مكاتب المدراء الذين أنيط بهم أمن البلد، وعندما اقتربا من أحد الأبواب المغلقة قال أبو رياح:

- انتظرني هنا..

وقرع الباب ثم دخل الغرفة، وغاب فيها دقائق حسبها قاسم من خلال نظرات بعض الضباط الفرنسيين وغير الفرنسيين الذين كانوا يروحون ويجيئون بين الغرف ساعات طويلة، وعندما خرج أبو رياح في النهاية أحس قاسم بأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدره فتنفس الصعداء، وقبل أن يستفسر من أبي رياح عما يهمه جذبه هذا من ذراعه ودخل به الغرفة قائلاً:

- هذا هو قاسم العبد، أديب بيك!.

ورفع أديب بيك عينيه عن الأوراق التي أمامه ونظر إلى قاسم متفرساً ثم قال وهو يحاول أن يُكسب لهجته شيئاً من الود من خلال الوعيد الذي تضمنته:

- إذن فقد كنت توزع المناشير؟! .

- أبداً يا سيدي..

أجاب قاسم بذلك دون تردد وهو يتفحص بدوره وجه أديب بيك.

لقد سمع الشيء الكثير عن هذا الرجل الهادئ الذي يدير دائرة التحري من خلال ابتسامته اللطيفة ووجهه الذي يوحي بالثقة، ورغم الإشاعات التي تضاربت حول شخصيته والثقة التي يضعها الفرنسيون في شخصه، فقد أجمع الناس على أنه وطني فوق الشبهات..

وقطع استرسال قاسم لأفكاره صوت أديب بيك وهو يقول متوعداً:

- أستطيع أن أخلي سبيلك فوراً، ولكني لن أفعل ذلك إلا إذا عرفت أين اختفيت طوال هذا الأسبوع، وأين أخفيت المناشير التي كنت تقوم بتوزيعها..

وأردف قوله هذا بابتسامة لطيفة مشجعة توحي بالاطمئنان، ورغم الاطمئنان الذي أحس به قاسم فقد قرر ألّا يقول شيئاً يضر بالأستاذ عصام فقال وهو يتابع خطوات أديب بك القصيرة:

- كنت مريضاً..

وصمت أديب بك برهة متأملاً قاسم ثم التفت نحو أبي رياح وقال له فجأة:

- اكتب في تقرير الملاحقة بأننا عثرنا على المدعو قاسم العبد مريضاً، ولا علاقة له بتوزيع المناشير ثم اصرفه..

وبوغت قاسم، ونظر كالمشدوه إلى أديب بيك وقبل أن يقول شيئاً تابع أديب بيك قوله:

- نحن نعرف أنك لم تكن مريضاً، ونعرف أنك لم تأوِ إلى فراشك منذ أسبوع.. منذ طاردك رجالي في النهر.. وأنا يعجبني الرجل الحريص، ولكن حاذر من أن تقع في مثل هذه الأمور مرة ثانية..

وكاد قاسم يستسلم ويوافق أديب بيك على ما يقول، ولكنه خشي أن يؤدي به ذلك إلى ما يكره فتشبث بفكرة المرض مؤكداً:

- أنا جئت بنفسي، ولو لم أكن مريضاً لجئت منذ زمن..

وصاح أديب بيك حانقاً مقاطعاً قاسم:

- كفى.. أنت ما جئت لتسلم نفسك، جئت تعرض مشكلتك على أبي رياح، ولولا أبو رياح وما أزجاه لي عنك لأمرت بسجنك فوراً.

- الأمر لك يا سيدي..

- طبعاً.. هيا انصرف..

ودهش قاسم، غير أن دهشته لم تطل، إذ ما كاد أبو رياح ينصرف ليتمم الأوراق المطلوبة حتى قال أديب بيك هامساً:

- لا تحسب يا بني العمل الوطني هو في توزيع المناشير، بل في كل شيء، لقد رأيت رفاقاً لك في ظروف قاسية جداً، وأعجبت بصمودهم وقدرتهم

على مجابهة المحققين، ولو أنهم سيقوا إليّ منذ البداية لما أوقف أحدهم دقيقة واحدة، واحمد ربك على أنك لم تمر بتجربتهم..

ورغم كل هذا الذي سرده أديب بيك ظل قاسم محافظاً على الحدود التي رسمها ولم يزد عليها سوى أن شكر أديب بيك قبل أن يخرج من الدائرة طليقاً. غير أن هاجساً واحداً بدأ يقلقه، وبدأ يطرح عليه تساؤلات عديدة.. ترى هل أضحى هدفاً من أهداف أديب بيك؟! هل هو مراقب؟!، إنه يعرف أكثر رجال التحري، ولكن هناك آخرون لا يعرفهم، وربما وضعهم أديب بيك وراءه ليصل إلى الرفاق الذين يلتقي بهم، أو إلى مواعيد الاجتماعات الدورية التي تعقد سراً..

وقرر قاسم أن يبتعد بعض الوقت عن الجماعة، وأن يشغل نفسه بأمور أخرى، ريثما يتأكد من أنه فعلاً لا يخضع لمراقبة أديب بيك، فلم يجد أمامه سوى التفكير بالزواج، والعودة إلى رفاق المقهى ليتطوعوا نيابة عنه بطلب يد ابنة علي الحجار من ذويها.

وإنصافاً لأديب الكلسلي رئيس دائرة التحري، فإنه عن طريق الجهاز الذي يديره، كان يخدم القوى الوطنية كافة ويؤمّن لها ما تريده من معلومات، ويحمي من يقع بين يديه من مثيري الاضطرابات دون أن يرف له جفن. غير أن الجهاز الذي يأتمر بأمره، كان جهازاً صغيراً، إذا ما قيس بجهاز المخابرات الفرنسية (البروفوته) الذي يشرف عليه الكولونيل كويتو، أو بجهاز المخابرات البريطانية الذي يشرف عليه الكولونيل (سترلينغ) ورغم الضغوط التي كان يتعرض لها أديب الكلسلي فإنه ظل مخلصاً لمواطنيه لا يدفع منهم إلى السجن وغرف التحقيق سوى من لا يستطيع أن يجد له مخرجاً، فكان بذلك يلقم رؤساءه ما يروي رغباتهم، ويعمل مع الخلص من رجاله مثل أبي حسن طيبا على الاتصال سراً بالوطنيين الذين يثق بهم فينبه المطلوبين منهم ليعملوا على الاختفاء أو الهرب قبل أن تتم عملية المداهمة والبحث، فإذا ما اطمأن إلى ذلك قام بنفسه بمداهمة بيوت المطلوبين دون أن يعثر على واحد منه.. وعلى هذا الأساس فإن خوف قاسم من أديب الكلسلي وأعوانه لم يكن في محله، فأديب

الكلسلي لم يجشم نفسه بإرسال أي واحد من أعوانه وراء قاسم، بل على العكس، كان يتوق لأن يضاعف جماعة الأستاذ من الطلاب والمثقفين نشاطهم أسوة بالفئات الوطنية الأخرى، فالاستقلال وطرد المستعمر الفرنسي وضَوه البريطاني، كان مطلباً وطنياً لكل الناس على اختلاف مشاربهم وأعمالهم وانتماءاتهم، ولا يعني هذا بأن جميع رجال الأمن الذين يعملون بإمرة الفرنسيين هم على شاكلة أديب الكلسلي بل على العكس، كان هناك الكثيرون من الذين أخلصوا للفرنسيين أكثر من إخلاصهم لوطنهم.

* * *

كان لقاء قاسم برفاق الحي، لقاءً عاطفياً مثيراً، حتى أن (أبا دياب) بكى وهو يعانقه، كما أن الشيخ سعدو أقسم بأنه قرأ ختمة كاملة استغرقت منه لياليَ برمتها لتحفظه وتبعد عنه أولاد الحرام، أما المختار صالح فقد طفرت الدموع من عينيه، وأصرّ على أن يعزم الجميع على مأدبة تقام عنده بهذه المناسبة.

وما كاد الجميع يستريحون على مقاعدهم في الركن الذي اعتادوا الجلوس فيه بالمقهى، حتى دار عليهم صبي المقهى بوجبة فاخرة من الشاي هدية من صاحب المقهى ابتهاجاً بعودة قاسم، ومن ثم انهالت عليه الأسئلة وكلها تستفسر منه، كيف هرب، وأين اختبأ، وإلى من لجأ.

وروى لهم قاسم ما حدث دون أن ينسى التنويه بالمعاملة الحسنة التي لقيها من أديب الكلسلي وأبي رياح طالباً من الجميع أن يتكتموا في ذلك كي لا يساء للرجلين عن غير قصد.

وامتد الحديث طويلاً وتشعب ليوجهه قاسم في النهاية نحو ابنة علي الحجار. ورغم المحاولات العديدة التي جرت لإثناء قاسم عن طلبه، فقد أصرَّ عليه، الأمر الذي جعل الجميع يرضخون لرغبته وقد عزموا على زيارة علي الحجار عند عودته من عمله، ليخطبوا ابنته لقاسم.

-٢٥-

أصبح هاجس سعدية الوحيد بعد سفر زوجها أن تعمل على إرضاء ابنتها سميرة بأي شيء لتسكت عنها، وعن عملها الشائن الذي تقوم به، ورغم عودتها إلى مزاولة عملها في بيت الدعارة الخاص بالإنكليز، فإنها لم تنقطع عن التفكير في وسيلة تمكنها من الخلاص من تهديدات ومضايقات ابنتها المستمرة.

كانت تعلم بأن ابنتها تهوى ابن الجيران سعيد، وتحلم بالزواج منه، ولكن ابنتها لم تفصح لها عن رغبتها هذه، كما أن سعيد لم يتقدم لخطوبتها، وحديث النافذتين المتواصل لم يفت سعدية المجربة التي خبرت الحياة وأشكالها القاسية كافة.

وحارت في أمرها وهي تقلب وجوه الرأي، وفكرت في طرح مشكلتها على فوزية وأن تسألها حلاً معقولاً، ولكنها ما لبثت أن استبعدت ذلك، إذ بماذا ستفيدها فوزية، وهل عند فوزية سوى الحل المعروف الذي تتقنه؟!.

وتوقفت عند هذه النقطة بالذات، وكلما نأت بتفكيرها عنها ازدادت هذه تألقاً وتوهجاً.. إن ابنتها جميلة دون شك. صحيح أنها ليست أجمل منها، ولكنها أجمل من جميع النسوة اللواتي يعملن عندها، فلماذا لا تغري ابنتها بالعمل معها؟!.

واستراحت إلى هذه الفكرة على مضض، وأيقنت في قرارتها بأن هذا الأمر كفيل وحده بأن يحمل ابنتها على السكوت إلى الأبد، ولكن ماذا لو رفضت سميرة ذلك؟! ماذا لو نفذت تهديداتها وباحت بكل شيء؟! .

وأحست بالضيق، وبنوع من الاختناق، فهي تعرف تماماً مصير الزانيات، وسمعت بجرائم الشرف التي ارتكبت لأسباب تافهة، وهي لا تريد لابنتها مصيراً كمصيرها، ولا تريد أن يكون مصيرها أو مصير ابنتها في النهاية القتل.. وتنهدت وهي تدفع عنها هذه الأفكار باستسلام يائس محدثة نفسها:

- إما أن أقسرها بالعمل معي، أو أنتظر أول طارق وأزوجها له.. أجل الزواج أفضل حل!.

وارتاحت لهذا الخاطر، وكادت تستسلم له، ولكنها ما لبثت طويلاً حتى عادت تتساءل ولكن من يرضى الزواج بابنتها!، إنها مهما تكتمت أمر عملها فلا بد للناس ولأهل الحي بالذات أن يعلموا في النهاية، وهي لم تنسَ بعد المختار صالح، فهو وحده سيكون أول ناصحٍ لأول طالب زواج من ابنتها باختيار غيرها، إذا لم يتفاخر ويفضحها ويروي ما يعرف وما لا يعرف.

وارتسمت على شاشة مخيلتها، صورة البيت الذي تديره في (عين الكرش) والرؤوس الشقر، والوجوه الحمر، والضحكات الماجنة، والأنوار الخافتة، وهسيس المضاجعات، وجسدها المصلوب دائماً أمام العيون النهمة، والطبيب الذي ترضخ لكشفه أسبوعياً، وزميلات المهنة، والقوادون الذين يقاسمونهن الحصيلة اليومية، وفوزية وعشيقها الشاب الذي تبذخ عليه، والشجار الدائم على الطرائد الوافدة الغريبة الوجه واللسان، والإنهاك، والتعب، وبصماتها العشر التي باتت تستيقظ دائماً وأبداً على لسعاتها، وزوجها الطيب، وابنتها التي لا ذنب لها، فأحست بكرب بغيض يستولي عليها، وبكآبة قاسية تغمرها، وبضيق شديد يربض على خناقها، فانفجرت باكية وقد أيقنت في قرارة أعماقها بالنهاية المظلمة التي تنتظرها والتي يجب أن تجنب ابنتها خطر الانزلاق فيها، رغم إيمانها العميق بأن الخطر وكل الخطر لن يطل عليها إلا من خلال ابنتها.

وعادت تفكر في الزواج.. إنها لن تنتظر الزوج الموعود الذي ستسوقه السماء لابنتها ليجنبها الشقاء الذي تعاني.. عليها أن تجد زوجاً لابنتها مهما كلفها الأمر، ولكن من يرضَ الزواج بابنتها؟! إن ابن جيرانهم سعيد لا يبدو جاداً، وهو حتى الآن لم يقم بعمل يشعر برغبته في ذلك، كما أن حديث النافذتين العاطفي طال أكثر مما ينبغي، ترى هل هناك سبب ما

جعله يحجم عن ذلك، أم أن هناك موانع أخرى تحول بينه وبين من يحب؟!

.

وتوقف تفكيرها عند هذه النقطة، وقد أدركت في قرارتها بأن أسباب سعيد وغير سعيد تتجسد في شخصها، وإنها هي بالذات العقبة التي تقف حائلاً دون زواج ابنتها.. وداعبها الأمل للحظات في أن يجازف سعيد ويتقدم لخطبة ابنتها، ولكنها ما لبثت أن استبعدت الأمر، فهي لن تنتظر مجازفة سعيد الذي كما يبدو يعرف عنها كل شيء، ولن تنتظر سواه أيضاً، لأن أكثر فتيات الحي من اللائي يقصرن في جمالهن عن ابنتها قد تزوجن، كما أن الأمر بالنسبة إليها لا يحتمل التأجيل، ولن تشعر بالراحة وتستكين إلى الطمأنينة التي تتوق إليها إلا إذا تزوجت ابنتها! ولكن كيف السبيل إلى ذلك! أين تجد هذا الزوج؟.

بدا لها من خلال الهموم التي تعتصرها، بارق من الأمل، وتعثر خيالها للحظات برفاق زوجها علها تجد من بينهم عازباً تلقمه ابنتها، فلم تجد منهم واحداً يمكن له أن يرضى. وعاد الأمل الذي تراءى لها يلتهم تفكيرها ببطء ويدغدغ حواسها بقوة عارمة، وهي تحاول استبعاده وفي الوقت نفسه تتمسك بتلابيبه بقوة مماثلة.. ترى ماذا لو زوجتها للشاب الوسيم فايز؟! إنه دون شك سيعجب ابنتها..

وارتاحت إلى هذه الفكرة، وهي وإن لم تقرر الأمر نهائياً فقد عزمت على أن تسأل (فايز) هذا الأمر بالاتفاق مع فوزية، ولكن! ماذا لو رفض فايز هو الآخر هذا الأمر؟! وأقنعت نفسها بسرعة.. إنه لن يرفض، لأنه عدا دماثته ولطفه، يحب المال كثيراً، وسيستسلم لإغراء المال الذي ستؤمّنه له والذي سيبدد كل مقاومة منه، وربما دفعه هذا إلى تغيير عمله، بل يجب أن يغيِّر مهنته إلى عمل آخر شريف طالما يستطيع بالمال الذي ستدفعه له تأمين ذلك.

وشعرت مرة أخرى بالراحة لهذا الخاطر، ولكنها ما لبثت حتى اغتمت، فهي تعرف هذا الصنف من الرجال جيداً، وتعرف مقاييس الشرف عندهم، إذ مهما شط بهم مسار الاستقامة فالحنين إلى مهنتهم، واللذة التي يشعرون بها من جراء التعامل بالنساء وتجارة الجنس، تدفعهم دائماً وأبداً مهما أعلنوا توباتهم النصوحة إلى العودة إلى هذا العمل الشاذ الذي أحبوا، ولا ريب في أن فايز وهو واحد منهم، لن يوفر ابنتها بعد الزواج وسيجعل منها بحكم مهنته مومساً تبيض له ذهباً.

لقد ظنت في لحظة من اللحظات الحاسمة في حياتها بأن المال هو البديل للفقر، وأن جسدها هو وحده الذي سيتيح الرخاء لأسرتها، وبنوع خاص لابنتها التي تأمل أن تؤمّن لها حياة تختلف عن حياتها.. ولكن ماذا ينفع المال؟! إنه حتى الآن لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى إعطاء الأمل بزوج قد يخلصها إلى حين من المصير الذي تكره، كما أن الزواج الذي تقدمه لابنتها لا يعدو كونه تضحية بابنتها من أجل خلاصها هي بالذات.. صحيح أنها وضعت نفسها أمام الاختيار الصعب، إلا أنها لم تجد سواه، أمام اليأس الذي يحيط بها من كل جانب.

وشعرت بضيق شديد وكرب بغيض يستوليان عليها ما لبثا حتى تبددا عندما وجدت نفسها تجيب على تساؤلها: سأشترط عليه ذلك، سأكبله بسندات خاصة تجعله دائم الرضوخ لي، سأرغمه، بل يجب أن أرغمه أنا وفوزية على ذلك.

وارتاحت بعض الشيء، وأخذت الهموم التي كانت تتقاذفها تتبدد، وقد عزمت على أن تهيئ الأجواء للزواج الموعود.

أما سميرة، فمنذ رحيل أبيها إلى عمله قرب حلب، صارت تتجنب اللقاء مع أمها بسبب المشاحنات الدائمة التي كانت تنشب بينهما بسبب عملها، غير أنها ما لبثت أن أقلعت عن ذلك عندما علمت من سعيد بقرب زيارة أمه

لتخطبها له، فأخذت تتودد لأمها وتحاول جاهدة إقناعها بتخفيف زياراتها اليومية لبيت عين الكرش بعد أن عجزت عن إقناعها بالكف عن ذلك. وفي الوقت نفسه كانت تستغل غياب أمها لتلتقي كعادتها بسعيد سواء في الشوارع البعيدة، أو في غرفتها بعد أن يغلس الظلام.

وذات ليلة، بينما كانت سميرة تتململ منتشية بين ذراعي سعيد في انعتاق عاطفي، تناهى إلى سمعها صوت انصفاق الباب الخارجي، فترددت قليلاً وهي تصيخ قبل أن تتخلص من ذراعي حبيبها، ثم قفزت كالمسعورة إلى وسط الغرفة شبه عارية، وهي تهتف بهمس في سعيد الذي بدا واجفاً حائراً:

-أمي.. أمي..

وارتبك سعيد وحار في أمره، وأخذ يرتجف كالمصاب بالبرداء من رأسه حتى أخمص قدميه، وقد أيقن بأنه وقع في شركٍ لا مخرج منه، ولم يدرِ ما يفعل، فقدْ عَقَلَهُ الخوف، وأدرك بأن سبيل النجاة الوحيد يكمن في النافذة..

وأضيء النور بغتة في باحة البيت، فحبس الاثنان أنفاسهما ترقباً للحظات، ومن ثم وثبت سميرة التي تمالكت نفسها بعض الشيء نحو قميص نومها فارتدته بسرعة، بينما جرَّ سعيد نفسه جراً نحو النافذة وهو في أوج اضطرابه وقد خيّل إليهما بأن شخصاً ما يصعد بهدوء، درجات السلم الذي يقود نحو الغرفة الوحيدة القابعة في نهايته.

وأدرك سعيد الخطر الذي ستتعرض له سميرة بسببه، ففتح النافذة دون أن يعبأ بالهواء البارد الذي لفحه، ثم نظر نظرة متفحصة إلى الشارع، حتى إذا تأكد من خلوه تماماً، ألقى بنفسه منها دون أن يعبأ بمصيره، وخلال لحظة سريعة تناهى إلى سميرة المرعوبة التي كان الاضطراب يعصف بها صوت ارتطام سعيد بالأرض مصحوباً بصيحة مكتومة وأنات أليمة، فهرعت نحو النافذة، وقد فقدت صوابها خوفاً على سعيد، فأطلت منها في الوقت ذاته الذي انفتح فيه باب الغرفة ليبدو أبوها من خلال نور الباحة المنسرب يملأ فراغ الباب.

-٢٦-

ظلت سميرة بعض الوقت أسيرة المفاجأة، فعقل الذعر لسانها، ولم ترتد إلى نفسها إلا عندما سمعت أباها يهتف باسمها، فجمدت في وقفتها، وهي ترقب مرتاعة سعيد الذي أخذ يزحف زحفاً بعيداً عن البيت، ثم استدارت نحو أبيها الذي غدا قريباً منها، فارتمت بين ذراعيه وهي تنفجر بالبكاء، وقد عصفت بها نوبة هستيرية شديدة.

لم يدرِ الأب ما يفعل فقد هاجت في نفسه كل عوامل الأبوة، فحمل ابنته ووسدها الفراش، ودثرها بالأغطية، ثم أخذ يدلك يديها الباردتين، حتى إذا بدأت تسترد بعض وعيها، توجه نحو النافذة، فأطل منها قبل أن يغلقها، ثم عاد ليجلس إلى جوار ابنته وفي فمه فيض من الأسئلة التي أمسكها ريثما تستعيد ابنته قوتها.

أما سميرة التي كانت تتوقع أن ترى أمها، فقد فوجئت تماماً، لأنها لم تحسب حساباً لعودة أبيها المفاجئة من مقر عمله البعيد، وهي عندما سمعته يناديها، أحست بالأرض تميد من تحتها، وبأن كل شيء فيها ينهار، فهي لم يسبق لها أن واجهت وضعاً كهذا، وما كانت تظن بأنها ستقف في يوم من الأيام هذا الموقف، وكادت في لحظة من لحظات التوتر الذي استولى على أعصابها، وسيطر على كل شيءٍ فيها أن تلقي بنفسها من النافذة، ولكنها أحجمت عن ذلك واستدارت دون أن تدري لتواجه الواقع وهي منهارة تماماً، ثم لم تعد تعي ما حدث بعد ذلك..

اكتشف علي الحجار وهو يرقب ابنته بانزعاج، بأنها تتحاشى نظراته، وتحاول أن تمنع عينيها عن عينيه كي لا يسألها شيئاً، فلجأ إلى الحيلة، وأخذ يلاطفها، ويغدق عليها الشيء الكثير من حنانه متظاهراً بالاهتمام بها وبراحتها حتى اطمأنت إليه ثم سألها مستغرباً دون مقدمات:

- أين أمك؟! .

فلم تجب، وارتبكت بعض الشيء، وخشيت إن انتحلت لأمها الأعذار المعتادة أن تفضح أموراً ما فتئت أمها تخفيها بحرص عن الجميع..وعاد أبوها يسألها بإصرار ووعيد:

- سألتك أين أمك؟!.

وحاولت أن تلوذ بالصمت ثانية، وقد أدركت من لهجة أبيها بأن أية كلمة تبدر منها قد تقود أمها إلى التهلكة فقالت بعد لأي متعللة بالإعياء المصابة به:

- لا أدري!.

فقال لها مؤكداً:

- بل تدرين وتتكتمين!.

- أنا.. أبداً.. لا أعرف شيئاً!.

- أبداً!.

- أبداً..

وكتم غضبه بجهد كبير وهو يجرها إلى الكلام:

- هيا.. هيا أخبريني بكل شيء، فلم يعد الأمر سراً! .

قال ذلك وهو يتفرس في وجهها، وعيناه تدوران في محجريهما، تودان لو تتقريان خبيئة نفسها، ولكنها أشاحت عنه تتنازعها شتى الهواجس والأفكار، فامتلأت عيناها بالدموع وقد اعتزمت أن تلوذ بالصمت.

وفجأة فَقَدَ الأب أعصابه وقد ضاق بصمتها، فانفجر مرة واحدة وأخذ يضربها كيفما اتفق بقسوة وهو يصرخ:

- سأقتلك إن لم تتكلمي.. سأقضي عليك وعلى أمك.. لقد جلبتما العار لبيتي وشرفي .

فصاحت سميرة هي تدفع ضربات أبيها، والبكاء يأكل أغلب كلماتها:

- لست أنا.. لست أنا!.

ولم يتوقف الأب عن ضربها إلا عندما أخذت تتدفق بالكلام وهي تنشج وتشرق بدموعها لتروي ما تعرفه عن أمها وعن فوزية وبيت عين الكرش.

* * *

اندفع علي الحجار من غرفة ابنته كالمجنون، فقفز درجات السلم القصير قفزاً، واجتاز باحة البيت عدواً، ثم توقف في منتصف الدهليز، وارتد نحو المطبخ، وبعد بحثٍ قصير عثر على سكين اللحم الحادة، فتمنطق بها، وغادر البيت بعد أن صفق الباب وراءه بشدة معتزماً ذبح امرأته. وإنصافاً لعلي الحجار، فإنه لم يكن يعلم شيئاً عن سلوك امرأته في بداية الأمر، ولكن شكَّه الدائم بها، واللغط الذي كان يدور حولها، والذي تناهى بعضه إليه تلميحاً من أصدقاء المقهى، هو الذي جعله ينتهز أول فرصة ليعود إلى دمشق من مقر عمله ليتحقق بنفسه، كما أن الشكوك التي ساورته بعد زيارته الأخيرة تفاقمت في نفسه خلال شهور الوحدة الطويلة التي قضاها بعيداً في عمله حتى غدت كابوساً ينغص عليه حياته... كانت صورتها وهو يجتاز مصلبة العمارة بخطوات معجلة لا تفارق مخيلته، وكذبها الدائم عن كنه عملها الليلي يحرقه غيظاً، ويزيد في استعار غضبه، واستخدامها مختلف وسائل الغواية معه ليسمح لها بالعمل ليلاً، أخذت تلحّ عليه الآن أكثر من أي وقت مضى، فبدا في هيئته الغاضبة كأنه وحش غريب يبحث في الظلام عن فريسة لينقضّ عليها، وأخذت خطواته الواسعة تبتلع المسافة المتبقية بين ساحة السبع بحرات في شارع بغداد وبيت عين الكرش الذي دلته عليه ابنته، حتى إذا غدا عند مدخل الحي الذي قامت على طرفيه الأبنية الحديثة، توقف عن السير وقد استبدت به الحيرة، فالأبنية تبدو له متشابهة في كل شيء، وأنوار الأعمدة الكهربائية الزرقاء الباهتة الممتدة على طول الحي الجديد لم تساعد على تبديد حيرته، فهو غير قادر على تمييز البيت الذي يقصده، ورغم هذا جازف بولوج الشارع محترساً، وهو يحملق ويحدق جيداً عند كل بناء، ويصيخ لكل صوت قد يصدر عنه، علَّه

يكتشف شيئاً قبل أن يتجاوزه إلى غيره..وبينما هو كذلك تناهت إليه أصوات معربدة آتية من المنعطف القريب، فاتجه نحوها بحذر، وما كاد يفعل حتى برز من البناء الذي يسبق المنعطف ثلاثة من الجنود، فتوقف عن سيره، وقد أيقن بأنه البناء المقصود، ومن ثم همَّ بأن يندفع نحوه، ولكنه آثر التريث قليلاً، فقد يعيق هؤلاء الجنود عمله، وتلكأ الجنود الثلاثة عند زاوية المنعطف بعض الشيء وهم يرطنون باللغة نفسها التي يتحدث بها رئيسه الميجر (واطسن) ثم تابعوا سيرهم باتجاهه وهم يتمايلون وقد تعتعهم السكر حتى كادوا يصدمونه لو لم يتحاشهم..وابتعدت بعد ذلك أصواتهم التي كانت تقطع سكون الليل، إلا من جعجعة يسيرة كانت تعلو أحياناً ثم ما لبثت أن غدت همهمة بعيدة الغور قبل أن تتلاشى.

ولم يطل وقوف علي الحجار بعد ذلك، فقد استراح إلى السكون الذي لفّ كل شيء، فأخذ نفساً قوياً، استرد به بعض جأشه، ثم اندفع بخطوات سريعة نحو البيت الذي كانت تميزه عن سائر البيوت الأنوار الخافتة الحمراء، دون أن ينتبه للحارس الذي انتحى زاوية معينة قريبة من البيت، يرى منها كل شيء دون أن يراه أحد، وما كاد يستقر في مدخل البناء ويرتقي الدرجات الثلاث التي تقود إلى الباب، ويجوس بعينيه في الظلمة باحثاً عن جرس الباب، حتى دوى في أذنيه صوت عصا الحارس، وهي تضرب جدار المدخل والحارس نفسه يسأله:

- ماذا تفعل هنا؟!.

وارتعش بعض الشيء، وارتج عليه، وحار فيما يقول وقد تعثر الكلام في فمه إلا من فأفأة يسيرة غير واضحة.. لقد حسب لكل شيء حسابه، فمن أين برز له هذا الحارس الذي لم يتوقعه، والذي لم يره أصلاً في الشارع؟!.. وعادت الحيرة تحاصره من كل جانب، وقد أخذ الحارس يلوح بعصاه مهدداً وهو يقول:

- هذا بيت خاص، ممنوع لغير الأجانب..

ولم يفهم علي الحجار شيئاً، كذلك لم يفه بأية كلمة فقد بلغ به اليأس والقنوط مداهما. فهو من جهة بات قريباً من غايته، ومن جهة ثانية وجد نفسه مكبلاً أمام هذا الحارس الذي يقف حائلاً بينه وبين ما يبغي.

وتردد لحظة، وكاد في غمرة يأسه أن يستسلم صاغراً ويعود من حيث أتى متخلياً عما اعتزمه لوقت آخر، لولا أن غضبه الذي بلغ الأوج، وحقده الذي أخذ يضغط على كل شيء فيه، وسكان الحي الذين يتهامسون ويتغامزون عليه كلما رأوه، وشرفه المثلوم وكرامته المهدورة وابنته التي باتت بلا مستقبل، كل هذا وأكثر من هذا دفعه على التشبث بما اعتزم عليه وقد تفاعل في ذاته بقوة وقسوة شديدتين، فهجم على الباب يائساً، وأخذ يضرب عليه بقبضتيه ضرباً متواصلاً، أحدث دوياً كبيراً تردده صداه في أرجاء البناء، وامتد إلى الشارع، الأمر الذي جعل الحارس يأخذ بتلابيبه وهو ينهره بعنف قائلاً:

- قلت لك، هذا بيت خاص.. أعطني هويتك الشخصية!.

واستدار علي الحجار نحو الحارس وعيناه تدوران دون استقرار وقد بلغ منه الغضب مداه، فدفع عنه الحارس بقوة لم يتوقعها الحارس الذي فقد توازنه وتعثر بالدرجات الثلاث قبل أن يقع على الأرض بينما استل علي الحجار سكينه وهو يهدر مهدداً الحارس الذي أخذ ينهض من عثرته مغبة الاقتراب منه، وفي اللحظة نفسها انفتح الباب لتبدو على عتبته فوزية بابتسامتها الماجنة التي اعتادت استقبال الرواد بها، وما كادت تتبين من خلال النور الهزيل المنسرب من فرجة الباب وجه علي الحجار حتى انكمشت على ابتسامتها، ثم ارتدت إلى الوراء مذعورة. وقبل أن تستعيد نفسها من المفاجأة لتغلق الباب، كانت سكينة علي الحجار الحادة تجد طريقها إلى لحمها المترهل المكشوف لتفجر كل حقده وغضبه ويأسه، وعصا الحارس تهوي بدورها على رأسه عدة مرات بمنتهى القسوة، وصراخ فوزية وولولتها المرعبة تشق سكون الليل وهدوءه فتوقظ سكان الحي من نومهم ليهرعوا خلال لحظات نحو البيت الأسود الذي يلطخ سمعتهم،

حتى إذا تبينوا حقيقة الأمر غمرهم نوع من الفرح المقرون بالحزن على الرجل الشهم الذي كان منبطحاً على الأرض يتلوى من الألم..

وأخذ الحارس ينفخ في صافرته طالباً النجدة، ويدفع الناس طالباً منهم الانصراف وهم ما زالوا متشبثين في أمكنتهم وكلهم أمل في أن تؤدي هذه الحادثة إلى إغلاق البيت وتخليص الحي من العار الذي ينشره فيه.

-٢٧-

استطاع أحمد أن يؤمن عملاً لنفسه خلال أشهر الصيف في معمل (كبريت الشام) في (القدم) بظاهر دمشق، غير أن الأب عارض رغبة ابنه بادئ ذي بدء، ولكنه عندما أدرك بأن العمل سيقتصر على أشهر الصيف وبالتحديد إلى أن تفتح المدرسة أبوابها، رحّب بخطوات ابنه وباركها.

ولعل رغبة أحمد في العمل قد انبثقت عنده من خلال تدلهه بأم إبراهيم التي لم يعد يطيق فراقها، فالوصال الذي ذاق طعمه للمرة الأولى في أحضانها، كان غريباً عليه، لم يروِ نهمه، فأراد أن يحصل على المزيد منه ليتعرف كنه تلك الغيبوبة التي ضاع بها عندما جثمت أم إبراهيم فوقه. ولم تكن أم إبراهيم بأقل رغبة منه فصارت بدورها تفتعل مختلف الأسباب ليلجأ أطفالها إلى النوم كي تتمكن من احتواء حبيبها الصغير الذي ينضح قوة ورغبة، على طرحة صغيرة رتبتها خصيصاً بجانب الفراش الذي يرقد عليه طفلاها الصغيران.. كانت تريد أن تروي جوعها الذي استيقظ من هجعته بعد السنوات الظماء التي مرت على وفاة زوجها من أحمد الذي غرق في التجربة حتى الثمالة.

وهكذا أخذت كل ليلة تعد أسباب الراحة المتيسرة لها لتتمكن من استبقاء أحمد في أحضانها أطول فترة ممكنة، وكان أحمد بدوره لا ينهض عنها إلا عندما يشعر بأن أباه قد عاد من المقهى، وأن الوقت أزف ليأوي بدوره إلى بيته وفراشه.

شعر أحمد بأن العلاقة الجديدة التي نشأت بينه وبين أم إبراهيم قد باعدت قليلاً بينه وبين ابنتها هيام، وإن كان ما زال يحس بقربها بذاك الشعور اللذيذ الذي انتابه عندما جلس إليها للمرة الأولى. ورغم العلاقة التي تطورت بينه وبين أمها، فإنه ظل يلازم فراشها كل مساء فيحدثها طويلاً وهي تشد على يده سعيدة مزهوة حتى يدهمها النوم.

غير أن العواطف التي كان يحس بها تجاه هيام كانت تختلف عن تلك التي يشعر بها تجاه الأم.. كان ما يزال يحب هيام حباً غريباً وبصدق، ويشعر بالانجذاب نحوها يوماً بعد يوم رغم العلاقة الجنسية التي ربطت بينه وبين الأم. لقد حاول أن يجد تفسيراً لذلك فلم يستطع، وحاول أن يفسر رغبته في دفع هيام إلى النوم المبكر فلم يجد أمامه سوى شهوته التي طغت على كل شيء.. كان يحس بسعادة قصوى، لشعوره بأن هيام بحاجة إليه ويشعر في الوقت نفسه بغبطة لا نهاية لها وهو يزق أمها مسارقة بعض النظرات التي تحمل من المعاني الشيء الكثير، فتتظاهر هذه بالخجل، وتفض حياء. وكان لا يبدد هذا الصراع بين عاطفتيه تجاه الأم والبنت سوى استسلام هيام للنوم، فيسحب يده من بين أصابعها النحيلة، ويبحث خلال الظلمة بجوع ونهم عن الركن الذي جلست فيه الأم تنتظر، وقد تركت جسدها عارياً لينير بعض ظلام الغرفة الدامس، وكان يدرك يوماً بعد يوم بأن ارتباطه بهذه الأسرة غدا أقوى من ارتباطه بأسرته، وأن الليرات الضئيلة التي كان يجود ها على أم إبراهيم من وراء صيد النهر لا تفي بما تتطلبه هذه الأسرة من نفقات.. صحيح أن أحداً لم يطلب منه شيئاً، ولكنه غدا بعد علاقته بأم إبراهيم يشعر بأن عليه أن يقدم أكثر مما يستطيع بعد أن منحته أم إبراهيم الشيء الكثير، ومن هنا قويت رغبته في البحث عن عمل لا يتعارض مع المدرسة، وعندما نميَ إليه في نهاية العام الدراسي عن حاجة معمل (كبريت الشام) إلى عمال، تقدم مع عدد من طلاب مدرسته إلى إدارة المعمل التي وافقت على تشغيله بأجرة نصف عامل لأنه ما

زال طالباً في المدرسة، رغم قامته الممشوقة وجسده الممتلئ اللذين كانا يعطيانه عمراً أكبر مما هو عليه.

وهكذا قسم أحمد وقته بين المعمل وصيد النهر وأم إبراهيم، وكان يخرج من البيت مبكراً، قبل شروق الشمس، فيقطع المسافة بين بيته في السبع طوالع والمعمل في (القدم) سيراً على الأقدام في أغلب الأحيان، ليوفر أجرة الحافلات، فيخترق (المسكية) و(البزورية) إلى (الشاغور) ومنه يعرج في الحواري الضيقة، والأزقة الجانبية حتى يصل إلى (الجزماتية) ومن هناك كان يغافل في أكثر الأحيان، جابي الحافلة المتجهة إلى آخر الميدان فيتعلق بمؤخرتها حتى يصل إلى ساحة (بوابة الله) فيجتازها دون أن ينسى قراءة الفاتحة عدداً من المرات على أرواح الموتى المدفونين في المقبرة، ثم ينحرف يميناً باتجاه معمل الكبريت الذي تطل عليه من بعيد شامخة، مطحنة القدم الحديثة بأدوارها الثلاثة، ولا تكاد قدماه تطأان مدخل المعمل حتى تدوي صافرته معلنة الحياة والحركة في المعمل.

* * *

كان العمل الذي أُنيط به بسيطاً وهاماً في آن واحد.. كان عليه كزملائه الذين استخدموا مثله أن يغمس العيدان الخشبية بالمادة التي يتكون منها الثقاب، قبل أن يثبتها في فجوات دقيقة تتسع كل واحدة منها لعود واحد، وكانت المئات من هذه الفجوات مثبتة بحامل معدني عريض، ما تكاد تمتلئ بالعيدان المغموسة حتى يتحرك الحامل آلياً، فتمر العيدان بفوهات التجفيف فتمكث ساكنة عدة دقائق ومن ثم يتابع الحامل سيره دون توقف فيمر أمام عدد آخر من العمال الذين يقومون بنزع العيدان من الفجوات وترتيبها في مجموعات على جهاز معدني آخر يشبه البساط فيحملها هذا إلى جهاز آخر يعمل تلقائياً فيملأ مجموعات العيدان في علب خشبية صغيرة، كان الجهاز نفسه يلفظها ثم يعود فيزدردها ثانية ليلفظها نهائياً وقد أحكم عليها غطاؤها المعروف في الأسواق

باسم (كبريت الشام) ورغم بساطة العمل الذي أُنيط بأحمد، فقد تطلب منه حتى أتقنه أكثر من يومين قبل أن يبرع فيه. وكانت أحب الأوقات لديه في المعمل هي فترة الظهيرة، إذ ما تكاد صافرة المعمل تعلن ذلك حتى يسرع العمال جميعاً الكبار منهم والفتيان من طلاب المدارس إلى البستان المجاور، فيجلسون جماعات جماعات، ثم يمدون على الأرض المعشوشبة، ما حملوا من زاد، فيتحلقون حوله متربعين ويأخذون بتناول طعامهم البسيط الذي يتكون في أغلب الأحيان من الزيتون والجبن واللبن المصفى والبيض المسلوق والحلاوة والمكدوس، وكانت عملية الطعام لا تستغرق منهم وقتاً طويلاً، ينطلقون بعدها متفرقين، فيختار كل واحد منهم شجرة من أشجار الزيتون التي يغص بها البستان فيرتمي عند جذعها متفيئاً ظلالها ليأخذ قسطاً من الراحة أو حصة من النوم قبل أن تصرخ صافرة العمل لتدعوهم بولولتها المتقطعة إلى متابعة العمل من جديد.

وكما كان العمال الكبار يجتمعون إلى بعضهم بعضاً، كان العمال من الطلاب يفعلون، غير أن هؤلاء ما كانوا يحبون الراحة، كانوا يستريحون إلى اللعب بعد الطعام، أكثر من الخلود إلى الراحة، وكانت صيحاتهم وضحكاتهم وهم يمرحون هنا وهناك، لا تجد معارضة من الكبار الذين كانوا في أغلب الأحيان يسرون لمرح أقرانهم الشباب. وكان أكثر ما يضايق أحمد وزملاؤه الصافرة اللعينة التي شبهوها بجرس المدرسة الكهربائي، الذي يقرع إيذاناً ببدء الدرس، وفي المساء لا تكاد صافرة العمل تعلن انتهاء العمل اليومي حتى يتزاحم العمال جميعاً على المغاسل، فيغتسلون، وينطلقون نحو بيوتهم مكدودين مرهقين، فالعمل في معمل كبريت الشام يبدأ في السادسة صباحاً وينتهي في السادسة مساءً، وفترة الراحة الوحيدة التي يهدؤون خلالها من عناء العمل كانت تلك التي يتناولون فيها طعام الظهيرة.

* * *

وعند ساحة (بوابة الله) كان عمال كبريت الشام يلتقون بعمال مطحنة القدم وبالأجراء والصنّاع والفعلة العائدين من أعمالهم، فيحيون بعضهم بعضاً بحكم الزمالة أو القرابة في الغالب، إذ قلما يجد المرء في دمشق إنساناً لا يمت إليه بصلة القربى، مهما كانت تلك القرابة بعيدة أو قريبة، وحتى الغرباء والطارئين الذين وفدوا إليها واستوطنوا فيها على مدى عشرات ومئات السنين هرباً من الظلم الذي حاق بهم في أوطانهم ذابوا في المدينة الهرمة التي دأبت على طبع كل من يقطن فيها بطابعها فباتوا من سكانها الأصليين، وارتبطوا كغيرهم من السكان بالأرض والآمال والآلام.. لم يكن غريباً عليهم سوى الأجنبي الجاثم على صدورهم، فهو لم يستطع كغيره من الطامعين في أم الدنيا أن يذوب فيها، لأن أم الدنيا تكره العدوان، ولا تحب الحرب، ولا تُسر لمرأى البنادق وأصواتها إلا في المباهج والأفراح، ولا ترضخ للنار، وتكره من أعماقها البزات التي تأتمر بأمر الجزم، ولو أنهم جاؤوا إليها نازحين لضمتهم إلى صدرها وطبعتهم بطابعها كما فعلت مع الآخرين، ولكنهم دخلوها بالحديد والنار والقهر، وبالحديد والنار والقهر ستدمرهم وتقضي عليهم، وهي إن فشلت عدداً من المرات حتى الآن، فلا بد لها من الانتصار في النهاية كما انتصرت على غيرهم من الذين غزوها بالحديد والنار أيضاً..

كانت لقاءات العمال عند (بوابة الله) لقاءات سياسية واجتماعية في الغالب، كانوا يتحدثون ببساطة متناهية عن همومهم اليومية، ويعزون كل شيء للاحتلال، فإذا ما تحدثوا عن الخبز، تحدثوا عن الاحتلال، وإذا ما تعرضوا للغلاء، تعرضوا للحكومة بالقدح والذم وهاجموها بعنف.. كانوا هم بالذات عصب النضال الحقيقي، فإذا ما أضربت المدينة أضربوا بدورهم، وخرجوا بتظاهرات صاخبة كانت تنقلب دائماً إلى اصطدامات دامية. وكانوا يعلمون بأنهم عندما يُقدمون على ذلك سيفقدون رزقهم لأيام وربما لأسابيع، فعصيان المدينة الكبيرة إذا بدأ لا يعلم إلا الله متى ينتهي، لأن الاحتلال هو هاجسها الوحيد..

وكان لا يبدد من شمل هذه اللقاءات السريعة عند البوابة إلا قدوم الحافلات التي كانت تقلهم إلى أقرب المناطق المؤدية إلى بيوتهم، وكان أحمد ورفاقه يجدون متسعاً للمرح، عندما يتهربون من الدفع لجابي الحافلة بالوسائل نفسها التي اعتادوها عند أوبتهم من المدرسة. غير أن أوبة أحمد إلى البيت ما كانت تعني بالنسبة إليه انتهاء العمل اليومي، فهناك صيد النهر الذي اعتاد أن يمارسه يومياً والذي يدر عليه مبلغاً لا بأس به، فهو لم يعد يكتفي بما يجود عليه نهر بردى في المنطقة التي يخترق الحي، بل انتقل منه إلى الأنهر الأخرى المتفرعة عنه والجداول التي تستقي مياهها منه.

وكان صيد النهر بالنسبة إليه يعني العمل ليلاً، ولكي يوفق بين عمله في المعمل نهاراً، وصيد النهر ليلاً، كان يأوي بعد أوبته من المعمل مباشرة إلى فراشه فينام أو يرتاح قليلاً ثم يغادر البيت ميمماً وجهه شطر بيت أم إبراهيم فيمكث عندها بعض الوقت ثم يتجه نحو النهر الذي يختاره ليقوم بالتقاط الضفادع والسراطين.

غير أن الإرهاق الذي بدأ يستولي عليه من جراء ذلك جعله يختصر أيام صيد النهر إلى يومين في الأسبوع، ووجد ذلك أكثر ربحاً فالكيس في الصيد نصف الأسبوعي أكثر امتلاءً من الصيد اليومي، وكان يقتسم مع أبيه ما يتقاضاه من أجر أسبوعي، ويحتفظ لنفسه بالباقي، فيعطي أكثره وما يدره عليه صيد النهر من أرباح إلى أم إبراهيم.

-٢٨-

طغت أنباء إعلان الانتخابات العامة في البلاد على كل شيء، فدب النشاط في الأحياء الشعبية بصورة عامة، وبين صفوف الطلبة والمثقفين بصورة خاصة.

كانت الانتخابات أول حدث سياسي هام يعلن بعد وفاة رئيس الجمهورية الشيخ تاج الدين الحسني الذي جاء به الفرنسيون الأحرار في أعقاب انتصارهم على الفرنسيين الفيشيين الموالين لدول المحور ودخولهم سورية بمساعدة الجيش الثامن البريطاني. ورغم الإعلان الرسمي الذي أخفى في طياته تأزم العلاقات بين الفرنسيين والإنكليز، فإن المواطنين ظلوا في شك من مضامين هذا الإعلان، فقد علمتهم الأحداث بأن أي مطلب وطني سيؤول إلى الفشل بسبب الفجوات التي يتضمنها الدستور في بعض مواده التي فرضها الفرنسيون، كما حدث بعد الاضطرابات التي سادت في أعقاب معاهدة عام ١٩٣٦، إذ ظلت البلاد تحكم من مجلس المديرين الذي عينه المندوب السامي الفرنسي. غير أن زعماء الكتلة الوطنية الذين أدركوا بوعيهم السياسي البسيط، ومن خلال اتصالاتهم مع عدد من المسؤولين الإنكليز كنه الصراع بين الفرنسيين والإنكليز في السيطرة على البلاد، استطاعوا إقناع المواطنين وزعماء الأحياء بما يملكون من نفوذ ومال بضرورة الاشتراك في الانتخابات، وعدم مقاطعتها للعمل عن طريق المجلس النيابي المنتخب، وعن طريق استغلال الخلاف الخفي بين الإنكليز والفرنسيين بالخلاص من الاستعمار الفرنسي، وكان الإلحاح على هذه النقطة بالذات وهي عدم التعرض للإنكليز الذين يحتلون البلاد كالفرنسيين تماماً يلقى تأييداً كاملاً من الكولونيل الإنكليزي سترلينغ الذي كان يدعم زعماء الكتلة الوطنية بوسائله الخاصة، في السر حيناً، وفي العلن أحياناً أخر.

وهكذا شهدت البلاد نشاطاً انتخابياً كبيراً لم تعهده من قبل، وبدأت تظهر الدعايات الانتخابية في الشوارع إلى جانب الندوات الجماهيرية والمحاضرات التي كانت تعقد كلها بهدف دعم مرشح آخر وتفضيل حزب على حزب، وكتلة على أخرى.

وكانت الانتخابات تجري على مرحلتين، فيختار الناخبون في المرحلة الأولى الناخبين الثانويين، الذين يختارون بدورهم في المرحلة الثانية مرشحين كانوا أم غير مرشحين من يرونه جديراً بتمثيل الشعب في مجلس النواب، ولما

كانت هذه الطريقة تخدم بصورة مثالية اللعبة السياسية الاستعمارية، وتسهل للوجاهات وأصحاب النفوذ والمال اجتياز المرحلة الأولى، فإن النجاح يغدو مضموناً لأكثر هؤلاء في الوصول إلى المجلس النيابي.

وكانت جماعة الأستاذ تدرك جيداً أبعاد اللعبة السياسية التي تلعبها الكتلة الوطنية لإنجاح مرشحيها كما أن رائحة المال الذي وفد إليها من إحدى الدول العربية الضالعة مع الإنكليز فاحت في الأوساط الانتخابية بشكل قوي، وصارت هدفاً من أهداف الناخبين الثانويين الذين يطمحون إلى بيع أصواتهم للكتلة التي تدفع أكثر. ولما كانت طريقة الانتخاب هذه تقف حائلاً بين جماعة الأستاذ كقوة صغيرة تعتمد على المثقفين والطلاب وعلى قلة من الأجراء والصناع، فقد قرروا الاشتراك بالانتخابات ومجابهة الكتلة الوطنية وحزب الأحرار الذي قام على أنقاض الشهبندريين بترشيح أستاذهم ومعلمهم، ليعرّفوا الناس من خلاله على حركتهم ودورها ونشاطها في النضال الوطني ضد المستعمر، رغم ثقتهم بأن كرسي النيابة لن يكون من نصيبهم هذه المرة بسبب الأجواء السياسية المشحونة والمهيأة سلفاً لصالح الكتلة الوطنية. وهكذا انتشروا في الأحياء البعيدة والقريبة، يوزعون النشرات، ويحضون المواطنين على انتقاء الأكفاء، ويجلسون الساعات الطوال إلى المخاتير وزعماء الأحياء ويتصلون ببسطاء الناس الواعين، وكلهم أمل في أن تنجح مساعيهم في النهاية.

ورغم مبايعة جلّ أحياء دمشق لقوائم الكتلة الوطنية، فقد تمكّن جماعة الأستاذ من خرقها ونجح الأستاذ في الانتخابات الثانوية نجاحاً ساحقاً بحيث غدا الأمل كبيراً في نجاحه في المرحلة الثانية.

وإنصافاً للمرشحين فإن الناخبين الثانويين الذين لم يشاركوا في اللعبة دعموا بشكل مطلق لا مثيل له جميع المرشحين الذين يتمتعون بشعبية قوية ووطنية لا غبار عليها، غير أن هؤلاء لم يتمكنوا من الوقوف على اللعبة التي تدور في الخفاء، أو إن بعضهم على الأقل أدركها واستغلها لصالحه، وهكذا فإن انتخابات المرحلة الثانية حققت ما توقعه الدمشقيون سلفاً إذ فازت قوائم الكتلة

الوطنية فوزاً ساحقاً ليس في دمشق وحدها بل في كل المحافظات، ولم يخرقها سوى قلة من المستغلين الذين لا هوية لهم. وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى سقوط الأستاذ، وإلى فشل أول معركة تخوضها جماعته في الحقل السياسي.

* * *

كانت الانتخابات من المراحل الحاسمة في تغيير خطط جماعة الأستاذ التي أخذت على عاتقها مذ عقد المجلس النيابي أولى دوراته البرلمانية وانتخب فيها شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، مراقبة أعمال المجلس وملاحقتها على الصعيد الشعبي، وسبر أغوارها، والإصرار على المطالب الوطنية قبل القضايا الأخرى، إن في الصحف التي لم تمتنع عن نشر ما تراه جماعة الأستاذ، أو في الندوات والمحاضرات الجماهيرية التي كانت تعقدها في الأندية والأمكنة العامة، وكانت ذكرى مولد الرسول العربي الكريم من أكبر المناسبات القومية والدينية التي دعت إليها، حيث ألقى الأستاذ محاضرة في مدرج جامعة دمشق، جعلت الناس ينظرون إليه نظرة تختلف عما كان يروجه المغرضون من الأحزاب والجماعات الأخرى المناوئة للأستاذ وجماعته.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت حركة جماعة الأستاذ تتنامى وتكبر حتى غدت قوة صغيرة لا يستهان بها، وغدا الحلم الذي كان يداعب الناس في وحدة أمتهم أملاً كبيراً، والنضال من أجل ذلك الأمل أصبح أكثر قوة وشراسة لطرد المحتلين الفرنسيين والإنكليز اللذين يقفان حائلاً ضد الأمل الكبير، هدف العرب جميعاً..

كان العام الدراسي ١٩٤٤- ١٩٤٥ عاماً حاسماً بالنسبة لأحمد، فإما أن يرضي أمه ويغدو معلماً في المدارس الابتدائية في القرى النائية، وإما أن يتابع دراسته بعد نيله لشهادة البكالوريا الأولى، ولما كانت الدراسة بالغة الصعوبة، ولا يستطيع أن يوفّق بينها وبين العمل الذي يزاوله، إلا إذا ترك المدرسة، فقد فضّل بدعم من أبيه، التخلي عن العمل في معمل (كبريت الشام) والاكتفاء بمواسم

صيد النهر خلال أوقات الفراغ التي لا تقف حائلاً بينه وبين دراسته، وهكذا انصرف إلى الدراسة بهمة كبيرة، ما كانت تصرفه عن زيارة أم إبراهيم وابنتها المدنفة، التي كان مرضها يتفاقم يوماً بعد يوم، غير أن الدراسة، لم تستمر كما يحب ويشتهي، إذ منذ انتخب القوتلي رئيساً للجمهورية في العام ١٩٤٣، وبدأت المطالب السورية تزعج المستعمر الفرنسي، وتلقى أذناً صاغية من الاحتلال الإنكليزي، أخذت الاضطرابات تغزو الشارع بتشجيع من السلطة، لينعكس على المشاحنات السياسية التي كانت تسود أجواء مدرسة التجهيز الأولى، ولتوحد في الوقت نفسه التيارات الحزبية والسياسية في بوتقة واحدة ضد الاحتلالين الفرنسي والإنكليزي، ولتعبّر عن ذلك في التظاهرات الكبيرة والعنيفة التي كانوا يفتعلونها لأتفه الأسباب، الأمر الذي أزعج سياسة الحكومة التي كانت تهدف إلى ضرب الفرنسيين من دون الإنكليز، وتسخير السياسة الإنكليزية للخلاص من الفرنسيين، فأوعزت لتجار دمشق الكبار من أصحاب الأموال لكي يقوموا بمبادرة من جانبهم توحي بالثقة، وتدفع بالطمأنينة لدى قادة الاحتلال البريطاني.

وهكذا تنادى تجار دمشق الكبار للتبرع من أجل شراء سرب من الطائرات الحربية من نوع (سبيث فاير) تقدم لبريطانيا مساهمة منهم في الحرب ضد دول المحور. وكان هذا الأمر الذي أفردت له الصحافة السورية صفحاتها الأولى، أقصى ما يستطيع طلاب المدارس الخمس الكبيرة تحمله، لأنهم اكتشفوا من وراء هذا العمل، تلاعب الحكومة بمقدرات الوطن في إحلال الاحتلال الإنكليزي، محل الاحتلال الفرنسي، وكان عرّابا هذه الصفقة، هما الكولونيل (سترلينغ) والسفير البريطاني (سبيرس)، اللذان اشتركا في الضغط على الحكومة، وفي تقديم الوعود من أجل تحقيق الأماني الوطنية.

غير أن الطلاب الذين اعتادوا قيادة الشارع ضد الاحتلال وما جلبه من مصائب، كان لهم رأي آخر، خاصة عندما علموا بأن (الكوتا) السنوية المخصصة لسورية، ذهبت لجيوب التجار الذين تبرعوا بالطائرات تقديراً من

الحكومتين السورية والبريطانية على فعلتهم، وهكذا، اندلعت الإضرابات والمظاهرات الدامية لتشمل المدن السورية كلها، ولم تجد الحكومة أمامها سوى حلٍ واحد، هو تعليق الدراسة إلى أجل غير مسمى لتخفف من حدة الصدامات التي لم تعد تفرق بين فرنسي وإنكليزي، وخلال هذه الاضطرابات التي اجتاحت سورية كلها، برزت للمرة الأولى، الأسلحة النارية وقنابل مولوتوف المحلية الصنع في صفوف الشعب، الأمر الذي أقلق الفرنسيين كثيراً.

وعندما رجعت الحكومة عن قرارها بعد شهرين، واستؤنفت الدراسة من جديد. بدأت موجة جديدة من الإضرابات الموجهة ضد الفرنسيين فقط، بدعوى أن فرنسا هي الدولة المنتدبة، بينما بريطانيا دخلت البلاد بصفة مؤقتة لتقضي على عملاء حكومة فيشي الفرنسية الذين كانوا يأتمرون كحكومتهم بأمر الاحتلال الألماني، وإن مغادرتها للبلاد ستتم بمجرد انتهاء الحرب، وهي فعلاً سحبت إلى فلسطين وشرقي الأردن أغلب قواتها، ولم تبقَ في البلاد سوى حاميات رمزية.

الإضرابات الطلابية التي استعرت بعنف، لم تستمر هذه المرة طويلاً، وتوقفت بعض الوقت، عندما دهم البلاد خطر جديد جعل الناس يهبون جميعاً لدرئه عن البلاد، ولم يكن هذا الخطر سوى الجراد الذي حجبت أسرابه الشمس عندما بدأ غزوه في يوم من أيام شهر نيسان عام ١٩٤٥.

-٢٩-

استنفرت وزارة الزراعة، ومديرياتها، كل موظفيها وعمالها لدرء الخطر الذي أخذ يزداد يوماً بعد يوم، ووجدت أنها ما زالت تحتاج لمئات من اليد العاملة لمكافحة الجراد الذي استفحل أمره، وغطى كل شبر من أراضي الغوطة وسهول حوران وحمص وحماه وشمالي حلب، فطلبت من وزارة المعارف أن تمدها باليد العاملة، من الطلاب الذين ألموا أثناء دراساتهم بالأساليب المتبعة

في مكافحة الجراد ليساعدوها في ذلك. واستجابت وزارة المعارف للطلب، وأوعزت لمديري المدارس بانتقاء الطلاب القادرين، فعمد هؤلاء إلى اختيار الطلاب الذين تريد التخلص منهم لقيامهم بالتحريض على الإضراب كلما استشعروا خطراً أو تآمراً على الوطن، فخصت انتقاءها لجنة الإضراب بالدرجة الأولى، وكان أحمد واحداً من هؤلاء، وكان من نصيبه قرية (بيت سحم) في غوطة دمشق.

* * *

وجد أحمد نفسه للمرة الأولى في حياته، بعيداً عن دمشق، وعن أسرته، وعن أم إبراهيم وابنتها هيام.. لقد حاول منذ البداية أن يرفض ما عرضه عليه مدير المدرسة، ولكن هذا أقنعه بالواجب الوطني، وبالخطر الذي يتهدد الناس، وأكد له بأن مكافحة الجراد في هذا الوقت بالذات لا تقل شأناً عن مقارعة الفرنسيين.

وعندما قدّم نفسه للمسؤولين في وزارة الزراعة، أمروه فوراً بالرحيل مع رفاقه الطلاب الآخرين والدركي (صياح) في الشاحنة التي ستقل الجميع إلى القرى التي كلفوا بمكافحة الجراد فيها.

وما كادت الشاحنة تنطلق به وبزملائه، وتجتاز الباب الشرقي في طريقها إلى الغوطة حتى تملكه ورفاقه هلع حقيقي، فقد وقعت عيناه وعيون رفاقه على ما يدفع الرعب والفزع في النفوس.. كان هناك سهلٌ أصفر لا نهاية له، يرتفع عن الأرض بمقدار نصف متر، يتكون كله من الجراد الذي لم يسبق له أن رآه قبلاً، وكان ارتفاعه يزداد كلما أوغلت الشاحنة في سيرها على الطريق المعبدة التي امتلأت بدورها تلك الحشرات الصفراء التي تجيد التجمع والغزو، وكانت عجلات الشاحنة تدهس بعضها في خطين متجاورين، بينما كان بعضها الآخر يفر متطايراً حول الشاحنة هرباً، لتضرب في طيرانها العشوائي وجوه الطلاب فتزيدهم فزعاً.

وكانت الشاحنة تقف عند كل قرية من القرى المنكوبة، فيقوم الدركي (صياح) بتسليم طالب من الطلاب إلى مختار القرية كي يباشر عمله، بعد أن يؤمّن له الطعام والمأوى.. وهكذا أخذت الشاحنة تلقم كل قرية طالباً، وكانت أولى هذه القرى (البلاط) و(المليحة) ثم الست زينب فحجيرة والسبينة القدم ثم ما لبثت أن عادت أدراجها إلى قرية (يلدا) فببيلا، ومن هناك تابع أحمد وصديقه عدنان جار هيام والدركي السير على الأقدام، في طريق ترابية يحفها الجراد من كلا الجانبين، ويملأ الحقول الواقعة على طرفي الطريق بكثافة مخيفة، ويكسو الأشجار وفروعها وأغصانها وأوراقها التي لم يبقَ منها إلا النذر اليسير، دون أن يستثني حتى الطريق التي يسيرون عليها.

وأخذ عدنان وأحمد يدوسان بأقدامهما ما يصادفانه من جراد، بينما كان الدركي يستحثهما على السير، وعند قرية (عقربا) ودع أحمد صديقه عدنان بعد أن تسلمه المختار على أمل اللقاء القريب، ومن ثم تابع سيره مع الدركي باتجاه قرية (بيت سحم) فتجاوزا مستنقعاً كبيراً ومخيفاً، كانت الضفادع تنق فيه باستمرار، فذكره هذا بصيد النهر الليلي الذي أصبح بعيداً عنه الآن، كما ذكره بأم إبراهيم وابنتها والأمسيات التي يقضيها إلى جوارهما، وحاول أحمد جرَّ الدركي إلى الحديث، ولكن هذا ظل كالآلة الصمّاء، فلم يجد بديلاً سوى الصمت ومتابعة السير بجد، متسلياً بين الحين والحين بدهس العديد من حشرات الجراد التي ملأت كل شيء، حتى إذا بدت القرية من بعيد، وصافحت أنفه رائحة الورد الجوري، الذي كانت شجيراته تملأ مداخل القرية، أدرك بأنه وصل أخيراً إلى الضيعة التي أرسل إليها. وكان الدركي طوال الطريق الطويل التي بدأت من وزارة الزراعة في دمشق، والتي استغرقت عدة ساعات، يقوم بعمله بآلية بعيدة تماماً عن أي شعور إنساني، وكأنه يسلم مختار كل قرية طرداً من الطرود، وكان كلما سلّم طالباً لمختار قرية ما، يدون في دفتر يحمله معه لهذا الغرض اسم الطالب والقرية والمختار، ويدعو هذا الأخير لأن يبصم بخاتمه بجوار اسمه كدليل على الاستلام

وكان أحمد، الأخير في قائمة الدركي وفي خاتم المختار الذي بدا له شاباً نوعاً ما، قياساً على المخاتير الآخرين.

* * *

كان صاحب البيت الذي حل به ضيفاً، رجل مسن يدعى (أبو علي)، وكان عند أبو علي هذا، ولد وحيد، لا يزيد عمره عن ثلاثة عشر عاماً، زوجه بفتاة تصغره بسنتين، ليفرح به قبل أن يموت. وكانت الغرفة التي استضافه بها واسعة ودافئة. وتشرف على باحة البيت، ومذ وطأت قدماه الغرفة، ورتب أغراضه واختلى بنفسه، أخرج تعليمات وزارة الزراعة ليعمل بموجبها، وكانت أولى تلك التعليمات تنص على جمع الجراد عند السّحرُ في أكياس كبيرة، ودفنه في حفرة عميقة، وكان المختار قد هيأ وليمة دعا إليها كل أهل القرية الصغيرة من الذكور، ترحيباً به، وكان الطعام عبارة عن ثلاثة أطباق كبيرة جداً من خليط البرغل والفول المطبوخ، وعدد من قدور اللبن الرائب، والخبز المرقوق. وعندما همّ أحمد أن يقول شيئاً بعد الطعام عن المهمة التي جاء من أجلها، أمهله المختار إلى ما بعد صلاة العشاء، ولكن الصلاة امتدت أكثر من ذلك.. فأهل القرية جميعاً يتبعون مذهب الرفاعية الصوفي، لذا ما كادت الصلاة تنتهي، حتى عقدوا حلقة كبيرة، وبدؤوا يدورون وهم يرددون مختلف أناشيد الأذكار، ولم يجد أحمد نفسه إلا منخرطاً في صفوف الحلقة، يدور مع أفرادها كما يدورون ويردد ما يرددون إلى أن أدركهم التعب، فتفرقوا زرافات ووحداناً في أركان المنزل، وكلهم آذان صاغية للتعليمات التي أخذ أحمد يرشدهم إليها للقضاء على الجراد، منبهاً ومكرراً الإشارات الواجب اتباعها فجر كل يوم...

وعندما أوى إلى فراشه، كان الليل قد أوغل كثيراً، ولكنه على الرغم من التعب الشديد الذي أحس به، لم يستطيع النوم، وظل زمناً يستجدي النوم دون جدوى، إلى أن أخذ يستعيد مداعباته لهيام وإغرائها بالنوم ليختلي في خياله بأم إبراهيم، وعند ذاك فقط استغرق في النوم.

* * *

هب أحمد من نومه المضطرب على صياح منغوم، كان يأتيه قوياً من الطريق، ويرسله أحد الفلاحين، وهو يضرب على طبلة معه كمسحّر رمضان تماماً. فنظر إلى ساعته، وأدرك أن وقت العمل قد أزف، فأخذ يرتدي ثيابه على عجل، ويصيخ إلى الصوت المنغوم الذي عاد يردد باستمرار ليوقظ النيام:

قوموا قوموا يا اولاد

قبل الصبح على الجراد

والحميرة أخدت الاولاد

والليرة كسرت العباد

قوموا قوموا يا اولاد

وما كاد الصوت يبتعد، حتى اتخذ أحمد طريقه إلى ساحة القرية، وبرودة السّحرُ تسري في أوصاله، وتنعشه وتدفع الحيوية والنشاط إلى كيانه. وكان شبان القرية وفتيانها وكهولها ينتظرونه بمعاولهم ومجارفهم ودوابهم التي حمّلوها أكياس الخيش. وكان المختار قد حدد سهلاً في منطقة (الشقارة) لا يبعد كثيراً عن القرية لتبدأ فيها عملية تنظيف أراضي القرية وحقولها من الجراد.

وانطلق الموكب الذي يضم مئات الفلاحين بهمة وحماس، وكأنهم في مظاهرة صامتة، ومع انبثاق أول خيط من خيوط الفجر، وقف الجميع أمام سهل كبير كانت تتراقص فيه سيقان القمح قبل أن ينزرع من جديد بالجراد الذي ما زال نائماً، وقد شلته برودة الفجر والندى اللذين زادا في هجوعه. وكان لونه الأصفر الذي يدفع إلى القيء والقرف يترامى ما امتد البصر، وقال أحد الفلاحين:

- إنه غضب من الله..

وقال آخر:

- ذهب موسم الحبوب والثمار هذا العام..

وقال المختار:

- المهم أن ننقذ ما يمكن إنقاذه.. والبركة بأحمد أفندي..

وانتفخت أوداج أحمد، وشعر أن له مكانة خاصة، لأن كلمة (أفندي) لا تقال اعتباطاً، وانتابه سرور غامر، وقرر أن يكون عند حسن ظن المختار الذي نعته بالأفندي، لذا فإنه تنحنح وقال بصوت واضح وجلي:

- قبل كل شيء، سننقسم إلى مجموعتين، الكبيرة منها ستقوم بتعبئة الجراد في الأكياس، والصغيرة، ستفرغ محتويات الأكياس من الجراد في الحفر التي أعدت خصيصاً لدفنها فيها، ثم العودة بالأكياس ليصار إلى ملئها من جديد، وهكذا.

وهمّ الفلاحون وقد انقسموا إلى مجموعتين كما طلب منهم البدء بالعمل، ولكنه صاح فيهم قائلاً:

- على أفراد المجموعة الكبيرة أن يحيطوا بالسهل من كل أطرافه قبل البدء بالجمع ومن ثم نبدأ جميعاً في وقت واحد بجمع الجراد، والتقدم داخل السهل حتى تضيق الحلقة شيئاً فشيئاً فننتهي من تنظيف السهل هذا اليوم مع شروق الشمس وقبل أن يستيقظ الجراد فيهب هارباً.

وانتشر الفلاحون بسرعة، وأحاطوا بالأرض من كل أطرافها، لا يفصل الواحد عن الأخر سوى أمتار قليلة، وبدؤوا عملية الجمع مستخدمين في ذلك الرفوش والمعاول والأيدي وكل شيء يمكن استخدامه، وكانت الأكياس تمتلئ وتعود فارغة لتمتلئ من جديد دون أن يتقدم العمل كثيراً، فارتفاع الجراد عن الأرض يزيد عن النصف متر، ووجوه الرجال وثيابهم وأجسامهم امتلأت بتلك الحشرات، والتعب أنهك الكثيرين، ومع ذلك استمر العمل يسير ببطء وهو في حقيقته يسير بأسرع مما هو متوقع، والعائق الوحيد كان يكمن في الكثافة غير المعقولة للجراد.

وفكر أحمد فيما يفعل وقد أوشكت الشمس على البزوغ، فلم يجد أمامه سوى ما زودته به وزارة الزراعة من وسائل المكافحة، فعمد بسرعة إلى جلب نوع من المحلول يفتك بالجراد إذا ما رُشَ عليه، وكان يعرف تماماً بأن هذا المحلول لن يقضي إلا على الطبقة العليا من الجراد، الأمر الذي سيعيق طبقات الجراد الأخرى التي تليها عن الحركة وبالتالي عن الطيران فيتم جمعها.. وهكذا أخذ بمساعدة عدد من الفلاحين في رش السائل على الجراد الذي كان كلما غاصت قدماه فيه، أرسل هسيساً كصوت الهشيم، وأز أزيزاً غريباً كان يرسل القشعريرة في جسد أحمد الذي أخذت تتسلل إليه بعض أرتال الجراد فتعقصه هنا وهناك دون ألم يعتد به، وهو غير عابئ بكل هذا إلى أن أنجز مهمته وتمكن من حقيق هدفه بعد جهد كبير.

استمر جمع الجراد إلى ما بعد شروق الشمس، ونجحت عملية أحمد في إبقاء الجراد ساكناً، وكادت أن تتم كلها بنجاح، لولا أن بعض الفلاحين علاهم التذمر فجأة، فانصرفوا عن الجمع، مثيرين مشكلة دفن الجراد، ثم سرت العدوى بين سائر الفلاحين فتوقفوا بدورهم عن العمل، وأخذوا يتجمعون للغرض نفسه.

كان دفن الجراد، يعني بالنسبة للفلاحين سماداً جيداً لصاحب الأرض التي يدفن فيها، ومن هنا نشأ احتجاج الفلاحين الذين لم يدفن الجراد في أراضيهم التي يملكون فطلبوا المساواة، واختلفوا فيما بينهم، فهذا يريد كمية أكبر لأن أرضه أكبر، وذاك يطلب المساواة في التوزيع دون النظر إلى مساحة الأرض، وآخر يطلب حصته من الجراد ليبيعها لراغبيها من أصحاب الأراضي.. واشتد الخلاف، وكاد أن ينقلب إلى مشاجرة تلعب فيها الرفوش والمعاول دوراً كبيراً، لولا أن المختار حسم الموقف وطلب من الجميع أن يلحقوا به إلى النزول لحل النزاع.

ونظر أحمد بيأس إلى السهل الذي بدا في أكثر أجزائه نظيفاً من الجراد، ثم إلى الجراد الذي عاد للانطلاق وقد أحس بدفء الشمس، ليغطي من جديد المساحات التي تم تنظيفها، وليبدأ بالتهام ما لم يلتهمه حتى الآن.

* * *

-٣٠-

أدركت سعدية بعد الفضيحة التي فاحت روائحها في الحي حتى زكمت الأنوف، بأن عليها مغادرة الحي، والاختفاء عن عيون الجيران وأهل الحي الذين أخذوا يلوكون سيرتها، ويرفعون من شأن زوجها الذي حُكم عليه بالسجن لمدة عامين، لاعتدائه على الحارس وعلى فوزية، وحمدت الله على أن زوجها سجين، وأنها تستطيع خلال المدة التي سيمضيها في السجن أن تتدبر أمرها، وتجد لها مكاناً أميناً تنجو فيه من انتقامه .

وكانت طوال المدة التي استغرقتها المحاكمة قد سيطر عليها نوع من تبكيت الضمير، فخففت من ذهابها للماخور الذي افتتحته مع فوزية وقد عزمت على التوبة بعد تصفية أعمالها فيه، خاصة وأن الحادث الذي اعتدى فيه زوجها على فوزية ما زال ماثلاً أمام عينيها، يدفع إلى قلبها بنوع من الفزع لا تدري سببه، ولعل إدراكها أن زوجها لن يوفر دمها بعد خروجه من السجن، كان هو الدافع لهذا الخوف المسيطر على كل شيء فيها، وبدافع من هذا الخوف ومن المصير الذي ينتظرها على يدي زوجها، قررت التوبة، فأقنعت فوزية بإغلاق الماخور وتعللت بأن الغاية التي افتتحاه من أجلها، لم تعد تجدي بعد انسحاب أغلب القوات البريطانية إلى فلسطين، وبعد أن قلّ عدد الرواد.

كانت التوبة تشغل كل تفكيرها، والخوف من انتقام زوجها الهاجس الوحيد الذي يملأها رعباً، وكانت تقنع نفسها بأن المال الذي جمعته عن طريق الدعارة

يستطيع أن يؤمّن لها ولابنتها حياة كريمة تقيهما شر العوز، وأنها بهذا المال تستطيع أن تعيش بعيداً عن الحي وفي مكان لا يمكن العثور عليهما فيه.

وشيئاً فشيئاً، أخذ الهدوء يعرف طريقه إلى نفسها، فانزوت عن الناس مع ابنتها التي لازمت البيت منذ وقوع الحادث، وأصيبت بما يشبه الانهيار العصبي، وباتت لا تخرج إلا لماماً، سعياً وراء التوبة التي تقدمت من أجلها بعريضة تسترحم فيها المسؤولين في الشعبة الأخلاقية، أن يرفعوا عن اسمها الوصمة التي دفعت بها نفسها إلى الأبد، وعلى الرغم من قبول توبتها، والتحقق من إغلاق الماخور الذي عانت بسببه ما عانت، فإن إدارة الشعبة الأخلاقية، ارتأت وضعها تحت المراقبة فترة من الزمن لتتأكد من أنها فعلاً أقلعت نهائياً عن ممارسة الدعارة.

وإنصافاً لسعدية التي لم تكن لتستطيع إقناع أهل الحي بتوبتها، فإنها قررت عندما بلغت رسمياً، رفع اسمها من بين أسماء المومسات المحترفات، الانتقال من الحي، والانفصال عن زوجها بالطلاق، فتحلّه بذلك من العار الذي سربلته فيه، وتنجو هي بجلدها، غير أنها عندما عرفت بعد لأي من المحامي الذي استشارته ثم وكلته للترافع عن زوجها أن إجراءات الطلاق التي من هذا النوع تستغرق زمناً طويلاً قد يمتد حتى خروج زوجها من السجن، عاد القلق يغزوها بشكل عنيف في كنه المصير الذي ينتظرها على يديه، وأيقنت بأنها إذا ظلت في هذا البيت، ولم تهرب منه إلى مكان آخر أكثر أمناً، فإن انتقام زوجها لا بد أن يطالها مهما طال أمده.

وقلّبت الأمر على مختلف الوجوه، وفكرت في أن تزوره في سجنه، وأن تستعطفه، وأن تغريه بالثروة التي تملك، ولكن ما لبثت حتى استبعدت الفكرة كلها.. فهي تعرف زوجها تماماً، وتعرف ما ينطوي عليه، وهو لن يتحمل العار الذي لوثته به، ولن يجسر على لقاء أصدقائه أو مجالستهم أو التردد على المقهى أو مزاولة أي عمل قبل أن يصفي حسابه معها، وينفض يديه نهائياً

منها.. وهي متأكدة من ذلك، لأنها لا تستطيع أن تنسى صياحه في المحكمة وهو يصرخ فيها مهدداً ومتوعداً من أنه لن يهنأ له عيش قبل أن يشرب من دمها.

كان هذا الهاجس وحده كافياً لأن يجعلها تعجّل في الانتقال من الحي، ولكن! إلى أين تذهب، وأين تقطن؟! لقد فكرت طويلاً في الانتقال إلى حي ناءٍ بعيد، ولكن مجرد فكرة العثور عليها مصادفة، أو التعرف عليها من قبل أشخاص غير متوقعين، كان يقلقها ويفزعها وينسف الفكرة من أساسها.. أخيراً اهتدت إلى حل دفع إلى قلبها بالطمأنينة.. لقد قررت الانتقال ليس من الحي فقط.. بل ومن المدينة نفسها إلى مدينة أخرى لا يمكن فيها العثور عليها، كما لا يمكن أن تخطر على بال زوجها... ولكنها عندما استعرضت المدن كافة، وجدت ألف سبب وسبب لاستبعادها، ومع ذلك فإنها عندما فكرت في بيروت، توقفت عندها كثيراً، وأيقنت بأن خلاصها الحقيقي يكمن في نزوحها إلى هذه المدينة، إذ من سيجشم نفسه عناء البحث عنها في مدينة كبيرة كهذه..

وارتاحت لهذا الخاطر، وعزمت على أن تكاشف ابنتها في ذلك دون أن تسمي المدينة، لتبدأ معها حياة جديدة لا تنغصها موبقات الماضي التي تريد أن تنساها.

* * *

أصيبت سميرة، بعد الفضيحة التي جلجلت في الحي بصدمة كبيرة، إذ اعتبرت نفسها مسؤولة عن كل المصائب التي حلّت بها وبأبيها وأمها وبفوزية، ولو أنها عرفت بأن اعترافها سيجعل أباها يقيم الدنيا ويقعدها، لما باحت بشيء، ولصبرت على ضربه القاسي الذي أنزله بها، ولتحملت قسوته وغضبه، وها هي الآن بعد أن أضاعت كل شيء تلوم نفسها على ما جلبته من هموم وفضائح.. لقد أضاعت حتى الآن أباها، وحبيبها سعيد الذي أغلق نافذته في وجهها نهائياً علامة الاستهجان وعدم الرضا... سعيد الذي أقسم لها على الحب والوفاء

والإخلاص يدير لها هو الآخر ظهره أسوة بأهل الحي، لقد أملت في لحظة من لحظات اليأس أن يريحها من عذابها.. من أمها التي جلبت كل هذا الشر، وأن ينفح فيها القوة التي تحتاج لتجتاز هذه المحنة التي التهمت كل شيء حتى سمعتها رغم أنها لم تقترف شيئاً، ولكنه لم يفعل، وامتنع حتى عن شدّ أزرها في أحلك الأوقات التي مرت عليها، وترك الأمل الوحيد المتجسد في شمعته يموت في نفسها عندما أغلق نافذته وتوارى هارباً، ليتبدد آخر قبس لديها، كأن الذي كان بينهما حلم نامت عليه الليالي.

لقد آلت على نفسها عندما صدمت بعواطفها وبسعيد الذي لجأت إليه يائسة راجية ألا يتركها وحيدة، أن تلازم البيت فلا تخرج منه على الإطلاق، إذ ماذا بقي لها في الحياة، إذا كان سعيد بالذات رفض مد يد المساعدة بعد أن طردها بأدب؟!.

وعلى الرغم من قرارها بملازمة البيت، فإنها اضطرت للخروج منه، عندما استدعيت للتحقيق، واضطرت أيضاً لمرافقة أمها على مضض، وفي الطريق تعمدت أن تجعل بينها وبين أمها مسافة ليست بالقصيرة لتتجنب القال والقيل، ورغم حرصها هذا، فإنها لمحت من تحت منديلها الأسود بعض الناس يشيرون نحوها بإشارات، فهمت المعنى الذي رموا إليه، وسمعت أحدهم يقول عامداً متعمداً وصوته يخز خزاً في أذنيها:

- هذي بنت سعدية..

فتمنت لو أن الأرض تنشق وتبتلعها..

وفي التحقيق روت للمحقق الذي لمس الأبعاد النفسية التي تصطرع في ذاتها، كل ما تعرفه وهي تجهش في البكاء، فنصحها هذا، بعد أن وعدها بألاّ يستدعيها ثانية، بأن تلازم البيت كي تهدأ وتشعر بالراحة والطمأنينة.

ولكن الأمور لم تهدأ، بل تفاقمت في داخلها. حتى باتت تتصرف تصرفات غريبة نتيجة الضغط النفسي الذي تعاني منه والذي بلغ شأواً بعيداً،

وكانت كلما استعادت لياليها السعيدة مع سعيد، يسيطر عليها الشعور بالذنب سيطرة كبيرة، ويتملكها إحساس قوي بالخطيئة التي اقترفتها باستسلامها له، فهو منذ الفضيحة ومنذ استنجدت به باتت تدرك بأن سمعتها أصبحت في مهب الريح، وأن سعيد لن يوفرها، وإنما سيتباهى باستسلامها إليه أمام أصدقائه وغير أصدقائه. ومن هذه النقطة بالذات، ازداد الضغط النفسي الذي جعلها للمرة الأولى في حياتها تتبهرج وتجلس ساعات طوال وراء نافذتها لترقب منها نافذة سعيد، وكأنها مومس تنتظر صيداً، وكانت العلاقة مع أمها سيئة جداً.. كانت كالغريبة في البيت، إذا حدثتها بأمر من الأمور، هربت من وجهها أو لزمت الصمت، ولم تُجد محاولات الأم في دفعها إلى الكلام أو جرها للحديث. فقد كانت الأم في واد تبحث عن حل لمشكلتها القائمة على الخوف من انتقام زوجها، والبنت في وادٍ آخر، لا تفكر إلا في سعيد وما قد يجره عليها من ويلات، وكانت رغم هذا ما تزال متشبثة بالحب الذي ربط بينهما وكلها أمل في أن تستعيده في يوم من الأيام عندما تهدأ الأمور، وكانت لا تجد خلاصاً من ثرثرة أمها ومشاكلها، إلا بالانزواء في غرفتها، ومعالجة وجهها بالمساحيق التي سرقتها من خزانة أمها، والجلوس وراء النافذة بصبر.

لقد مرّ على الحادث أكثر من سنة، وعلي الحجار أوشك على الخروج من سجنه، والأم تسعى للحل، والبنت ترفض مجرد الحديث معها أو الاستماع إليها، وعندما استقر رأي الأم على النزوح إلى بيروت نهائياً، لم تجد بداً من مفاتحة ابنتها بخبيئة نفسها، حتى إذا نادتها ولم تلق رداً صعدت إلى غرفتها، وفتحت الباب عليها، لتجدها جالسة وراء النافذة وهي ترمق نافذة سعيد المغلقة، فقالت لها بشيء من الحنان:

- سميرة أريد أن أحدثك...

وأجابت سميرة للمرة الأولى منذ وقع الحادث:

- وأنا لا أريد أن أحدثك..

وقالت الأم وقد استأنست بصوت ابنتها الذي لم تسمعه منذ أمد بعيد:

- اسمعي يا ابنتي، أبوك سيخرج من سجنه قريباً، وهو عازم على الانتقام، وأنا لا أستطيع الانتظار حتى يقتلني كما هدد وتوعد..

- هذا شأنك.. وأنت التي جنيت على نفسك..

- تماماً.. ولا تعتقدي بأنه سيوفرك...

- أنا لم أفعل شيئاً..

- صحيح.. ولكنه سيفعل، والأحسن لنا أن ننتقل من هذا البيت ومن المدينة نهائياً .

- أنا لن أفارق البيت، وليفعل أبي ما يفعل..

- ولكن يا ابنتي!.

- أنا قررت.. وأنت حرة فيما تفعلين..

- ولكنك بهذا تحكمين على أمك بالموت..

وصمتت سميرة ولم تجب مباشرة وقد تنازعتها شتى العواطف ثم قالت:

- اذهبي وحدك.. يكفيني العار الذي أنا فيه..

- اسمعي مني يا ابنتي.. أنا أعترف بأني جنيت عليك.. وأعرف بأنك ستظلين عزباء طوال حياتك، ولن تتزوجي طالما أنت مقيمة في هذا البيت وفي هذا الحي..

ووقفت سميرة لتواجه أمها وقد لمع الغضب في عينيها:

- ومن قال لك بأني سأتزوج أو راغبة في الزواج.. أتظنين إذا أنا ذهبت معك سأنجو من الوصمة التي تحملين.. أو أجد أحداً يرضى بالزواج من بنت....

وغلبها البكاء قبل أن تنهي كلامها ثم أردفت من بين دموعها وهي تنتحب:

- يقولون عني بنت سعدية.. بنت سعدية..

وانهارت فجأة، وارتمت على أمها التي أخذت تقبلها وتحاول تهدئتها، وكما ارتمت على أمها وعانقتها فجأة، ابتعدت عنها وهي تصيح:

- لن أغادر هذا البيت، لن أغادره أبداً، ليقتلني أبي إذا شاء، وليفعل بي ما يريد، أما أنت فاذهبي حيثما تشائين.. لقد خربت البيت فماذا تريدين أيضاً..

- لا أريد شيئاً... اهدئي فقط ..

- لا تريدين شيئاً؟! أنا أعرف ماذا تريدين..

- تريدين أن تجعليني مثلك..

وفجأة فقدت الأم أعصابها، فانهالت على ابنتها بصفعتين متتاليتين، أدركت بعدهما أنها أخطأت، وأنها فقدت ابنتها نهائياً، لأن ابنتها التي كانت في أوج انفعالها صاحت بها وقد فقدت أعصابها:

- هيا اخرجي من هذا البيت.. هذا بيت أبي، ولا شأن لك فيه.. اخرجي منه ولا تعودي أبداً، ولو كان هو موجوداً لطردك منذ أمد بعيد..

- هكذا إذن.. تطردينني يا سميرة..

- أجل.. لا مكان لك بيننا.. ألا ترين مافعلت.. ألم يكفك ما فعلت.. تريدين أن تجني علي أيضاً..

- لا.. لا يا سميرة.. أريدك أن تعيشي حياة كريمة، وأن أنسيك كل هذه الأيام..

- كيف.. كيف! .

- بالمال الذي أملكه..

- بالمال الحرام..

- أجل بالمال الحرام.. إنه على كل حال من كدي وتعبي..

- ولكنه لا يستطيع أن يرد لي ولأبي ولك الكرامة والشرف..

أدركت سعدية عقم هذا الجدال، وأدركت أيضاً أن هناك هوة تفصل بينها وبين ابنتها، وأن الذل الذي تسربلها فيه ابنتها واقعي وحقيقي، وأن توبتها التي سارت منها شوطاً بعيداً مرفوضة حتى من ابنتها التي يضمها وإياها سقف واحد.. لقد أدركت أن التوبة لا تتم بالإقلاع عن الزنى فقط، وبرفع اسمها من بين أسماء المومسات، وإنما إذا قُبلت من الذين يعرفون الإثم الذي اقترفت، وعندما يعلن هؤلاء توبتها تصبح توبتها واقعاً مقبولاً حتى ولو كانت ما تزال تمارس الزنى.. لقد أيقنت الآن فقط ومن خلال حوارها مع ابنتها، بأن الكلمة الأولى والأخيرة، هي للمجتمع، والمجتمع ما زال يحكم عليها، فعليها والحالة هذه أن تختار إما بين حكم الحي وأهل الحي، وإما بحكمها النابع من توبتها الحقيقية..

وانتابتها الحيرة لا تدري ما تفعل، ثم ا نكفأت نحو الباب تريد مغادرة الغرفة حتى إذا فتحت الباب التفتت نحو ابنتها وأطلقت سهمها الأخير قائلة:

- ولكني تبت يا سميرة.. تبت إلى الله.. والله وحده يعلم أنني منذ الحادث وأنا على الصراط المستقيم..

ورفعت سميرة نحوها عينيها الدامعتين وقد عقلت الدهشة لسانها وكأنها تريد أن تتأكد مما سمعت، ثم قالت بعد لأي:

- أحقاً ما تقولين؟! .

- وهل ترينني أغادر البيت إلا لقضاء حاجات البيت..

- وكيف!.

- هذا أمر يطول شرحه..

- إذن لنذهب إلى أبي..

- وما عساه أبوك يفعل..

- سيغفر لك..

- أبداً.. أنت لا تعرفين أباك كما أعرفه.. والحل الوحيد هو أن أترك البيت.

- وإلى أين ستذهبين..

- لا أدري.. وبالمال الذي أملك سأستطيع أن أتدبر أمري..

- وأنا..

- إذا شئت! أنا على استعداد لاصطحابك معي..

- لا.. أنا لن أغادر بيت أبي..

- إذن ليس أمامي سوى الرحيل..

- وهل يطاوعك قلبك على مفارقتنا..

- يجب أن تعرفي يا سميرة، أن الحياة أثمن من كل شيء.. أريد أن أنجو بحياتي..

ولم تجب سميرة بشيء، فقد كانت أمها على حق، لأن أباها مصمم على قتلها حتى ولو اختفت تحت الأرض..

وقالت الأم وهي تغالب عواطفها وقد أخذت تبكي بحرقة:

- سأترك لك بعض المال كي تتدبري أمرك ريثما يخرج أبوك من السجن..

قالت هذا، ثم تقدمت فعانقت ابنتها عناقاً طويلاً، قبل أن تغادر الغرفة والبيت نهائياً.

* * *

-٣١-

دخل قاسم المقهى المكتظ برواده، فرهوا بملابسه، واندفع مباشرة نحو زملائه وهو يقول قبل أن يتخذ مجلسه:

- البلد قائمة قاعدة، والاضطرابات والمظاهرات على قدم وساق، والشرطة والدرك تساعد الأهالي وتحميهم في تصديهم للفرنسيين، ونحن في هذا الحي لم نفعل شيئاً حتى الآن..

- الله يوفقهم ويأخذ في يدهم..

قال ذلك الشسيخ سعدو بينما تابع قاسم:

- يبدو أن الحكومة من وراء إضرابات الطلاب ومظاهرات الأحياء المسلحة.

فرد عليه المختار وهو يزيح نربيش أرجيلته عن فمه:

- حسبتك أتيت بجديد.. هذا كله معروف..

وفجأة، هتف الشيخ سعدو الذي ظهرت على وجهه علامات الاستغراب وهو يشير إلى ملابس قاسم:

- ما هذه الملابس التي ترتديها.. أتطوعت في الجيش الفرنسي؟!

فرد قاسم ساخراً:

- هذا الذي ينقصني.. التطوع في الجيش الفرنسي..

- والملابس؟!.

- من عند الحكومة..

فقال المختار متسائلاً:

- من عند الحكومة؟! ومتى كانت الحكومة توزع الملابس؟!.

وقبل أن يجيب قاسم على تساؤل المختار، قال الشيخ سعدو بإصرار:

- هذي ملابس عسكرية. وأنت حتى الآن لم تروِ لنا لمَ ترتديها..

وضحك قاسم مداعباً زملاءه ثم قال:

- لقد تطوعت في جيش الحكومة..

وهتف أبو دياب دون اقتناع:

- أي جيش هذا.. ومتى كان للحكومة جيش، دعك من السخرية بنا..

وأكد المختار تساؤل أبي دياب بقوله:

- الحكومة لا تملك سوى قوات الشرطة والدرك، فمن أين جاء هذا الجيش الذي تتحدث عنه؟!

- اسمعوني جيداً.. الحكومة كما يبدو جادة هذه المرة في التخلص من الفرنسيين، وقد فتحت باب التطوع على مصراعيه، لمن يريد قتال الفرنسيين وطردهم من البلاد.

وصاح الجميع بابتهاج، لفت أنظار رواد المقهى إليهم بينما قال المختار وهو يصفق منادياً النادل:

- هذي بشرى تستحق الاحتفال بوجبة جديدة من الشاي، ولكن قل لي؛ أين يتم التطوع؟!.

- في القلعة.. اذهبوا وتفرجوا فقط.. شبان وكهول وطلاب وفتيان، وحتى النساء أقبلن على التطوع.. شيء لا يمكن وصفه.. لقد انقلبت القلعة وساحتها إلى خلية نحل، وكل إنسان يزاحم الآخر على التطوع..

فقال الشيخ سعدو ووجهه يطفح بالحبور:

- سأذهب غداً بعد صلاة الفجر لأتطوع..

فقال له المختار وقد حبكت النكتة معه:

- وهل ستتخلى عن الجبة يا شيخ سعدو؟!.

- وعن اللفة أيضاً، إذا ما دعا داعي الجهاد، إذ لا أحبُّ إلى نفسي من قتال هؤلاء الفرنسيين الذين أذاقونا المر، والاستشهاد في سبيل الله والوطن..

- بارك الله فيك يا شيخ سعدو..

قال ذلك أبو دياب ثم أردف مستفسراً:

- قل لي يا أخ قاسم، هل يقبلون بي؟!.

- ولم لا يا أبا دياب.. لأنك إذا تطوعت فستعمل في مهنتك التي تجيدها..

- وهل سأرتدي مثل الزي الذي ترتديه؟!.

- طبعاً وسيزودونك ببندقية إنكليزية أيضاً، كما زودوني..

فقال المختار باهتمام:

- إذن القضية جد..

- طبعاً.. والحكومة تتصرف تصرفاً وطنياً للمرة الأولى منذ استلمت الحكم..

قال الشيخ سعدو، وقد وجدها فرصة مناسبة ليدس على جماعة قاسم والأستاذ:

- وما رأي جماعتك في موقف الحكومة؟!.

وفهم قاسم ما يرمي إليه الشيخ سعدو فأجاب بهدوء متجاهلاً الاستفزاز:

- موقف المعلم والجماعة لم يتغير بالنسبة للحكومة، غير أنهم درسوا الوضع من جميع وجوهه، ورأوا أن الواجب الوطني في هذه المرحلة، يدعو إلى توحيد صفوف الأمة، فأوعزوا لجميع أعضاء حركتهم بالتطوع فوراً، واعتبروا كل متخلف عن أداء هذا الواجب خائناً لوطنه..

- وهل تطوع المعلم؟! .

- كان على رأس المتطوعين، ولم يبق فرد واحد من أعضاء الجماعة لم يقبل على التطوع.. وقد باشروا منذ صباح هذا اليوم بالتدرب على استخدام السلاح شأنهم في ذلك شأن المواطنين الذين تطوعوا..

وانفرجت شفتا الشيخ عن ابتسامة رضية وقال بابتهاج:

- بورك فيكم جميعاً.. حقاً هذا المعلم جدير بالتقدير، وأعترف بأني ظلمته..

وأعقب المختار على قول الشيخ سعدو قائلاً:

- عفا الله عما مضى..

- والإنكليز..

هتف أبو دياب ثم أردف:

- والإنكليز.. هل سنتركهم يسرحون ويمرحون، أم علينا مقاتلتهم كالفرنسيين تماماً..

- لقد درست جماعتنا الموقف، وارتأوا السير بخطة الحكومة التي تقضي بتوجيه المقاومة حالياً ضد الفرنسيين، لأن فرنسا هي الدولة المستعمرة باسم الانتداب..

- والإنكليز، أليسوا محتلين أيضاً..

- أجل.. ولكنهم كما تزعم الحكومة سينسحبون، وبالفعل انسحب الجزء الأكبر من جيشهم إلى فلسطين والأردن، ولم يبق من قواتهم سوى حاميات لا يعتد بها..

وقال الشيخ سعدو:

- علمنا التاريخ، وقصص التاريخ أنه ما من جيش دخل بلداً ما، وخرج منه من تلقاء نفسه..

- عظيم يا شيخ سعدو.. عظيم..

قال ذلك قاسم ثم أردف بحرارة:

- وهذا الأمر هو الذي شغل تفكير المعلم والأساتذة، وهو بالذات الذي جعلهم يشككون بموقف الحكومة، خوفاً من أن تستبدل استعماراً بآخر..

فقاطعه المختار قائلاً:

- لقد ذهبتم بعيداً.. خطة الحكومة سليمة ولا غبار عليها..

- إذن لمَ شجعت التجار على إهداء بريطانيا سرباً من الطائرات الحربية.

- على مذهب أطعم الفم تستحي العين..

- وهل للاستعمار عين.. إن له شدقاً يبتلع فيه كل شيء، أم تراكم نسيتم مصر والعراق وفلسطين والأردن!.

فهز الشيخ سعدو برأسه موافقاً وهو يقول:

- هذا صحيح وأيم الحق..

فضحك المختار وقال مخاطباً الشيخ سعدو:

- ما هذا يا شيخنا أراك أصبحت من جماعة الأستاذ..

فرد الشيخ سعدو مباشرة:

- أتريد الحق يا مختار.. أرى أنهم على حق.. والحق لا تأخذنا فيه لومة لائم. وأنا، وكونوا شهوداً عليّ، إذا كانوا على هذا القدر من الوعي، فسأكون داعية لهم إن شاء الله..

ولم يكد قاسم يسمع كلامه هذا حتى هبَّ واقفاً، واندفع نحو الشيخ سعدو يعانقه ويقبله بينما قال أبو دياب مداعباً:

- يا سلام.. ونحن ألا نستحق شيئاً من هذه العواطف، أم أصبحنا غرباء بالنسبة إليكما..

- معاذ الله يا أبا دياب.. أنت والمختار والشيخ سعدو في قلبي ونفسي، والله وحده يعلم مقدار الحب الذي أكنه لكم..

وضحك المختار ثم قال:

- خلّونا في المهم!.

- هات ما عندك يا مختار..

قال ذلك الشيخ سعدو وهو في غاية الانشراح بينما استأنف المختار قوله:

- تصوروا، أنا مختار هذه المحلة الطويلة العريضة، وحتى الآن لم أبلغ بفتح باب التطوع..

فرد قاسم مفسراً:

- الأحداث تتتالى بسرعة يا مختار، والإذاعة تحت سيطرة الفرنسيين، وتبليغ المخاتير ووجهاء الأحياء يتطلب وقتاً، وعلى هذا، لم تجد الحكومة وسيلة أسرع من نشر كل ما يتعلق بالتطوع سوى الصحف، فأوعزت إلى الصحف الموالية والمعارضة على حد سواء بالنشر، وفي اعتقادي بأنك ستتبلغ أنت وكل المخاتير رسمياً صباح غد.

وبغتة نهض المختار عن مقعده قائلاً:

- لن أنتظر حتى الغد..

ثم صاح مخاطباً رواد المقهى كرجل مسؤول عن الحي:

- يا شباب.. يا شباب.. أعيروني انتباهكم لحظة..

وسكت منتظراً الهدوء، حتى إذا ساد السكون، ورأى عيون الناس تتطلع إليه متسائلة هتف بحماس:

- يا شباب.. الحكومة فتحت باب التطوع في القلعة، لمن يريد مقاومة الفرنسيين، فمن يرى في نفسه القدرة على الجهاد، فما عليه سوى التوجه غداً صباحاً إلى هناك، كما فعل صديقنا وحبيبنا قاسم، وأنا من جهتي كمسؤول عن هذا الحي، سأكون أول المتوجهين للتطوع مع الشيخ سعدو..

وقاطعه أبو دياب صائحاً:

- وأنا أيضاً.. وأنا..

وساد المقهى نوع من الصخب البهيج، وانهالت الأسئلة على قاسم والمختار، والجميع يستفسر وقد استولى عليهم فرح كبير للخبر، وحتى أولئك الذين كانوا في شك دائم من موقف الحكومة على الرغم من بساطة وعيهم، تعاهدوا على التطوع.

وخلال الصخب الذي ساد المقهى، وعلت فيه الأهازيج الحماسية على كل شيء، دخل المقهى بائع للصحف، لم يعبأ كثيراً بما كان يدور حوله، وإن استوقفته الأهازيج الحماسية بعض الشيء، ومن ثم انطلق ينادي بأعلى صوته على العناوين البارزة في الصحف التي يحمل محاولاً الوصول بصوته إلى كل إنسان في المقهى:

- إعلان الحرب على المحور.. سورية تعلن الحرب على دول المحور اليوم.. معنا القبس والأيام.. فتح باب التطوع في القلعة.. معنا الشعب والأخبار وفتى العرب.. والتقطت آذان الرواد الصاخبين العناوين بين مكذب ومصدق، فران الصمت عليهم ليستشفوا شيئاً من بائع الصحف الذي خافت من صوته، محاكياً الهدوء الذي ساد فجأة دون أن يتوقف عن النداء والانتقال بين الطاولات، ووضع الصحف أمام أعين الجالسين والواقفين وهو يردد باستمرار وبآلية اعتادها:

- معنا ألف باء والقبس.. إعلان الحرب على المحور.. سورية تعلن الحرب على المحور.. وتهافت بعض الرواد على شراء الصحف وكلهم لهفة ليفهموا كيف أعلنت سورية الحرب على دول المحور، ولماذا؟! وهي ما تزال دولة منتدبة على الرغم من الاستقلال الصوري الذي منحه إياها الجنرال كاترو.

وفجأة جلجلت ضحكات اختلطت بسعال شديد كاد يختنق به أحد الموظفين المسنين وهو يصيح من بين سعاله:

- يا سلام.. الله يعين ألمانيا علينا..

وصاح آخر:

- هذي آخر نكتة.. مجنون يحكي وعاقل يسمع..

وقال ثالث وقد أغرق في الضحك:

- التطوع إذن لمحاربة ألمانيا..

* * *

أثار إعلان الحرب على دول المحور، موجة استياء.. والناس يعرفون أن سورية لا ناقة لها ولا جمل في هذا الأمر، وهي ما تزال محكومة ببنادق الجيش الفرنسي، غير أن الواعين لمعنى إعلان الحرب، كانوا يعرفون أنه شرط من شروط عضوية الدول المستقلة حديثاً لقبولها في هيئة الأمم المتحدة التي تأسست حديثاً، والتي تنادى إلى تأسيسها زعماء الدول المحاربة الكبار، الذين أدركوا أن الحرب أوشكت على الانتهاء، وأن عامل الزمن وحده هو القمين بإنهائها، لتكون هذه الهيئة الجديدة بديلاً عن عصبة الأمم التي تأسست في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وعلى كل حال، فإن إعلان الحرب على دول المحور، قوبل بسخرية من الناس، بعد أن أثار موجة عارمة من التهكم على الحكومة التي ظهر ضلوعها جلياً مع بريطانيا، مذ قام التجار الكبار بإهدائها سرباً من الطائرات الحربية كمشاركة من سورية في الحرب ضد دول المحور.

* * *

-٣١-

حنَّ أحمد وهو في مركز عمله المنعزل في قلب الغوطة، إلى دمشق، وإلى أسرته وإلى أم إبراهيم بالذات وابنتها هيام. غير أن شوقه إلى أحضان أم إبراهيم وتوقه إلى مضاجعتها، فاق كل حنين آخر، وكان كلما انتهى من عمله، وانفرد بنفسه تتداعى أمام مخيلته كل ضروب المضاجعة التي كانت تتفنن بها أم إبراهيم، والتي كانت تدفع إلى فمه وحلقه بالجفاف.

لقد مضى عليه، وهو في هذه القرية الهادئة الوادعة قرابة الشهر، ولم يبق من آثار الجراد فيها سوى النزر اليسير. وخلال هذه المدة التي ارتبط فيها مساءً بحلقات الذِّكر الرفاعية، وبصداقات متينة مع أهل القرية الطيبين، لم تكلف وزارة الزراعة نفسها بالسؤال عنه، أو عن عمله، وإن كانت ترسل له المواد التي

يحتاج إليها في عمله، مع رجال الدرك، الذين كانوا يؤمون القرية على خيولهم بين الحين والآخر لتفقد أمنها وأوضاعها، ولكتابة تقاريرهم عن سير مكافحة الجراد في حقولها وبساتينها. لقد علم من هؤلاء بأن وزارة الزراعة رسمت له أجرة يومية مقدارها خمس ليرات، أسوة بجميع الذين استخدمتهم من طلاب وعمال، فأحس عند ذاك بفرح غامر. وهو يحسب سرعة ما له بذمة وزارة الزراعة من أجور، وما سيقبضه في المستقبل فيما إذا امتدت أعمال المكافحة حتى نهاية الصيف.

وكان يلتقي بين الفينة والفينة بصديقه عدنان، فيتحدثان عن غربتهما وعن شوقهما إلى لقاء أسرتيهما والأصدقاء، وعن المدرسة والدراسة، وكان أشد ما يحزنهما عدم معرفتهما بما يجري في دمشق من أحداث. وكانت الأخبار المبتورة التي يرويها الفلاحون الذين يذهبون صباحاً على دوابهم إلى الشام ويعودون في المساء، لا تروي غليلهم ولا تطلعهم تماماً على حقيقة ما يجري، فاتفقا على مغادرة القريتين اللتين يعملان فيهما، فيقبضان أجورهما من الوزارة، ويزوران أسرتيهما ثم يقفلان عائدين إلى عملهما في اليوم التالي. وهكذا استعارا حمارين قادهما لهما ذات صباح صبيان يعرفان مسالك الطريق إلى دمشق. فركب الصبيان حماراً، وامتطى أحمد وعدنان الحمار الآخر، وهما يستحثانه الإسراع ولم يبدأا السير بعد، بينما أخذ الصبيان يضحكان بمرح من طريقة أحمد وعدنان في ركوب الحمار وفي قيادته التي لم يعرفاها قبلاً.

كان الطريق الترابي الضيق الذي انطلق فيه الصبيان اللذان تقدما أحمد وعدنان، يخترق الحقول والبساتين بأشجارها الكثيفة العارية، ويكشف في الوقت ذاته عن عمق المأساة التي أحدثها الجراد، وكان التناقض واضحاً بين الأشجار الجرداء من كل شيء، والحقول الخضراء التي سلمت من الجراد بأعجوبة، والتي كانت في جلّها مزروعة قمحاً وشعيراً وبقولاً، وتتيه خيلاء بسيقانها التي كانت تتماوج وفق حركة نسيم الصباح الفاتر الحركة. وكان منظر أشجار المشمش والجوز والخوخ والدراق والأجاص والتفاح وغيرها من الأشجار المثمرة

مريعاً، وكأنها خارجة من عالم غريب لا ينتمي إلى أي عالم، أو أنها احترقت بصقيع الشتاء، فبدت حزينة مقهورة لأنها لم تستطع أن تمنح الإنسان عطاءها الذي اعتادته. وكان يُرى على البعد، هنا وهناك، عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا يرقبون بأسى ما آلت إليه أحوال بساتينهم، ويحاولون إنقاذ ما يستطيعون إنقاذه دون أمل بالوسائل التي يتقنون.

قال عدنان وهو ينظر باستغراب إلى الحقول الخضراء:

- يبدو أن الجراد لم يطأ هذه المنطقة..

فرد أحمد:

- كيف.. والأشجار..

فتدخل أحد الصبيين شارحاً وهو يضرب خاصرتي حماره بقدميه ليسير بسرعة أكبر:

- لم تكن قد نبتت.. ولكنه غرس أكياسه فيها!.

ولم يفهم عدنان وأحمد شيئاً، ولكن هذا الأخير سأل الصبي مستفسراً:

- ماذا تعني؟!.

- أعني، الحقول.. لم يكن الزرع قد نبت فيها تماماً عندما حطَّ عليها الجراد، ولكنه غرس أكياسه فيها..

- تماماً..

هتف عدنان، وكأنه وقع على اكتشاف هام، ثم تابع يوضح لحمد:

- كما قرأنا في التاريخ الطبيعي، كل جرادة تغرس جراباً يحتوي على ثمانين سرفة... ولا تلبث هذه بعد فترة حتى تتحرك، فتخرج إلى سطح الأرض لتبدأ بالتهام كل شيء..

- تعني الجراد الزحاف!.

- تماماً، وسمي زحافاً لأنه لا يستطيع الطيران في بداية الأمر..

- وهذا أخطر من الجراد الذي عملنا على تنظيف الحقول والبساتين منه..

ونظر أحمد إلى الحقول الخضراء التي انتثرت هنا وهناك فبدت له من خلال قطعات الأرض السمراء والحمراء المحيطة بها والتي لم تزرع أو التي التهمها الجراد كأنها بُسُطٌ سندسية ألقيت بين تلك البقع الجرداء اتفاقاً. فقال وهو يتابع نظرات صديقه غير المستقرة:

-هل يمكنك أن تتصور منظر هذه الحقول، إذا ما خرج إليها الجراد الزحاف، وباشر زحفه..

فأجابه عدنان وهو يلكز الحمار بمؤخرتيّ قدميه:

-هذا يعني أن عملنا لم ينته!.

-بل قل، إنه لم يبدأ..

وكان الصديقان والصبيان والحماران قد أصبحوا في الطريق العام الذي يقود مباشرة إلى دمشق، فبدا لهم موحشاً على الرغم من رحابته، وكانت فروع وأغصان الأشجار الممتدة على طرفي الطريق بعريها القاسي لا تسمح للظل بأن يسرح ويمرح كما كان يفعل عندما كانت تلك الأشجار تنوؤ بأوراقها وثمارها، وكانت الشمس هي الشيء الوحيد الذي كان يزيد من لظى الطريق وطوله، والذي جعل العرق يتصبب من الجميع على الرغم من الربيع الذي تحداه الجراد في أن يستضيء بزهرة برية واحدة.

وأشرف الركب أخيراً على الباب الشرقي لدمشق، فودع الصديقان الفلاحين الصغيرين اللذين انطلقها على حماريهما في طريق العودة لا يلويان على شيء، بينما انصرف الصديقان إلى ما جلباه معهما من أكياس اللبن وسلال البيض، فتعاونا على حملها، ثم توجها نحو منزليهما، فاخترقا حي القيمرية القريب، ليدلفا بعد ذلك وهما يغذان السير نحو باب الجامع الأموي المجاور لمقهى النوفرة، وعندما وجدا صعوبة في خلع حذائيهما، وهما يحملان ما يحملان، من أجل دخول المسجد لاختصار المسافة، دارا حول المسجد، فاجتازا (القباقبية) واتفقا

وهما يمران بمحاذان (سوق الصاغة) إلى (القوافين) على أن يذهبا مباشرة، بعد رؤية أسرتيهما إلى وزارة الزراعة، لقبض أجورهما واستطلاع الأمر بالنسبة لعملهما، وكانا قد وصلا إلى قمة (المسكية) وهما ما زالا في حوارهما ونقاشهما، ويحاولان في أثناء ذلك تجنب الناس المسرعين الذين بدوا في حالة غير عادية، وقد انتبها فجأة بأن (المسكية) والأسواق القريبة المتفرعة عن سوق الحميدية لم تباشر أعمالها.. فأدركا على الفور، بأن ثمة أمور تجري في مدينتهم الحبيبة، فحثّا خطواتهما باتجاه حي السبع طوالع دون أن يلقيا بالاً على المكتبة الظاهرية التي اعتادا التردد عليها في بعض الأحيان، وقد أشرقت على شفتيهما ابتسامات الفرح لتواجدهما من جديد في حيّهما الذي حسبا بأنهما غابا عنه سنوات طويلة. وعندما أشرف أحمد على بيته صاح بصديقه:

- انتظرني في البيت، سأوافيك حالاً..

* * *

كانت فرحة هيام لا توصف عندما شاهدت حبيبها أحمد من نافذة الغرفة الوحيدة، حاملاً في يدٍ كيساً من اللبن، وفي الأخرى سلة من البيض. وما كاد يستقر به المقام في الغرفة، ويضع ما يحمل قرب الباب، حتى انتابه الارتياع على الرغم من اللقاء الحافل الذي استقبلته به هيام، فهيام التي كانت تتحامل على نفسها أمامه، غير هيام التي تركها منذ شهرين.. كانت تسعل بشدة، وتكح بين أسئلتها وكلماتها، وعندما توسط الغرفة، ارتمت على صدره وأخذت تبكي وتردد كأنها امرأة قد اكتمل فيها كل شيء..

. سأموت حتماً.. إن لم يكن من هذا السعال، فمن الوحدة القاتلة التي أعاني.. واحتار فيما يجيب ويفعل، ولم يجد أمامه سوى أن يهدئ مما يعتمل في نفسها، فقال وهو يقودها نحو مقعد النافذة:

- لن تكوني وحدك بعد اليوم!.

غير أنها تابعت دون أن تستوعب كلماته:

- حتى أخواي الصغيران، ذهبت بهما أمي إلى عمتهما.. لقد كانا تسليتي الوحيدة.. كانا يرفهان عني.. آه كم أنا في شوق إليهما.

وأدرك أحمد أن أم إبراهيم نأت بطفليها خوفاً عليهما من العدوى فسألها:

- وأمك؟!.

- مثل عادتها، تذهب صباحاً إلى عملها الذي تعرفه ولا تعود إلا مع أذان العصر..

- والجيران؟!.

- لا أحد.. لا أحد.. أكاد أجن.. أنت الوحيد الذي دخل هذه الغرفة مذ رحلت..

- والطبيب، ألا يعودك؟!.

- جاء مرة واحدة مع الشيخ سعدو، وكتب أدوية جديدة لم أستفد منها..

- وكيف؟!.

- لا أعرف.. وكل الذي أدركه الآن، بأني سأموت حتماً، إذا ابتعدت عني ثانية..

وعلا صياح عدنان في تلك اللحظة منادياً أحمد، فتساءلت هيام:

- هل ستذهب؟!.

- لن أغيب طويلاً.. إلى الوزارة لأقبض أتعابي، وسأعود فوراً..

- أرجوك يا أحمد، لا تتأخر.. لا تتركني وحدي..

فردّ عليها وهو يفتح الباب:

– مسافة الطريق..

* * *

لم يعِ أحمد، كيف وصل إلى وزارة الزراعة، ولا كيف قبض أجوره، ولا كيف مَثُلَ مع عدنان، أمام المسؤول المباشر عن المكافحة، الذي أمرهما بالالتحاق فوراً بمركز عملهما الجديد في قرية المليحة للإشراف على المكافحة

في القرى التابعة لها.. أجل لم يعِ أحمد كل هذا تماماً، إذ اسودّت الدنيا أمامه مذ خرج من عند هيام، وبدا له كل شيء قاتماً بغيضاً، وحتى عندما خرج من الوزارة وغدا في الشارع، ظلَّ الانقباض مسيطراً عليه، رغم الفرح الذي كان يحلق بصديقه والذي جعله يهتف بأحمد وهو بمنتهى السعادة:

-لقد أصبحنا مشرفين على المكافحة في منطقة المليحة..

ولم يعبأ أحمد بثرثرة صديقه، ولا بمرحه الذي تجلى في حركاته، كذلك لم يشأ إزعاجه بما يعتمل في نفسه، وإن وافقه على العودة السريعة إلى البيت، ولكن عدنان لم يتوقف عن الكلام:

-تصور.. لقد رفعوا أجورنا إلى سبع ليرات يومية..

ولم يجبه أحمد بشيء، وبدا وكأنه في غربة عن صديقه بعد أن أحاط نفسه بعزلة حقيقية، وانطلق في متاهات الأفكار التي كانت تضج في رأسه والتي كانت تقوده إلى المأساة المتربصة بهيام التي شعر فجأة باستيقاظ عاكفته الهاجعة التي خيّل إليه أن أم إبراهيم قد امتصتها، وحاول وهو يسبر الواقع المؤلم أن يقصي عن رأسه توسلاتها ونواحها على مصيرها فلم يستطع.. كانت كلماتها تدوي في أذنيه بقوة، وملامحها الفاجعة تحفر في نفسه أخاديد لا نهاية لها، وإيمانها بقهر الموت من وراء بقائه بجانبها يزيده يأساً، ووعده الذي قطعه لها بالبقاء إلى جانبها والذي لا يستطيع تنفيذه يغمره بالألم.. وأحس بالدموع تندفع إلى عينيه، وبرغبة قوية في البكاء، ولكنه منع دموعه من الانسياب بكل ما يملك من إرادة كي لا يبدو ضعيفاً أمام صديقه الذي نصحه بالابتعاد عنها قائلاً:

-أم إبراهيم نفسها، وهي أمها، هرَّبت ولديها بعيداً عن ابنتها، فماذا تريد أكثر من ذلك؟!.

قال عدنان وهو يحدث صديقه الشارد عنه:

- لقد خدمتنا تقارير الدرك عن سير المكافحة، وهي وحدها التي جعلت دائرة المكافحة تنيط بنا أمر الإشراف على المكافحة في مركز المليحة..

ولم يستوعب أحمد شيئاً مما قاله صديقه ولكنه وافقه بكلمة واحدة:

- صحيح..

ثم عاد إلى دياجير نفسه، كان هو في وادٍ وصديقه في وادٍ آخر، وكان لا يشغله حتى تلك اللحظة سوى أمر هيام ومرضها ووعده لها، ولكن هل يضمن هذا الوعد بقاءها على قيد الحياة.. هل يمنع عنها المصير المحتوم الذي شعر به جلياً واضحاً في عينيها وجسدها وفي كلماتها الكبيرة عن الموت.. أبداً.. ومع هذا فهي تؤمن بذلك.. إنه بالنسبة إليها الأمل الوحيد الذي تتشبث به لتصارع الموت.. أجل إنه ليس سوى أمل سيحتضر في نفسها يوماً بعد يوم بل ساعة بعد ساعة كلما أوغل المرض في التهامها..

وبرق في ذهنه وهو في أوج يأسه وأساه، خاطر أخذ ينحو شيئاً فشيئاً: ماذا لو ساعدها بهذا الأمل.. ماذا لو دفع إلى قلبها بأمل رؤيته؟! إنه كما قالت: أملها في الحياة، لا تعيش إلا من أجله، وطالما تعيش على هذا الأمل، فماذا لو جعله يقيناً ليتفاعل في نفسها، فتقاوم مرضها ولو إلى حين على أمل أن تراه!

وارتاح لهذه الفكرة فدعّمها قائلاً بصوت لا يكاد يسمع: وأنا لن أتوانى عن الهرب من مركز عملي مرة في الأسبوع على الأقل لتراني.. وتوقف ثم أردف: لتراني فقط.. وأنا لا أرغب في رؤيتها؟!.

ولاحت له أم إبراهيم عارية مشرقة شهية تدعوه إليها، فلم تحرك في نفسه شيئاً، وهو الذي لم يفكر في مغادرة القرية إلى دمشق إلا رغبة منه في مضاجعتها..

لقد تحرر منها إذن.. إنه لهيام وهيام له، حتى ولو فرق الموت الكريه بينهما. وشعر بنوع من الارتياح يغمره، وبأنه مقبل على مهمة صعبة مع هيام،

وأن عليه إذا أراد ألا يخسر عمله الذي يجب أن يلتحق به صباح الغد، أن ينجز أموره فوراً..

كان الصديقان قد وصلا في تلك اللحظة إلى ساحة الشهداء، فوقفا على الرصيف الذي تنهص عليه الساعة. وكان أحمد يعي طوال الوقت أين يسير دون أن يهتم بما يجري حوله، فلكزه صديقه بكوعه قائلاً:

- بدو أن الأمور ليست على ما يرام!.

وارتد أحمد إلى نفسه، وقال وهو يكنس ساحة الشهداء بنظراته:

- هو ما تقول.. ترى ماذا يجري؟!.

- علمي علمك..

كانت ساحة الشهداء شبه مقفرة، وقلة من الناس تجتازها مسرعة، وبردى ممتلئ صحة وعافية، والمياه العكرة تتدفق من المسارق الأربعة معجلة، والأفق البعيد يبدو من المكان الذي وقفا فيه عند حاجز النهر عميقاً وصافياً، وثمة أصوات تهدر من بعيد خلفهما، فاستدارا وأصاخا، فلم يكتشفا شيئاً، وخلت الساحة فجأة من كل شيء، حتى من الحافلات، وبرزت بغتة من زقاق رامي ثلة من الجنود بخوذاتها اللامعة وأسلحتها البراقة، تمركز عدد منها عند (إكسبريس نحاس) بينما توجه القسم الأكبر نحو مقهى سوق علي باشا لتتمركز عند دائرة البريد..

وهتف عدنان:

- لنعد أدراجنا..

وتوجها فوراً باتجاه دار الحكومة (السراي) فشاهدا عشرات من رجال الشرطة والدرك المدججين بالبنادق، والمتمنطقين بالتروس والهراوات قد أحاطوا بالسرايا وحديقتها وبدائرة الشرطة..

وصاح أحمد:

- علينا بدرج دائرة عين الفيجة..

وعندما أخذا يصعدان الدرج، كانت الأصوات الهادرة قد أخذت تصلهما من بعيد واضحة نوعاً ما وهي تردد:

هبوا على الخصم اللدود

وتوقف عدنان وهو يصيخ مبتهجاً ثم هتف:

- إنها مظاهرة، وهي قادمة حتماً من قلب العمارة..

وقال أحمد يستحث صديقه:

- لنسرع إلى البيت قبل أن يصيبنا ما نكره!.

فرد عدنان متعجباً:

- أراك قد تغيرت! هل نسيت كيف كنا ندير الإضرابات والمظاهرات في المدرسة؟!.

- لا.. لم أنس، ولكن الأمر الآن مختلف، ومحفوف بالمخاطر..

- إذن علينا أن نلتحق بالمظاهرة..

- وكيف!.

- سنجد وسيلة ما!.

- كيف؟!.

- نجتاج شارع جمال باشا إلى (الزرابلية) فنلحق بالمظاهرة في شارع الملك فيصل..

- هيا بنا إذن..

وتسلقا ما بقي من درج عين الفيجة، ليجدا نفسيهما قد توسطا شارع جمال باشا، فتريثا لحظات، كانت كافية، ليدركا بأن الشارع المقفر من الناس لا يقل خطراً عن ساحة الشهداء وليكتشفا أيضاً بأن المخازن القائمة على ضفته الواحدة بما فيها المقهى مغلقة تماماً، وإن مقهى الحجاز شاغر بدوره من رواده، والمصفحات الفرنسية اتخذت لها مواقع عند نواصي الشارع، وعند الثكنات الثلاث التي تحتل المنطقة القائمة بين شارع خالد بن الوليد ودائرة الهاتف الواقعة

عند مدخل القنوات، والتي كانت آنذاك تعج بالجنود. وكانت أولى هذه الثكنات المتاخمة لشارع خالد بن الوليد تعرف باسم ثكنة المغاربة لاقتصارها على جنود من مراكش والجزائر وتونس المستعمرة كلها من قبل فرنسا، والثكنة التي تليها والتي نُصب على طرفي بوابتها مدفعان فوق كل واحد منهما قنبلة مستديرة الحجم، خاصة بجنود فرنسيين من الهند الصينية، عرفت باسم ثكنة المدفعية أو ثكنة (الأندوشينوا) وتجاور هذه الثكنة ثكنة ثالثة تمتد حدودها حتى دائرة الهاتف، ويقيم فيها السنغال من سلاح المشاة..

وتساءل أحمد:

- لمَ لمْ يتظاهر الطلاب اليوم؟!.

- لا أدري.. في العادة نحن الذين نقود الشارع..

- ربما لم يتمكنوا من الخروج، بسبب الحصار القوي الذي يضرب عليها في مثل هذه المناسبات!.

- أو خرجوا، وانفرط عقدهم..

- مستحيل..

وبتر نقاشهما جندي أشار عليهما بالانصراف، فحار الصديقان ما يفعلان، واستبعدا فوراً فكرة العودة إلى الوزارة، ولم يجدا أمامهما في نهاية الأمر سوى التوجه نحو (الزرابلية) بمنتهى الهدوء، وإن لفتت انتباههما هتافات بعيدة غير مفهومة قادمة حسب تقديرهما من شارع الملك فؤاد..

وقال أحمد:

- إنها مظاهرة أخرى، مصدرها الصالحية على الأرجح..

- لا.. التجهيز الأولى..

- لا أعتقد..

وما كادا يصلان إلى ذروة زقاق رامي، ويهمان باجتياز تقاطعه مع شارع جمال باشا حتى توقفا لينصتا إلى هدير جديد قوي آتٍ من سوق الحميدية

مصحوباً بالصدى، ولم يطل وقوفهما هذه المرة، بل اندفعا بحماسة، وقد شاع الفرح في وجهيهما دون أن يكترثا بالمصفحة التي تحركت لتتخذ لها مكاناً عند دائرة الهاتف التي خرج منها عدد من الجنود الفرنسيين المسلحين، بعد أن أشاعت في نفسيهما شيئاً من الاضطراب..

وهتف أحمد هامساً:

- إنها مدرسة التجارة دون شك..

ورد عدنان موافقاً:

- ولا ريب أن التجهيز الثانية في الحلبوني قد خرجت بدورها الآن..

- وهذا يعني أن اتفاق لجنة الإضراب ما زال قوياً وصامداً..

- والمعركة ستكون حامية وعنيفة..

- ولكن لماذا اختاروا الظهيرة توقيتاً لهم؟!.

- عندما ننضم إلى رفاقنا سنعرف الجواب حتماً..

وكان الصديقان قد وصلا في تلك اللحظة إلى ناصية مقهى (المشيرية) وأشرفا من مكانهما على سوق الحميدية، فبدا لهما السوق حتى نهايته كتلة بشرية واحدة، اختلطت هتافاتها ولم يعد يتبين منها المرء شيئاً..

وصاح عدنان وهو يشير بيده نحو باب الجابية:

- انظر هناك..

كان المشهد الذي اكتحلت به أعينهما كالحلم، لا يصدق.. ألوف من البشر ينحدرون من باب الجابية، يرفعون أكتافهم عشرات الهتّافين الذين كانوا يثيرون الحماسة في النفوس، ويدفعون الجماهير الغفيرة التي تسلحت بالإيمان والعصي والمسدسات والمدي والبنادق إلى ترديد ما يهتفون به..

والتقت الأمواج البشرية العارمة القادمة من باب الجابية بالأمواج الطلابية الهادرة القادمة من سوق الحميدية وكأنها على اتفاق وامتد زخمهما ليستولي على كل الساحة الممتدة من أمام مقهى المشيرية وسوق الحميدية والسنجقدار، وانضم

عدنان وأحمد إلى التظاهرة الطلابية، واختلط الزحفان وامتزجا.. زحف باب الجابية الذي يضم في صفوفه أحياء الميدان والشاغور والأحياء الأخرى، والزحف الطلابي الذي سار في ركبه أهالي السبع طوالع والمزابل والكلاسة والغراية، ليعلو التكبير فرحاً واستبشاراً بروح المدينة المقاتلة التي أتخمت قهراً، وبالأهازيج التي كانت تثير الحماسة. وكان هتّافو الأحياء يهزجون والجماهير تردد من بعدهم:

لا إله إلا الله .

لا إله إلا الله

والمحتل عدو الله

فيرد عليهم هتّافون من الأحياء الأخرى بقوة:

الله الله يا مفرج المصائب

تضرب رصاص خلّي رصاصك صايب

لتدوي في أعقاب ذلك وبعد عدد من المرات من الترديد، طلقات من بعض حاملي البنادق مصحوبة بالزغاريد وبأهزوجة طلابية معروفة أخذت تستولي بمعانيها على الجماهير لترددها كلها معاً وكأنهم رجل واحد:

وارحلوا يا كلاب عنا

وارحلوا هدا وطنّا

وارحلي يا فرنسا عنّا

وارحلي هدا وطنّا

وانقسمت المظاهرة الضخمة إلى قسمين، الأول اتجه عن طريق السنجقدار إلى ساحة الشهداء، والثاني توغل في شارع جمال باشا الذي بدت في أوله عند محطة الحجاز تظاهرة أخرى ضخمة أخذت بدورها تتوغل في شارع جمال باشا ليغمر فيضان المتظاهرين عرض الشارع كله بما فيه حدائق الزينة التي امتدت على طول امتداد الشارع.

ولعلع الرصاص فجأة، فرانَ نوع من السكون العاصف، وساد للحظات هرج خفيف في صفوف المتظاهرين، ما لبث أن تبدد، لتعاود الصفوف الذي زاد تماسكها إلى التقدم، بينما أخذت المصفحات التي أطلقت نيرانها تحذيراً، بالتحرك باتجاه المظاهرتين لفك الحصار الذي وقعت فيه، وهي تطلق رصاص رشاشاتها بصورة عشوائية.

وفرَّ بعض الناس، ولاذ آخرون بمداخل بعض الأبنية الحديثة، بينما انبرى بعض الشباب الذين أشهروا فجأة زجاجات مولوتوف هيؤوها لهذا الغرض، وقذفوا بها المصفحات، فانفجرت محدثة دوياً هائلاً دون أن تصيب هدفها.

ودوى الرصاص من جديد، وكان صادراً هذه المرة من ساحة الشهداء، التي تقاطر عليها طلاب مدرسة الصناعة القادمون من (خان البطيخ) الذين التقوا بمظاهرة الأحياء القادمة من شارع الملك فيصل ومظاهرة سوق ساروجة القادمة من البحصة. واضطر الجنود السنغال مع ضباطهم من الفرنسيين إلى التراجع تحت ضغط الهجوم الذي شنته الجموع الغفيرة التي ملأت ساحة الشهداء، نحو زقاق رامي، وسقط في أثناء ذلك عدد من القتلى والجرحى، وشوهد الشيخ سعدو والمختار صالح يتقدمان الصفوف مع وجهاء الأحياء ورجال الدين المسيحي والإسلامي، وظهر بجلاء تعاون وثيق بين رجال الشرطة والدرك من جهة وبين الأهالي من جهة ثانية، كذلك ظهرت سيارتا إسعاف انبرى رجالها إلى إسعاف الجرحى ونقل المصابين بعيداً عن المعركة، وتقدمت في هذه الأثناء مصفحة انحدرت في شارع رامي لتحمي الجنود المتراجعين، فتصدى لها شاب مجازفاً بحياته، وقذفها بزجاجة من زجاجات مولوتوف، أحدثت عند ارتطامها بالمصفحة التي اندلعت فيها النيران دوياً مرعباً، وعلا إثر ذلك التكبير، يشحذ الهمم، ويشد من أزر المهاجمين، الذين اندفعوا في زقاق رامي، غير عابئين بالرصاص الذي كان ينهمر عليهم بغزارة من فلول المنهزمين باتجاه شارع جمال باشا الذي كان يشهد معركة أخرى لا تقل عنفاً، وأجهزت فئة من الشباب على سنغاليين واستولت على أسلحتهما..

ودوى انفجار آخر، واحترقت مصفحة أخرى، قرب دائرة الهاتف، وفرَّ الجنود الذين كانوا بداخلها، وهم يطلقون نيران أسلحتهم باتجاه الناس اعتباطاً..

وأدرك الفرنسيون المحاصرون من الجهات كافة، بأن عليهم أن يخوضوا معركة عنيفة خوفاً من سقوط الثكنة بأيدي الألوف من سكان دمشق الغاضبين الذين لم يثنهم العنف الذي جوبهوا به، من التقدم، واحتلال دائرة الهاتف التي يشرف عليها الفرنسيون، والتي أصيبت بالعديد من قذائف المولوتوف قبل أن يفرَّ من فيها تحت حماية الجنود الفرنسيين الذين استمروا في تراجعهم باتجاه الثكنة وهم مذهولون أمام الموج العارم المتدفق من كل الجهات.

كان العبء كبيراً على التظاهرة القادمة من محطة الحجاز، إذ جوبهت منذ وصولها إلى مقهى الحجاز بعدد من المصفحات، وبعشرات من الجنود الذين تدفقوا من الثكنة المجاورة، وكان جل أفراد المظاهرة من الطلاب المسلحين بالحجارة والمقاليع. وبدأت بين الطرفين معركة غير متكافئة، وتمكنت ثلاث مصفحات من اختراق صفوف الطلاب وأرغمتهم على التراجع تحت سيل من الرصاص الغزير بفوضى مريعة نحو مختلف الاتجاهات، واندفعت واحدة من المصفحات الثلاث نحو فندق (أوريانت بالاس) وهي تطارد الطلاب الذين احتموا بمداخل الفندق وبسينما (عائدة بالاس) دون أن تعبأ بالرعب الذي أحدثته بين صفوفهم، فعلقت إحدى عجلاتها أثناء محاولاتها ارتقاء الرصيف بحفرة شجرة من أشجار الرصيف، فصاح أحد الطلاب بحماسة وهو يندفع نحوها:

- عليها يا شباب..

وكرَّ الطلاب على المصفحة من كل الجهات، فحملوها وقلبوها بمن فيها من الجنود على جانبها ومحركها يرسل أزيزاً عالياً. ولم يكتفِ الطلاب بذلك، بل انهالوا ضرباً على جنودها الذين وقعوا مثخنين، وهم يصيحون ويرطنون بعبارات غير مفهومة.

وفجأة بدا عند مدخل شارع خالد بن الوليد، عدد وفير من الشاحنات العسكرية المحملة بالجنود، فتوجه بعضها باتجاه المعركة الدائرة عند دائرة الهاتف، بينما توقف بعضها الآخر عند مقهى الحجاز، وانحدر منها الجنود بسرعة، وأخذوا في ملاحقة فلول المظاهرة الطلابية التي تبددت تحت سيل النيران والهجوم العنيف في الشوارع التي تقود إلى الأزقة الداخلية المتفرعة من شارع الملك فؤاد، وضفتي نهر بردى عند جسر فكتوريا والتي تقود إلى بساتين زقاق الصخر القريبة..

أما في الطرف الآخر، فقد كانت المعركة أقسى وأعنف، واضطر الأهالي تحت ضغط مئات الجنود الذين جيء بهم لمساعدة السنغال والأندوشينوا وتحت ضغط النيران الشديد، وعشرات القتلى والجرحى الذين سقطوا، إلى التراجع، وهم يخربون أثناء تراجعهم كل ما يصادفونه، لعرقلة تقدم المصفحات والجنود على حد سواء. وخلال التراجع الفوضوي الذي هو أقرب إلى الهرب منه إلى التراجع أخذ الناس يختارون الأحياء التي لا يستطيع الفرنسيون التوغل فيها خوفاً على أنفسهم، فشقت فئة منهم طريقها إلى حي القنوات القريب، واتخذت متاريس لها، بينما اندفع جمهور كبير نحو سوق الحميدية وهدفه الاحتماء بالجامع الأموي، كذلك انحدرت جموع كبيرة من البشر باتجاه المناخلية والزرابلية، وحمم الرصاص تلاحقهم أنى توجهوا. وكان يسمع بين آونة وأخرى أصوات انفجارات القذائف المولوتوفية التي كان يقذفها شباب الأحياء المندفعون لعرقلة تقدم الفرنسيين.. وكان كل إنسان يحاول أن يجد مخبئاً يحتمي به من الرصاص الذي أخذت حدته تخف، كحمام ملكة المحاذي لمقهى المشيرية، وحمام الراس عند المناخلية، وحمام الناصري في السنجقدار، ناهيك عن مداخل الأبنية الجديدة التي ارتفعت هنا وهناك والتي عمد أصحابها إلى فتح بيوتهم لحماية واستضافة الناجين والهاربين من ساحة المعركة والاعتقال، وعندما أعلن مؤذن جامع (دنكز) عن صلاة العصر، كان صوت المؤذن يختلط بأنين وأصوات الجرحى الذين لم يسمح الفرنسيون لرجال الإسعاف بنقلهم إلى المستشفى

الوطني. وعدا ذلك، كان الهدوء يسود الساحات التي شهدت المعارك البطولية التي خاضها أهالي دمشق العزّل، ضد المحتلين الفرنسيين الذين زجوا في المعركة قواتٍ، كان قد جيء بها من مستعمراتهم في الهند الصينية وأفريقيا.

كانت آثار المعركة تتجلى في كل زاوية وبقعة في شارع جمال باشا، وبخاصة عند الثكنات الثلاث التي لم تهدأ الحركة فيها على الرغم من السيطرة الكاملة على المراكز الرئيسية في ساحة الشهداء، وسوق الحميدية وشارع الملك فيصل والسنجقدار وشارع الملك فؤاد، وكانت الدوريات المسلحة تجوب هذه الشوارع وتفتش المنازل والأبنية والحمامات، وتعتقل كل إنسان اشتبهت فيه أم لم تشتبه. وكانت الحجارة سلاح المتظاهرين، تزين الشوارع كافة، لتبدو مع الزهور والورود ونباتات الحدائق والأشجار المحروقة والنوافذ المهشمة والزجاج المتناثر في كل مكان وجثث القتلى والجرحى والأبنية التي اخترقها الرصاص الطائش والجدران التي تحول لونها إلى سواد بفعل القنابل الحارقة، كأنها لوحة تراجيدية من صنع فنان عايش المأساة ورسمها لحظة إثر لحظة.

* * *

كان هذا الصدام، أول صدام من نوعه بين الجيش المحتل والشعب الثائر، إذ كانت المظاهرات في الماضي تصطدم برجال الشرطة والدرك، دون أن تمس الفرنسيين بسوء، أما في هذا الصدام الذي وحَّد بين الشرطة والدرك من جهة وبين الشعب من جهة أخرى بإيعاز من الحكومة، فقد أودى بالعديد من الجنود الفرنسيين لأول مرة منذ أحداث عام ١٩٣٦. وكانت مظاهرات السنوات الماضية مقتصرة على الطلاب وعلى بعض الفئات الحزبية كعصبة العمل القومي، بخلاف هذه التظاهرة التي وضح فيها تأييد الحكومة الكلي، مذ أوعزت لرجالات الأحياء والمخاتير وأئمة المساجد، بتهيئة كل الأسباب لإنجاحها كمظاهرة سلمية، فتقوم بعرض مطالبها في الاستقلال وجلاء المستعمر الفرنسي، ولكن الفرنسيين الذين أدركوا مرامي المظاهرة والحكومة، وعرفوا بأمر الاتفاقات السرية

مع الإنكليز، أرادوها أن تكون غير ذلك.. أرادوها أن تكون درساً للحكومة والشعب معاً، فنشروا قواتهم، للإرهاب، ولتبديد المظاهرات قبل وصولها للسراي، دون أن تحسب حساباً للشعور الوطني المتفاقم، وللكره والعداء والحقد المستفحل أمره ضد الاستعمار الذي طال أمده، والذي نجمت عنه هذه المعركة.

* * *

تمكن أحمد وعدنان من الهرب والوصول إلى بيتهما سالمين، بعد مشاركتهما في المعركة التي دارت رحاها في شارع جمال باشا وعند مشارف مقهى المشيرية وسوق الحميدية. وعندما حمي وطيس المعركة، ودارت الدائرة على المتظاهرين، وأخذوا بالهرب في مختلف الاتجاهات، لم يجدا أمامهما سوى النجاة بنفسيهما، فاندفعا خلف الناس في سوق الحميدية باتجاه الجامع الأموي، ثم انعطفا إلى العصرونية ومنه نفذا إلى المكتبة الظاهرية في السبع طوالع، ليغدوا خلال دقائق عند ضفة النهر الذي يخترق الأزقة الداخلية، فتوقفا لحظات وهما يرقبان مياه النهر الآخذة بالارتفاع، وليلتقطا أنفاسهما في الوقت نفسه، ومن ثم افترقا على أن يتلاقيا صباحاً كي ينطلقا إلى مركز عملهما الجديد في المليحة.

* * *

لم يمكث أحمد طويلاً في البيت، إذ ما كاد يطل بطوله الفاره على أبيه وأمه وأخوته، وتجهش أمه في بكاء الفرح لعودته سالماً، وهي تعانقه وتقبّله، ويروي لأبيه في الوقت نفسه مجريات المعركة بالتفصيل، ويداعب أخوته، ويناول أباه الذي لم يعد يستطيع صبراً للاطمئنان على رفاقه عكازه، ويرافقه حتى باب البيت ويشاهده وهو ينطلق بعرجه نحو المقهى، حتى تعلل بدوره بضرورة الاجتماع بصديقه عدنان من أجل العمل الجديد.على الرغم من احتجاج أمه، ليغادر البيت على عجل، وهو يسارع في خطواته وكأنه يسرق المسافة القصيرة التي تفصل بين الزقاقين، يدفعه إلى ذلك توقه إلى هيام التي

وعدها بالعودة السريعة. وعندما أشرف على الزقاق، كان غبش المساء يعانق كل شيء، وكانت مياه بردى تهمس بصوت مرتفع، وتشكل أمواجاً تتدافع وهي تسير معجلة لا تلوي على شيء..

ونظر إلى نافذة هيام، فرأى أم إبراهيم وهيام يلوحان له بشوق، فردّ عليهما بتلويحة سريعة، واندفع بسرعة أكبر لتبتلع خطواته المسافة المتبقية بشوق الظامئ إلى هذا اللقاء الذي لا يدري كيف سينهيه دون أن يجرح مشاعر هيام العاشقة المدنفة.

-٣٢-

فوجئ أبو دياب وهو يلج المقهى، بالناس الذي ملؤوا كل زاوية وركن وطاولة، وشغلوا حتى الرصيف الذي اعتاد صاحب المقهى استغلاله في أشهر الصيف. ولاحظ بحكم مهنته في الفرن، ومعرفته بالناس، وجود العديد من رجال الأحياء البارزين، والمخاتير. وكانت أحاديث الجميع تدور كلها حول المظاهرات التي هزت المدينة، وفجعت بيوتاً عديدة.

شق أبو دياب طريقه بصعوبة، إلى الطاولة التي يجلس حولها المختار وقاسم وآخرون من أهل الحي، فأخذ يعانقهم واحداً واحداً، ويقبّلهم، وقد طفحت الدموع من عينيه تأثراً، ثم جلس وتساءل وهو يغالب عواطفه:

- أين الشيخ سعدو؟!.

فأجابه المختار:

- في المسجد، وسيكون هنا بعد صلاة العشاء..

- طمئنوني عنكم!.

- إيه.. إيه.. بماذا أطمئنك! لقد فقدنا من هذا الحي فقط، أربعة من خيرة شبابه .

- أربعة؟! .

فتمم قاسم:

- عدا عشرات الجرحى والمعتقلين.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كل ظني أن المظاهرة سلمية..

- فوجئنا بالفرنسيين ومصفحاتهم.. وحدث الذي حدث..

وتابع المختار قائلاً:

- لن يمر الحادث بسلام.. وإن غداً لناظره قريب..

- ماذا تعني؟!.

- لقد اشتعلت، ولن تنطفئ بسهولة كما يظنون، ولن يذهب دم القتلى والجرحى هدراً..

فقال أبو عبده، وهو من وجهاء الحي وكبار المتنفذين الذين يحسب لهم حساب:

- سننتظر أوامر صاحب الفخامة، فهو وحده الذي يقرر إذا كنا سنستمر أم لا...!

فردّ قاسم والغيظ يأكله:

- ننتظر الأوامر يا أبا عبده! وهل الذين قاتلوا وقُتلوا وجرحوا، واعتقلوا، كانوا ينفّذون الأوامر، أم كانوا مندفعين كسائر الناس للخلاص من الفرنسيين؟! لا.. لا يا أبا عبده، أوامر صاحب الفخامة شيء، والاستعمار شيء آخر..

ولم يتوقع أبو عبده أن يخالفه أحد، وهو الذي اعتاد أن يفرض رأيه على المنطقة كلها فقال:

- وصاحب الفخامة من يمثل! ألا يمثل كل أبناء هذا الوطن؟!.

- تماماً..

- والأوامر التي يصدرها أليست في مصلحة الوطن؟!.

وضحك قاسم ضحكة خفيفة خبيثة وقال:

- إذا كان إهداء الطائرات إلى إنكلترا، وحصر (الكوتا) بكبار التجار، وتعريض المتظاهرين المسالمين لرصاص الفرنسيين هو في مصلحة الوطن، فأنا معك..

وكاد أبو عبده يخرج عن طوره، ولكنه التزم الهدوء، وإن فضح ارتفاع صوته ما يعتمل في نفسه عندما قال مهدداً قاسم:

- اسمع يا قاسم. أنا أعرفك جيداً.. وأعرف جماعتك، وأنتم لستم سوى قلة، فالزم حدودك، ولا تحسب تفجيرك للمصفحة اليوم، يسمح لك بالتطاول على رجالات الوطن المخلصين..

- أنا لا أتطاول على أحد، ولا أدّعي عملاً دفعني إليه الحماسة ولكنني أقول، إننا اعتدنا هذه المواقف من جميع أصحاب الفخامة الذين تعاقبوا على الحكم.. وغدا عندما يتم الاتفاق مع الفرنسيين كالعادة، نكون نحن حصدنا ثمن ذلك..

- لا اتفاق مع الفرنسيين..

قال ذلك رجل وقور التهم الشيب رأسه، ويعرف في الحي باسم (أبي سعيد).

ثم تابع إذ وجد العيون تتجه إليه:

- أبداً.. لا اتفاق مع الفرنسيين، والحكم حتى الآن وطني لا غبار عليه.. لقد قاتلت مثل أبي عبده في الثورة، وما زلت على استعداد للقتال، ليس ضد الفرنسيين فحسب وإنما ضد الوطنيين الذين يحكمون الآن، إذا ما خانوا الأمانة التي منحناهم إياها..

وأجابه أبو عبده على الفور:

- وأنا من رأيك يا أبا سعيد.. وصاحب الفخامة مصمم على إنهاء الفرنسيين من هذه البلاد، وقد صرح بذلك أمام وفود الأحياء التي دعاها للاجتماع به، وإذا كنتم لا تصدقونني، اسألوا المختار صالح الذي كان موجوداً في الاجتماع..

فقال المختار موافقاً:

- حاشا أن تكذب يا أبا عبده.. حاشا..

وانبرى قاسم يتساءل من جديد محتداً:

- إذا كان ما تقوله صحيحاً، فكيف تبرر انقلاب المظاهرة السلمية إلى مظاهرة شبه مسلحة.. وإذا كانت الحكومة تريد مظاهرات مسلحة، فلماذا لم توزع الأسلحة؟!، لماذا اكتفت بإعطائنا البزات العسكرية التي لا تستطيع أن تقاتل وحدها، ناهيك أنها تعرض مرتديها في أضعف الاحتمالات إلى الاعتقال أو القتل..

وهزّ أبو سعيد رأسه موافقاً وهو يقول:

- هذا صحيح، والأفضل أن تخلعوها، وترموا بها بعيداً، لأنها لن تجلب عليكم سوى الشر، ولو كانت الحكومة صادقة النية . كما تقول . لأعطتكم السلاح عوضاً عن هذه البزات.

واعترض أبو عبده وقد علا صوته كثيراً:

- يا أبا سعيد.. يا أبا سعيد، هذا ليس صواباً، وأنت تعرف أن السلاح قليل..

- بالعكس، إنه عين الصواب، وأنت بالذات شاركت في كل الأحداث الوطنية، وتعرف جيداً قيمة السلاح، وتتاجر به أيضاً، وأنت تعلم أيضاً لو أن الشعب كله كان اليوم مسلحاً لاختلف نوع المظاهرات، والمواقف أيضاً..

وقال قاسم مستميلاً أبا عبده، وموجهاً إليه في الوقت نفسه اتهاماً بشعاً:

- الحقيقة لولا السلاح، والزجاجات المولوتوفية الحارقة التي وزعها أبو عبده على الشباب، وأنا منهم، لغدت مظاهرة اليوم كارثة.

- لم أقم بغير واجبي يا قاسم..

فقال أبو سعيد وقد فقد أعصابه وهو يضرب على الطاولة:

- واجبك.. أو تسمي كارثة اليوم واجبك.. أتسمي توزيع السلاح في مظاهرة سلمية واجبك.. لا.. لا يا أبا عبده، إن كل شيء يدل على أن الأمر مبيَّت.. ولو لم يكن مبيَّتاً، لما حدث ما حدث.. لو لم تعمل مع زملائك في

الأحياء على دس السلاح في أيدي المتحمسين، لمرت المظاهرات بسلام، ولما سقط عشرات القتلى لقاء لا شيء..

- ولكن.. يا أبا سعيد.. إن هذا الذي..

غير أن أبا سعيد قاطعه متابعاً:

- ثم هل تظن الفرنسيين أغراراً لا يعرفون ما يجري في هذا البلد.. إن عيونهم ترصد كل شيء حتى كلامي هذا الذي أقوله لكم..

وفجأة قال أبو دياب بسذاجة:

- هل هي أوامر صاحب الفخامة أن تكون المظاهرة مسلحة..

ورد أبو عبده بسرعة:

- لا.. أبداً.. إنما..

وقطع حبل النقاش المحموم قدوم الشيخ سعدو الذي ابتدر قاسم بقوله:

- سلمت يداك يا قاسم، لولا تفجيرك لتلك المصفحة، الله وحده يعلم كم من الضحايا كان قد سقط في زقاق رامي..

فرد قاسم بحياء:

- لست وحدي يا شيخ سعدو.. الناس جميعاً قدموا ما يستطيعون..

- إنما قل لي كيف حصلت على هذه القنبلة، وعهدي بالمظاهرة سلمية.. من أين خرج كل هذا السلاح؟!.

ولم يحر أحد من الجالسين جواباً، فأردف الشيخ سعدو موجهاً حديثه لقاسم:

- إذا كان السلاح من جماعتم، فاعلم أنهم قد ارتكبوا خطأً كبيراً بخروجهم على إرادة الحكومة والناس..

فنهض أبو سعيد وقال حانقاً وهو يودّع الجميع:

- اسأل تجار الأسلحة، اسأل الذين يلعبون على الحبلين..

وهبّ أبو عبده واقفاً وهو يصيح بأبي سعيد الذي ابتعد نوعاً ما:

- لولا رفقة السلاح التي جمعت بيننا في الثورة، ولولا الجيرة والخبز والملح لكان لي شأن آخر معك..

وارتدّ أبو سعيد، يريد أبا عبده، ولكن الرواد سارعوا إليه فمنعوه عنه ورافقوه حتى الباب، بينما أخذ المختار والشيخ سعدو وقاسم وآخرون يهدئون من ثائرة أبي عبده حتى إذا شرب كأس الشاي التي طلبها له المختار، وهدأ تماماً، نهض مودعاً وغادر المقهى على عجل..

وسأل الشيخ سعدو هو يعقب بسبحته:

- ماذا يعني أبو سعيد باللعب على الحبلين..

فأجاب قاسم:

- يعني أبو عبده مرتبط بأكثر من جهة.. فهو يتكلم باسم صاحب الفخامة، وينفذ ما تطلبه منه جهة أخرى..

- هكذا إذن..

- وعلى هذا الأساس، لا يريد أن تستمر المظاهرات غداً..

فقال المختار:

- لم يقل هذا بالضبط.. قال علينا انتظار أوامر صاحب الفخامة..

ورد قاسم:

- في اعتقادي إن ما حدث اليوم تم بإيعاز من القصر للضغط على رئيس الحكومة كي يستقيل..

فقال الشيخ سعدو:

- في اعتقادي أنا الآخر بأن رئيس الحكومة رجل وطني لا غبار على وطنيته ومواقفه مشهود لها في بلده..

وأضاف قاسم:

- وهو رجل صلب ونزيه لا ترقى إليه الشكوك..

وتساءل أبو دياب والحيرة تستولي عليه:

- إذا كان رئيس البلاد وطنياً، ورئيس الحكومة لا يقل وطنية عنه، فلماذا هذا الخلاف بينهما، والبلاد تئن من الاحتلال..

فقال قاسم:

- كي يأتي رئيس جديد للحكومة يرضى به الفرنسيون.. ويستطيع أن يفاوض..

- الآن فهمت..

قال ذلك الشيخ سعدو، ثم أردف:

- على كل حال إن استطاع رجال الأحياء بأمر صاحب الفخامة شلَّ حركة الإضراب التي بدأت، فلن يستطيعوا ذلك مع طلاب المدارس..

- هذا صحيح..

قال قاسم ذلك، ونهض يبغي الانصراف، فصاح به المختار:

- إلى أين؟!.

- يجب أن ألتقي بالرفاق والأساتذة، لأرى رأيهم..

فقام الشيخ سعدو بدوره وهو يقول لقاسم:

- لحظة يا قاسم.. سأذهب معك، إذا لم يكن هناك ما يمنع لقائي بجماعتك..

فأجابه قاسم والسرور يغمر كل كيانه:

- على العكس، وستجد كيف يرحّبون بك، وستتعرف بنفسك على الأستاذ وسيحلو لي عند ذاك أن أستمع إلى نقاشكما..

وهتف المختار:

- مهلاً.. سأصحبكم بعض الطريق..

وخرج الجميع لينفصل الشيخ سعدو وقاسم اللذان توجها من طريق فرعية باتجاه الميدان، بينما سار المختار وأبو دياب نحو منزليهما، والمختار صالح يهز رأسه بين الحين والآخر وهو يقول:

- لا أدري ما الذي فتن الشيخ سعدو بهذا الأستاذ! .

وكان أبو دياب يجيب بسذاجة على هذا التساؤل دون أن يدري أنه يصيب كبد الحقيقة:

- ليس الأستاذ، وإنما المبادئ التي ينادي بها.

* * *

- ٣٨ -

لم يكن أحمد يتوقع ذلك اللقاء العاصف الذي حدث في غرفة أم إبراهيم، إذ ما كاد يرى أعلى نهدي أم إبراهيم يبرزان من فرجة الثوب بإغراء، ويلمح نظرات الشبق في عينيها. وهي ترحب به وتغلق الباب في آن واحد، حتى اندفعت هيام نحوه متحاملة على جسدها المتداعي، وهي تتعثر في خطواتها، وتكح، وتجهش، لترتمي على صدره، وتأخذ في تقبيله كيفما اتفق، دون أن تعبأ بأمها التي وقفت تراقب ما يجري أمامها بذهول. وقد عقدت المفاجأة حركتها، ولا بدهشة أحمد التي امتدت إلى أن تداعت هيام شيئاً فشيئاً، وكادت تسقط أرضاً. وقد انتابتها موجة من السعال الحاد، فتداركها، وضمها إليه جيداً خوفاً عليها من السقوط، ثم حملها، ومشى بها خطوات، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة سعيدة، ما لبثت حتى انكمشت عندما دهمتها موجة جديدة من السعال. وحين مددها في فراشها قرب النافذة، كانت أم إبراهيم قد استعادت نفسها، فتجاهلت ما حدث، وهرعت تساعد أحمد في توسيد ابنتها التي كانت تخاطب أحمد بكلمات غائمة، لم تفهم منها أم إبراهيم شيئاً:

- لقد أفزعتني.. كان الرصاص يغتالني باستمرار !.. وأنت بعيد.. بعيد، وأنا وحدي.

- أنا هنا.. أنا هنا كما ترين..

- خفت عليك.. كان الرصاص يخترق جسدي! .. وأنت بعيد.. بعيد.. وأنا وحدي..

- لن تكوني وحدك، أنا وأمك هنا.. معك..

- لمَ لمْ تقبلني..

واحتار فيما يفعل، فنظر إلى أم إبراهيم، فأشارت إليه أن يفعلن فانحنى نحوها وقبّلها في وجنتها..

فابتسمت وقالت برجاء:

- قل إنك لن تتركني بعد اليوم.. آه.. كان الرصاص مريعاً، وكان يصيب كل شيء في الغرفة، وكنت خائفة..

وهمس أحمد في أذن أم إبراهيم:

- إنها تهذي..

وفجأة انتابتها موجة عنيفة من السعال، تمخضت عن قشعات من الدم نفثتهاباإعياء، قبل أن تلفظها في علبة كرتونية وضعت إلى جانب فراشها لهذا الغرض، في حين أسرعت إليها أمها بالدواء، فرفعت لها رأسها بعد أن هدأت نوعاً ما، وأفرغت في جوفها ملعقة كبيرة منه. ولم تلبث طويلاً بعد ذلك، حتى راحت في نوم مضطرب وهي تمسك بين راحتيها بيد أحمد .

ونهضت الأم من جانب ابنتها دامعة العينين وهي تقول:

- أما لعذابها من آخر؟!.

ورد أحمد وهو يمسح دموعاً طفرت من عينيه:

- أنتِ تساهمين عن غير قصد في التعجيل بنهايتها..

- أنا!.

- أجل.. يجب أن تبقي إلى جانبها، وأن تسهري عليها، ألَّا تفارقيها لحظة.. أنت تعذبينها بالوحدة القاتلة التي تتركينها فيها طوال النهار، والتي هي أقسى عليها من مرضها الذي يفتك بها..

- أتمنى ذلك.. ولكني لا أستطيع.. من أين أجلب ثمن أدويتها والطعام وما يحتاجه البيت إذا تركت عملي؟! ترى هل يوجد شخص واحد يهتم بالمصاب الذي أنا فيه.. أبداً.. لا أحد على الإطلاق.. لقد انتفت الرحمة من قلوب الناس جميعاً.. لقد بات أهل الحي جميعاً يفرون مني.. لم أسمع من واحد منهم كلمة طيبة.. الجميع يهرب مني ومن ابنتي، وحتى أنت الذي تعرف كل شيء، جئت إلى هنا لتؤنبني..

وأخذت تجهش في البكاء بصوت خفيض، فأثارت في نفسه حنيناً غريباً لم يحس بمثله تجاهها إلا عندما كان في غربته، فنهض من جانب هيام، بعد أن سحب يده من راحتيها بلطف، واقترب منها حتى واجهها، ثم ضمها إليه وهو يربت على كتفها مخففاً عنها، فاستشعرت عطفاً كانت تحتاجه وتتوق إليه، فأسندت رأسها على صدره بوله، وأمعنت في البكاء، لتفوح منها رائحة أنوثتها الصارخة التي أيقظت هجوع شهواته من مكامنها، ولكنه لجم نفسه وطبع على وجنتها القريبة من فمه قبلتين طويلتين نهمتين حملتا إليها شعوراً بالرغبة والطمأنينة، وإلى فمه مذاقاً مالحاً، عرف فيه طعم دموعها الحارة التي كانت تسيل على خديها في خطين رفيعين، وإلى شفتيه إحساساً عارماً بالشهوة. وكاد يستسلم لهذا الإحساس، ولكنه كذّبه، وقاوم ما اعتمل في نفسه، رافضاً الاستسلام لرغباته المتأججة، فتلجلج قائلاً وهو يشعر بصدرها يضغط بلطف مثير على صدره:

- وأخواها.. لماذا أبعدتهما عنها؟!.

فقالت وهي تزداد التصاقاً به، وترفع إليه في الوقت ذاته عينيها الباكتين وشفتيها المتلهفتين اللتين كانتا تعبّران عما في نفسها من شوق إليه، وتطمعان في الالتمام بشفتيه:

- لقد نصحني الطبيب بذلك، خوفاً عليهما من العدوى..

وران صمت ثقيل، كان لا يسمع فيه سوى تنفس هيام المضطرب المحموم، واحتضار نشيج أمها الذي تحول إلى زفرات حارة محمومة بعد أن استكانت كطفل وديع إلى صدر أحمد الذي أخذ يصيخ إلى كل هذا، ليلهي نفسه عن فحيح شهوات أم إبراهيم التي أمعنت به تنكيلاً، وليبعدها في الوقت نفسه عنه بأسلوب لا يجرح فيه عواطفها، وكأنه قد صمم على الهرب حتى من رغباته التي تحاصره، فقال وهو يشير إليها أن تطفئ النور:

- لتجلس بعيداً.. ولندعها ترتاح..

وظنت أم إبراهيم وهي تطفئ النور، وتنض عنها ثوبها لتصبح شبه عارية، أن أحمد يدعوها للفراش فاقتربت منه وسعير شهوتها يلهث بهياج، ويشرق متأججاً في حركاتها لتهمس بصوت مغناح ومتماوت:

- ألم تشتق إلي؟!.

ولم يجب بشيء، فقد استعصت الكلمات تأبى انطلاقاً، وكان يعاني في تلك اللحظة، صراعاً عنيفاً لم يعهده قبلاً.. كان يحس بالألم يتقمصه ويثقل عليه ويشعر بأنه تائه في أغوار سحيقة لا نهاية لها، وإنه موزع بين حبه وشفقته على هيام، وبين أمها التي عرفت ذات يوم كيف تطفئ سعير الحيوان الذي يتلظى في جسده، وتوقظه من هجوعه العميق.. كان يعرف بأنه خدع هيام باسم الحب، وأنه استخدم هذا الحب كوسيلة للانفراد بها كلما سنحت له الفرصة وأنه رغم حبه الواثق منه. لم يخلص لها، وخضع لشهوات الجسد التي لم يعرفها قبلاً، لتحجب عنه نقاء ذلك الحب. موقناً في قرارته بأنه لن يستطيع الهرب من أمها، لأن هذا يعني حرمانه من هيام التي تحتاج إليه اليوم أكثر من أي وقت مضى.. إن خداعه لها يرهقه. وهو مضطر على الاستمرار فيه.. ويدرك أن عاطفته تجاه هيام مختلف تماماً عن عاطفة الاشتهاء لجسد أمها، ولا تربط بينهما أية رابطة، فحبه لهيام شيء مقدس لم تلوثه سوى الرغبات المنمطة التي وقع أسيراً لها، فدأب على إطفائها وإطفاء عطش أمها إليها، ساهياً عن تلك التي تعيش أيامها من أجله ببراءة الحب الذي وهبت نفسها له..

ولم تتركه أم إبراهيم التي استبد بها الشبق ليجيبها عن تساؤلها، فتناولت رأسه بلطف ممزوج بشيء من العنف الذي أذهله، وراحت تغب شفتيه دون أن تتيح له فرصة للاعتراض..

واستمرأ قبلاتها العميقة اللاهبة، وتركها تقوده لاهثاً في العتمة التي سيطرت على الغرفة تماماً إلى الفراش، ليتبدد من رأسه في حمأة الشهوات التي جرفته.. كل ما كان يفكر فيه قبل قليل.

* * *

كان نوم هيام المضطرب، وسعالها المتقطع بين الحين والآخر، يحمل الفزع والخوف إلى الجسدين الملتحمين اللذين لم يرتويا بعد، ويدفعهما إلى حبس أنفاسهما ارتقاباً لنهاية تلك النوبات، ليعودا من ثم إلى مجونهما، لاقتناص ما يسعيان إليه.

وفجأة وجدت هيام نفسها في خضم ما يجري في فراش أمها، مستيقظة تماماً، وقد نأى النوم عنها، فحملقت في الفضاء الأسحم، وقد استشعرت نوعاً من الراحة. وأخذت تفكر في أحمد، وتستعيد في مخيلتها، قبلاتها إليه، ثم كيف ضمها وحملها بحنان، وكيف وسدها الفراش وقبلها..

وكانت تستعيد كل هذه مرات ومرات دون أن تمل، بسعادة غامرة.. ودَّت معها لو تستبقيها إلى الأبد، ولكن هذا تبدد بغتة عندما تناهى إليها من فراش أمها همس خافت، وحركة غير عادية، فأصاخت قليلاً، ثم تحاملت على نفسها، ونهضت من فراشها، وهي تحدق بالظلام نحو فراش أمها متسائلة عن سر ذلك الهمس الذي تبدد كما بدأ، وكادت تعود إلى فراشها، لولا أن عينيها اللتين اعتادتا الظلام، حملتا إليها حركة غير عادية من فراش أمها مصحوبة بتنهدات كالأنين.. فظنت أن أمها تعاني ألماً ما، فجرّت نفسها نحو الباب، تريد زر النور الكهربائي الذي يقع على الجدار القريب منه. واصطدمت أثناء سيرها المحاذر البطيء بالكرسي القريب من الباب، فأحدث ضجة جعلت الجسدين الملتحمين يجفلان ويجمدان ويحبسان أنفاسهما ارتقاباً، إذ لعل هيام استيقظت لحاجة ما، ولا تلبث حتى تعود إلى فراشها، فانتظرا وكلهما أمل. غير أن هيام، لم تعبأ كثيراً بالضجة التي أحدثت، وتابعت تقدمها بحذر وهي تكح، لتحمل للجسدين المنكمشين على بعضهما فزعاً حقيقياً لم يعرفاه قبلاً، حتى إذا وصلت إلى الباب، ونقرت بيدها زر النور الكهربائي. نهضت أم إبراهيم من فراشها وقد توجست خطراً، في محاولة عنها لتمنع ابنتها مما ترمي إليه. ولكن النور غمر الغرفة فجأة، ليفسح مجال الرؤية عن لوحة مذهلة.. أم إبراهيم عارية وواقفة في منتصف الفراش.

كانت الصدمة أقوى من أن تتحملها أعصاب هيام المدنفة، فانتابتها نوبة هستيرية، انفجرت في حلقها سعالاً جافاً مصحوباً بقشعات من الدم نفثتها على الأرض رغماً عنها، وجعلت أمها تهرع نحوها وهي تستر عريها بيديها. فدفعتها ابنتها عنها باشمئزاز، ورمقت في الوقت نفسه أحمد بازدراء، ثم انفجرت باكية بصوت مرتفع، قبل أن تفتح الباب وتنسل هاربة وتهرول على الدرج على الرغم من ضعفها بين ذهول أحمد وأمها اللذين كانا يصيخان إلى نحيبها المكتوم الصادر من صحن البيت وقد صعقتهما المفاجأة..

* * *

لم تدرِ هيام ما تفعل، فقد هزّها المشهد الذي بدا لها يطفح بالدناءة وأحرجها، وطعنها في أعماقها، وجرح أحاسيسها ومشاعرها.. كانت تريد الهرب من الصورة التي انطبعت في مخيلتها.. من القذارة التي تعبق في الغرفة، وفي البيت كله.. من أمها، ومن أحمد الذي غشها وخدعها، فاندفعت دون وعي نحو باب البيت الخارجي، دون أن تعبأ بالبرودة التي أخذت تسري إليها من قدميها الحافيتين، ففتحته وخرجت، ثم صفقت الباب خلفها بعنف حمّلته كل غضبها واحتقارها..

تناهى إلى إبراهيم وأحمد صوت انصفاق الباب الخارجي، فارتاعا، وازداد اضطرابهما، ولكن أم إبراهيم التي استعادت رباطة جأشها وبدأت تستفيق من هول الصدمة، هتفت تحث أحمد بتأتأة طغت على عباراتها:

- عُد بها.. عد بها قبل أن يفتضح أمرنا، وحاذر من الجيران، وسألحق بك فوراً..

* * *

لم تكن هيام تتصور الليل بمثل هذا السواد، فارتعدت، ولكنها عندما شاهدت نور عمود الكهرباء المنتصب في أول الزقاق يبدد العتمة حوله، استأنست به. وأهاج في الوقت ذاته ذكرياتها.. فهذا العمود هو الشاهد الوحيد على أحمد الذي كان يقف عنده، ليزقها تحياته قبل أن يغدو الزائر الوحيد لغرفتها، وهو الشاهد أيضاً على نظراتها المتلهفة التي كانت لا تفارقه كل مساء. انتظاراً لقدومه..

وأحست ببرودة الليل تتسلل إلى جسدها النحيل، فجمعت ثوبها جيداً، لتمنع عنها النسيم البارد المشبع برائحة النهر الزنخة، التي لم تكن غريبة عليها، ثم طفقت تبكي وهي تترنح في مشيتها المضطربة التي كانت ترغمها نتوءات الأحجار البارزة من أرضية الزقاق..

لقد طعنها أحمد في أقدس شيء تملكه.. في عواطفها.. كذلك فعلت أمها.. لقد مزقا معاً حياتها، وحطما في ضعة وأنانية سعادتها التي تستمد منها البقاء على قيد الحياة، ليبنيا على أشلاء الحب الذي كانت تعيش من أجله سعادتهما.. أجل لقد طعناها بقسوة طعنة قاتلة، فلتطعنهما كما طعناها، ولتحطمهما كما حطماها، ولتنتقم منهما انتقاماً رهيباً قاتلاً هي الأخرى..

وتوقفت عن سيرها لتتساءل:

- ولكن كيف؟! .

وتابعت مشيتها المضطربة، وهي تجر نفسها وتكح وتلهث دون اكتراث للأحجار الدقيقة التي كانت تخز وتدمي قدميها. وهدفها أبداً عمود النور، وقد برقت في رأسها فكرة مشوشة، أخذت تنمو لتتضح شيئاً فشيئاً كلما ازداد اقترابها من عمود النور. وكانت المسافة بينها وبين عمود النور تتناقص خطوة بعد خطوة، وهي تجد في سيرها تارة، وتتكئ على جدران البيوت المتلاصقة المعتمة تارة أخرى، لتحد من ترنحها المتزايد ولتستريح لحظات وتمنع جسدها المتداعي عن السقوط..

أخيراً، وصلت إلى عمود النور الكهربائي، ولفح وجهها نسيم النهر، فأحست بالانتعاش وبقوة غريبة تدب في أوصالها تدفعها على الصمود أمام ضعفها. وتوقفت لترمق نافذة غرفتها، ولتستجمع أنفاسها المتلاحقة.. كانت الغرفة ما تزال مضاءة، وكأن شيئاً لم يقترف فيها. وظلت كذلك لحظات ثم ألقت نظرات زائغة نحو نوافذ بيوت الزقاق، فوجدتها كلها مظلمة، عدا غرفتها التي كانت تشع بالنور والخيانة.. إن أحداً لم يشعر بمأساتها.. وكل شيء غارق في الظلام، فلماذا لا تغرق فيه هي الأخرى؟! ونظرت إلى حيث تقف ورددت بخفوت:

- هنا كان يقف.. ومن هنا كان يلوح لي..

وتطلعت إلى غرفتها، والأسى يغمرها، والدموع التي لم تتوقف تلهب وجنتيها:

- لا أحد في النافذة.. لا أحد يهتم بأحزانها، ولا أحد يهمه أمرها..

ومسحت دموعها بكمها، وألقت نظرة أخيرة على النافذة، وقد عادت الفكرة التي برقت في رأسها تستولي على تفكيرها وأحاسيسها. وتناهى إليها صرير باب البيت وبحركة لا شعورية، نظرت إلى الباب، لتتبين على عتبته شبح أحمد، ثم وهو يركض باتجاهها، فاستجمعت قواها، واندفعت في المنعطف متجاوزة الزقاق تبغي النهر الذي باتت ضفته على خطوات يسيرة منها، وأحست وهي تصيخ إلى وسوسة المياه بأن النهر يدعوها إليه، فأغمضت عينيها على دموعها، وهي تسترجع ما شاهدته في الغرفة، ومن ثم صممت على تنفيذ الفكرة التي عادت تراودها بقوة..

ونظرت إلى بردى. كان يشعر آنذاك بالحياة تدب في أعطافه، والمياه تجري هاربة من بعضها، والأمواج تدفع أمواجاً وتلد أمواجاً أصغر، وكلها تجري معجلة تواقة إلى المصير الذي ينتظرها في نهاية المطاف.. كان بردى في أوج سعادته، يرقب مياهه التي تمرح مصفقة، كأنها لم تصادف ربيعاً مرحاً معطاءً في حياتها كهذا الربيع.. وبذلت هيام مجهوداً أخيراً، وتمكنت بعد لأي من الوصول إلى الضفة.. كان

النهر ما زال يدعوها إليه لتعانق أمواجه كموجة صغيرة، فرنت إليه بمشاعرها، وأخذت تحدق بمياهه التي ساقت إليها دواراً خفيفاً، وخوفاً غريباً، فترنحت في وقفتها، وكادت تسقط أرضاً، ولكنها ما لبثت حتى استعادت توازنها، وأخذت تحملق في النهر من جديد، وقد تحول صوت المياه في اذنيها إلى دبيب صاخب يدعوها إليه، فارتعدت، وسرت في جسدها رعشات طويلة، بعد أن اعتزمت تنفيذ الفكرة التي التهمت كل شيء فيها، وإذ هي همَّت بإلقاء نفسها في أحضان النهر، ترددت، ثم تراجعت، حتى إذا سمعت أحمد الذي وصل إلى نهاية الزقاق يناديها، ويصيح بها محذراً، التفتت نحوه، ورمته بنظرة احتقار، ومن ثم قذفت بنفسها دون تردد إلى النهر، الذي تلقفها ووسدها أمواجه، بعد أن أحدث ارتطامها بالمياه، دوياً شبيهاً بالدوي الذي يحدثه ارتطام حجر ثقيل بالمياه.. وغاب جسدها الهزيل الذي دفعته المياه بعيداً بسرعة، لتبتلعه اللجة، ثم أخذ رأسها الأشقر يبدو ويغور، وهي تصرخ مستنجدة بضعف. وكأن حب الحياة قد أخمد فيها كل الانفعالات التي ساقتها إلى هذا المصير..

وفجأة أضيئت الأنوار في العديد من غرف بيوت الضفتين المشرفة على النهر، وفتحت النوافذ، وأطلت الرؤوس من هنا وهناك تستطلع ما حدث، حتى إذا لم تتبين شيئاً، وتوقف الصراخ الذي أيقظها، انفتلت ببطء إلى الداخل، وأغلقت النوافذ، وأطفئت الأنوار، ولم يبق سوى شاب كان يركض بسرعة على ضفة النهر، ملاحقاً الرأس الأشقر الذي اختفى نهائياً، حتى إذا وصل إلى الدباغات لمح شيئاً أشقر يلمع، فوثب إلى النهر، وحاول عبثاً أن يصل إليه، ولكن المياه كانت أسرع منه، إذ جرفت ذلك الشيء في اندفاعها في ذلك المجرى الضيق إلى ما لا نهاية..

وعندما خرج من النهر، والماء يسيل من ثيابه، لمح من بعيد شبح امرأة كانت تولول، وتوقظ سكان الضفتين من جديد، ولم تكن هذه المرأة سوى أم إبراهيم التي شاهدت كل شيء تقريباً، وأصيبت بما يشبه اللوثة في عقلها.

* * *

-٣٤-

تم دفن (هيام) التي عُثر على جثتها طافية عند خانق (باب توما) بهدوء ودون ضوضاء، ولم يحضر الدفن سوى نفر قليل من أهل الحي والمختار صالح والشيخ سعدو، بينما تخلف أحمد الذي أصيب بصدمة قاسية عن الحضور، بعد أن اصطحبه معه زميله عدنان قسراً إلى مركز عملهما الجديد في (المليحة)، دون أن تفلح محاولات التسوية التي قام بها عدنان للتفريج عنه في دفع الحزن واليأس والألم الذي سيطر عليه تماماً، فقد كان يشعر في قرارته بأنه المجرم الحقيقي وراء المأساة التي وقعت.

أما أم إبراهيم فقد نقلت إلى المستشفى، ولم يستطع رجال الشرطة الذين أنيط بهم التحقيق أن ينتزعوا منها شيئاً، كانت تبدو ساهمة، شاردة وكأنها في عالم آخر تماماً، تهذي بكلمات غير مفهومة، ثم تثور فجأة فتمزق ثيابها أو تعرّي نفسها أمام الجميع وهي تصرخ بالتياع على ابنتها، وكانت لا تكف عن هز رأسها وكأنها تحدث شخصاً ما ماثلاً أمامها ثم تنخرط في نحيب طويل، فإذا ما هدأت وظنّ الملتفون حولها أنها بدأت تعود إلى هدوئها وشرودها، اندفعت نحو النافذة لتلقي نفسها منها، فيهرعون نحوها ويمنعونها عن ذلك وكلهم خائف منها وعليها. وأدرك الطبيب المشرف عليها بأنها في طريقها إلى الجنون إن لم تكن قد جنّت فعلاً، فتحدث مطولاً مع المختار صالح والشيخ سعدو ومن ثم مع الشرطي المحقق الذي أدرك بعد أيام من محاولاته معها ألّا فائدة تُرجى، فقفل الضبط مكتفياً بشهادة المختار والشيخ سعدو دون أن ينسى الإشارة إلى جنون أم إبراهيم، مشيراً في الوقت نفسه إلى أن الانتحار تم تحت ضغط يأس الابنة هيام من الشفاء من المرض العضال الذي أتى على صدرها كله تقريباً. وبعد أسبوع على ذلك تم نقل أم إبراهيم المصابة بلوثة في عقلها إلى مستشفى الأمراض العقلية بظاهر دوما.

* * *

-٣٥-

لم تستطع أعمال مكافحة الجراد التي تولاها أحمد في قريتي المليحة والبلاط في صرف تفكيره عن مشاهد تلك الليلة السوداء التي كانت تهاجمه بعنف كلما غفا تعباً في الهزيع الأخير من الليل، فيستيقظ مرتاعاً على هيام وهي تغوص في اللجة، وعلى رأسها الأشقر الذي كان يغور ويبدو حاملاً إليه نظرة الاحتقار التي رمته بها قبل أن تقذف بنفسها إلى النهر. وعلى الرغم من مرور أكثر من أسبوعين على الحادث، فإن العمل الشاق الذي ألزم نفسه به، والحياة اليومية مع عدنان الممراح لم يتمكنا من دفع ذلك الأسى الذي سربله، وأغدق عليه تلك المسحة الرومانسية المحببة التي كانت تستهوي أهالي القريتين معاً، فخصوه بالحب أكثر مما خصوا به زميله عدنان.

وكان أحمد يفكر في الموت كثيراً ويتمناه، ولكنه لم يفكر في الانتحار على الإطلاق، كان يائساً ينتظر العقاب الذي يستحقه على الإثم الذي اقترفه، ويأمل من الموت أن يطرق بابه ليستسلم إليه. ولكن ملاك الموت لم يفعل ذلك، واعتقد أنه لا بد أن يأتي ذات يوم ليصفّي حسابه معه جراء ما اقترف.

ونتيجة لتفكيره هذا، كان يلقي بنفسه في مجازفات صعبة معتقداً بأن الله هيأها له ليخلصه من الذنب الذي يضغط بكل قواه على نفسه وأعصابه، وكانت آخر مجازفاته الرعناء ما حدث له في الهضبة الواقعة في ظاهر قرية البلاط، والمعروفة باسم (أرض الثعابين) لتواجد عشرات الثعابين السوداء فيها، وكان أهل القرية يشكون من هذه الثعابين التي كانت تفتك بالأغنام والأطفال وحتى بالكبار في بعض الأحيان دون أن تجدي محاولاتهم المتكررة التي كانوا يقومون بها بوسائلهم المختلفة البسيطة التي يبتكرونها شيئاً في القضاء على خطر هذه الثعابين المتزايد.

ووصل إلى سمع عدنان وأحمد أخبار تلك الهضبة، وعرفا موقعها تماماً ليتجنباها خلال عملهما، ولكن أحمد صمم بينه وبين نفسه على الذهاب إلى تلك

الهضبة معتقداً بأن الله قيض له هذا المركب الصعب للخلاص من جحيم ما يعاني، وللتضحية بنفسه من أجل تخليص القرية من خطر الثعابين.

ومع خيوط فجر يوم من أيام شهر أيار، حمل على ظهره (باصقة اللهب) الخاصة بحرق الجراد العادي، وزودها بما تحتاج إليه من وقود، وانطلق يبغي هضبة الثعابين بين دهشة صديقة عدنان، واستغراب عمال المكافحة الذين اعتادوا العمل معه كل يوم.

وطار الخبر إلى القرية، وانتشر بين الفلاحين، فتجمعوا بسرعة ثم حملوا عصيهم بعد أن قرروا وهم يطيرون فرحاً اللحاق بأحمد ومساعدته فيما يبغي. أما عدنان الذي كان يخشى هذا الأمر، فقد هرع بدوره إلى (باصقة اللهب) الخاصة به، فزودها بالوقود ثم تمنطق بها، وانطلق وراء صديقه، وكله أمل في أن يلحق به قبل أن يصل إلى الهضبة على الرغم من الخوف الذي يعتريه.

وألقى أحمد نظرة متفحصة على أطراف الهضبة القليلة الارتفاع ذات المسالك الوعرة التي لم يبق من أعشابها الخضراء التي التهمها الجراد سوى النزر اليسير، ومن ثم اختار درباً ضيقاً سهلاً نوعاً ما ليعبر منه إلى الهضبة الفسيحة. وزيادة في الحرص، وخوفاً من أن تكون بعض الثعابين لم تهجع للنوم بعد، أوقد فم (باصقة اللهب) وهيأها للعمل احتساباً لأية مفاجأة قد تحدث، ثم بدأ يصعد الدرب المحفوف بالأعشاب الندية التي بدت له مع نور الفجر الآخذ بالانتشار، كأنها تبكي فرحاً لقرب لقائها بالضياء.

كان يمشي بحرص متناهٍ، ويراقب خطواته خطوة خطوة، ويبحث بعينيه بين الأعشاب ووراء الأحجار متفحصاً كل شيء، إلى أن أشرف على الهضبة التي بهرته بجمالها وأشجارها وصخورها دون أن يصادفه أو يعترضه ما يعيق تقدمه.

ووقف يتأمل الهضبة التي بدت له هاربة من العصور السحيقة.. كان كل شيء فيها يدل نتيجة الإهمال الذي أصابها على بدائيتها ووحشيتها.. لا شيء فيها ينبي عن الحياة سوى الأشجار والنباتات الطفيلية وأسراب العصافير التي كانت تملأ الفجر صراخاً وفرحاً، والغربان التي استكان بعضها بسواده الأسحم

على رؤوس الأشجار، وحلق بعضها الآخر بعيداً في الأفق، وألوان الشفق التي كانت تعكس أنوارها لتحيلها بين لحظة وأخرى إلى لون أرجواني متبدل تخالطه ألوان أخرى هي مزيج عجيب من الرمادي والأصفر والأزرق والأخضر القاتم، لتبدد في وحشتها كأنها لوحة من صنع رسام شهير.

وتنبه إلى فحيح قريب، فتوجه بنظراته نحو ما قاده إليه سمعه، فلم يرَ سوى حفر مدورة مختلفة الأحجام، فغدا وقد ايقن أن هذه الحفر هي أوكار للثعابين كتلة متحفزة متوترة، وتناهت إليه من بعيد أصوات الفلاحين، فاستغرب ذلك، ولكنها لم تصرفه عما هو فيه، فالمهمة التي أخذها على عاتقه لقاء الموت الذي يشتهي، تقتضي منه الانتباه لكل نأمة أو حركة لينفذ ما وطَّد العزم عليه قبل أن يغدو طعاماً سائغاً للثعابين التي تملأ هذه الهضبة.

وعاد الفحيح هذه المرة أشد وضوحاً، وبرز من وراء صخرة كبيرة، ثعبانان يتلاحقان بنشاط ما لبثا حتى التفا حول بعضهما كرباط وثيق، وكأنهما في التفافهما يتعانقان ويرقصان رقصة الحب، ثم انفصلا عن بعضهما ليعاودا الالتمام بشوق ونهم، فلم يمهلهما أحمد الذي شلَّه الخوف وبهره بريقهما الأسود وأعيته حركتهما الدؤوبة، فأطلق من الباصقة التي يحمل خطاً من اللهب الأزرق أصاب الثعبانين في رأسيهما فقفزا في الجو متراً وبعض المتر وكأنهما يبغيان خصمهما الذي ظل يلاحقهما بناره قبل أن يستقرا على الأرض.

وفجأة برزت من بعض الأوكار القريبة رؤوس سوداء تستطلع سر ذلك الزائر الغريب الذي وصلت رائحته إلى أنوفها قبل أن تصل نيرانه، وأخذت تخرج من هنا وهناك من الحفر، ومن وراء الأعشاب والصخور، ومن خلف الأشجار، وبدأت زحفاً مفزعاً، بعضها يتوجه نحوه، وبعضها ينسل بعيداً، وبعضها الآخر ظل في الحفر يرقب ما يحدث أمامه. وأصاب أحمد الارتياع فهو لم يكن يتوقع هذا العدد الكبير من الثعابين. وأدرك أن نهايته باتت محتومة، ومع ذلك أمل في أن يفعل شيئاً، فحب الحياة على الرغم من هاجس الموت الذي قذف به إلى هذه الهضبة، جعله يفكر في وسيلة يتجنب عن طريقها خطر هذه الثعابين التي بدت له في زحفها نحوه، كأنها تدافع عن وجودها وعن الأرض التي احتلتها قسراً بعد أن طردت أصحابها منها بما

أحدثته من رعب وتقتيل، فهي تشبه المستعمر الفرنسي الذي احتل البلاد قسراً ولا يريد الخروج منها إلا بعد نهبها وتدميرها.. ولم يطل به الأمر، إذ ما كاد يسمع هدير الفلاحين يقترب من الهضبة، وصوت زميله عدنان يلعلع منادياً عليه من أسفل الهضبة، حتى شعر بالاطمئنان، فهو لم يعد وحيداً في معركته. وانبرى فوراً بعد أن رد على زميله محذراً، فأطلق لهب قاذفته على أقرب ثعبان وجده يتجه نحوه، ودالاً في الوقت نفسه زميله عدنان على مكانه، ثم استدار دورة كاملة وهو في مكانه يتفحص ما يحيط به، فرأى الثعابين تتلوى زاحفة في مختلف الاتجاهات، فارتاع وقد أدرك المصير الذي ينتظره، ومع ذلك فإن حب الحياة الذي انبثق من أعماقه بغتة، دفعه لأن يستخدم باصقة اللهب في إشعال دائرة من النار، يزيد قطرها على المترين من مركز وقوفه، ثم أخذ يعالج بنارها الحارقة بعد أن أمن هجوم الثعابين عليه الأوكار الصغيرة والكبيرة، دون أن يعبأ كثيراً أو قليلاً برائحة الشُواظ المنبعث من تلك الأوكار، وسيطر عليه نوع من الارتياح، عندما اقتحم صديقه عدنان الهضبة وهو يحرق بباصقته كل شيء يعترض طريقه، وصياح الفلاحين وهم يهدرون وأصوات عصيهم تضرب كل هارب من الثعابين عند سفوح الهضبة المحاصرة.

والتقى الصديقان، والعرق يتصبب منهما والشمس تطلق سهام أشعتها الأولى على وجهيهما لتكشف آثار المعاناة الشاقة التي يكابدانها في تلك اللحظة.. وكانت نظرة الفرح الغامر التي ارتسمت في أحداقهما خير تعبير عن الحب الذي يكنه أحدهما للآخر، وكانت وحدها كافية، لينصرفا إلى مجابهة الخطر الذي يتعرضان له، وكأنهما يكافحان سهلاً من الجراد، وبإشارة بسيطة من رأسيهما تفاهما على ما يجب أن يقوما به، فأعطى كل واحد ظهره للآخر تحسباً من مباغتة مفاجئة من الثعابين التي اشتدت شراستها أمام اللهب الصاعق الذي كان يشويها شياً، ثم أخذا يحرقان بتؤدة كل شبر، بل كل شيء حي في الهضبة. وفاحت رائحة الوقود الممتزجة برائحة الأعشاب والأحناش المحروقة، فزكمت الأنوف، وغطى الدخان كل الأرجاء وهو يتصاعد ويتلوى وفق حركة النسيمات التي كانت تهب بين الحين والآخر، وأحمد وعدنان يتقدمان كتفين إلى كتفين في مختلف الاتجاهات، وهما يحملان بقسوة على الثعابين التي كان بعضها يشبٌّ

عليهما يأساً بعد أن سدت النار المنطلقة من الباصقتين أمامها سبل النجاة، دون أن يعبأا بالدموع التي أثارها الدخان حتى ملأت مآقيهما، وكان عدنان يهتف بين آونة وأخرى مبتهجاً كلما قضى على أحد الثعابين:

- أحرقت واحداً آخر...

ليجيبه أحمد باللهجة نفسها وكأنهما في تسابق:

- وأنا أيضاً..

إلى أن أعياهما ما أحصيا، وهما ما زالا يحرقان كل شيء، والفلاحون يقضون بدورهم بعصيهم ورفوشهم التي جلبوها معهم على الثعابين الهاربة من أوار الجحيم التي أسعر لظاها أحمد وعدنان.

وعندما تربعت الشمس في كبد السماء، ونفذ وقود الباصقتين، ولاح للشابين أن كل شيء في الهضبة غدا هادئاً تماماً إلا من صياح بعض الفلاحين هنا وهناك ارتميا أرضاً التماساً للراحة، دون أن يغفلا عن مراقبة ما يحيط بهما، وكانت بقايا جذوات النار المنتشرة، ما زالت ترسل عسيساً، بدا لهما كأنه حديث النار للنار فيما التهمت.

* * *

كانت التظاهرة الفلاحية التي اخترقت قرية البلاط قادمة من هضبة الثعابين والتي يتوسطها عدنان وأحمد، من الأحداث التي لا يمكن أن تنسى، فقد خرج الفلاحون من بيوتهم نساء وأطفالاً وكهولاً ليشاهدوا مع رجال الدرك الذين خرجوا بدورهم من مخفرهم الوحيد، ما جمعه الفلاحون من الثعابين المحروقة والأخرى التي قتلوها بعصيهم ورفوشهم، ووضعوها في فَرْش خشبي كبير رفعوه على ظهر طنبر صغير يجره بغل لتشاهدها القرية كلها، وعندما وصلوا إلى ساحة القرية أضرموا ناراً كبيرة ورموا بالثعابين التي جمعوا، وسط الهتافات والزغاريد لتغدو خلال ساعة من الزمن رماداً تُجمّله مئات الأنياب البيضاء التي وشحتها النار بسمرة داكنة نوعاً ما.

وقبل أن ينفضّ الناس إلى بيوتهم وأعمالهم نادى المنادي بأن المختار يدعو أهل القرية ورجال الدرك والشابين البطلين أحمد وعدنان إلى وليمة في داره، تقام احتفالاً بالحدث السعيد، كذلك نادى المنادي بأن صاحب الهضبة يهب ما ستنتجه الهضبة من محصول في الموسم القادم لأهل القرية من المعوزين وللشابين أحمد وعدنان كمكافأة لهما لمبادرتهما في تخليص البلدة من خطر هذه الثعابين.

* * *

كانت فرحة أحمد وهو يتصدر مع عدنان وقائد الدرك حفل العشاء الذي أقامه المختار لا توصف، فقد أدرك من وراء معاناته في الهضبة والثعابين تحيط به من كل جانب بأن الله أرسل إليه عدنان والفلاحين لإنقاذه ونجدته، وإن الإثم الذي يضغط على نفسه قد ذهب إلى غير رجعة، لأنه كفّر عنه بما قام به من عمل عاد بالخير على أهل القرية، وأن الله لو أراد به سوءاً لقضى عليه في تلك المحنة أو في سواها، ولكن الله غفور رحيم، فقد غمره برحمته وغفرانه، ومن هنا شاعت الفرحة في أعطافه، وانتقلت عدواها إلى عدنان الذي أسعده أن يرى صديقه فقد تخلص من رواسب ذلك الحدث الذي كان يودي به في تلك المجازفة التي قام بها.

وقال عدنان مخاطباً قائد درك الناحية وهو برتبة ملازم ثانٍ:

- لو أن الناس يفعلون بالمستعمر ما فعلناه بالثعابين اليوم، لاحتفلنا ابتهاجاً كما نحتفل الآن .

وضحك رئيس الدرك قائلاً:

- لا بد أن يأتي هذا اليوم مهما طال.. والشام تغلي اليوم كالبركان، وقد تنفجر الأحداث بين لحظة وأخرى..

وسأل أحمد الذي كان ينصت بإصغاء تام:

- وماذا ينتظرون؟!.

- لا أدري، وكل الذي تلقيته من دمشق أن نكون على استعداد لكل طارئ..

وهتف عدنان بحماسة:

- يجب أن نذهب إلى دمشق.. فربما كان رفاقنا يحتاجون إلينا..

وقال أحمد موافقاً:

- هو ما تقول..

وأشار رئيس الدرك إلى ما يجري في الحفل، وقد أخذ يصفق مع المصفقين، فحفل العشاء لم يقتصر على الطعام فحسب، إذ جلب المختار نفراً من الغجر الذين أقاموا مضربهم بظاهر القرية وكان من بينهم راقصتان وضارب بزق وضارب دربيكة. وقد أخذت الغجريتان تتبادلان الرقص فيما بينهما على أنغام البزق السريعة المتدفقة، وإيقاعات الدربيكة الديناميكية، وتخصان أحمد وعدنان بنظراتهما وحركاتهما، أدرك الشابان بأن وراء هذه النظرات والحركات ما وراءها، ولما كان أحمد زاهداً بالنساء بسبب تجربته مع أم إبراهيم التي أدت إلى الكارثة إياها، فإنه لم يعرهما أي التفات بعكس صديقه الذي تجاوب سراً مع حركات الغجريتين ونظراتهما، وأخذ يلكز صديقه بكوعه ليتجاوب معه، بينما ضحك رئيس الدرك ومدَّ عنقه نحو أحمد قائلاً وهو يداعبه:

- تمتعا معهما وحاذرا على جيوبكما..

واحمرَّ وجه أحمد وأغض حياء، فازداد قائد الدرك ضحكاً وقال لهما بعد أن هدأا:

- لا تخشيا شيئاً، سأغض الطرف أنا ورجالي عن كل شيء..

وأدرك أحمد ألاّ فائدة ترجى من مناقشة الأمر مع قائد الدرك، فانصرف إلى متابعة الراقصتين وكانت المديدة منهما أكثر وسامة من زميلتها ذات القوام المعتدل، وتبدي نحوه اهتماماً ملحوظاً، وكان لا يبين منها سوى وجهها الطافح بالحيوية، أما جسدها المخبوء باللباس البدوي التقليدي فيبدو رشيقاً منسجماً كزميلتها التي كانت تبدع في الرقص أكثر منها.

* * *

وعند منتصف الليل تقريباً، انفرط عقد الحفل وانصرف الناس إلى بيوتهم وترافق أحمد وعدنان مع قائد الدرك الذي كان يصحبه دركيان إلى بلدة المليحة القريبة والملاصقة لقرية البلاط يبغون بيوتهم، وهم يتحدثون عن كرم المختار وضيافته وعن الراقصتين النوريتين المليحتين، وينصتون بين حين وآخر إلى صدى قهقهاتهم ووقع خطواتهم، وظلوا كذلك حتى تفرقوا عند بيوتهم التي يقطنون، وكان أول الواصلين أحمد وعدنان اللذين ودعا قائد الدرك بحرارة، ودخلا منزلهما الذي يتكون من غرفتين في الدور الأول، ومثلهما في الدور الثاني. وكانا قد خصصا غرفتي الطابق الأول لأعمال المكافحة، بينما انفرد كل واحد منهما في غرفة مستقلة في الطابق الثاني.

ما كاد أحمد ينفرد في غرفته حتى أطفأ نور المصباح بنفخة قوية، واستسلم للنوم، فقد أنهكه التعب والسهر، أما عدنان الذي ظل ساهراً بعض الوقت فلم يفارقه رقص الغجريتين المثير ولا نظراتهما وحركاتهما، وأخذ يلوم صديقه بينه وبين نفسه على استهانته بهذه الفرصة النادرة للانفراد بمثل هاتين الجميلتين. وبينا هو كذلك، سمع طرقاً خفيفاً على الباب الخارجي، فجمد في فراشه للحظات ليتأكد مما يسمع، حتى إذا عاد الطرق على الباب من جديد خفيفاً ولكن أكثر قوة، تأكد مما سمع، وهرع يقفز الدرج أربعاً أربعَ حتى وصل إلى الباب فهتف:

- من هناك؟! .

فتناهت إليه ضحكة نسائية خافتة وصوت خفيض يقول:

- افتح.. نحن..

وفتح الباب ليرى من خلال ليل الربيع، وجه الغجريتين، ومن خلفهما وجه ثالث عرف فيه ضارب الدربيكة.

ودخل الثلاثة دون أن يأذن لهم بالدخول، وأغلقوا الباب وراءهم، لتتم مساومة سريعة، خرج بعدها ضارب الدربيكة وهو يقول:

- لا أريد فضائح.. سأنتظركما عند الفجر..

استيقظ أحمد كعادته عند الفجر، فارتدى ثيابه بسرعة، وانطلق في نزهته الصباحية التي اعتاد أن يقوم بها مع عدنان كل صباح في دروب القرية البعيدة والقريبة من البساتين، ولكن عدنان امتنع القيام بها هذا الصباح ورفض مشاركته في نزهته بسبب الأرق الذي لازمه طوال الليل، ومن هنا انطلق وحده بهدف النزهة وبهدف تحديد الأمكنة التي غرس فيها الجراد أجربته التي حان وقت ظهورها. وكانت لا ترافقه في نزهته سوى أسراب العصافير وهي ترف من هنا وهناك، وقزعات من الغيم الرقيق التي بدت كأنها قطعان من الحملان الوديعة تعابث صفحة السماء الزرقاء. وكان يتوقف بين الحين والآخر عند بعض شجيرات الورد الجوري التي كانت تعطر الجو ليستنشق بملء رئتيه ما تضوع به من عطرٍ وشذا نادرين. وعندما غدا بعيداً عن القرية وأوغل في حقل قليل الشجر متفحصاً الأرض ومحدداً أمكنة إغراز الجراد، لمح عن بعد مضرب النَوَرْ، فتذكر سهرة الأمس والراقصتين، فتحرك شيء في داخله، وأحس برغبة شديدة في رؤية الراقصة المديدة، فتوجه بخطى وئيدة نحو أقرب خيمة إليه من الخيام الثلاث وهو يتظاهر بتفحص الأرض. وكانت الخيام الثلاث تبدو له من بعيد وكأنه صنعت من أكياس الخيش، ومرقعة في أكثر أجزائها بخرق صفراء وحمراء وزرقاء كالحة، وكان يسرح على مقربة منها أربعة من الحمير تلتهم بنهم ما تصادفه من حشائش وأعشاب عفّ عنها الجراد. وتوقف عن سيره وقد غدا قريباً بعض الشيء من أقرب خيمة إليه، وأصاخ قليلاً إلى آلة البزق التي أخذت تشدو فجأة برقة لتشارك رقة ذلك الصباح الندي في فرح الطبيعة، ومن ثم انطلق باتجاه الموسيقا وهو يحدث نفسه:

- لا ريب أنه العازف نفسه الذي استمعت إليه ليلة الأمس..

وغدا عند الخيمة التي كانت هدفه، فتناهى إليه صوت رجل يقول:

- لقد تأخرت يا (سكرة) عن الشغل.. اذهبي إلى شأنك وموعدنا مساء عند (باب شرقي).

وخرجت (سكرة) من الخيمة دون أن تلحظ أو تنتبه إلى وجود أحمد، غير أن كلاب المخيم، سريعاً ما علا نباحها، واندفعت بشراسة تجاه أحمد الذي حاول الاحتماء منها، فلم يجد أمامه سوى الخيمة، فاندفع نحوها لحظة توقف البزق

عن الشدو، ليصطدم خلال اندفاعه المضطرب بـ (سكرة) ويقعا معاً على الأرض، وقد تحلقت من حولهما الكلاب التي لم تتوقف عن النباح.

لم تكن (سكرة) سوى تلك الراقصة الغجرية ذات القامة المديدة التي تمنى رؤيتها. وعندما تصافحت نظراتهما، وكان أغلب الغجر قد خرجوا من خيامهم على صوت النباح ليستوضحوا الأمر، ابتسما بفرح غامر لم يخف شعورهما، ومن ثم نهضت (سكرة) وهي تغالب ذلك الشعور الذي غمرها، وأخذت تهرّ الكلاب. في الوقت الذي أحاط بهما رهط من أهل المخيم رجال ونساء، وعجائز وأولاد المخيم الذين دفعوا بنظراتهم القاسية ووجوهم العابسة المقطبة الرعب إلى نفس أحمد، غير أن عازف البزق وسكرة وضارب الدربيكة سرعان ما أنقذوه مما هو فيه، عندما رحبوا به ودعوه على قدح من القهوة، فنهض متثاقلاً، وجلس على المقعد الصغير الذي قدمه له ضارب البزق، بينما أخذت سكرة تعدّ القهوة، وتزقه خلال ذلك نظرات فيها من الغواية الشيء الكثير، وكانت تنادي بين الحين والآخر على صديقتها (غازية) دون أن تتعب من النداء، إلى أن صاحت أخيراً:

- (غازية).. غازية.. قومي.. عندنا ضيوف..

ورد عليها صوت أنثوي متذمر قائلاً:

- حاضر.. حاضر..

وبرزت من الخيمة الراقصة الغجرية ذات القوام المعتدل وهي تتمطى، حتى إذا وقعت عيناها على أحمد هشّت وبشّت وهي تتقدم نحوه مختالة:

- أهلاً بالبيك.. أهلاً بقاتل الثعابين..

- أهلاً بيكِ...

- إنما.. فين صديقك..

وقطعت سكرة حديث زميلتها خوفاً من أن تشط في ثرثرتها وتروي ما حدث ليلة أمس فقالت:

- تعالي قدمي القهوة لضيفنا.. والاّ أقول لك.. اذهبي واغسلي وجهك قبل كل شيء، ثم تعالي اشربي قهوتك..

وانصرفت غازية لشأنها، بينما قعدت سكرة القرفصاء إلى جانب أحمد، وأخذوا يرشفون القهوة ويتبادلون شتى الأحاديث حتى انتهت بهم إلى حديث الجراد وإغرازه، واستدل أحمد من خلال حديث عازف البزق (محمد علي) على مواضع تغريز الجراد في المناطق المتاخمة لحدود عمله في منطقة المليحة، وكان (محمد علي) يتحدث حديث الخبير الذي اكتسب معرفته بالترحال الدائم الذي كان يفرض عليه وعلى عشيرته من النَوَرْ معايشة الطبيعة باستمرار.

وانضمت غازية إليهم، وبدت في أحاديثها وغنجها وغمزاتها وهي تشرب القهوة أشد عهراً من المومسات دون أن تخجل من (محمد علي) الذي بدا غير مهتم.

ولم يطل الأمر بأحمد بعد ذلك، إذ نهض مستأذناً ليستأنف عمله المناط به لمكافحة الجراد الزحاف، عند ظهوره. ولكن سكرة استوقفته وطلبت أن ترافقه حتى حدود البلدة قبل أن تستأنف طريقها إلى دمشق..

وفي الطريق علم منها أنها زوجة عازف البزق (محمد علي) وأنها سعيدة في طريقة حياتها التي فُطر عليها الغجر عموماً..

وسألها بعد أن توقفت عن الكلام:

- وماذا ستفعلين في دمشق ؟..

- أسعى وراء رزقي..

- وكيف؟!.

- أشوف البخت.. أبصّر للناس أحوالهم ومستقبلهم..

- هذا لغو..

- إنها مهنة كأي مهنة أخرى، وتجد رغم وضاعتها هوى لدى الناس..

- ألا تجدين صعوبة في ذلك..

- أحياناً.. عندما يحاول بعضهم إغرائي بالنوم معهم..

- وهل تقبلين؟!.

وضحكت سكرة ضحكة خفيفة واحمرّ وجهها الذي لوحته الشمس بسمرة محببة ثم قالت:

- دعني أرى طالعك..

- وكيف تفعلين..

- أعتمد في عملي عموماً على بروج الناس..

- الآن فهمت ماذا تقصد نسوتكن عندما ينادين بـ بصارة.. براجة..

وتضحك من جديد ضحكة خافتة تنفرج عن أسنانها ثم تصيح به بإلحاح وكأنها على علاقة قديمة به:

- دعني أرى طالعك..

ولم تنتظر جوابه، إذ جلست فوراً على الأرض ونثرت أمامها خمسة ودعات وقالت:

- اسمك، واسم أمك، واسم أبيك وبرجك بالكامل..

ووجد أحمد نفسه منقاداً لها، فقعد القرفصاء وقال مستسلماً:

- اسمي (أحمد غازي) واسم أمي (مريم محمد) وأبي (دياب غازي) الشهير بأبي دياب..

وضحكت ضحكة ذات جرس موسيقي دغدغت مشاعره دفعة واحدة فقال معابثاً:

- ألا تريدني أن أبيّض الفال..

فهزت رأسها نفياً وقالت:

- اسمع يا سيدي.. قدامك طريق صعب حافل بالشوك.. ستتعرض للخطر ولكنك ستنجو.. وقدامك أيضاً بنت.. لا.. مش بنت.. امرأة جميلة، ولكنها مش قد المقام.. يمكن تحبك..

- امرأة جميلة تحبني..

ويقهقه مكذباً، وفي قرارته كان يتمنى لو كان حقيقة، ولكنها لم تتركه يفكر إذ تابعت:

- هيك يقول الودع..

- صفيها لي..

ونثرت الوَدع من جديد ثم قالت وقد رفعت إليه النظرات نفسها التي قابلته بها عندما وقعا على الأرض أمام خيمتها وقالت:

- طويلة، رشيقة، متزوجة.. وستزورك الليلة في بيتك..

وفهم نظراتها وفهم بالتالي ما تعني ولكنه حاول التخلص بالعودة إلى موضوع التنجيم فقال:

- مهلاً... كيف عرفتِ كل هذا، ولم تطّلعي على البرج الذي ولدت فيه..

وقبل ان يتلقى الجواب، كانت قد لمّت الودع وقالت وهي تنهض وتنطلق بسرعة:

- عرفت وخلص.. الليلة ستزورك..

ولوحت له بيدها من بعيد، واختفت وراء أشجار البستان الذي انحدرت إليه..

وحاول أحمد اللحاق بها ليثنيها عن عزمها، ولكنه لم يستطع فقد حجبتها عنه أشجار البساتين والدروب التي اختفت وراءها.

* * *

انطلق الصديقان أحمد وعدنان، مع مجموعة من الفلاحين، فحددا الأمكنة التي يجب أن تُحفر فيها الحفر الطويلة أمام طريق الجراد الزحاف، ثم أخذا يساعدان الفلاحين الذين عكفوا على حفر ما يشبه الخنادق بعرض متر واحد وعمق نصف متر، كي لا ينجو زحّاف واحد أثناء قفزه، وكان الفلاحون كلما انتهوا من حفر منطقة، انطلقوا إلى غيرها وفق إرشادات أحمد فيفعلون مثلما فعلوا في سابقاتها إلى أن انتهوا من جلِّ المناطق التي استدل عليها أحمد من النوَري (محمد علي) قبيل غروب الشمس بقليل.. وفي طريق العودة أفصح أحمد عن غايته قائلاً للفلاحين:

- بعد يومين أو أكثر ستظهر أرتال الجراد الزحّاف بالآلاف، وهي أخطر من الجراد العادي لأنها تلتهم في طريقها كل شيء، وكل عملنا الذي قمنا به اليوم يذهب هدراً إذا لم نتابع المطلوب منا.

فسأل أحد الفلاحين وقد بدا عليه التعب واضحاً:

- وما هو المطلوب..

فرد عدنان عوضاً عن زميله قائلاً:

- المطلوب أن نتفقد الأمكنة التي حفرنا قربها، حتى إذا شاهدنا أرتال الجراد الزحاف انبرينا إلى قيادته إلى حتفه..

وصاح فلاح آخر مستفسراً:

- وكيف؟!.

- سنأتي الجراد الزحّاف من خلف، ونعمل على توجيهه نحو الحفر بهشه وكشه حتى يتساقط فيها.

وسأل ثالث:

- وإذا قفز من الحفر؟!.

وهنا رد أحمد:

- لن يستطيع، وعندما تمتلئ الحفر به نردمها ونتخلص من هذا الوباء نهائياً..

فقال أحد الفلاحين الشباب:

- الله يسمع منك يا أحمد أفندي، لأن ما حفرناه اليوم يساوي عمل سنة بكاملها في الحقول.

فطيّب أحمد من خاطر الجميع مؤكداً:

- أعرف ذلك، ولكني واثق من عملي، وعليكم أن تثقوا بي، وغداً نتابع ما بقي أمامنا مع الفريق الذي يعمل اليوم، ولكن لا تنسوا.. علينا تفقد الأمكنة التي تقع قرب الحفر، لنرى فيما إذا ظهر الجراد الزحاف من مغرزه أم لا، وسأكون السباق إلى ذلك..

وانصرف الفلاحون نحو القرية جماعات، بينما سار عدنان وأحمد معاً متلكأين بعض الشيء، ثم تساءل عدنان بغتة:

- ما يحيرني فعلاً، تحديدك للأمكنة، وجلّ ما أخشاه، أن يذهب عملنا وعمل الفلاحين سدى..

- لا تخشَ شيئاً، ألم تلاحظ قرب الأمكنة التي قام الفلاحون بالحفر عندها نوعاً من المادة المخاطية البيضاء..

- بلى..

- هذه المادة، هي علامة الغرز التي قام الجراد بغرز أجربته فيها..

- ولكنها كثيفة..

- هو ذلك..

- وكيف عرفت كل هذا، وإرشادات مديرية المكافحة خالية منها تماماً..

- من (محمد علي)..

- محمد علي؟!.

قال عدنان ذلك ثم أردف:

- ومن هو (محمد علي)... ؟!

- إنه النوري عازف البزق.. لقد زرت مضربهم فجراً، وشربت القهوة عندهم، وتحدثت إلى (سكرة) و(غازية).. الراقصتين اللتين رقصتا في حفلة المختار ليلة أمس..

- ماذا تقول؟!.

- الذي جرى.. و(سكرة) بالذات تختلف عن جميع نوريات هذا المضرب..

- دعك من هذا، ودعني أروي لك ما جرى معي ليلة أمس..

* * *

عندما انتهى عدنان من روايته، كانا قد وصلا إلى ساحة البلدة، والدهشة تعلو وجه أحمد الذي سأل صديقه:

- و(سكرة) هل نامت معك؟! .

- أبداً.. رفضت وقالت إنها جاءت خصيصاً من أجلك.. كذابة.. تريد ما في جيبك كما فعلت (غازية).

- وهل نقدتها مبلغاً كبيراً..

- لا.. لقد ساومت ضارب الدربيكة على عشر ليرات يقتسمونها فيما بينهم..

- وقبلوا..

- أجل..

- و(سكرة)!.

- وسكرة أيضاً.. لقد حاولت كثيراً أن تدخل غرفتك فمنعتها خوفاً منك.. فأنا أعرف كم أنت زاهد في الحب بعد الذي حدث..

- وأنت!.

- أعترف إليك.. إنها تجربتي الأولى وإذا جاءتني هذه الليلة فسأرحب بها كثيراً.. إنها على الأقل تقتل الوحدة التي نعاني..

- هو ما تقول..

ووصلا أخيراً إلى البيت وهما يردان أثناء ذلك على تحيات الفلاحين الجوار، حتى إذا ضمتهما الغرفة وشرعا يهيئان طعامهما قال أحمد:

- لا أدري إذا كانت تقول حقاً..

- من؟!.

- سكرة..

- وماذا قالت لك؟!.

- قالت إنها ستقوم بزيارتي هذه الليلة..

- وحدها..

- هكذا قالت..

واستغرق عدنان في التفكير لحظة وقد فاحت رائحة البيض المقلي باللحم ثم قال:

- في اعتقادي أن هذه الفتاة تميل إليك..

- وما الذي جعلك تعتقد ذلك..

- رفضها النوم معي، وإصرارها على دخول غرفتك وأنت نائم..

- كلام..

- يجوز، لا سيما قائد الدرك نبهنا وطلب إلينا أن نحرص على جيوبنا.. فالنوَر كما تعرف لا أخلاقيات لديهم.. إنهم يحللون كل شيء ولا يدينون بأي دين..

- يظل كل هذا كلاماً بكلام.. وعلى كل حال إن جاءت هذه الليلة كما أعتقد، فسأعرف إن كانت كزميلتها (غازية).. فأنا لا أدفع قرشاً واحداً من أجل ممارسة الحب، وسأطردها فوراً إن ساومت أو طلبت شيئاً لقاء ذلك..

- كل ما أرجوه ألا تأتيَ وحدها..

- ماذا؟! .

- أقول، ليتها تصطحب غازية معها..

- إن جاءت! .

وجلسا على مائدة الطعام وأخذا في التهام البيض المقلي باللحم بشهية كبيرة، دون أن يفارقهما حديث النوريتين، وأخيراً سأل عدنان صديقه:

- هل مارست الحب قبلاً..

وفوجئ أحمد، وتداعت فوراً ذكرياته مع أم إبراهيم ووجد نفسه يتساءل: ترى ما حلّ بها ؟.. ولما أعياه الجواب، أطلق زفرة حارة لينتبه على صديقه الذي سأله ثانية:

- لم تجبني، هل مارست الحب قبلاً..

- طبعاً..

- كيف، وأين؟!.

واحتار فيمَ يجيب، فتلعثم وفأفأ ثم قال:

- مارسته وكفى..

- مع من؟!.

وتضايق أحمد من إلحاح صديقه، ولكنه آثر إخفاء الحقيقة فقال وهو يكذب فيما يقول:

- في المحل العمومي.. أخذني إليه أصدقاء من المدرسة، ولكني حلفت ألاّ أعيد الكرة..

- معك حق، إنما أنا مذ مارست الحب مع غازية، وأنا أفكر بها..

- حاذر يا عدنان، فالجنس غير الحب.. أنت تشتهي النوم معها فقط، إياك والتفكير بحبها..

- حب!.

وقهقه عدنان ثم قال ساخراً:

- أنا أحب نورية.. مستحيل.. ثم هي لي ولغيري ولمن يدفع لها..

- الحب يا عدنان لا يعرف نورية وغير نورية.. أنا فقط أنبهك لأنك صديقي..

- (لا توصّي حريص)..

- أتدري يا عدنان أنه لولا وجودك معي لفقدت نفسي..

وطفح وجه عدنان بالبِشر ثم قال:

- وهل عندي أنا الآخر صديق أعزّ وأغلى منك؟!.

وتعانق الصديقان، ثم عزما بعد أن خاضا في شتى المواضيع، الانطلاق إلى بيت المختار للاجتماع إلى الفلاحين الذين سيعملون الحفر يوم غد..

وفي الطريق سأل عدنان:

- لم تركت الباب موارباً!.

فضحك أحمد وأجاب:

- من يدري، ربما جاءت (سكرة) ونحن في بيت المختار، فهل نتركها تنصرف!.

- لا.. أبداً.. وإذا دهم البيت لص ما..

- لص! ومن هذه البلدة! مستحيل، إلا إذا كان من عشيرة (سكرة).

وضحك الصديقان وهما يدلفان إلى منزل المختار .

* * *

- ٣٦ -

كانت الأحداث في دمشق تتسارع وتتطور ساعة بعد ساعة، والاضطرابات التي عمت المدن السورية كافة لم تنقطع منذ بداية شهر أيار، وإضراب الطلاب والمظاهرات بلغت من العنف والحدة أشدهما، والتصدي للفرنسيين في كل مكان أصبح شعاراً وطنياً، والامتناع عن بيع الفرنسيين ما يحتاجونه من المواد الغذائية غدا عاماً، وإن خرقه بعض الباعة في الأحياء التي يقطن فيها الفرنسيون لأسباب إنسانية كي لا يحرموا أطفال الأسر الفرنسية من الحليب، والمرضى ما يحتاجونه من غذاء وأدوية. كما أن نزع صور الجنرال دوغول والجنرال كاترو، والإبقاء على صور روزفلت وتشرشل وستالين من الأمكنة العامة والمخازن والمطاعم والمتاجر، أسهم في فضح اللعبة السياسية، وخلق نزاعاً بين الجنود الأستراليين والإنكليز من جهة، وجنود الأندوشنوا والسنغال والمغاربة والفرنسيين من جهة ثانية. وكان الجنرال (أوليفاروجيه) القائد العام لقوات الشرق الفرنسية ومساعده الجنرال (كوليه) يرغبان في إطفاء لهيب النار المشتعلة في البلاد ووضع حد لها، وتأليف حكومة موالية لفرنسا. وكان عملاء الفرنسيين من السياسيين المعروفين بميولهم الفرنسية يعملون في الخفاء مع الجنرالين ويشيرون عليهما بحل البرلمان وإقالة الحكومة ورئيس الجمهورية، وتأليف حكومة موالية، تكون بمثابة حكومة إنقاذ وطني، تنادي في الظاهر بالحفاظ على المكاسب التي نالها الشعب، ولا سيما الاستقلال الصوري، وتطالب من أجل إخماد الاضطرابات بمفاوضات جديدة للحصول على مكاسب أخرى..

رجال التحري التابعون للمفوض أديب الكلسلي، ارتابوا في تحركات هؤلاء السياسيين، فأطلَعوا رئيسهم على ما يجري، وهذا بدوره اتصل برئيس الوزراء الذي اجتمع برئيس الجمهورية بحضور المفوض الكلسلي، واطلع على خفايا الأمور، وأمر بمتابعة الأمر بسرية متناهية وموافاته بأسماء المتآمرين جميعاً مع الوثائق التي تثبت ذلك..

وهكذا أخذ جهاز التحري الذي صار مذ تسلم الحكم رجالات الكتلة الوطنية، تابعاً للحكومة مع سلكي الشرطة والدرك، بالعمل على كشف خيوط المؤامرة التي تحاك ضد الحكم الوطني، فاتخذ (أبو حسين طيبا) التحري المتمرس في جهاز الأمن مكانه كماسح أحذية عند مكاتب جريدة (لوماتان . Le matin) لمراقبة الداخلين والخارجين، وكانت هذه الجريدة مع زميلتها جريدة (ليزيكو . Leseco) الجريدتين الوحيدتين الناطقتين بالفرنسية، واللتين كانتا تطالبان باستمرار من وراء مقالاتهما الافتتاحية بفتح حوار مع الفرنسيين، وتأليف حكومة جديدة ترضى فرنسا بالتفاوض معها، وكان أغلب السياسيين المناوئين للكتلة الوطنية ولحكومتها من الذين لم يسبق لهم الاستيزار من رواد مكاتب جريدة (لوماتان)، وكان جلّهم من أبناء العائلات الكبيرة التي تعاونت مع الفرنسيين زمناً طويلاً، وكان صاحبها العرّاب الذي ساعد في جمع المعارضين على اختلاف نزعاتهم لسياسة حكومة الكتلة الوطنية تحت الراية الفرنسية، أملاً في أن يفوزوا بمناصب وزارية في الحكومة المرتقبة، أو بمراكز لا تقل أهمية عنها.

وبصورة عامة فإن هؤلاء السياسيين لم يستطيعوا طوال حياتهم السياسية أن يحوزوا على ثقة المواطنين بسبب تعاملهم وتعاونهم المكشوف مع الفرنسيين على الرغم من انتمائهم كرجالات الكتلة الوطنية إلى طبقة واحدة، هي طبقة الإقطاعيين والمزارعين الكبار والملّاك والتجار، والتي تضم بين صفوفها عدداً لا يستهان به من رجال الدين والأطباء والمحامين والمثقفين.

كان تقرير (أبي حسن طيبا) يضم أسماء جميع الذين كانوا يترددون على مكاتب جريدة (لوماتان) الواقعة في الصالحية، في الزقاق المعروف باسم (الخمارات) بسبب تواجد عدد لا بأس به من المشارب وبائعي الخمر، وكانت أغلب تلك الأسماء من الشخصيات التي عرفت بتوقها للوصول إلى دفة الحكم بأي ثمن، وكان من بينهم الثري والوجيه ابن العائلة، وصاحب الجريدة، والتاجر، والمحامي والطبيب، وبعض زعماء الأحزاب المناوئة للكتلة الوطنية والتي قامت على أكتاف عدد من الشخصيات التي عملت مع الشهيد عبد الرحمن الشهبندر، ولم تحذُوا حذوه في نضاله الكبير.

كانت خطة المعارضة التي توصل إلى معرفتها (أبو حسن طيبا) تقوم على افتعال مظاهرات مضادة للمظاهرات الطلابية ومظاهرات الأحياء الشعبية التي كانت تحركها الكتلة الوطنية، لتطالب باستقالة الحكومة وتحقيق الاستقلال الناجز عن طريق مفاوضات سلمية وودية مع فرنسا. غير أن الكتلة الوطنية احتوت تلك المظاهرات وأفشلتها منذ بدأت بالتحرك، الأمر الذي جعل المعارضة تتراجع عن خطتها هذه لتستعين بحلول أخرى لا يستطيع القيام بها سوى المندوب السامي الفرنسي، وقد لقي هذا الأمر معارضة شديدة، وخاصة من (علي بك) ولكنه رضخ كغيره في النهاية أمام ضغط القائلين بالتعاون مع فرنسا من أجل الحصول على الاستقلال من المفاوض الرئيسي في هذا الأمر.

كان مجلس النواب قد اتخذ قراراً بالإجماع بعد تظاهرة خطابية كبيرة بإلغاء المادة (١١٦) من الدستور، التي تجيز للمندوب السامي الفرنسي الحق في إلغاء ما يشاء من القرارات التي يتخذها المجلس بما فيها حل المجلس النيابي، وكان المجلس قد طالب الحكومة قبلاً بالعمل على نقل جيش الشرق الذي يتكون في معظمه ضباطاً وجنوداً من العرب السوريين واللبنانيين، من الإدارة الفرنسية إلى الإدارة السورية أسوة بسلكي الشرطة والدرك اللذين أصبحا تابعين للإدارة السورية منذ استلمت الكتلة الوطنية الحكم في البلاد، كذلك ألح المجلس في كل جلساته على الحكومة أن تعمل على نقل المصالح السورية اللبنانية المشتركة كالجمارك والمرافئ والمطارات إلى الحكومتين السورية واللبنانية اللتين كانتا تعملان بتنسيق مشترك من أجل الوصول إلى هذه المطالب.

الفرنسيون الذين استاؤوا من قرارات المجلس النيابي، ومن الحكومة، ومن التيار الشعبي العارم. ومن انكشاف عملائهم قرروا العمل بسرعة، والقيام بضربة مباغتة لدمشق، وتأليف حكومة موالية لهم بعد حل المجلس النيابي والقبض على رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وكان أكثر ما يضغط على أعصابهم كثافة التطوع من المواطنين الذين كانوا يتدربون يومياً في القلعة على مختلف أنواع الأسلحة التي تملكها قوات الدرك، والتي كانت في الغالب من البنادق الإنكليزية المهرّبة والبنادق الفرنسية، ومن رشاشات (الهوشكيز) والتي كانت جميعها لا تكفي لمقارعة القوة الفرنسية.

وتحددت ساعة الصفر، وطُلب إلى المعارضة أن تعمل على وجه السرعة على تأليف حكومة، تكون جاهزة عندما يتم ضرب القوى الوطنية واحتلال دمشق من القوات الفرنسية، وذلك كي تباشر عملها وتعلن للشعب قرب بدء المفاوضات الودية مع فرنسا.

(علي بك) أحد أقطاب المعارضة، استاء من هذا الأمر، الذي وجد فيه تجاوزاً لما تم الاتفاق عليه من معارضة الكتلة الوطنية وحكومتها، وأيقن في لحظة من الإشراق الوطني، أن عداءه للاحتلال الفرنسي أشد ضراوة من عدائه للكتلة الوطنية، وأن إنقاذ دمشق مما ينتظرها من مصير على يد القوات الفرنسية أهم من كل المناصب التي وعدوه بها، فحزم أمره، وتوجه دون أن يخبر أحداً بغايته إلى القصر الجمهوري ليقابل رئيس الجمهورية الذي تربطه به صداقة عائلية تعود إلى عهد أبيه الذي كان ذات يوم رئيساً مثله.

وفي صباح الخامس والعشرين من أيار أذيع بيان هام من إذاعة دمشق الفرنسية، أعلن فيه إلغاء المادة /١١٦/ من الدستور.

وبعد ساعات على إعلان هذا البيان، قامت إحدى الطائرات الحربية الفرنسية بالتحليق على علو منخفض فوق القلعة، وضربت بقنابلها ساحة القلعة التي كانت تعج بالمتطوعين، فدبّ الذعر في صفوف المئات من المتطوعين، فهرب من هرب، وأصيب من أصيب، واختبأ من اختبأ بينما انبرى بعض المسلحين إلى إطلاق رصاص بنادقهم على الطائرة التي قامت بدورة كاملة في المنطقة قبل أن تعود ثانية لتلقي مزيداً من القنابل على القلعة الصامدة، فأصابت واحدة سوق العصرونية الملاصق لها، وأخرى حي الكلاسة القريب من الأموي بينما دمرت القنابل الأخرى مهاجع السجناء الذين قتل منهم العشرات بينما فرَّ من بقي منهم حياً يلتمسون النجاة بأرواحهم خارج بوابات القلعة المختلفة مستغلين الهرج والمرج دون أن يعبؤوا بما يجري، وهدفهم الحرية التي منعتها عنهم الجرائم التي اقترفوا، ولما كانت ملابس السجن المميزة تعيق هربهم، فقد بادروا إلى التخلص من قمصانهم فقط، ومن ثم انطلقوا في مختلف الدروب والاتجاهات التي تقود إليها بوابات القلعة وهم لا يلوون على شيء، وكان من بين الفارّين

(علي الحجار) الذي اختار طريقه بعيداً نحو بيته، حتى إذا وجد نفسه عند جسر الزرابلية، وخاف من ملاحقة الدرك الفجائية، اختار أقرب منحدر إلى النهر وألقى بنفسه فيه وعيناه تدوران في محجريهما دون قرار، وخطواته المتثاقلة تخوض في المياه التي كانت تعيقها نوعاً ما باتجاه السبع طوالع حيث يقطن دون أن يهتم بالنيران التي اندلعت داخل القلعة وفي سوق العصرونية، وقد انبرى الأهالي إلى إطفائها بما يملكون من وسائل، بعد أن ابتعدت الطائرة بحجمها نحو الغرب تاركة وراءها صوت أزيز محركها الذي أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى أن اختفت عن الأنظار.

* * *

- ٣٧ -

لم تدرِ النورية (سكرة) وهي في طريق عودتها من دمشق إلى المليحة، كنه الشعور الذي غمرها تجاه أحمد، فهي على الرغم من تمرغها في أحضان كثير من الرجال طمعاً في المال، شعرت مذ رأته في حفلة بيت المختار، وسمعت عن شجاعته في هضبة الأحناش بانجذاب غريب نحوه، وبرغبة قوية في أن تبقى إلى جانبه بعد أن تناول وطرها منه، على الرغم من عدم الاهتمام الذي أبداه تجاهها وهي المرأة التي تملك من الأنوثة والجمال ما يدير رؤوس أعتى الرجال، وأحست في تلك الليلة وخاصة عندما غمرها بابتسامته الشاحبة اللطيفة، بأنها ترقص له وحده من دون الآخرين، وإنها تدعوه بصمت إلى مضاجعة جسدها من دون الآخرين، وهي عندما ذهبت مع الطبّال وغازية إلى بيته بتشجيع منها، كان هدفها إطفاء سعير جسدها والارتواء منه ولكنها لم تفلح، وقنعت في تلك الليلة بالنوم قريباً من غرفته إلى أن أيقظتها غازية من نومها عند السحر عندما آذن انصرافهما.

كانت (سكرة) تعرف بأنها أكبر منه سناً، وأكثر تجربة وأقوى في مواجهة الشدائد، وتعرف أكثر كيف يمكنهاعإخضاعه لرغباتها، وأنه مهما طال به المقام

في المليحة فلا بدّ له أن يقع صريع إغراءاتها، لأنها تجيد الإغواء وتعرف أين يكمن موضع الضعف عند الرجال، فكيف بفتى على غرار أحمد الذي لم تعركه الحياة كما عركتها، ولم تتعبه كما أتعبتها.

وأدركت وهي تشرف على القرية من بعيد، بأن شيئاً ما يشدها إلى هذا الفتى، فهي لم تعرف الحب قبلاً، وعندما امتشق قوامها ونهد صدرها وجدت نفسها زوجة لـ (محمد علي)، وراقصة في أفراح الناس في القرى التي تقيم عشيرتها مضربها في ظاهرها، وبائعة هوى بين الحين والآخر، وإن غلبت عليها مهنة كشف الطالع وضرب الوَدَع والعلم بالغيب الذي ورثته من عجائز عشيرتها.

وارتاحت وهي تتوقف في المكان الذي توقفا عنده هذا الصباح، واسترجعت في ذاكرتها وعطور الورد الجوري تداعب أنفها، الحديث القصير الذي دار بينهما، ولا سيما حديث الوَدَع والرجم بالغيب، فابتسمت ليزداد وجهها بشراً عندما ارتسمت أمامها ابتسامته الخجلى المحببة التي اخترقتها من رأسها حتى أخمص قدميها، والتي جعلتها مع حركاته اللطيفة زوّادتها إلى دمشق، والتي أرغمتها خلاف عادتها على العودة المبكرة إلى مأوى عشيرتها..

لقد اكتشفت فيه في ذلك اللقاء، ما غيَّر مفهومها تجاهه وشدَّها إليه أكثر.. لقد وجدت أمامها فتىً مراهقاً رصيناً وجاداً، لم يلقِ بال أبداً إلى لعبة الحب التي تريد أن تمارسها معه، على الرغم من الوضوح الذي ذهبت إليه، ولو أن إنساناً آخر عرضت عليه ما عرضت، لضاجعها فوراً عند الشجرة الفرعاء التي وقفا عندها.

وقلّبت الأمر على مختلف وجوهه، وهي تتابع سيرها نحو خيام عشيرتها وقد استبدت بها الحيرة:

- أتراه يصدني إن ذهبت إليه؟! هل يطردني!!.

وبرق في خاطرها بارق جعلها ترتعد:

- أيكون عاشقاً..!

وتوقفت عند تساؤلها هذا طويلاً ثم أجابت نفسها:

- ولم لا.. وسيم مثله، ومراهق ولطيف.. لا بد أن تكون له حبيبة..

وظلت الهواجس تتقاذفها:

- إذا صدني هذا المساء أو طردني فلن ألومه، فأنا في نظره لست سوى نورية..

وعندما توسطت مضرب العشيرة كانت قد قررت وحزمت أمرها أن تأخذ معها غازية وأن تبيتا عنده حتى لو طردهما..

* * *

لم يمضِ على (سكرة) ساعة وبعض الساعة، وكانت قد اغتسلت واستراحت وتزينت بأحسن زينة حتى مضت مع غازية إلى موعدها بعد أن طلبت من زوجها عدم مرافقتهما لأنهما بسبيل صيد سيجنيان منه بعض المال..

وعلى الرغم من هذا كله، ظل التردد يعتريها خوفاً من الموقف الذي قد يتخذه أحمد حيالها، بينما ظهر السرور على وجه (غازية) التي أخذت تروي لها مغامرتها الساذجة مع عدنان، وتضحك بصوت خافت كلما أوغلت في وصف ما اعتراه من خجل وارتباك عندما تعرّت أمامه قبل أن تقوده إلى المجاهل التي كان لا يعرف عنها شيئاً..

ووصلتا أخيراً إلى بيت الصديقين، وغبش المساء يلقي عليهما بظله، فنظرتا محاذرتين إلى الطريق، حتى إذا وجدتاه خالياً تماماً من المارة، وهمتا بطرق الباب، فوجئتا به مواربا، فانسلتا منه إلى الداخل بسرعة اعتادتا عليها، ومن ثم أغلقتا الباب وراءهما بهدوء وحذر بالغين، وعندما وجدتا البيت شاغراً من صاحبيه، أخذتا تنقبان فيه هنا وهناك عن أشياء يمكن سرقتها وقد استيقظت فيهما تلك الحاسة التي روضتهما العشيرة عليها مذ كانتا طفلتين، فلم تعثرا على ما تبغيان، فانصرفتا إلى تهيئة عشام دسم من الخضروات والمواد الغذائية التي وجدتاها وهمما تتوقعان قدوم الصديقين بين لحظة وأخرى..

وطال انتظارهما، وحسبتا الساعة التي مرت عليهما مذ سمعتا باب البيت يفتح ويغلق كأن دهراً طويلاً قد مضى، أما الصديقان اللذان ضجت باحة البيت بضحكاتهما، فقد أدركا أن ثمة زائرة أو زائرتين اثنتين تنتظرانهما فرائحة الطعام

المطهو فتحت شهيتهما وقادتهما فوراً إليهما، وصحَّ ما توقعاه، إذ ما كاد عدنان يتقدم زميله باتجاه غرفة الطعام ويرى النوريتين حتى اندفع نحو (غازية) معانقاً ومقبلاً دون أن يعبأ بـ (سكرة) التي تقدمت بدورها خطوات، ثم تسمرت بقامتها الممشوقة عند الباب تبحث بعينيها بارتباك عن أحمد الذي وقف في الباحة غير بعيد عنها مبهوتاً ليتبادل معها نظرات عميقة تحمل الشيء الكثير من الرغبات التي أعلن عنها النور المنسوب من غرفة الطعام..

وظل أحمد يتأملها، وهي ترتعد في وقفتها، وقد بدت له في تلك اللحظة بأنفها المخزوم، والوشمات الثلاث التي تزين أسفل ذقنها، والعصبة المقصبة التي تحجب شعرها، والمشدودة على جبينها، وبثوبها الأرجواني الطويل الزاحف بإغراء على مفاتن جسدها، كأنها أميرة عربية هاربة من إحدى الأساطير التي قرأ عنها في كتبه المدرسية.

ولبثا دقائق، كل واحد منهما يتأمل الآخر، والنظرات تعانق النظرات، وضحكات غازية وعدنان الخافتة تشيع جواً ماجناً، وسكرة ترتجف في وقفتها كالمدنفة وقلبها يخفق بشدة، وأحمد مشدوه يتظاهر برباطة الجأش، وعدنان يصيح شاكراً سكرة لاصطحابها غازية، إلى أن التهمت اللهفة التي اشتعلت في نفس أحمد المسافة بينه وبين سكرة، فهصرها بين ذراعيه وهي تكاد لا تصدق لتترك جسدها يسترخي بين ذراعيه، وصدرها يعلو ويهبط، وهي ما تزال ترتعد وقد ازداد خفقان قلبها فألقت بكل ثقلها عليه ثم على الباب الذي أسندها عليه قبل أن يغمرها بقبلاته اللاهبة المدربة التي وجدت تجارباً عموماً من الشبق عندها لم تعرفه حتى في ليلة عرسها.

* * *

كانت تباشير الفجر لم تعلن بعد عن ولادته، عندما قفزت سكرة عارية من سرير أحمد الذي ظلت تحتضنه فيه طوال الليل بنهم دون أن تعرف ارتواء، وكان شعرها الطويل ينسدل مشوشاً حاجباً بعض عري ظهرها وردفيها، فبدت كأنها حورية من الجن..

كانت في منتهى السعادة، تضحك جذلى، وتعابث أحمد، وتترنم بأغنية من أغاني عشيرتها، وتتلوى على أنغامها راقصة بمرح، فالمخاوف التي توقعتها تبددت كلها، وأحمد غدا ملكها وحدها، وتصرفه الناعم تجاهها أذهلها، وضاعف حبها له، وزاد من تعلقها فيه، وحتى عندما وثب من فراشه، ودار بها عدة دورات معانقاً ومقبلاً وراقصاً، وداساً في ثيابها ورقة مالية دون أن تلحظه أو تنتبه إليه. أسعدها، لأنها عرفت فيما بعد عندما اكتشفت الأمر، أنه إنما فعل ذلك كي لا يخدش مشاعرها، ولأنه أيضاً لم يك يعلم بأمر الحب الذي تكنه له، ولا برغبتها القوية في امتلاكه.. وحين عثرت على المال وهي ترتدي ثيابها، هالها الأمر، وانتابها للوهلة الأولى شعور بالمرارة وخيبة الأمل تجاه ما قدمت، واعتراها إحساس بالمهانة لم تحس به قبلاً مع الذين سبق لها وساومتهم على المضاجعة، لأن ممارستها الحب مع شخص تحبه غير ممارستها له من أجل المال، ومن هنا فقط شعرت بجرح الإهانة والضعة اللتين سربلتاها، لأنها في نظره لا تعدو سوى بائعة هوى..

وظلت للحظات تقلب الورقة المالية في يدها، ثم هبَّت ثائرة في وجهه، فألقت بالورقة المالية أرضاً، وقد عصفت بها مختلف المشاعر، ثم انفجرت باكية نائحة بكلام غير مفهوم وقد انهارت تماماً..

لم يدرِ أحمد ما يفعل أمام ثورتها العارمة، فقد عقدت المفاجأة لسانه، وأدرك بعد لأي بأنه أساء إليها إساءة بالغة، وأنه تصرّف معها تصرفاً غير لائق، وأن عليه أن يفعل شيئاً يبدد عندها ذلك الأمر الذي وجده طبيعياً.. لقد أيقن من خلال ما حدث بأن سكرة تريده هو بالذات من دون ماله، وهو ما يفضله كفتًى يؤمن بالمثاليات ويكره تسخير الحب وغير الحب لإرادة المال، ولكن سكرة في نظره ليست سوى نورية، وهي لم تأتِ إليه عبثاً، ورفيقتها غازية سبق لها وقبضت من عدنان، فلماذا ترفض؟! أتراها تريد مبلغاً أكبر.. لا، فالأمر يبدو له غير ذلك، وإلّا ما ثارت ثورتها هذه، وما غضبت كل هذا الغضب، ولطلبت منه دون أن يرف لها جفن المبلغ الذي تريد..

واسترجع في ذاكرته ما حدث بينهما في ذلك الصباح، وحديث الودع، والموعد الذي ضربته وفرضته وحددته، ووقفته في باحة البيت، ووقفتها عند باب غرفة الطعام، والنظرات المعمقة التي تبادلاها قبل أن يختزل المسافة إليها، ثم تذكر ليلته هذه، وجوعها إلى جسده، وشبقها المجنون، وعناقها الذي لا ينتهي، ومداعباتها فأيقن بأنها فعلت ما فعلت من أجل الحب، وأنها غضبت لأنه دنَّسَ بتصرفه الذي أقدم عليه، أنقى عاطفة أحست بها كما يبدو في حياتها وهي الحب حتى ولو كانت من طرف واحد.. ولكن متى كان الحب يفرض نفسه على المحبين! .

وعندما وصل في تفكيره إلى تلك الحقيقة.. حقيقة حبها له، اقترب منها ملاطفاً، فطوقها بذراعه وأخذ يربت على ظهرها بحنان ويمسح دموعها بأصابع يده الثانية ويسترضيها ويعتذر لها، ويقسم ألا يعاود ذلك ثانية..

كان الحب بالنسبة إليه في واد، وحب سكرة بالذات في وادٍ آخر، ومع ذلك فإنه عندما أحس برائحة عرقها التي تضج بأنوثتها تدغدغه وتلح عليه بعنف همَّ بها لسبب لا يدري كنهه، كما همّت به، فاستسلم لقبلاتها المحمومة التي كانت تزقه إياها، وقد شاع الرضى في قسمات وجهها وفي جسدها الذي هدأت اختلاجاته لينبض باختلاجات من نوع آخر وهي تمضي بإصرار معه حتى النهاية، وكاد الأمر يتم كما تشتهي لا سيما وقد أطبقت على فريستها تماماً لو لم ينقذه منها وقد ضاق صدره صوت رفيقتها غازية التي صاحت بصوت خافت بعد أن طرقت الباب تستحث سكرة على الرحيل قبل أن يدهمها الفجر.. وعند ذاك فقط تخلت بمضض عن فريستها المنهوكة، وأخذت ترتدي ثيابها على عجل وتواعده على اللقاء مساء.

وعندما قبلته مودعة همست راجية:

- اليوم لن أذهب إلى الشام.. تعال زرني.. فالجميع يحبونك..

وابتسم وقال مداعباً:

- معكِ حق، فقد تعبت كثيراً هذه الليلة.. ويجب أن ترتاحي..

ابتسمت بدورها مستنكرة وقالت:

- لا يا بؤبؤ عيني.. الحب عمره ما يتعب إلا من الصدود.. واليوم لن أغادر المليحة لأن الشام قايمة قاعدة..

- الشام قايمة قاعدة..

فهزت رأسها مؤكدة وهي تقول:

- والبارحة، الطائرات ضربت القلعة، والله أعلم ما سيحدث فيها اليوم..

وهمّت بالخروج ولكنه استوقفها مستفسراً:

- .. الطائرات ضربت القلعة..؟ متى، وكيف!

- ضربت القلعة، والرصاص مثل زخ المطر..

وهبَّ إلى ثيابه يرتديها على عجل وهو يقول:

- لازم أنزل الشام..

فصاحت مرتاعة وقد ارتدت عن الباب..

- تنزل الشام.. أجننت! .

- لا.. إنما يجب أن أذهب إلى الشام فوراً..

- بس يا أحمد، يا حبيبي، يا عيني.. الخطر في الشام.. في كل شارع.. في كل زاوية.. والرصاص يوم أمس ما انقطع لحظة وأنا نفسي هربت بصعوبة..

- ولو!.

- يا أحمد، يا حبيبي، اسمعني مليح، رواحك إلى الشام فيه كل الخطر، والفرنساوي ينوي تخريب البلد، ولن يوفر كبيراً أو صغيراً، تعا تروَّ، وحكّم عقلك..

- لا تحاول معي، فلن أرجع عن قراري..

- أنت مصر؟! .

وكان في تلك اللحظة قد انتهى من ارتداء ثيابه، فأجابها وهو يقبلها ويفتح الباب ويفسح الطريق لها كي تتقدمه.

- أجل، وسأراك عند عودتي..

فصاحت بارتياع:

- لن أتركك تذهب وحدك.. رجلي على رجلك، نروح معاً ونرجع معاً..

- اسمعي يا سكرة، أنا لن أغيب سوى يوم أو يومين أطمئن فيها على أبي وأمي وأخوتي وأصدقائي وأعود فوراً..

- وأنا مثلك أريد الاطمئنان على أهلي وأعود معك..

- وهل عندك أقارب في دمشق..

وعلا نقاشهما، فهرع إليهما عدنان وغازية وهما يحاولان تهدئتهما ومعرفة سبب شجارهما، فلما علما بالأمر، هبّ عدنان بدوره متحمساً:

- وأنا أيضاً سأنزل معك إلى الشام..

واستنكرت غازية التي بدا أنها قد تعلقت بعدنان قائلة:

- تذهبان إلى أهلكما لتهلكا قبل الوصول لعندهما؟!.

ووافقتها سكرة مؤكدة:

- يريدان أن يموتا دون سبب..

وقاطعتها غازية متابعة كلامها:

- أسرتك يا أحمد، وأنت يا عدنان، في غاية الاطمئنان طالما أنتما هنا، فلا توديا بنفسيكما عبثاً..

ورد أحمد بعناء:

- ومع ذلك سأتوجه إلى الشام فوراً..

- وأنا أيضاً..

قال عدنان ذلك بينما ارتسم الأسى على وجه غازية وهي تقول وكأنها تودعه:

- على كل حال سأنتظرك حتى تعود.. إن عدتَ.

أما سكرة التي بلغ بها الانفعال والخوف على أحمد أشدهما، فقد اندفعت تقفز على درجات السلم الحجرية مثنى مثنى وهي تصيح:

- انتظراني يا أحمد في المكان الذي ترافقنا فيه يوم أمس.. سأغير حلاّسي وأعود فوراً.. لن أغيب طويلاً..

وما كادت تنهي كلامها حتى تعثرت بثوبها وتدحرجت على السلم يميناً ويساراً على غير هدى وهي تصرخ، ثم همد فيها كل شيء عندما وقف تدحرجها عند عتبة السلم .

ومرت لحظات قبل أن يفيق ثلاثتهم من الذهول الذي أصابهم تجاه ما حدث، ثم اندفعوا راكضين نحوها، وكان أسبقهم إليها أحمد الذي هزها هزاً متواصلاً محاولاً إيقاظها من الإغماء الذي أصيبت به دون جدوى، وانتابهم الخوف عليها، وأدركوا أن الدرجات الحجرية أصابتها إصابات قاسية..

وحاول أحمد معها من جديد، وبذل قصارى جهده، ولكن الوسائل التي يعرفها بما فيها رش الماء والصفع على الوجه لم تجدِ شيئاً، وأخذت غازية تنوح وتندب حظهما العاثر والحب الذي قاد سكرة إلى كل هذا، وتلوب هنا وهناك وتلطم وجهها كالمأخوذة، وقد ارتسمت أمامها الفضيحة التي ستنتجم عن ذلك في القرية، وما ستجرّه على الجميع من ويلات إذا ما علمت بمبيتها عند أحمد وعدنان، فمثل هذه الأمور يجب أن تتم في مثل هذه القرى بمنتهى السرية والحذر، وإلاّ كانت العاقبة وخيمة.

وعندما أخذ الفجر يطرد آخر فلول الظلام، وعدنان يبذل جهداً صادقاً في تهدئة اضطراب غازية، ويشاركها في الوقت نفسه مخاوفها، تمكن أحمد من حمل سكرة بصعوبة، وأخذ يصعد بجسدها المسترخي ورأسها المائل على صدره بتؤدة، وعدنان وغازية من ورائه يسندانه كلما صعد، درجة بعد أخرى حتى وصل إلى غرفته، فدفع بابها الموارب بقدمه ثم دلف بحمله إلى الغرفة ليوسدها في فراشه برفق وهو يلهث ومن ثم ارتمى على أقرب مقعد يقع إلى جوارها، وقد هدّه التعب والإعياء، ليبدأ بعد لحظات في تدليك يدي سكرة دون أن يعبأ بالنقاش الدائر بين عدنان وغازية التي قررت العودة إلى مضرب عشيرتها فوراً، على أن يوافيها فيما بعد ليزجي إليها بما تم من أمر سكرة.. ولم تنسَ بعد أن تأكدت من خلو الطريق من السابلة أن تنبه عدنان بعدم جلب أي طبيب وإخفاء الأمر عن أي إنسان خوفاً من الخطر الذي قد ينجم من وراء ذلك.

ما كاد عدنان يغلق الباب خلف غازية ويطير طيران على الدرج ويتوسط غرفة أحمد، حتى وجده يسند سكرة التي كانت تتأوه ألماً وتحاول جاهدة أن تخطو، وهي تئن حتى إذا لم تستطع ارتمت على السرير وهي تجهش باكية..

وإنصافاً لسكرة، فإنها عندما قفزت إلى الدرج، برقت في ذهنها للحظات، فكرة افتعال السقوط، كي تعيق سفر أحمد على الأقل، ولكنها لم تكن تتصور عندما أقدمت على تنفيذ فكرتها بأنها ستصاب بكل تلك الرضوض التي آلمتها وأعاقت حركتها، وإن استطاعت أن تخدع الجميع بالإغماء الذي افتعلته.. لقد كانت في أوج غبطتها عندما حملها بين ذراعيه، وأخذ يصعد بها السلم، وكادت في لحظة من لحظات ضعفها تجاهه أن تمنعه، لولا تمسكها بفكرة منعه من الذهاب إلى دمشق، كما أنها لم تشعر طوال حياتها بمثل ذلك الحنان الذي غمرها به حين وسدها الفراش وأخذ يدلك يديها برفق. وهي عندما قررت أن تصحو من إغمائها المفتعل، قررت في الوقت نفسه أن تستمر في الخداع حتى النهاية أملاً في أن تمنع أحمد من الرحيل إلى دمشق، وإمعاناً منها في تحقيق ما عزمت عليه هتفت بصوت متماوت وهي تئن:

-أرجوك يا أحمد، لا تتركني وحدي..

واحتار أحمد فيما يفعل وقد أدرك استحالة خروج سكرة من غرفته قبل تمكنها من السير، فاتفق مع عدنان على إرجاء السفر إلى دمشق لصبيحة اليوم التالي، وطلب منه أن يتولى المهمات الملقاة على عاتقه في مكافحة الجراد الزحّاف كي يستطيع العناية بسكرة ورعايتها..

وما كاد صديقه ينصرف، حتى دخل على سكرة حاملاً طبقاً كبيراً من القش، حمل عليه وجبة إقطار شهية وابريق شاي كبير، وعند ذاك تململت في فراشها ورفعت نفسها قليلاً ليتمكن أحمد من وضع الطبق في حضنها وقد شاعت الفرحة في قسمات وجهها، ثم طوقته بذراعيها وقبلته وهي تتنهد من أعماقها..

* * *

-٣٨-

تمكن علي الحجار بعد تخبط طويل في معارج بردى من الوصول إلى الجسر الخشبي المتداعي المقام على النهر قريباً من بيته، فربض في مكمنه محاذراً خوفاً من أن يراه أحد، وأزيز الرصاص يصل إليه من الجهات كافة قوياً ومتواصلاً، دون أن يعرف ما الذي يجري في المدينة الهرمة، لقد ظن في بداية الأمر أن رجال القلعة من الدرك يطاردون الهاربين من المساجين، ولكنه ما لبث أن استبعد ذلك، فالهاربون غير مسلحين، ولا يحتاجون إلى كل هذا الرصاص الذي ينبي عن عدة معارك تجري في آن واحد في قلب المدينة القريب من الحي. لقد علم وهو في السجن كما علم سائر المساجين، بالاضطرابات الدامية التي اندلعت ضد الفرنسيين طلباً للاستقلال، فتمنوا جميعاً لو أن الحكومة تطلقهم ليشاركوا بواجبهم الوطني، وها هو الآن حر طليق، والناس يخوضون حربهم ضد فرنسا، ولا يستطيع أن ينضم إليهم لأنه هارب، ولأن أي شرطي يستطيع اعتقاله بمجرد التعرف إليه..

وتذكر كيف هرب.. لقد كان في المهجع مع عدد من زملائه.. وفجأة سمعوا هدير طائرة غير عادي، ودوي انفجارات متلاحقة، أعقبها إطلاق غزير للرصاص، ولم تمضِ دقائق على ذلك حتى أحس بانفجار كأنه زلزال يقتلعه من مكانه ويقذفه بعيداً على الأرض، تبعه ثان وثالث، فعلا الصياح والصراخ والأنين من المهاجع كافة بما فيها المهجع الذي يقيم فيه، فقبع في مكانه منتظراً لا يجسر على الحركة، ولمّا انجلى الغبار الذي حجب كل شيء عن بصره وتناهت إليه ضجة كبيرة تنم عن فوضى ضخمة، اكتشف والهلع ما زال مسيطراً عليه أن أغلب زملائه كانوا منبطحين على الأرض بين قتيل وجريح، وكان بعض هؤلاء هامد الحركة، وبعضهم الآخر يتلوى ويئن، والمهجع غدا بلا سقف وقد تهدمت الجدران وطارت الأبواب بفعل الانفجار، أما من بقي حياً وهو منهم فقد أطلقوا سيقانهم للريح طلباً للنجاة بأرواحهم لا يلوون على شيء.. وها هو الآن قابع في مخبئه تحت الجسر

ينتظر حتى يخلو الطريق من المارة، والشوق العارم لبيته وابنته يزيد من اشتعال لهفته..

إن الهرب من السجن لم يكن غايته، ولكن حب الحياة، والخوف من الموت الذي كانت الطائرة تقذفه قنابل دفعاه إلى ذلك، ولولاهما لظل قابعاً في سجنه ينتظر الشهرين المتبقيين على انتهاء مدة سجنه كي يعود إلى بيته وابنته سميرة التي ما انقطعت عن زيارته مذ صدر الحكم عليه، لقد علم منها بخوف أمها من المصير الذي ينتظرها على يديه، وعلم منها أيضاً برحيلها من المدينة إلى جهة مجهولة بعد أن تركت لابنتها كثيراً من المال ليعينها على مواجهة أعباء الحياة ريثما يخرج أبوها من السجن، كذلك عرف من المحامي الذي وكلته عنه سعدية بتوبتها، ولكنه رفض هذه التوبة، كما رفض الصفح عنها، ورفض أن يتولى المحامي الدفاع عنه، وهو لم يكتفِ بالرفض، بل طلب منه أن يبلغها بأنه لن يطلقها، وأنه سيطاردها إلى آخر الدنيا كي يوصلها بيديه إلى جهنم، ورغم هذا كله فإن المحامي تولى الدفاع عنه، واستطاع أن يخفف حكم الاعتداء على (فوزية) إلى سنتين، لم يبق منهما سوى شهرين على الرغم من اعتراض محامي فوزية واستئنافه الحكم.

لقد مضى الزمن سريعاً، وابنته التي أهملها طويلاً، غدت تفيض رقة وأنوثة وجمالاً، وهو سعيد بها، ويأمل أن يخفف من معاناتها التي قاست طوال ذينك العامين، ولا يرغب سوى بإسعادها وتزويجها من الشخص الذي توافق عليه، وأن يرعاها ويعتني بها، لقد قالت له أثناء زيارتها الأخيرة في الأسبوع الماضي، أنها قد احتفظت له بمبلغ كبير جهدت ألا تمسه كي يساعده على مواجهة الحياة عندما يخرج من السجن بعد شهرين.. إنه الآن وهو قابع في مخبئه قرب بيته يشعر بنوع من الراحة، ويجد في نفسه القوة كي يبني مستقبله ومستقبل ابنته التي أدرك كم تحبه.. لقد هزته بحديث المال الذي خبأته ولم تمسه واحتفظت به من أجله، وهزته أكثر بدموعها التي كانت تذرفها كلما زارته، وأدرك متأخراً وهو في السجن أنه أخطأ في حقها عليه عندما أهملها وأهمل بيته من أجل لا شيء.. لقد استيقظ حنانه كله دفعة واحدة تجاهها، وهو اليوم غيره

بالأمس، وسيعوضها عن كل ما فات، وإذا كان قد قرر الاستسلام القسري لما يرفضه مورثه الديني بشأن المال الحرام، فإنه إنما استسلم لإغرائه من أجل ابنته والحياة الجديدة التي يأمل في بنائها..

* * *

انتبه علي الحجار فجأة إلى الهدوء الذي ساد كل شيء، فقد توقف الرصاص، وخيّم السكون، ثم انحسر عندما عاد السنونو يصفق بجناحيه فوق صفحة الماء وهو يطلق صراخه المحبب، وعصافير الدوري تنطلق من أعشاشها التي اتخذتها تحت السيباط القريب، فزقزقة العصافير وأمواج النهر المتناهية في الصغر تتبادل فيما بينها وسوساتها الموسيقية الناعمة، إيذاناً بعودة الحياة التي منعها تراشق الرصاص الذي توقف..

وأخذ كل شيء يتحرك حوله فغادر بدوره مخبأه تحت الجسر، وتطاول بعنقه ونظراته إلى الطريق، حتى إذا وجده مقفراً على غير عادته في مثل هذا الوقت من النهار، إلا من بعض اليمام الذي سار مطمئناً يسعى نحو رزقه، تسلق حاجز النهر الصغير محاذراً، ثم انطلق بخطوات معجلة قاصداً بيته، والوحل الذي يغرق حذاءه وبنطاله، يطبع آثار خطواته، خطوة بعد خطوة..

* * *

كانت سميرة تكنس باحة البيت الصغيرة، عندما تناهى إليها طرق متسارع على الباب ولما كانت ليست في عجلة من أمرها، ولا أحد يزورها أو يطرق بابها، تولاها العجب، فهي منذ الحادثة الفضيحة التي أرمضتها، لا تزور أحداً، ولا يزورها أحد، ولا تجد لها متنفساً سوى يوم الجمعة الذي تذهب فيه لزيارة أبيها وتمكث معه في باحة السجن تتبادل معه شتى الأحاديث إلى أن ينتهي الوقت المحدد للزيارة، فتعود أدراجها إلى البيت لتمارس حياتها العادية، حتى يحين موعد الزيارة التالية وهكذا..

لقد حاول سعيد ابن الجيران أن يعاود وصل ما انقطع، ولكنها لم تمكنه من ذلك، وأغلقت نافذتها في وجهه عدداً من المرات قبل أن يدرك أنه انتهى

بالنسبة إليها، وأنه لو وقف إلى جانبها أثناء الفضيحة وساعدها على اجتياز المحنة لتفانت من أجله، ولكنه اتخذ موقفاً مماثلاً لموقف أهل الحي.

وعندما هدأت الأمور، وحاول محاولاته الفاشلة في التودد لها، صدته لأنها أيقنت بأنه يحاول معها رغبة منه في جسدها وليس في حبها، ومن هنا أغلقت النافذة في وجهه، ولوت عنقها عنه حين حاول اعتراض طريقها، ومع ذلك وعلى الرغم من نفورها من سعيد، كانت تتجاوب بخفر وحياء مع نظرات شاب من سكان الحي، كان لا يكل ولا يمل عن التهامها بنظراته كلما سنحت له الفرصة، وكانت بدورها لا تغفل عنه لحظة كلما صادفته في الطريق، أو التقت به على غير موعد عند بقال الحي.. كانت تحس بنظراته تطاردها أينما ذهبت، ولكنه لم يحاول التحرش بها أو اعتراض طريقها، أو اللحاق بها إلى بيتها، وإن لمحته أكثر من مرة من وراء نافذة غرفتها يمر ببيتها فيتلكأ عنده للحظات، قبل أن يختفي في الزقاق المجاور، وكان أكثر ما يقلقها، تواجده المفتعل كل يوم جمعة، وهي في طريقها إلى زيارة أبيها، فتحس بأن نظراته تعيق خطواتها وتكاد توقعها أرضاً، وأنه على علم بأمرها وأمر أبيها والمكان الذي تقصده..

وعلى الرغم من اقتناعها بميل هذا الشاب إليها والذي بدا لها بالغ التهذيب، فإنها لم تحاول أن تعرف من هو، ولا أن تبني عليه أحلام سعادة وهمية تأمل فيها وتطلبها، لأنها كانت موقنة بالنتيجة سلفاً، فقررت على ضوء الحادثة الفضيحة التي ما زالت تضغط عليها اعتزال الناس وأهل الحي والعيش بعيدة عنهم، بعد أن لاكوا ومضغوا في سيرة أمها.

وذات يوم طرق بابها الشيخ سعدو، والمختار صالح، فاستقبلتهما برصانة أحسن استقبال وأكرمتهما وهما يسألانها عن أحوالها وأحوال أبيها إلى أن قال الشيخ سعدو بلطف:

- يا ابنتي.. أنا مثل أبيك تماماً، وقد حان الوقت لأن تتناسي الماضي وتتعايشي مع أهل الحي الذين يحبونك ويقدّرونك.. لقد عرفوا بأنهم أخطؤوا في حقك، وهم يرغبون صادقين في رأب الصدع وتناسي الإساءة.. والله غفور رحيم..

وهمت سميرة في أن تجيب، ولكن المختار صالح بادر إلى القول مضيفاً على قول الشيخ سعدو:

- وأنا يا ابنتي، أبوك صديقي، وأقول لك مثل الشيخ سعدو، إنه يجب أن تنسي ما حدث، وأهل الحي هم أهلك، وأنا والشيخ سعدو هنا في بيتك بناء على رغبتهم، وجميعنا في خدمتك ورهن إشارتك..

وارتاحت سميرة لحديث الرجلين فأجابت باقتضاب:

- أنا شاكرة وممتنة ولكنكم ظلمتموني وظلمتم أبي.. وإن شاء الله سأكون عند حسن ظن أهل الحي جميعاً..

وبدا السرور على الرجلين وأخذا يرشفان القهوة بلذة، وهما يتبادلان النظرات فيما بينهما وقد بدا عليهما أنهما يريدان الخوض في موضوع لا يعرفان كيف يبدأان فيه، ولم يخف هذا الأمر على سميرة وإن تظاهرت بالغباء، وأخيراً قال الشيخ سعدو متلكئاً وكأنه يفتح باب حديثٍ جديد:

- متى ستزورين أباك يا ابنتي...

- يوم الجمعة..

- حسن.. حسن.. أنت الآن في ميعة الصبا.. وهناك من يفكر فيك، فما رأيك؟! .

فانتفضت في مجلسها وقد ظهر الامتعاض على وجهها ولكنها لم تحرِ جواباً.. وأدرك المختار صالح أن الشيخ سعدو لم يستطع التعبير عما جاء بشأنه، فقال موضحاً:

- قلتِ يا ابنتي أنك ستزورين أباكِ . فكَّ الله أسره . يوم الجمعة..

- أجل..

- عال.. عال.. إذن أخبريه أن المختار والشيخ سعدو يسلّمان عليه، وأنهما قاما بزيارتك وتقدما بطلب يدك للشاب قاسم..

وقبل أن تثور أو تعترض وقد احمرّ وجهها واحتقن قال الشيخ سعدو:

- إنه بشهادتي وشهادة المختار... شاب ممتاز، وأبوك يعرفه، ويقطن قريباً من بيتكم... في الزقاق المجاور، وموظف في دائرة الميرة..

وأضاف المختار مقاطعاً الشيخ سعدو:

- يا ابنتي، اسألي أباك، ووافينا بردّه....

وعند هذا نهضت سميرة من مقعدها وقد سربلها الخجل، واحتقن وجهها، فصاحت بهما بصوت خافت منتهرة:

- كان الأولى بكما أن تزوراه في السجن... أن تكلفا نفسيكما بزيارته، ولو مجاملة طالما كان صديقكما، ومن ثم تعرضان عليه الأمر الذي جئتما بصدده...

وحاول المختار صالح أن يقول شيئاً ولكنها أردفت:

- ثم متى كان أمر كهذا يبحث مع الفتيات بالذات.. هذا عيب... عيب وخطأ كبير... دارت على عقبيهما وخرجت من الغرفة وكأنها تطردهما، ووقفت تنتظر خروجهما عند باب البيت...

وارتج على الرجلين الوقورين، وحارا ما يفعلان، وقد أدركا أنهما فشلا في مهمتهما التي كلفهما بها قاسم، وأيقنا أن ما ذهبت إليه سميرة هو عين الصواب، فلمَّا بعضهما وخرجا وهما يعتذران.

وما كادت سميرة تغلق الباب خلفهما، وتسترجع ما سرداه عليها، وتعرف بأن الشاب الذي يلاحقها بنظراته في غدوها ورواحها اسمه قاسم، وأنه هو الذي أرسلهما حتى أحست بنوع من الابتهاج يصفق في جوانحها، ومع ذلك عزمت ألا تفاتح أباها بما جرى، فهي لا تملك الجرأة للحديث في هذا الأمر مع أمها فكيف مع أبيها؟! .

كانت سميرة تسترجع في ذاكرتها كل هذا وقد تناست الطرق على الباب الذي عاد من جديد أكثر قوة ليوقظها من شرودها وأفكارها، فأسرعت إلى الباب، وسألت وهي تشق الباب عن فرجة تسمح لها برؤية الطارق:

- من بالباب؟! .

ولم يجب أبوها مباشرة، وإنما دفع الباب دفع الخائف الحذر، والباب يمتنع عنه ثم هتف مخافتا من صوته:

- افتحي يا سميرة أنا أبوكِ...

- بابا...

هتفت سميرة كالمأخوذة ثم تركت الباب ينفتح على مصراعه ليملأه أبوها من قبل أن يدخل ويغلق الباب وراءه.

* * *

كان كل شيء في دمشق يبدو بعد ضرب القلعة، وكأنه ساحة حرب، فالأسواق مغلقة، والشوارع الرئيسية مقفرة، والدوريات العسكرية تجوب الطرقات والشوارع، والمصفحات والدبابات الفرنسية، اتخذت لها مراكز في ساحة الشهداء، أمام دائرة البريد وفي زقاق رامي ومدخل السنجقدار، وشارع الملك فيصل، كذلك اتخذت سرايا أخرى من الدبابات والمصفحات التي انطلقت من ثكناتها في شارع جمال باشا مواقع لها عند فندق اوريان بالاس، ودائرة الهاتف، ومقهى المشيرية وسوق الحميدية، وعند بوابة الصالحية، والإذاعة الفرنسية في الحبوبي، وفي ساحة السبع بحرات في شارع بغداد، وطوق عدد منها الشوارع المؤدية إلى المجلس النيابي لتمنع النواب الذين تقاطروا من الوصول إليه لحضور جلسة المجلس المقررة، تنفيذاً للقرار الذي اتخذه المفوض السامي الفرنسي والذي أذيع من الإذاعة ونشر في الصحف.

وعلى الرغم من الأسلوب الخشن الذي اتخذه الفرنسيون تجاه النواب الذين توافدوا أملا في تفريقهم، فإن هؤلاء تجمعوا وقرروا مع رئيسهم عقد جلسة استثنائية لمجلس النواب في القصر الجمهوري بحضور رئيس الجمهورية.

وبالمقابل فإن الشعب في الأحياء الشعبية، أقام المتاريس وجلب الأحجار الثقيلة ووضعها في نواصي الشوارع التي تقود إلى قلب تلك الأحياء لعرقلة تقدم المصفحات والدبابات فيها إذا قام الفرنسيون بهجوم مباغت، وتجلت هذه

المظاهر أكثر ما تجلت في أحياء الحارة والشاغور والميدان وباب شرقي وباب توما وسوق ساروجه، وكانت الحياة في هذه الأحياء تسير سيرها العادي تحت حراسة مفارز ضئيلة من رجال الشرطة والدرك ومن تجمعات منظمة إلى حدٍ ما من الأهالي ومن زعماء الأحياء ولاسيما من أولئك المتحمسين من جماعة الأستاذ، الذين بدوا في حماستهم وكأنهم هم وحدهم الذين يعنيهم أمر دمشق واستقلال البلاد.

النواب الذين عقدوا جلسة حامية الوطيس في حديقة القصر الملحقة بالقصر الجمهوري بحضور رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء تحت حراسة مشددة، أعلنوا بقوة رفضهم لقرار المفوض السامي الذي جاء بعد إلغاء المجلس للمادة /١١٦/ من الدستور، الذي يلغي صلاحيات المادة المذكورة وصلاحيات المفوض السامي الفرنسي بالذات على البلاد، وطالبوا الحكومة بعد جدال طويل بإنهاء الانتداب الفرنسي وإعلان المقاومة الوطنية من أجل الوصول إلى الاستقلال الناجز وفق ما نصت عليه المواثيق والمعاهدات التي أبرمت بين فرنسا وسورية وباركتها هيئة الأمم.

وفي هذه الجلسة اتّخذ المجلس عدداً من المقررات السرية التي أنيط أمر تنفيذها بنواب المحافظات والعشائر، وجميعها تتعلق بتنظيم المقاومة الوطنية وتحرير البلاد نهائياً من الفرنسيين، وطُلب منهم السفر فوراً إلى مناطقهم للعمل بموجبها.

وكان رئيس الجمهورية قد أزجى للنواب بتفاصيل المؤامرة التي وصلته من علي بك. دون أن يفصح عن أسماء المتآمرين، وأفادهم بأنه سيعمل مع رئيس الوزراء على إفشالها، والاتصال بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وبالدول العربية، والدول الأخرى الصديقة لاطلاعهم عليها، وعلى مدى ضلوع فرنسا التي تنوي أن تحنث بوعودها.

وبعد انفضاض الجلسة، أُستدعي الوزير المفوض البريطاني الجنرال (سبيرس) إلى القصر، وتم إبلاغه مع الكولونيل (سترلينغ) الذي يرافقه بتفاصيل

المؤامرة، وطلب منه كممثل لدولة صديقة بالتدخل لدى حليفتها فرنسا وإقناعها بالتزام الوعود والمواثيق التي قطعتها على نفسها بالنسبة لاستقلال سورية.

بريطانيا الطامحة لأن تحل محل فرنسا في سورية، وعدت بلسان وزيرها المفوض كل خير، ولكنها وتنفيذاً لمصالحها ارتأت أن تسير فرنسا في مؤامرتها حتى النهاية، كي تتدخل في الوقت المناسب لتبدو أمام الرأي العام في سورية، المنقذة لها من نير الفرنسيين.

* * *

كانت الإشاعات عن العدوان الفرنسي المرتقب قد سرت ووصلت إلى اسماع الناس في كل مكان، فاستعدوا لها بكل الطاقات التي يملكونها، وكان الشيخ سعدو والمختار صالح قد جلسا في مكان منعزل في المقهى والقلق والأسى يبدوان على وجهيهما بسبب الأحداث الدموية التي ازدادت عنفاً في الأيام الأخيرة، وسقط خلالها برصاص الفرنسيين عشرات الشهداء، وكانا ما يزالان مغمومين عندما دخل قاسم ببزته وسلاحه إلى المقهى دخول العاصفة وهو يصيح بفرح:

- ابشِروا... لقد استسلم الفرنسيون في السويداء وتحرر الجبل.

وهب كل من في المقهى وتحلقوا حول قاسم يطلبون المزيد من التفاصيل، فروى لهم كيف دعا نواب ووجهاء الجبل ضباط الحامية الفرنسية في السويداء إلى وليمة أولموها لهم، ومن ثم اعتقلوهم دون أدنى مقاومة، في الوقت الذي كان فيه مجاهدو الجبل يقتحمون الثكنات المتواجدة في السويداء وشهبا وصلخد وقنوات، ويستولون عليها دون أن يطلقوا رصاصة واحدة، ويعلنون تحرير الجبل.

* * *

وفي والوقت الذي كان يتم فيه تحرير الجبل، اندلعت شرارة المقاومة الوطنية في دير الزور حين قامت المدفعية الفرنسية دون سابق إنذار بصب قذائفها على المدينة ودار الحكومة التي كانت تشهد اجتماعا هاما دعا إليه

نواب المنطقة وشيوخ العشائر ووجهاء المدينة في مكتب المحافظ، فقتل على الفور أحد شيوخ عشيرة البقّارة، فغلقوا الاجتماع، واستنفروا الناس، وانضموا إلى الأهالي الذين هب إلى نجدتهم عرب عشائر العقيدات والبقّارة المقيمين قريباً من المدينة، بينما كانت المدفعية تحصد المدينة حصدا وبخاصة أحياء الرشدية والحميدية والجبيلة، وتصرع مئات النساء والأطفال والشيوخ، وتصيب تجمعات المقاتلين، دون أن يقلّ من عزيمة المجاهدين الذين كانوا يتقدمون بثبات نحو الثكنات وسرايا الجيش الفرنسي تتراجع نحو حامياتها بسرعة، وقادتهم يستنجدون بالطيران الحربي في تدمر، الذي أنجدهم بسرب من الطائرات التي أخذت تضرب بعنف تجمعات المقاتلين الذين لم يعبئوا بالشهداء الذين سقطوا بين صفوفهم وتابعوا تقدمهم إلى أن تمكنوا من اقتحام الثكنات والقضاء على المقاومة الفرنسية المتبقية، وأسر من استسلم ليعلنوا تحرير دير الزور من نير الفرنسيين.

* * *

أما حوران التي ساءها أن يسبقها جبل العرب إلى تحرير الجبل، فإنها أنهت اتصالاتها وأوعزت إلى وجهائها بالاتصال بالضباط السوريين الذين يعملون في جيش الشرف الفرنسي وإعلامهم بساعة الصفر، وعندما قامت المقاومة الوطنية بتطويق ثكنات وحاميات درعا وبصرى وإزرع ونوى والصنمين والتحق الضباط السوريون وجنودهم بالمقاومة، سقطت تلك الثكنات والحاميات واحدة بعد أخرى ليتم تحرير حوران كلها.

وإثر هذه الأنباء التي ألهبت دمشق وحمص وحماة وحلب، عمَّ العصيان المسلح أكثر هذه المدن، واندلعت معارك موضعية هنا وهناك، أعنفها هي تلك التي دارت في حماة، وخاضها الأهالي بالتعاون مع رجال الدرك، فحاصروا قلعة (الشرفة) المحصنة، التي أخذت تطلق قذائف مدافعها على المدينة خبط عشواء، وبخاصة أحياء السوق والحاضر والعليليات التي أصيبت إصابات مدمرة، ولكن المجاهدين لم يعبئوا إذا بادروا إلى قطع مياه الشرب عن الشرفة،

وانبروا إلى لقاء القوات الفرنسية المزودة بالمصفحات والدبابات المقاومة من حمص لنجدة القوات المحاصرة، فتحصنوا في المقبرة الواقعة بظاهر المدينة، وانتشروا بين القبور، واتخذوا من القبور وشواهدها متاريس لهم، وعند هذه المقبرة جرت أكبر معركة حربية في البلاد إذ استمرت أربع عشرة ساعة، تمكن خلالها المقاتلون الوطنيون من تدمير وحرق عدد من آليات العدو الفرنسي بينما لاذ الباقي بالفرار، وعند ذلك عزم المجاهدون على اللحاق بهم للمساعدة في تحرير حمص، بعد أن أوكل أمر تكنة الشرفة إلى فئة أخرى لإسكات مدافعها واحتلالها.

* * *

عندما وصلت أنباء تحرير الجبل وحوران ودير الزور وحماة والمعارك الجارية في حمص وحلب إلى الجنرال (اوليفاروجيه) في دمشق استشاط غضبا وحمقا وقرر وضع حدٍ لها بضرب دمشق وسائر البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وتقديم الموعد الذي كان قد اتخذه سابقاً إلى يوم التاسع والعشرين من أيار، وكانت خطته تقوم على ضرب دمشق أولاً لإرهابها ثم احتلالها واعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء، واحتلال المجلس النيابي، ودوائر وثكنات الشرطة والدرك، وإعلان تأليف الحكومة الجديدة التي ستفاوض فرنسا على استقلال سورية وفق المتغيرات الطارئة.

كانت دمشق تغلي كالبركان، والاصطدامات الدموية اليومية تزداد حدة وقسوة، ونكشف في الوقت نفسه عن افتقار المقاومة الشعبية للسلاح، فعدد المتطوعين كان يزيد مائة مرة على كميات السلاح الموزعة، والمتطوعون الذين لا يملكون سلاحاً يدافعون به عن مدينتهم، بدوا حيارى لا يدرون ما يفعلون، ولا يعرفون من أين يحصلون على السلاح، وإن أدركوا أنهم باتوا معرضين لرصاص الفرنسيين أكثر من سواهم بسبب بزاتهم التي تكشف عن هويتهم...

على هذا النحو من الفوضى كانت تجري استعدادات المدينة التي تشرف عليها الحكومة، وعلى هذا النحو من الافتقار إلى السلاح وإهمال المتطوعين

كان يتم الاستعداد للمعركة... كانت الحكومة تعتمد على سلكي الشرطة والدرك بالدرجة الأولى، ثم على المتطوعين الذين أمنت لهم السلاح، وعلى المتطوعين العزل الذين طلبت إليهم أن يتدبروا أمر سلاحهم بأنفسهم للذود عن حياض الوطن، وهؤلاء لم يجدوا أمامهم سوى إقامة المزيد من المتاريس واعتماد السلاح الأبيض من المدي والخناجر والقنابل المولوتوفية لمقاومة الفرنسيين والتصدي لعدوانهم المرتقب...

وفي عصر اليوم نفسه توجه القائم بأعمال السفارة السوفيتية في دمشق السيد (سولود) إلى مقابلة رئيس المجلس النيابي في مقر إقامته في فندق (الأوريان بالاس) ولم يستغرق اللقاء سوى دقائق، أزجى إليه خلالها بعزم السلطات الفرنسية على اعتقاله واعتقال رئيس الوزراء بالوكالة وإن أمر الاعتقال قد أُعد وإن عليه أن يفرَّ قبل فوات الأوان لتظل شرعية مجلس النواب والحكومة قائمة، كي لا يتمكن الفرنسيون من وراء اعتقاله واعتقال رئيس الوزراء بالوكالة من تعطيل أعمال المجلس وتأليف حكومة موالية، وليستطيع من مخبئه مع رئيس الوزراء بالوكالة متابعة قيادة حركة المقاومة، ونصحه قبل أن يودعه بمغادرة الفندق متنكراً كي لا يتعرف عليه أحد.

وما كاد (سولود) ينصرف حتى أوعز رئيس المجلس إلى أتباعه بإبلاغ النواب ورئيس الوزراء بالوكالة والوزراء بالتواري فوراً، واستعارة بعض ملابس رجال الدين المسيحي من الوفد المسيحي الديني السوفيتي الذي يزور القطر ويقيم في الفندق نفسه! .

وفعلاً ارتدى رئيس المجلس زي خوري أرثذوكسي وخرج وكان يمكن للذين يعرفون رئيس مجلس النواب ألا يكتشفوه، لولا طوله الفاره الذي كشف عنه رداء الكهنوت الذي يرتديه، والذي لم يتجاوز ركبتيه إلا بعدة سنتمترات، ومع ذلك فإن القلنسوة التي غطت أكثر وجهه مكنته من الخروج من الفندق بسلام تحت سمع وبصر الجنود وضباطهم الذين جاءوا لإلقاء القبض عليه، وأفسحوا له الطريق عند مروره باحترام دون أن يعرفوا بأنهم يسهلون الهرب لرئيس مجلس النواب الذي يودون اعتقاله.

وفي الوقت ذاته كان رئيس الوزراء بالوكالة الذي تسلم المنصب نيابة عن رئيس الوزراء الذي توجه إلى الأمم المتحدة للدفاع عن استقلال سورية قد تمكن بدوره من الهرب، ليشرف على المقاومة الوطنية، التي ألقى بكل ثقلها على قوات الشرطة والدرك.

* * *

لم تصدق سميرة عيناها عندما شاهدت أباها، فارتمت عليه تعانقه وتقبله وتبكي بحرارة فرحاً وأبوها يربت على كتفها ويقبل رأسها، وقد سرت العدوى إليه فأخذ يجهش بدوره حتى إذا هدأا، روى لها ما جرى معه، وهي تصيخ مرتاعة ثم قالت وهي تقبل يديه:

- الحمد لله على سلامتك....

- أية سلامة هذه يا ابنتي.... أنا الآن هارب من السجن...

فقالت بانفعال:

- لا.... أنت لم تهرب... أنت هربت من الموت فقط... نجوت بنفسك، وأي إنسان يقوم على ما أقدمت عليه...

وتنهد وهو يقول:

- والعمل...

- عليك أن تنتظر...

- إلى متى...

- حتى تهدأ الأحوال يا أبي...

- وبعد ذلك...

- بعد ذلك... كل عقدة ولها حلاّل.. أما الآن فعليك بالاغتسال وتغيير ملابسك، ريثما أهيئ بعض الطعام...

وفكّر وهو يغتسل بالمشكلة التي أوقع نفسه بها، فوجد ألاّ حلّ لها إلا بالعودة إلى السجن، فندم على هربه، وتمنى لو أنه لم يفعل ومع ذلك فإنه حين

وجد أن أفكاره لا تقوده إلاّ إلى الأسوأ تابع اغتساله ثم ارتدى ثيابه وخرج من الحمام ليجد ابنته تنتظره على مائدة الطعام في المطبخ فبادرها وهو يجلس إلى جوارها قائلاً:

- قررت يا سميرة أن أسلم نفسي...

فهبت مرتاعة صائحة بهلع:

- تسلم نفسك...!

فأجابها بهدوء:

- اجلسي... اجلسي ودعيني أتم كلامي وطعامي.

وبعد لحظات تابع قوله بينما شردت ابنته بعيداً.

- الأفضل لي ولك أن أسلم نفسي لأمضي الشهرين المتبقيين خوفاً من أن يُستبدلا بسنتين أخريين إذا ما اعتبرت هارباً...

وطأطأت سميرة برأسها بينما نفرت الدموع من عينيها دون أن تجيب.. ولاحظ أبوها حزنها وأساها، فسألها مغيراً الحديث:

- ما أخبار الحي وسكانه.

فنهضت قائلة وقد فهمت مراد أبيها:

- سأعد الشاي..

وعندما أخذا يرشفان الشاي في غرفتها ويرقبان الطريق والنهر من النافذة، أخذت تروي له كيف اعتزلت الحي وأهله منذ الحادثة، وإنها لم تزر أحداً ولا يزورها أحد، ولا ترغب في إعادة وصل ما انقطع... وتوقفت بغتة وهي تتظاهر بأنها تذكرت شيئاً نسيته فقالت:

- بلى... زارني المختار والشيخ سعدو... زاراني مرة واحدة للاطمئنان عليك، وفيما إذا كنت احتاج شيئاً...

ودقق علي الحجار فيها جيداً ثم قال:

- فيهما الخير...

فصاحت بانفعال:

- أي خير هذا... كان الأولى بهما أن يزوراك في السجن، لا أن يطمئنا عليك مني، ولهذا السبب فقط طردتهما بأدب..

فضحك علي الحجار وهو يعاود النظر إليها وعيناه تدوران في محجريهما دون استقرار ثم قال :

- لقد علمت بذلك

فنظرت إليه مشدوهة ثم سألت وهي تبتسم:

- أزاراك؟!.

- لا... إنما علمت من شاب يدعى قاسم، زارني عددا من المرات، وحمل إلي في كل مرة سلة مملوءة بمختلف الأطعمة...

وبهتت للحظات وقد غزا الاحمرار وجهها ثم سألته متجاهلة:

- ومن هو قاسم يا أبي..

- إنه شاب طيب من الحي، ويقيم بجوارنا، وهو الوحيد الذي زارني من سكان الحي...

وتمالكت نفسها وسرت في أعطافها غبطة لم تحس بها قبلا وقد أدركت أن قاسم متيم بها، وأنه سيكون عروسها المنتظر، وإلا ما زار أباها في سجنه وحمل معه ما حمل من الهدايا، وعلى الرغم من هذا الإحساس الذي غمرها فرحاً، فإنها كتمت ما اعتل في نفسها وقالت مغيرة الحديث:

- المهم يا أبي مشكلتك... كيف ستحلها... هل يستطيع المختار أو الشيخ سعدو أن يفعلا شيئاً بشأنها؟! .

وشاع في نظراته غير المستقرة بعض الأمل، فهتف:

- ربما.... ربما المختار يستطيع أن يجد حلا... لا أدري تماماً...

وظلا بعض الوقت يقلبان وجوه الرأي ثم قال أبوها متفائلاً ومؤكدا:

- بلى... المختار يستطيع، وهو كمسؤول عن الحي لا بد له أن يجد حلاً...

فقالت ابنته تستحثه بابتهاج:

- ماذا تنتظر.! هيا، عليك بالمختار... ابحث عنه في كل مكان حتى تجده...

فتلكأ قليلاً ثم نهض متحمساً وهو يرمق ابنته بحنان قائلاً:

- سأسلم نفسي إليه، كي لا أعتبر على الأقل هارباً، وعليه أن يتصرف...

* * *

أقضت الساعات القليلة التي مضت على غياب علي الحجار مضجع ابنته سميرة، وأخذ القلق يغزوها ويضغط على أعصابها بعنف وقد أعياها الانتظار والترقب دون أن تستشف بارقة أمل من الطريق الذي كانت تمد بصرها في أرجائه باحثة منقبة، وكانت كلما حاولت أن تجد تبريراً لتأخره كل هذا الوقت، برزت أمامها حقيقة واحدة، هي عودة أبيها للسجن، ومع ذلك لم تفقد الأمل فأخذت تمضي وقتها بين النافذة والتلهي ببعض الأعمال، دون أن يفارقها قلقها المتفاقم والشك في عودة أبيها المنتظرة، ومصيره المحتوم... لقد أدركت في تلك اللحظة كم هي بحاجة لأي إنسان من سكان الحي كي يساعدها أو لتبثه بما في نفسها على الأقل، ولكن من منهم يمد إليها يد المساعدة وهي التي اعتزلتهم منذ الحادثة الفضيحة ولم ترغب بلقائهم حتى عندما أخذوا يظهرون الود إليها...

إنها الآن في موقف مشابه تقريباً . مع الفارق . للموقف الذي وجدت فيه نفسها وحيدة يوم الفضيحة المشؤومة، ويلازمها الإحساس نفسه تجاه أهل الحي الذين لم يعبأوا بها وبوحدتها مذ هجرت أمها البيت هاربة حتى اعتادت وحدتها، واعتادت الصمت الذي كاد ينسيها لذة الحديث مع ناس الحي الذين كانوا يتجنبونها، لقد تمنت آنذاك إنساناً واحداً فقط يقف إلى جانبها ليشجعها ويقويها على مواجهة مصائبها التي وجدت نفسها توقع فيها، وحاولت صادقة أن تلجأ إلى صديقاتها من سكان الحي من أجل ذلك، ولكنها أحجمت وخافت من أن يطردونها أو يغلقن الأبواب في وجهها، فآثرت منذ ذلك الحين العزلة التي

اختارتها ثم عمقتها بنفسها كأنها تريد الانتقام منهن ومن سكان الحي جميعاً، وحتى عندما زارها المختار والشيخ سعدو وأعلنا لها خطأ أهل الحي وإنهم يرغبون صادقين أن تنسى تصرفهم تجاهها، فإنها تمسكت بما روضت نفسها عليه ولولا ذلك الاطمئنان الذي أشاعه قاسم حولها بنظراته، لما تبدَّد شيء من عبوسها ولا تجهمها... لقد عاشت على سيل تلك النظرات زمناً طويلاً لأنها كانت ملجأها الوحيد في وحدتها التي كادت أن تقودها إلى الجنون لولا تماسكها وقوة إرادتها التي اكتسبتها من المحن التي أصابتها، وها هي نظرات قاسم تعود إليها اليوم مع أبيها وكأنها خارجة معه من سجن واحد ليحملا إليها الفرح الذي تتوق إليه. ولكن...! هل يعود أبوها أم أن عليها أن تنتظر شهرين آخرين كي يكتمل فرحها نهائياً...

وفكرت وقد عادت إلى الوقوف وراء نافذة غرفتها وهي ترمق مياه النهر النشطة دون أن تعبأ بثرثرة الضفادع التي ملأت الجو ضجيجاً باللجوء إلى قاسم لمعرفة أي شيء من أخبار أبيها ولكنها سريعاً ما استبعدت الأمر، إذ ماذا سيقول الناس عنها إذا ما طرقت بابه، بل ما سيقوله هو بالذات عنها؟! إن الناس باتوا لا يهمونها مذ مسحت وجودهم من خارطة حياتها، وحتى لو لجأت إلى قاسم فإنها لا تعرف أين تجده ولا أين يقطن.!

وتمكَّنَ منها القنوط وكادت تستسلم لليأس عندما تناهى إليها من آخر الطريق وقع أقدام وحديث يدور بين رجلين فأمعنت النظر تود لو تتعرف عليهما وقد استولى غبش المساء بعتمته الخفيفة على الطريق فلم تستطع حتى إذا زاد اقترابهما من البيت تبينت بعد لأي في أحدهما أباها، ولم تتمكن من التعرف على الثاني إلا عندما وقع عليهما نور مصباح الطريق الضئيل فبهتت للحظة ثم تملكها السرور، إذ لم يكن ذلك الرجل سوى الشاب قاسم الذي كان يتنكب بندقيته وكادت من فرط سعادتها لمرآه أن تقوم بحركة لتنبههما على وجودها في النافذة، ولكنها ما لبثت أن أحجمت في آخر لحظة عندما غمر النور نافذة ابن جيرانهم سعيد الذي فتح مصراعي النافذة قبل أن يملأها بجسمه، ومن ثم أخذ يحدق بالرجلين تارة وبنافذتها التي توارت خلفها تارة أخرى، وقد أخذ القلق

يساورها من شبح علاقة الحب التي فضحتها بعد أن ربطتهما ببعضهما بعضا ذات يوم.

* * *

لم يتوقع علي الحجار عندما ولج بعد صلاة العصر المقهى بحثا عن المختار صالح، أن يهب جميع من في المقهى للترحيب به وتهنئته على الخروج من السجن، لقد أحسوا عندما تعرفوا عليه بعد هذه الغيبة الطويلة بالخجل يسربلهم، لأن أحداً منهم لم يفكر بزيارته في السجن، حتى رفاق السوء الذين كان يجالسهم بدوا حيارى قبل أن يسارعوا إلى عناقه وتقبيله، وهم بين معتذر ومتعلل وكان أول المعانقين له والمرحبين به قاسم الذي قاده بعد انتهاء مظاهرة الاحتفال بخروجه من السجن إلى مجلسه مع المختار صالح والشيخ سعدو وأبي دياب الذي بدا سعيداً جداً لمرآه...

وعلى الرغم من الجو المشحون برائحة الاضطرابات الدامية التي تسود المدينة، فإن صاحب المقهى أبى إلا أن يحتفل بعودة علي الحجار، فدار على رواد المقهى كافة بكؤوس الشاي تعبيراً عن سعادته بخروج علي الحجار من سجنه.

* * *

لم يمكث علي الحجار طويلاً في المقهى فالحديث الهامس الذي دار بينه وبين المختار، واستمع إليه بإصغاء كامل الشيخ سعدو وقاسم وأبو دياب والذي دار حول ضرب القلعة وهروبه.

جعلهم يتداولون الأمر فيما بينهم ومن ثم نهض المختار متحمساً على غير عادته يرافقه الشيخ سعدو فغادرا المقهى مصطحبين معهما علي الحجار ولم يلبث قاسم حتى لحق بهم دون أن يلفت الأنظار بينما ظل أبو دياب يرشف الشاي منتظراً أوبتهم.

كان الجميع قد اتفقوا على الذهاب إلى مخفر العمارة لحل المسألة وكان المختار صالح قد اعتاد حل مشاكل أصعب وأدق من مشكلة علي الحجار، ومع

ذلك فقد تخوف الجميع من أن يركب رئيس المخفر رأسه ويرفض الحل الذي يقترحه المختار وأن يحتفظ بعلي الحجار أو يرسله من جديد إلى القلعة...

وفي المخفر استقبلهم رئيسه المفوض جميل أفندي بترحاب كبير وقد بدا لهم غارقاً حتى أذنيه بتنفيذ الأوامر التي دأبت مديرية الشرطة على تزويده بها ساعة بعد ساعة منذ الصباح...

وزفر جميل أفندي زفرة حارة وهو يقول:

- أقسم بالله لم أنم ساعة واحدة منذ ثلاثة أيام، وكما ترون، اضطرابات وفوضى والجيش الفرنسي يستعد للعدوان، ويريدون مني مع الأفندية العشرة المستنفرين معي في المخفر أن نصنع المعجزات...

وقال قاسم مجاملاً:

- فيكم البركة يا جميل أفندي.

- أين البركة يا أخ قاسم... الناس انتابهم الذعر بعد توقف المفاوضات، والقتال واقع لا محالة، والناس يطلبون السلاح، والسلاح مفقود...

- وأبو عبده.!

هتف قاسم متحمساً وكأنه يدل المفوض جميل على مستودع للسلاح... فابتسم المفوض، فزادت ابتسامته من وسامته على الرغم من تجاوزه الأربعين ثم قال:

- أبو عبده هذا تاجر سلاح ومهرب كبير لا يهمه خرب الوطن أم عمّر... معك ليرات من الذهب أعطاك السلاح الذي تطلب، ما معك ليرات، ما عنده سلاح...

- هكذا إذن! .

قال ذلك الشيخ سعدو ثم أردف رداً على هزات رأس المفوض الإيجابية:

- والله لأجعلنّه في خطبة الجمعة عبرة لمن اعتبر...

ورد المفوض وهو يطلق آهة تحسر:

- يا ليت يا شيخ سعدو تنفع الخطب، وخاصة مع رجل كهذا يتباهى بما فيه في الثورة الكبيرة وبمؤازرته للحركات الوطنية وبصداقته لزعماء البلاد الذين . للأسف . يصدقونه ويعتمدونه..

وتساءل المختار وهو يوجه الحديث الوجهة التي يريد:

- وأخبار البلد يا جميل أفندي.!

- أخبار اليوم كارثة... حتما عرفتم جميعاً بالطائرات التي ضربت القلعة بالقنابل... لقد أصابت مهاجع المساجين فقتل منهم من قتل وهرب من هرب.

وتمتم الشيخ سعدو:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير...

وتابع المفوض جميل أفندي رواية ما حدث:

- ثم نشبت في أعقاب الغارة مباشرة، معارك بين الشرطة والدرك من جهة، والفرنسيين المرابطين في ساحة الشهداء وعند سوق الحميدية وقهوة المشيرية من جهة ثانية ولا تسلوا عن النتائج فالجرحى بين المتطوعين بالعشرات والشهداء قلة والحمد لله...

وعلت الهمهمة بين الجميع بكلام غير مفهوم، بينما ظل علي الحجار قابعاً في مقعده وقلبه يخفق في صدره باضطراب، إلى أن قال المختار متسائلاً:

- وماذا ستفعلون يا جميل أفندي تجاه الهاربين من السجن!.

- لا شيء، وأنا هنا في مخفر العمارة لم أتلق بشأنهم شيئاً رسمياً حتى الآن، ولا أعتقد بأني سأتلقى شيئاً، وحتى لو وصلني شيء من هذا القبيل، فلست على استعداد في مثل هذه الظروف للاهتمام بأمر كهذا، فمهمات الأمن والدفاع عن الحي ضد العدوان المرتقب هي شاغلي الأكبر...

وقال الشيخ سعدو مستفسراً ومحملاً عبارته المعنى الذي يريد:

- وإذا جاءك فار أو هارب من القلعة، وأراد تسليم نفسه فماذا أنت فاعل؟! .

وانتبه المفوض إلى مغزى الشيخ سعدو، ونظر إلى علي الحجار الذي يراه للمرة الأولى مطولاً ثم قال وقد أدرك أن في الأمر سراً:

- ماذا تقصد يا شيخ سعدو!.

- كما قلت تماماً، وكما تبادر إلى ذهنك..

وصمت قليلاً وهو يرمق علي الحجار بنظرة متفرسة ثم قال:

- وكيف استطيع أن أخدمكم!.

وعند ذلك نهض المختار صالح عن مقعده واقترب من مكتب المفوض (جميل أفندي) وانحنى حتى تلامس الرأسان، وأخذ يحدثه همساً، وهو يصيخ إليه ويهز رأسه متعجباً بين الحين والآخر وموافقاً في أحيان أخر، ويرد عليه بدوره همساً، وكلاهما يشيران بإشارات ذات معنى إلى علي الحجار الذي غاص في مقعده وغرق في عرقه، واعتراه الاضطراب والخوف وقد ازداد دوران عينيه في محجريهما...

وأخيراً.. ارتد المختار صالح من مكتب المفوض وعاد ليجلس في مقعده وهو يبتسم ابتسامات مشجعة في وجه علي الحجار وفي وجوه زملائه حملت إليهم جميعاً الطمأنينة. وتنحنح المفوض جميل طويلاً قبل أن يقول:

- في الواقع يا جماعة قدومكم في هذا الظرف العصيب غالٍ وعزيز عليّ، ولا يمكن أن أردكم خائبين وخاصة وأنتم من عيون الحي ومن المسؤولين عنه مثلي تماماً...

وتوقف قليلاً لتنتهي عبارات الشكر والثناء التي انهالت عليه، ثم وجه حديثه لعلي الحجار الذي وقف احتراماً وقد بان عليه الارتعاش والاضطراب:

. وأنت يا علي الحجار، فعلتَ حسناً بتسليم نفسك، ولكن ليس عندي مكان احتجزك فيه، ولا أستطيع أن أرسلك إلى القلعة فالسجن قد تهدم، لذا ستبقى عند المختار كأمانة حتى أتلقى شيئاً يخصك بالذات واعتقد أن ما تبقى من مدة سجنك وهي شهران، ستسقط حكماً..

- الله يطول عمرك..

قالها علي الحجار بينما ظل المفوض يتابع سرده:

- والحكومة اليوم مشغولة بأمور أهم من هرب المساجين، وإلى أن تتدبر بناء سجن القلعة من جديد أو اختيار سجن بديل تكون مدة حكمك قد انتهت..

واندفع علي الحجار يريد تقبيل يد المفوض، ولكن هذا سحبها قائلاً:

- استغفر الله يا رجل... استغفر الله، وفي كل الأحوال سأعتبرك موقوفاً عندي طوال إقامتك عند المختار، وسأدون اسمك عندي في سجل الموقوفين، وسأشهر بذلك عند الضرورة.

* * *

كانت سعادة علي الحجار لا توصف، وعندما دخل المقهى مع المختار صالح والشيخ سعدو وقاسم، أمر المختار صالح بدورة من الشاي على الجميع ابتهاجاً بما تم .. كان علي الحجار قد ارتاح نفسياً، وودّ لو يطير طيرانا إلى البيت ليبشّر ابنته، ولكنه لم يستطع فالمختار صالح والشيخ سعدو وأبو دياب الذي كان ينتظر أوبتهم وقاسم أصروا جميعاً على بقائه بعض الوقت، وطلبوا منه بإلحاح أن يروي لهم بالتفصيل كيف ضربت القلعة، وكيف تمكن من الهرب وعندما استأذن بالانصراف قبل صلاة العشاء بقليل، نهضوا معه، وغادروا بدورهم المقهى وترافقوا نحو بيوتهم ولم يبق معه بعد توديع أبي دياب الذي كان يتلكأ بسيره بسبب عرجه سوى قاسم، وكان قاسم يود أن يفاتح علي الحجار بشأن ابنته التي سبق له وطلبها منه أثناء زياراته له في سجنه، ولكنه وجد أن الوقت غير ملائم لبحث مثل هذا الأمر وأرجأ الأمر إلى الأيام القليلة القادمة الكفيلة بذلك.

وعندما وصلا إلى بيت علي الحجار، وهمّ قاسم الذي كان يحدثه مطولاً عن تنظيمه عند جماعة الأستاذ وعن الواجب الوطني وضرورة قتال الفرنسيين،

بالانصراف أصر علي الحجار وحلف عليه بأيمان مغلظة بالدخول ليتابعا الحديث مع كأس من الشاي، وكان هذا جلَّ ما يرغب فيه قاسم فلم يتمنع ولم يكد يعلن موافقته حتى فتحت سميرة الباب على مصراعه متجاهلة الأمر ومفسحة في الوقت ذاته المجال لقاسم كي يراها كما هي دون ملاءة وغطاء رأس ومنديل وجه، ثم ارتدت سريعاً إلى الداخل وهي ترد الباب رداً خفيفاً وكأنها فوجئت بالشخص الذي يرافق أباها، وكان (سعيد) يرقب كل هذا مبهوتاً، وأحس فجأة بشعور غامض تجاه قاسم الذي يعرفه حق المعرفة، وتجاه سميرة التي مازال يحبها، وباستغراب كبير لخروج علي الحجار من سجنه قبل الأوان.

وحين أغلق علي الحجار باب بيته وهو يرحب بقاسم، واستقر هذا على مقعد في غرفة الضيوف، وخرج إليها أبوها يطلب منها إعداد الشاي تشبثت متلهفة تريد أن تعرف عن مصيره كل شيء فطمأنها بعد أن روى لها بإيجاز ما تم في المخفر.

* * *

ظلمت سميرة تحوص بين باحة البيت والمطبخ زمناً، منتظرة أن ينصرف قاسم لتعرف من أبيها ما دار بينهما من حديث ولكن الزمن امتد طويلاً، فلم تجد بداً، بعد أن أعياها استراق السمع دون أن تتوصل إلى ما يدور بينهما، من الصعود إلى غرفتها والاستلقاء على سريرها وبعد ساعة وبعض الساعة، سمعت انصفاق الباب الخارجي ثم صوت أبيها يناديها صائحاً بمنتهى الرقة، على غير عادته التي اعتادها فيما مضى كلما جاء إلى البيت ولم يجد أمها.

وإنصافاً لعلي الحجار، فإن السجن ليس وحده الذي قلَّمه ورقَّقه وجعله وديعاً، فلابنته نصيب في هذا، فهي التي حملته على التفكير بها كثيراً كلما اختلى بنفسه أو زارته في السجن حاملة إليه قدر طاقتها ما يشتهي، وهي التي بدموعها المنسابة أبداً على وجنتيها أججت حنانه الخامد تجاهها، وأيقظت مشاعر الأبوة عنده، لتؤنبه على إهماله الكبير لها، في الوقت الذي كانت تحتاج فيه إلى كل العطف والحنان اللذين يتمتع بهما غيرها من البنات اللائي في مثل

سنها... لقد أدرك وهو في السجن كم أهملها، وكم أساء معاملتها وهو وإن حاول أن يلقي على كاهل زوجته سعدية كل هذا الذي اقترفه بحق ابنته، إلا أنه اعترف بينه وبين نفسه بأنه لم يحاول مرة واحدة أن يحدثها أو يفهَمَها كما يفعل الآباء، وإنه ملام في كل ما حدث لأنه المسؤول الأول والأخير عن البيت الذي أهمله، والذي نجمت عنه تلك الفضيحة التي زكمت الأنوف، وهو عندما زاره قاسم أول مرة في سجنه وكانت معرفته به معرفة عابرة شك في أمره وفي أمر زيارته له، وحين تكررت زياراته وتوالت حتى غدت شبيهة بزيارات ابنته له، سأله صراحة أن يكشف له عن أسبابها وإلا امتنع عن مقابلته وعند ذاك أوضح له قاسم دون لبس عن رغبته في الزواج بابنته فثارت كوامن نفسه، وذهبت به الظنون مذاهب شتى، ولكنه كتم ما بنفسه أمام قاسم، وقد خشي أن تكون ابنته قد انزلقت وخاضت في المياه التي خاضت فيها أمها، وأحس آنذاك بالحقد على ابنته يأكل قلبه، وبالغضب يحل محل العطف والحنان اللذان أخذ يحس بهما تجاهها ويومذاك طلب من قاسم وقد اعتراه الشك بوجود علاقة بينه وبين ابنته أن يمهله الوقت متعللا بالسجن، وحين أخبره قاسم فيما بعد بزيارة المختار صالح والشيخ سعدو لابنته بناء على طلبه ليجسّا نبضها في أمر الزواج بقاسم، وكيف طردتهما، غمرته السعادة وأيقن عندما اطلع على تفاصيل الزيارة بأن ابنته من طينته، وأنها لا يمكن أن تكون أبداً على شاكلة أمها، ومن هنا تبدلت مفاهيمه من جديد تجاه ابنته التي لم يدعها تلحظ جفاءه تجاهها أثناء زياراتها له بعد أن علم ما علم من أمر قاسم، ومن ثم من أمر زيارة المختار والشيخ سعدو التي لم تشر إليها على الإطلاق، وكان كلما شجعها بالترويح عن نفسها بالخروج من عزلتها كانت تصر عليها طالما هو في السجن، وأدرك الأب والحزن والفرح يغمرانه معاً، بأن ابنته سجنت نفسها واعتزلت الناس أسوة به، لكي تحرم نفسها مما هو محروم منه، مفضلة ألا تتمتع بشيء قبل أن يتمتع هو بالذات بكل شيء...

هكذا انقلب الأب تجاه ابنته التي كانت علاقته بها جافة وقاسية، وهكذا ترقَّق وبات يفكر وهو في السجن بسعادتها قبل سعادته وعندما طلبها قاسم فكر

ملياً في الأمر ثم اتخذ قراراً بعدم تزويجها إلا للشخص الذي تختاره أو توافق عليه، خلافاً للعادات والتقاليد المتبعة في مثل هذه الأمور وهو عندما اتخذ ذلك كان يدرك تماماً أنه يخالف ما شبَّ عليه وما جاء به الأسلاف على الرغم من اللوم والتقريع اللذان سيتعرض لهما من الناس ليشعر ابنته بمقدار حبه وحرصه عليها وعلى سعادتها، ومن هنا فإن قاسم عندما طلبها منه ثانية وهما يرشفان الشاي، أصيب بالذهول والدهشة معاً، عندما أفهمه الأب صراحة بأنه لا يملك من الأمر شيئاً، وإن الرأي الأول والأخير في هذا الشأن في يد ابنته بالذات فإن قبلت به كان لها، وإلا عليه أن يبحث عن البنت التي تناسبه في غير بيته.

* * *

احتار علي الحجار كيف يزجي لابنته عرض الزواج الذي تقدم به قاسم، فهو لم يسبق له أن تعرض لموقف كهذا، كما أن العادة جرت أن تفاتح الأمهات بناتهن في مثل هذه الأمور، وتضعهن أمام الأمر الواقع ولا تسمح لهن بالرفض أو الاحتجاج، ومع ذلك ارتأى وهو يحدث ابنته في غرفة نومه التي حملت له كثيراً من الألم أن يمهد لها الأمر، ولكنه لم يعرف كيف يبدأ ومن أين يبدأ، فأخذ يلقي الكلام على عواهنه إلى أن عزم فجأة على مواجهتها بالأمر مباشرة فقال وهو يتظاهر بترتيب فراشه:

- إن الشاب قاسم، الذي شربت الشاي معه، شاب طيب وممتاز، وقد تقدم لخطبتك، فما رأيك؟! .

ولم تحر جواباً ولكنها أحست بالأرض تميد تحتها من الفرح، وأن كل شيء في أجواها يرقص طرباً، ولكنها مع ذلك غفت حياءً ولم تجب بشيء.. وارتبك الأب أمام صمت ابنته، وحار فيما يفعل، وإن صمم أن يسير في هذا الأمر حتى النهاية، فقال لها وقد أعياه صمتها بحنان وهو يواجهها:

- اسمعي يا ابنتي لقد آليت على نفسي ألاَّ أزوجك لشخص لا ترغبين فيه، فإذا كنت لا توافقين عليه، تكفيني إيماءة من رأسك، فانفض يدي من هذا الأمر...

واعتمر الاحمرار وجهها، ولزمت الصمت، فهي لم تواجه مثل هذا الأمر قبلا، ولو كانت أمها التي تحدثها لأجابتها فوراً، أما وهي الآن أمام أبيها فإن مواجهته بالإيجاب أو النفي من أصعب الأمور عليها، كما أن موقف أبيها بالذات يحيرها، إذ متى كان للبنات رأي في مثل هذه الأمور... ليته يقرر بنفسه فيوافق ويريحها من هذا الإحراج... واقترب أبوها منها، وضمها إليه وهو يقول:

- فكري في الأمر، وكما قلت لن تتزوجي إلا من الشخص الذي توافقين عليه، وقاسم بعد هذا عدا أنه شاب طيب وخلوق، موظف في دائرة الميرة وراتبه جيد ويعرف وضعنا تماماً وغير مهتم بالحادثة إياها، ولا يريد سواك...

وعاد الفرح يرقص في أجوائها لتقول بصوت مبحوح وهي ترتعش:

- إذا كنت تراه جيداً، فأنا رهن موافقتك...

- إذن أنت موافقة.!

فضحكت عيناها وابتسم أبوها ابتسامة عريضة وقال:

- مبروك يا سميرة.... مبروك..

* * *

لم يتمكن الصديقان أحمد وعدنان من مغادرة المليحة إلى الشام كما اتفقا ولم تكن إصابة سكرة هي السبب في إعاقة تنفيذ ما اعتزما عليه، وإنما أمر آخر انفجر في وجهيهما فمنعهما من السفر إلى حين، ففي فجر ذلك اليوم الذي أصيبت فيه سكرة بالتواء في كاحلها بعد تصنعها السقوط، ظهر الجراد الزحاف فجأة في كل مكان، وانتشر بسرعة مخيفة في الحقول والبساتين لتبدأ معه متاعب الصديقين.

كان أول من انتبه إلى ظهور الجراد الزحاف، النوري محمد علي زوج سكرة فبادر بالتوجه إلى بلدتي البلاط والمليحة المتجاورتين لتنبيه المخاتير والفلاحين إلى الخطر الساحق، ولكنه أحجم في آخر لحظة عندما شاهد غازية قادمة وحدها، واعتراه القلق على سكرة خوفاً من أن تكون تورطت في أمر ما، أو ضبطت في المكان الذاهبة إليه، فتجر العشيرة لمتاعب هي في غنى عنها،

وحين عرف من غازية بأن سكرة تعثرت والتوت قدمها ووقعت أرضاً قرب بيت الصديقين أحمد وعدنان، وأنها لجأت إلى بيتهما وطلبت المكوث عندهما بعض الوقت ريثما تشفى قدمها، اطمأن وأدرك في الوقت ذاته كخبير في مثل هذه الأمور التي اعتادها أن غازية وسكرة باتتا عند الصديقين، فلم يهتم وإن طلب من غازية متظاهراً بالامتعاض أن تعود أدراجها إلى سكرة مصطحبة معها عجوزاً من العشيرة سمّاها لها لتعالج كاحل سكرة، وأن تتبئ الصديقين في الوقت نفسه بظهور الجراد الزحاف...

* * *

كان ظهور الجراد الزحاف بعد القضاء على الجراد الطيار الذي أهلك المزروعات وما تزال بقايا من أسرابه تعيث فساداً هنا وهناك، كارثة حقيقية فالذي لم يأتِ عليه الجراد الأصفر سيقضي عليه الزحاف الأسود، وكان ظهوره قبل أوانه بقليل مفاجأة لأحمد وعدنان وأهالي القريتين الذين هبوا يحملون رفوشهم ومعاولهم وتوزعوا بسرعة في المناطق التي حددها الصديقان اللذان انطلقا بدورهما مع أعداد كبيرة من الفلاحين نحو الحفر التي قاموا بحفرها على امتداد مئات الأمتار من مواقع غرز الجراد ليشاهدوا في هلع حقيقي عشرات الألوان من الحشرات الحقيرة تتقافز في الحفر التي سقطت منها، محاولة الهروب من المصير الذي آلت إليه....

وأشار عدنان إلى عدد من الفلاحين هش الجراد من الخلف إلى الحفر، وإلى عدد آخر بالانتظار ريثما ينتهي زحفه عن طريق هشه في كل الأراضي المتاخمة للحفر التي أقاموها قبل أيام ليسقط فيها، ومن ثم يهيلون التراب فوقه لدفنه، وبعد هذه النصائح والإرشادات توزع أحمد وعدنان العمل مع الفلاحين، وتم الاتفاق على أن يقوم الفلاحون بالحفر بعيداً حوالي خمسين متر أو أكثر عن موطن ظهور الجراد الزحاف، وأن تقوم فئة منهم بإحاطته وتأخير زحفه ريثما ينتهي الحفر ليتم ردمها عليها بعد قيادته إلى حتفه.

وعلى الرغم من دقة العمل الذي كان يتم بسرعة متناهية في مناطق تواجد الجراد الزحاف، فإن الأمر أفلت في مناطق أخرى لافتقار العمل للأيدي العاملة، وكان الجراد الزحاف يخرج من أجربته من نقاط غرزه واحدة بعد أخرى بسرعة مخيفة كلما ازدادت حرارة الجو، وما كادت الشمس تتوسط السماء، حتى امتلأت السهول والحقول بأعداد مخيفة من الزحاف الأسود وهو يتقافز هنا وهناك ويلتهم في طريقه الأخضر واليابس، ولم يستطع الفلاحون الذين كانوا يقومون بالحفر في بعض المناطق القريبة نوعاً ما أن يظلوا مكتوفي الأيدي أمام الأنباء التي تواترت عن تواجده الكثيف، فتركوا الحفر وحملوا رفوشهم ومعاولهم، وانطلقوا نحو تلك السهول والحقول وأخذوا ينهالون ضرباً فيه دون جدوى، فقد كان يتقافز حولهم بسرعة غريبة دون أن يستطيعوا شيئاً معه وحين أدركوا عقم ما يقومون به استسلموا مخذولين وعادوا إلى متابعة الحفر بهمة أكبر أملاً في حماية الأراضي الأخرى والخلاص من بعضه على الأقل.

وعندما تناهى للفلاحين ولأحمد وعدنان في مختلف الأمكنة التي يعملون فيها صوت المؤذن يؤذن لصلاة العصر، كانوا قد أتموا عملهم بعد أن كدهم التعب وهدهم الإعياء، إلا أنهم ما لبثوا فجأة حتى أخذوا يتصايحون ويضحكون حين شاهدوا أرتال الجراد الزحاف تسقط في الحفر تباعاً، وعلى الرغم من هذا فإن أحمد الذي رأى أن الفلاحين قد استكانوا لنصرهم، واعتزموا الراحة بعد العناء الذي بذلوا أوضح لهم بأن العمل لم ينته، وأنه بحاجة لهمة أكبر لأن الجراد الزحاف سينام بعد غروب الشمس وأن العمل في المناطق الأخرى التي أتى عليها الجراد والذي سيأتي على غيرها، سيبدأ فوراً كي يتم القضاء عليه عندما يستيقظ ويبدأ في البحث عما يلتهمه.

وتوتر الفلاحون في بداية الأمر، ولكنهم في النهاية رضخوا ووافقوا على تحقيق رغبات أحمد وعدنان اللذين كانا دوماً سباقين إلى العمل، ومن أجل متابعة العمل ليلاً، طلبا من صبية القريتين الذين رافقوا مراحل العمل كله وبذلوا طاقتهم فيه، أن ينطلقوا إلى القريتين ويجلبوا عدداً من المصابيح لتساعدهم في العمل، وكان المخاتير ووجهاء القريتين قد أرسلوا أطباقاً كبيرة من طبيخ البرغل

والفول وسطولاً من اللبن وأكثر من مئتي رغيف من أجل إطعام جميع الذين عملوا في مكافحة الجراد.

وهكذا التف الجميع حول الطعام يأكلون ويتحدثون في مصيبتهم التي تشبه مصيبة الوطن بالاستعمار الفرنسي ويتندرون ويصرّ بعضهم على أن مصيبة البلاد بالفرنسيين أخطر بكثير من مصيبتهم بالجراد، وتمنوا لو أنهم كانوا يحفرون قبور المستعمرين عوضاً من مدافن الجراد التي صنعوا.

وظلوا زمناً يشبهون الفرنسيين الذين نهبوا خيرات البلاد بالجراد إلى أن غابت الشمس فنهضوا وانطلقوا نحو مناطق الجراد بنفوس يملؤها حب العمل والرغبة في القضاء على هذا العدو الذي انشقت الأرض عنه.

* * *

كان الليل قد تجاوز منتصفه بقليل حين ولج الصديقان بيتهما، وكان همهما الوحيد الاغتسال والنوم فالتعب الذي تمكن منهما والإعياء الذي فتك بهما جيدا، جعلهما لا يقويان على حمل جسديهما، وحين رأيا غازية وسكرة تنتظرانهما وترحبان بهما، وتعنيان بأمرهما كربات البيوت تماماً فوجئا وشعرا في الوقت ذاته بتعبهما يتبدد، وبالسرور يغمرهما ويوغل بعيداً في أجوائهما حتى نسيا أمر تعبهما، فأخذا يتحدثان عن متاعب يومهما وعن أهوال الجراد الزحاف دون أن يتوقفا إلى أن سأل أحمد سكرة عن أحوالها وأحوال قدمها، فانطلقت تروي لهما كيف تأوهت كثيراً وولولت من الألم حين أعادت شيخة العشيرة العجوز كاحلها إلى موضعه، وكانت مازالت تعرج قليلاً حين اختلت بأحمد الذي استلقى على الفراش يود النوم منبهاً إياها بضرورة إيقاظه في السحر، ولم تجد مغازلات سكرة الفاضحة التي تجاوب معها في بداية الأمر شيئاً، فقد طفا التعب الذي توغل بعيداً في كل جسده على السطح فأخمد حركته ثم أخذه معه في رحلة نوم عميقة، وكانت سكرة التي ما فتئت تعابثه بمجون، قد شعرت بأن حبيبها قد غدا في وادٍ وغدت هي في واد آخر فاستسلمت صاغرة ثم احتضنته وأغفت بدورها.

* * *

لم تجد محاولات سكرة في منع أحمد من التوجه إلى دمشق وحاولت جاهدة مع غازية أن تقنعاه بالعدول فلم تفلحا، وكان قد أمضى ثلاثة أيام مع عدنان وجموع الفلاحين يعملون في السهول والحقول في مكافحة ووأد الجراد الزحاف في الحفر التي أقاموها خصيصاً له، إلى أن تأكدت لهما نظافة الحقول منه، ومع ذلك فإن الخوف من ظهور الجراد الزحاف في مواضع أخرى من أراضي المليحة والبلاط وما يجاورهما من أراضي وبساتين، كان ما يزال يملأ قلوب الفلاحين، على الرغم من الخبرة التي اكتسبوها في مكافحته، وكان أحمد قد اتفق مع عدنان على تبادل الذهاب إلى دمشق، فيتوجه إليها وحيداً فيمكث فيها لمدة يومين، بينما يظل عدنان في المليحة لمتابعة أعمال المكافحة ريثما يعود ومن ثم يتوجه بدوره ليقيم عند أهله مدة يومين أسوة به.

سكرة التي لم تشعر في حياتها بمثل هذا الحب تجاه أحمد، هالها أن يفارقها وخشيت في الوقت نفسه أن يصيبه مكروه فهي كنورية خبرت الحياة، ودأبت على زيارة دمشق يوميا، وتعرفها حجراً حجراً، أدركت مذ شاهدت بعينيها ما يجري فيها كنه الخطر الذي يمكن أن يتعرض له أي إنسان وأيقنت بأن حبيبها لا محالة هالك عند أبواب دمشق، التي اكتظت عند مداخلها بمئات الجنود المدججين بسلاحهم وبمصفحاتهم، ومن هنا أرادت أن تمنع عن فتاها المخاطر التي قد يتعرض لها عند دخوله دمشق، وأن تثنيه عن عزمه بشتى الوسائل فلم تستطع، وعندما أدركت أن كل جهودها في هذا السبيل ذهبت هدراً وأنه مصمم على الرحيل هتفت بإصرار:

- إذن أذهب معك...

فصاحت غازية:

-وزوجك محمد علي!.

فردت مساطرة:

- زوجي!. ليذهب إلى الجحيم فهو لا يعنيه من أمري سوى ما أجنيه طوال يومي...

- ولكن يا سكرة، هو في كل الأحوال زوجك..

- أجل زوجي... ولكن لا أطيقه...

قالت ذلك بصوت خافت ولهجة مؤسية لم تنفع مع أحمد الذي صاح حاسماً الموضوع:

- وأنا أرفض أن تأتي معي....

فطأطأت برأسها قليلاً، ثم نظرت إليه والدموع تترقرق في عينيها كانت في تلك اللحظة ما تزال واقعة تحت تأثير الأيام الثلاثة التي أمضتها معه تحت سقف واحد...

صحيح أنها لم تلتق معه إلا في الليل، غير أن تلك الليالي الثلاث قلبت حياتها رأساً على عقب فهي لم تنسَ بعد كيف حملها وانطلق بها نحو غرفته بعد تدحرجها على الدرج، ولم تغب عنها رقته وهو يوسدها فراشه ولم يخطر لها أبداً أنه سيبدي مثل هذا الاهتمام برضوضها وإصابتها، وأن يعتني بها تلك العناية الفائقة، كذلك لم تتصور على الإطلاق أن يحمل إليها وجبة الصباح وأن يصب لها الشاي ويطعمها بيده، وهو يعرف حق المعرفة بأنها ليست فلاحة من المليحة أو شامية من الشام، وإنما نورية من النور الذين يتسولون ويسرقون ويدجلون بالتنجيم وقراءة الكف، ويبيعون كل شيء ويفعلون كل شيء دون أن يرف لهم جفن، ومن هنا فقط تعاظم حبها له لأنه عاملها كسيدة، وتعاظم أكثر حين أقبل عليها كإمرأة مشتهاة وليس كمومس، ليعب منها بلطف كل شيء ولتغب منه كل شيء، وكانت ترجو ألاَّ تنتهي تلك الليالي وأن تطول إلى الأبد ليظل نائماً على ساعدها أو لتظل مسهدة تتظاهر بالنوم على صدره...

ولم تعد تستطيع المقاومة وهي تسترجع في شاشة مخيلتها كل شيء وتنظر في عينه اللتين اصطنعتا العبوس فانفجرت تجهش في صمت وعند ذاك ضمها إلى صدره في حنو وأخذ يربت على ظهرها مهدئاً من روعها كما يفعل

الرجال العقلاء، بينما انسحب عدنان جاراً معه غازية إلى خارج الغرفة وأحمد يؤكد لها قائلاً:

- لن أغيب سوى يومين...

ولم ترد بشيء وإن تركت نظراتها تتسلل إلى عينيه الصافيتين لتستطيع من خلالهما أن تقارن بينه وبين زوجها الذي لم تسمع منه كلمة رقيقة حتى في يوم زفافها، وكان إذا اشتهاها مرغ جسدها بقذارته دون أن يهتم بأحاسيسها ومشاعرها وكان لا يجيد من القول حين تدفع إليه بما غنمت سوى:

- أنت زينة يا سكرة، وزينة أكثر لو غنمت مالاً أكثر...

لقد دفعها دفعاً لكل شيء.... للسرقة، للكذب، للزنى، دون أن يقول لها افعلي هذا وذاك أو لا تفعلي.... وإذا ما تعرضت لشرٍ ما بسبب كل هذا كان يتنصل ويتعهد بمعاقبتها ويهينها أمام الجميع ويعد بأنها لن تعود إلى ذلك ثانية، كان كل شيء فيه قبيحاً عدا عزفه الرائع على البزق... لقد أمضت معه عشرة أعوام في ذل حقيقي حتى استطابت الذل، ولم يكن والدها بأرحم منه، وهي في الواقع لا تدري إذا كانت ولدت من نطفة أبيها، أم من نطفة أخرى قذرة، وهي بالذات لم تنجب ولا تريد أن تنجب من هذا الزوج، وتتمنى أن تسفر ليالي الحب التي أمضت مع أحمد عن طفل يسعدها... كانت طوال حياتها تواقة لكلمة حلوة، للفتة حانية، لرجل يسعدها كما أسعدها أحمد في هذه الأيام الثلاثة، كانت لا تريد أن تلعب لعبة الحب مع أحمد، ولكن زوجها دفعها إلى ذلك طمعاً في مزيد من المال، وهي عندما رافقته وسارت إلى جانبه وتبادلت معه الحديث أحست، وقد نسيت لعبة الإغواء والإعزاء أنها في نزهة صباحية ممتعة، وأنها تشعر إلى جانبه في جو الطبيعة الصباحي الساحر بنشوة لم تعرفها قبلاً، فأنست إليه وتمنت في تلك اللحظة لو تحتويه بساعديها ولكنها أحجمت خوفاً منه، لأنه لم يشجعها ولم يبدُ عليه أنه راغب فيها، وإزاء هذا كله تمكنت منها لهفة لمواعدته، علَّها تحظى منه بمزيد من المتعة التي تحسها إلى جانبه، ولكنه لم يتحمس كثيراً لموعدها فزاد هذا من رغبتها فيه، وقد شعرت برغبة جامحة وشديدة في احتواء هذا الفتى المراهق الرصين كالرجال بين

ذراعيها، لتطفئ شبقها فيه ولتروضه على حبها، وكان ما كان ونالت منه أكثر مما توقعت، فلم تعد تطيق صبراً على فراقه لحظة واحدة فدفء الوها وعمق الأحاسيس والمشاعر المتدفقة التي بدت لها مشتركة وحبها بالذات، أعماها عن كل شيء، وفرض عليها أن تكون العشيقة والأم والأخت والخادمة والراغبة له، وها هي تراه الآن يصر على الذهاب إلى دمشق، وهو ما زال يضمها إلى صدره وينهال عليها مقبلاً ومراضياً، والموت يترصده في دمشق ولا تملك القوة لمنعه فما عليها سوى أن ترافقه فإما ينجوان معاً أو يقضيان معاً. وراقتها الفكرة، لتسيطر عليها بغتة فكرة الموت على النجاة، فقالت تغريه وتغويه لتمنعه من السفر:

- طالما لن أراك بعد الآن، فلنتمتع ببعضنا، فأودعك بذلك، وتودعني...!

فضحك وهو يبتعد عنها كرجل رزين وقال مستفهما:

- لن تريني بعد اليوم؟! .

- أجل... هكذا يقول طالعك... فتودع مني..

- دعك من هذا اللغو الذي تتاجرين به... هيا ابتسمي ابتسامتك الحلوة، ودعيني أرحل وأعدك أن أشرب القهوة معك غدا عند نومك بعد غياب الشمس.

ولم تجب بشيء، وإن استشعرت الصدق في كلامه، والخوف عليه، وبدا وكأنها اعتزمت أمراً، فتركته يحزم متاعه القليل ويرميه فوق سلة البيض التي سيحمل، ثم قبلته مودعة وانطلقت مع غازية تبغيان مضرب عشيرتهما، قبل أن ينشق الفجر عن أنواره، حتى إذا لاحت تباشير الفجر وأخذت الطبيعة تشدو مع عصافيرها وأطيارها أغنيات الفجر، يمم احمد وجهه بخطوات نشطة نحو دمشق بعد أن ودع صديقه، حاملاً لأسرته في يدٍ كيساً من اللبن المصفر، وفي الأخرى سلة من البيض.

* * *

لم يكد أحمد يصل في سيره إلى الطريق التي تمشى فيها مع سكرة ذلك الصباح، حتى دهمته الذكرى فارتسمت على وجهه ابتسامة سعيدة، ثم تابع سيره ليتوقف ثانية عند البقعة التي نثرت فيها الودع لتكشف له عن طالعه، محاولاً أن

يتذكر كل شيء روته له، وفجأة وجد نفسه يفكر فيها وفي حبها وفي تعلقها به، ومدى خطورة ذلك عليه، لقد حاولت منعه من السفر قبل سقوطها عن السلم، فهي وإن قدمت له المتعة التي يرغب منها إلا أنه لم يفكر بالتجاوب مع الحب الذي أبدته له والذي ما فتئت تحيك خيوط شباكه حوله مذ وطئت قدماها البيت بفعل العاطفة المتأججة لديها تجاهه... صحيح أنها أضفت على البيت مع غازية خلال هذه الأيام الثلاثة، جواً خاصاً وأنهما عنيتا بأمره وأمر عدنان واستطابتا الإقامة وأرضينا غرورهما ونزعاتهما، إلا أنهما لم يفكرا بمبادلتهما الحب، وإن أحبا طهوهما واستساغا إقامتهما ونوادرهما، وهما لا تتكفان تبديان من ضروب العناية والاهتمام بهما الأمر الذي جعلهما يخشيان من التورط فيما تسعيان وتهدفان إليه، وإذا كانت غازية قد قنعت بما تأخذه من عدنان لقاء ما تعطيه وأحبت الإقامة في بيتهما الهادئ الذي أبعد عنهما الركض والسعي هنا وهناك إرضاء لقومها، فإن سكرة التي منحته كل شيء ورفضت أن تأخذ شيئاً لم تعبأ بما فرضه عليها زوجها وعشيرتها... كانت تريد أن تحظى بالحب، وحبه بالذات، وهو الشيء الذي لم يفكر بمنحه لأحد على الإطلاق قد انتحرت هيام، منهية حياتها بتلك النهاية المؤسية الفاجعة... لقد بات على قصر المدة التي انقضت على علاقته بها، يخشى أن تورطه بما يكره، فهو لم ينس بعد إلى أين قاده طيشه مع أم إبراهيم التي لا يعلم عنها شيئاً، ولا يريد للمأساة التي عصفت به بسبب نزواته ونزوات أم إبراهيم أن تتكرر مع سكرة، التي لا يهمها كما تبدو له ما تقدم عليه لأنها كنورية، تعيش ببوهيمية مطلقة تتصرف وكأنها غير مسؤولة عن تصرفاتها أمام أحد وهي إن أحبت . كما هو الحال معه . لا تعرف حدوداً لحبها، ولا يعرف متى ستكف عن حبه، وهو يستطيع إذا شاء أن يطردها ولكنه لا يرغب في ذلك، لأنه في قرارته يميل إليها ويجد فيها سلواه، ولأنه أيضاً لا يريد أن يجرح أحاسيسها، وطالما تحبه كل هذا الحب فليتركها على هواها حتى تملّ منه وتعود إلى حياتها التي اعتادتها.

إنه الآن سعيد بها، فهي على الأقل تعنى بشؤونه وتؤنس وحدته وليله وترعاه وتنتظر أوبته متلهفة وهو بدوره كان يستعجل دائماً العودة المبكرة، وكله

شوق إلى لقياها وإلى ابتسامتها الحلوة وعناقها ورائحة عرقها الشهية، التي كانت تقوده دائماً إلى المتاهات التي يروم ويهوى، ولكنه على الرغم من هذا كله، كان يستعجل اللحظة التي ترحل فيها عنه ولا تعود.

وإذ همّ بمعاودة السير دافعاً عن رأسه كل الأفكار التي راودته، فاجأته ضحكة جذلى يعرفها حق المعرفة، فتلفت حوله متشوقاً، فلم يرَ أحداً، وبينما هو كذلك برزت سكرة من بين الأشجار تسوق حماراً تمتطيه، فبُغت بها وبحمارها، وقد طار فرحاً دون أن يدري لماذا بينما اندفعت بحمارها نحوه ضاحكة وهو تقول:

- هيا، ماذا تنتظر؟! ضع أشياءك في الخرج، وامتط الحمار خلفي...

ولكنه رفض في بادئ الأمر بسبب إصرارها على مرافقته إلى دمشق، فتشاجرا وتناقشا في الأمر قبل أن يختلفا من جديد، ثم رضخ لمشيئتها مستسلما وهما يضحكان ويعبثان في أيهما يمتطي الحمار خلف الآخر، إلى أن استسلمت ورضيت بالركوب خلفه، وهكذا انطلقا إلى الشام وأحمد يلكز الحمار في خاصرتيه يستحثه الإسراع وسكرة لا تسعها الدنيا لفرحتها وسعادتها...

* * *

كانت الطريق إلى دمشق شبه مقفرة إلا من عدد من الفلاحين الذين انتشروا بعيداً في الحقول للعناية بمزروعاتهم وحمايتها من الجراد الزحاف وكان أحمد لا يكف طوال المسير عن التوقف هنا وهناك والتوغل في البساتين والحقول القريبة التي امتدت على جانبي الطريق متفحصاً ومعايناً، وهاجسه أبداً الجراد الزحاف، وعندما وصلا إلى مشارف دمشق وبدا لهما الباب الشرقي من بعيد، أهاب بها أن تعود وحمارها إلى قومها، فلم تذعن، وأصرت على مرافقته واتفقا على أن ترافقه حتى (بوابة العمارة)، فيواصل هو طريقه إلى بيته، بينما تتابع طريقها لوحدها، فتبات في خان قريب عند (الحواصل) ومن ثم يلتقيان في ظهيرة اليوم التالي عند بوابة العمارة، لينطلقا عائدين إلى المليحة، وأشرفا أخيراً على الباب الشرقي فتوقفا وقد انتابهما ذعر حقيقي.... كان هناك عشرات

الجنود وجلّهم من السنغال والكمبوديين الذين اتخذوا لهم مراكز عند مدخل الباب الشرقي تماماً، وقرب مقام القديس يوحنا وعلى طول امتداد سور المدينة القديم بينما وقفت على مسافات متباعدة خمس مصفحات في حالة تأهب.

وهتفت سكرة وهي ترى كل هذا:

- ألم أقل لك وأنصحك!.

فلم ينبسْ ببنت شفة، وحار فيما يفعل، هل يجازف بمتابعة السير أم يعود أدراجه؟! وكأن سكرة قد قرأت ما يدور في خلده، فلم تمهله حتى يتخذ قراراً بهذا الشأن فصاحت به وهي تقفز من على ظهر الحمار:

- تعال معي...

فحذا حذوها بينما لوت هي عنق الحمار من رسنه، وانطلقت تمشي بحذر في البساتين على طول امتدادها المتاخم لنهر بردى بعيداً عن الباب الشرقي، ساحبة الحمار خلفها، إلى أن انحدرت في فجوة عريضة في دك بستان الأفندي، وأحمد يتبعها كظلها ليجدا نفسيهما في بساتين الزبلطاني المؤدية إلى حواري الصوفانية التي تنتهي في باب توما من ناحية الشرق، وإلى برج الروس من الناحية المضادة، وكانت المقاهي القائمة على ضفة النهر خالية تماماً ومغلقة، واختارا زقاقاً من أزقة الصوفانية، وانطلقا فيه وهدفهما باب توما ليتوجها منه إلى باب السلام الذي يقود مباشرة إلى (العمارة) من جهة وإلى (السبع طوالع) من جهته الأخرى، وما كادا يتجاوزان الزقاق الضيق، ورائحة النهر تزخم أنفيهما والرطوبة التي ينشرها على دفعات تبعث في أطرافهما النشاط، ويهمان بالتوجه نحو (باب توما) حتى اعترض طريقهما جندي سنغالي لا يدريان من أين برز لهما، وقد أشهر سلاحه في وجهيهما، فاعتراهما فزع حقيقي انقلب إلى رعب من جراء ظهوره المفاجئ، وتفحصهما السنغالي طويلاً وهو يقترب منهما شيئاً فشيئاً، وقد بان الفزع في أعينهما وهما يرتجفان في وقفيتهما، إلى أن توقف عند الحمار فأخذ يخرج ما يحتويه الخرج من أشياء ويضعها بدون عناية على الأرض،

وعيناه لا تغفلان عنهما ثم صاح بهما وهو يحمل سلة البيض في يد وبندقيته باليدِ الأخرى...

- موسلمان (يعني إسلام)...

واحتار أحمد فيما يجيب، وقد فهم ما يريد، وخاف إن أجاب بالإيجاب أن تكون عاقبته وخيمة، وإن أجاب بالنفي، أن يكون السنغالي مسلماً فيتصرف على هذا الأساس ولكن سكرة بادرت إلى القول بهدوء وثبات منقذة الموقف وهي تشير إلى نفسها وإلى أحمد:

- تزيجان... تزيجان.

فارتسمت على وجه السنغالي ضحكة عريضة باتت معها أسنانه البيضاء وأشار إليهما ببندقيته بالانصراف وهو يردد بغباء ويضحك:

- تزيجان.. تزيجان..

وبسرعة فائقة جمعت سكرة الحاجيات الضئيلة من على الأرض ووضعتها في الخرج، ثم سألت السنغالي عن طريق الإشارات أن يعطيها سلة البيض، ولكن هذا عبس في وجهها ورد سلة البيض إلى الخلف وهو يشير إليهما ببندقيته بالانصراف، وعند ذاك سحبت الحمار من رسنه على عجل باتجاه باب توما والحمار يؤخر سيرهما بتلكؤه الذي دأب عليه في مثل هذه المواقف...

أخيراً اجتازا باب توما وسارا على ضفة النهر باتجاه باب السلام، وقد شعرا بالاطمئنان ورائحة الدبّاغة المقامة على النهر تملأ أنفيهما كلما غدا السير باتجاه باب السلام، وعندما أشرفا على مسجد الأقصاب تناهت إلى سمعيهما من بعيد رشقات من الرصاص المتقطع فسارعا من خطواتهما واتفقا على اللقاء عند باب السلام بالذات عوضاً عن بوابة العمارة وهكذا افترقا وكلاهما يود ألا يفترق عن صاحبه.

* * *

ما كاد أحمد يصل الحي ويخطو خطوات متسارعة نحو بيته حتى لمح من بعيد (قاسم) جار أم إبراهيم قادماً من بعيد، فخطر له أن يسأله عنها وعن أحوالها... كان قاسم يرتدي ثياب المتطوعين ولا يحمل سلاحاً، وحين غدا قريباً من أحمد حيّاه هذا بحرارة وقال له محذراً.

- انتبه جيداً يا أخ قاسم، السنغال يملأون باب توما والشوارع المحيطة بها..

- لا عليك يا أحمد.

- لقد اعترض أحدهم طريقي وسرق مني سلة البيض التي جلبتها معي ولم يبقِ إلا على كيس اللبن هذا...

- إنهم لا يستسيغونه، ولو كانوا كذلك لاستولى عليه أيضاً.

وتوقفا عن الحديث فجأة، فقد صافح سمعهما أزيز رصاص متواصل حتى إذا هدأ قال أحمد:

- حاذر يا سيد قاسم على نفسك... الشوارع غير آمنة.

فضحك قاسم وهو يربت على كتف أحمد وقال:

- أطمئن، وأنا شخصياً أتفاءل برؤيتك، ولا يمكن أن أنسى كيف أنقذتني من رجال التحري يوم كانوا يودون القبض علي... والآن حدثني ما أخبار الجراد..

- حتى الآن جيدة، والجراد الزحاف بدأ يظهر في كل مكان...

- مثل الفرنسيين...

- تماماً... ولكن كيف عرفت؟! .

- من أبيك...

وهم قاسم بالسير، ولكن أحمد استوقفه وهو يتساءل:

- ما هي أخبار جارتك أم إبراهيم... هل هي بخير..!

- لا أحد يعرف عنها شيئاً قد أُدخلت مستشفى المجانين...

- مستشفى المجانين...

- أجل.. لقد جُنت المسكينة بعد حادثة ابنتها...

ثم أردف وهو ينصرف مودعاً:

- الله يلعن الفقر وعيشته..

وأصيب أحمد بالذهول، كان يتوقع كل شيء إلا هذا المصير لأم إبراهيم، وطفرت الدموع من عينيه وهو يتحامل على نفسه، واستند إلى جدار أحد البيوت حين أحسَّ بأن الأرض تميد تحت قدميه، وألحت عليه ذكرياته فتداعت أمامه كشريط سينمائي... كان همه قبل أن يصل إلى دمشق، أن يعرف عنها كل شيء وفي الوقت نفسه كان لا يريد أن يعرف عنها شيئاً، كان يريد الهرب مما ينتظره إذا ما شاهدها، وكانت فكرة الهرب من هذا الماضي شاغله الوحيد، ومع ذلك فإنه عندما شاهد قاسم لم يستطع مقاومة الإغراء في السؤال عنها، إنه الآن لم يعد بحاجة لأن يهرب من الماضي ومن نفسه، فقد وضعت أم إبراهيم بجنونها حداً لعذاباته التي اعتقد أنها ذهبت إلى غير رجعة بعد حادثة هضبة الأحناش، وهو يشعر الآن بنوع من الراحة النفسية... صحيح أنه شارك في تلك الأحداث، وأسهم في صنعها إلا أن تبكيت الضمير الذي عانى منه طويلا، والذي دفعه إلى دخول ذلك الصراع مع الأفاعي والأحناش ليضع حداً لحياته، كان من المحاولات العديدة التي أقدم عليها من أجل التخلص من معاناته وعذاباته.

وهز رأسه مستسلماً وقد آمن في قراراته بأن القدر هو الذي يرسم له خطواته في هذه الحياة. ومسح دموعه وهو يرمق مياه النهر وقد ازداد إيماناً بالحياة، فهذه الحياة التي يراها هنا معجلة، تمنح الحياة لكل الحقول والبساتين في غوطة دمشق التي بات يعرفها شبراً شبراً مذ بدأ عمله في مكافحة الجراد.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة تجمع الحزن إلى الفرح ومن ثم انطلق نحو بيته وهو يصفر لحناً دارجاً وكله توق لرؤية أمه وأبيه وأخويه وأخته المريضة، وما كادَ يقرعُ الباب بإلحاح وأمه تسأل عن الطارق حتى أخذت زغاريدها تملأ أجواء البيت الصغير بعد أن تبينت في الطارق ابنها أحمد.

لم يكد قاسم يودع أحمد حتى انطلق باتجاه سوق الحميدية وكان يعرف سلفاً أن السوق مغلق، وأن الناس قد أغلقوا على أنفسهم الأبواب منذ تواترت الإشاعات عن استعداد الفرنسيين للقيام بعدوانهم في صبيحة التاسع والعشرين من أيار.. ولكن صباح التاسع والعشرين جاء وأوغل في مسيره دون أن يحمل معه شيئاً ينبئ عن العدوان المرتقب، ومع ذلك جازف بمغادرة بيته لتنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه والمكلف بها من جماعة الاستاذ.

واختار طريق سوق الحميدية لقربه من الثكنات الثلاث الواقعة في شارع جمال باشا ليتقصى أثناء تغلغله في الحواري القريبة منها الاستعدادات القائمة فيها وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل عندما شاهد الدبابات الخفيفة والمصفحات والشاحنات المحمّلة بالجنود المدججين بالسلاح تخرج من ثكنتي المغاربة والسنغال بينما كان الهدوء المشبع بالحذر يسود ثكنة المدفعية، فأيقن بأن العدوان المبيت واقع لا محالة على الرغم من الهروب الجماعي للضباط والجنود السوريين واللبنانيين المتطوعين في جيش الشرق الفرنسي الذي شهدته ثكنات الجيش الفرنسي في الأيام الأخيرة في كل أنحاء البلاد، الأمر الذي أقلق كبار قادة الجيش وكان يمكن لهذا الهروب ألا يشغل بال الفرنسيين كثيراً، لولا أن الهاربين اصطحبوا معهم أثناء هربهم أسلحتهم وصاروا بذلك يشكلون دعماً قوياً للمقاومة الآخذة بالازدياد، وكان قلة من الضباط السوريين قد آثرت لأسباب غير معروفة البقاء في الجيش الفرنسي وتقديم ولائها كاملاً له، وكان منهم الضابطان علاء الامام وسليم الصفدي.

كانت المهمة التي كلف بها قاسم تقضي عدا تقصي تحركات العدو الفرنسي بنسف النصب التذكاري المقام للكابتن الفرنسي (ديكاربنتري) في السبع بحرات

كتعبير عن رفض الشعب للاستعمار ولرموزه التي أقامها في البلاد، وكان الكابتن المذكور من ضباط فرقة العشائر ويجيد التكلم بالعربية وباللهجات العشائرية كافة بطلاقة تامة. وإبان الثورة السورية التي شاركت فيها العشائر العربية المتواجدة في البلاد حاول (ديركا بانتري) التوصل إلى اتفاق مع شيوخها، ولكن هؤلاء رفضوا المبدأ كله، ونصبوا له وللسرية التي يقودها كميناً مسلحاً لم ينج منه أحد، فقتل الكابتن ديكاربنتري، وأبيدت سريته عن آخرها، وتكريماً لهذا الضابط وإذلالاً للبلاد أمرت قيادة الجيش الفرنسي بإقامة نصب تذكاري ضخم قرب الثكنة العسكرية الواقعة عند الناحية الشمالية المؤدية لشارع بغداد، وجلبوا من أجل ذلك المهندسين من فرنسا الذين وضعوا التصاميم الخاصة بالنصب واختاروا بستان الصباغ لتبنى فيه ساحة كبيرة تضم سبع بحرات وكل واحدة منها أصغر من التي تسبقها وأكبر من التي تليها، ثم جرّوا المياه إليها من نهر بردى، وجعلوا أصغر البحرات تحيط بالنصب المسقوف الذي أقيم في وسطها والذي كتب عليه بالفرنسية والعربية اسم الكابتن (كابا نتري) وتاريخ الواقعة التي قتل فيها، وأطلقوا على الساحة كلها اسمه غير أن الناس الذين أدركوا المرامي التي أقيم من أجلها النصب لم يحفلوا بالتسمية الفرنسية للساحة فسمّوها باسم ساحة السبع بحرات، ومن هذه الساحة شق الفرنسيون في بساتين الصالحية وعين الكرش والقزازين الشارع المؤدي للقصّاع والشارع الآخر المؤدي من بوابة الصالحية إليها. وشارعاً ثالثاً يؤدي إلى محلة عرنوس وكلها بنيت على النمط الفرنسي، ثم شق في زمن متأخر شارعاً رابعاً حديثاً نوعاً ما ينتهي عند المجلس النيابي وسمي باسم الرئيس محمد علي العابد.

* * *

كانت الثكنة العسكرية الفرنسية تشرف على ساحة السبع بحرات والنصب التذكاري من ناحية الشرق، وتقع بين بساتين الصالحية وبساتين عين الكرش في زاوية الشارع المؤدي للقصاع والمعروف باسم شارع بساتين الصالحية التي تتصل من جهة الشرق ببساتين الديوانية، وكان قاسم قد تمكن من التسلل عبر سوق ساروجه وحواري بستان عين الكرش الحديث إلى بساتين الصالحية،

وبالذات إلى بقايا بستان الصباغ الذي انتزعت منه ساحة السبع بحرات ليشرف منه على الساحة والثكنة معاً، وكانت الساعة قد أشرفت على الثانية بعد الظهر عندما شاهد الدبابات والمصفحات تخرج من الثكنة وتتخذ لها مراكز عند السبع بحرات وفي شارع العابد الذي تقوم فيه رئاسة أركان الجيش الفرنسي، وفي الشارع المؤدي إلى جامع الشهداء ومحلة عرنوس وعند مدخل شارع بغداد...

اختبأ قاسم وراء صف من أشجار الحور، وتحسس القنابل الثلاث التي اشتراها من (أبي عبدو) ليفجر بها النصب فأخرجها ووضعها على الأرض، وأخذ يترصد الساحة ليتحين الفرصة المناسبة كي ينفذ مهمته وكان قاسم قد قرر التواري بعد تنفيذ مهمته في بساتين الصالحية التي لا يستطيع أحد أن يطاله فيها لكثافة أشجارها وامتدادها واتصالها ببساتين الأكراد وببساتين المهاجرين والسقطي والسبكي من ناحية الغرب.

وحانت أخيراً الفرصة التي ينتظرها فنزع فتيل الثنابل الثلاث وقذف بها بسرعة متناهية واحدة بعد أخرى بكل ما أتي من قوة نحو الساحة ولسان حاله يقول: إن لم أصب النصب والساحة، أصيب على الأقل إحدى الدبابات الرابضة قربها، ثم انبطح أرضاً منتظراً دوي الانفجارات الثلاث، ومرت ثوان وأعقبتها أخرى والضغط يزداد على أعصابه دون أن تحدث الانفجارات التي يتوقعها فتطاول بعنقه وهو ما زال منبطحاً ومدَّ بصره نحو الساحة ليستشف الأمر فشاهد الجنود يهرعون هنا وهناك بعد أن عثروا على القنابل التي لم تنفجر وقد أشهروا أسلحتهم وهدفهم حدائق البيوت والبساتين القريبة التي قدروا أن القنابل ألقيت منها وكان البستان الذي يقبع فيه منبطحاً واحداً من أهدافهم.

وخشي من اكتشاف أمره، فزحف مسافةً وقد أيقن والغيظ يأكله أن (أبا عبده) باعه قنابل فاسدة، ومن ثم هبَّ واقفاً وأطلق ساقيه للريح لينجو بنفسه، والرصاص يعوي خلفه وحوله دون أن يعبأ به، وظل يركض بخط متعرج في البساتين الأكثر كثافة شجرية حتى أمن شر مطارديه، فتوقف قليلاً ليرتاح، ومن ثم عزم قبل أن يتوجه للقاء الأستاذ عصام عند مدخل سينما رويال ليبلغه بما

حدث الانتقام من (أبي عبدو)، فيمم وجهه شطر بساتين الديوانية فتوارى فيها بعض الوقت ثم دلف إلى مقبرة الدحداح ومنها انتقل إلى مصلبة العمارة ومنها إلى دكان (أبي عبدو) بالذات ليصفي حسابه معه مطمئناً إلى أن موعده مع الأستاذ عصام لم يحن بعد، وأن الساعة المتبقية حتى ذاك الوقت تكفي لتصفية الحساب مع أبي عبدو.

* * *

لم يمكث قاسم في دكان أبي عبدو طويلاً، فالرجل لم يكن موجوداً وابنه الذي رحب به يوشك على إغلاق الدكان خوفاً من الحوادث المرتقبة، ولم يجد أمامه عند ذاك سوى التوجه إلى المقهى ليلتقي بأصدقائه وكان المقهى عندما ولجه شبه مقفر، فالمختار يجلس مع الشيخ سعدو وعلي الحجار يجلس وحيداً يرشف الشاي ببطء وحين لمحوه نادوه بلهفة وقلق فتوجه نحو طاولة المختار وأشار لعلي الحجار للانضمام إليهم فحمل هذا كأس الشاي وسحب كرسياً قريباً وحيّاهم وجلس معهم، والمختار يسأل قاسم باهتمام وانفعال:

- صحيح شكلوا الحكومة!.

وبهت قاسم، فهذه المرة الأولى التي يسبقه غيره إلى أنباء مثيرة كهذه لا يعلم عنها شيئاً لقد ظل سنوات مرجع رواد المقهى الأول في كل نبأ أو خبر أو حدث يجري في المدينة فمن الذي جاء بنبأ كهذا ومن الذي يروجه؟!، ورد بسرعة متلهفاً ومتسائلاً:

- ومن شكلها.... ومن أخبركم!.

وقال المختار دون أن يفارقه الانفعال:

- البلد كلها تتحدث عن الحكومة الجديدة، وقد تقصيت بصفتي المختار المحلة وعلمت من البلدية أن الفرنسيين قد أنهوا تشكيلها وأنهم سيعلنون عنها في الوقت المناسب...

وأضاف الشيخ سعدو موضحاً أكثر:

- وأنا علمت أن من بين أعضاء الحكومة الجديدة، نوري بيك، جعفر بيك، ونصوح بيك، وعلي بيك، والخواجة جورج، وربما أيضاً الخواجة رودولف صاحب الجريدة إياها...

- خونة.. خونة...

قال ذلك قاسم وهو في أوج انفعاله، بينما صاح به المختار مهدئاً إياه بصوت خافت:

- اخفض صوتك، وفكّر معنا، ماذا يعني تأليف حكومة جديدة والحكومة الوطنية ما تزال قائمة.

ورد قاسم بحدة:

- الأمر بسيط... لقد استخدم المفوض السامي الفرنسي حقه بموجب المادة ١١٦ من الدستور، فحلّ البرلمان وأقال رئيس الجمهورية وأطاح بالوزارة.

- طظ .

قالها الشيخ سعدو خلاف عادته في انتقاء ألفاظه ثم تابع:

- لقد خرج الأمر من أيدي الفرنسيين وهذه الحكومة هي أملهم الوحيد بعد سقوط الحسكة ودير الزور وحماه وجبل العرب وحوران في أيدي المقاومة الوطنية ولم يبق تحت سيطرتهم المتزعزعة سوى مدن دمشق وحلب وحمص واللاذقية التي تشتعل كلها تحت أقدامهم.

وقال قاسم وقد هدأ انفعاله نوعاً ما:

- والله يا شيخ سعدو، يبدو كما قال الأستاذ بحضورك: إن الصراع الفرنسي الإنكليزي على البلاد بلغ ذروته، وجلّ ما يخشاه أن تستعين الحكومة الوطنية بالإنكليز لإخراج الفرنسيين فتقع الطامة الكبرى..

وأيّد الشيخ سعدو الذي أصبح من رواد جلسات الأستاذ كلام قاسم وقال:

- يعني ننتقل من تحت الدلف الفرنسي لتحت المزراب الإنكليزي.

وتساءل المختار:

- السؤال الذي يلح علي منذ الصباح، لمَ لمْ يبدأ الفرنسيون عدوانهم الذي حددته الإشاعات بصباح هذا اليوم!.

فقال علي الحجار بسذاجة واستحياء:

- لعلّها المفاوضات!.

- مستحيل يا عمي. فالذين يعرفون دهاء رئيس الحكومة بالوكالة يعرفون جيداً بأنه لم يرفض مبدأ المفاوضات من أساسه وإنما من بعض جوانبه كي يرفض الفرنسيون الجلوس على طاولة المفاوضات .

قال قاسم ذلك وهو ينهض مستأذناً ثم أردف:

- عندي موعد هام وقد نتحدث في المساء بكل ما يتعلق بالحكومة الجديدة إذا صح الخبر.

* * *

كان الاطمئنان قد سرى إلى نفوس الناس عندما انقضت ساعات الصباح جارّة معها ساعات الظهيرة دون أن يحدث العدوان المرتقب، فأخذ الناس يخرجون من بيوتهم ويزاولون أعمالهم بحرص شديد، بعيداً من مراكز التحشدات العسكرية التي تمركزت في ساحة الشهداء عند دوائر البريد والعدلية والبلدية، وعند بنك سورية ولبنان، محاذرين الاقتراب من قصر الحكومة ودائرة الشرطة اللتين تحرسهما قوات من الدرك والشرطة، وكانت الساعة تقترب من الخامسة بعد الظهر عندما اجتاز قاسم ساحة الشهداء وضفة بردى في طريقه إلى موعده مع الأستاذ عصام عند سينما رويال قرب البرلمان، وكان شارع الملك فؤاد خالياً من السابلة، إلا من بعض الجنود المرابطين عند المحكمة المختلطة والمستشفى العسكري الفرنسي، وعندما وصل إلى المستشفى العسكري الفرنسي الذي يحتل ساحة واسعة تمتد من ناحية بداية الصالحية لغاية نادي الضباط، رمق البناء الذي يبدو بأحجاره السوداء المرصوفة بدقة، أقرب إلى قلعة أو ثكنة عسكرية منه إلى مستشفى ثم تجنب

المرور أمامه وانتقل بهدوء والجنود السنغال يرقبونه إلى الرصيف المقابل الذي تقوم قرب ناحيته مكتبة محاسن وصيدلية ألوف التي كانت آنذاك تعج بالزبائن، فتجاوزهما ليتوقف قليلاً أمام واجهة سينما أمبير المغلقة، قبل أن يستأنف السير باتجاه سينما الرويال الواقعة قريباً من البرلمان، وما كاد يخطو خطوات قليلة حتى شاهد دبابتين صغيرتين تتحركان من أمام نادي الضباط الفرنسي، وتقطعان الطريق باتجاهي البرلمان وبوابة الصالحية وتأمران الأفراد القلائل من المواطنين الذين كانوا متجهين إلى بعض أمورهم بالعودة فوراً من حيث أتوا...

وخاف قاسم من مغبة متابعة السير خاصة وهو يرتدي الزي الخاص بالمتطوعين، فانعطف في الزقاق الذي يقع قبالة المستشفى ويقود مباشرة إلى حارة الشرف، وعندما أشرف من حارة شرف إلى شارع العابد، اعترضه جندي سنغالي مشهراً سلاحه وأمره بالتوقف وبعد أن فتشه جيداً سمح له بمتابعة السير، فاخترق شارع العابد باتجاه سينما رويال الصيفي وسار في محاذاة السينما يبغي صالتها الشتوية ومدخلها الرئيسي متظاهراً بعدم الاهتمام بالجنود السنغال الذين انتشروا حول دائرة الأركان الفرنسية، حتى وصل إلى ناحية تقاطع شارع العابد بشارع البرلمان وجادة الصالحية، وبدا له البرلمان من خلال رجال الدرك والشرطة الذين يحرسونه والعلم السوري الذي يخفق على صاريتيه شامخاً صامداً قوياً أمام كل الضغوط التي تمارس ضد البلاد.

ووصل أخيراً إلى مدخل سينما الرويال ووجد الأستاذ عصام في انتظاره وكان أصحاب المخازن قد أخذوا يغلقون متاجرهم بعد أن توجسوا شراً من الجنود الذين انتشروا فجأة، وروى قاسم لعصام وهما يقفان أمام مخزن (فمينا) ويتظاهران بالتطلع إلى (اللاكتاريوم) الذي يقع على الرصيف المقابل ما حدث همساً، وعصام يهز رأسه ويستفسر منه عن بعض التفاصيل وبينا هما كذلك ترامى إليهما من بعيد تراشق عنيف بالرشاشات والبنادق، ونظر عصام إلى ساعته كانت قد تجاوزت الخامسة بدقائق فسحب قاسم من يده وعادا أدراجهما نحو صيدلية الكحال وهو يقول:

-هذا خير مكان نلجأ إليه ريثما يهدأ إطلاق النار...

وما كادا يلجان باب الصيدلية حتى اصطدما بصاحبها الذي بدا على معرفة تامة بالأستاذ عصام فقال له وهو يرخي غلق الصيدلية من الداخل:

- ادخل بسرعة... ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت!.

ودوت في تلك الأثناء قذيفة مدفع، فدخل عصام ومن ورائه قاسم والارتعاش باد عليهما ليجدا الصيدلية تغص بالزبائن وتفحص عصام الموجودين بسرعة وهو يلقي السلام... كان عددهم تسعة أشخاص بينهم امرأة سافرة الوجه ممسكة بيد طفل أشقر بهي الطلعة، وامرأة أخرى فرنسية جلست وراء صندوق المحاسبة عرف فيها الأستاذ عصام صديقة الصيدلي الحميمة التي حال أبوه دون زواجه منها.

ودخل الصيدلي بعد أن أغلق صيدليته من الداخل دون أقفال مكتفياً برخي الغلق الخارجي فرحب بالأستاذ عصام ثم سأله عن قاسم وعن ثياب التطوع التي يرتديها وعن ضرورة استبدالها فوراً. وبعد همس قصير تبع قاسم الصيدلي إلى المخبر الذي يحضّر فيه الأدوية للزبائن والمعزول عن أقسام الصيدلية الأخرى بباب تحجبه ستار سميكة بعض الشيء، فخلع سترته فوراً وارتدى عوضاً عنها زياً أبيض على غرار أردية الصيادلة والأطباء التي يرتدونها أثناء العمل، فبدا كأنه عامل من عمال الصيدلية، وقال الصيدلي لقاسم وهو ينظر إليه:

-إذا اقتحموا الصيدلية سيظنون أنك عامل عندي...

وتمتم قاسم شاكراً والصيدلي يتابع حديثه مستهجناً:

- أنا لا أفهم كيف يرضى المتطوعون بالثياب من دون السلاح!.

ولم يجب قاسم بشيء وإن كاد يقر بامتلاكه لبندقية حربية، ولكنه أحجم لأن الصيدلي كان على حق فيما قاله، فأكثرية المتطوعين لا يملكون سلاحاً، والمسؤولون قالوا لهم صراحة:

- تدبروا أمر سلاحكم بأنفسكم...

وما كاد الصيدلي يخرج من خلف الستار ومن ورائه قاسم حتى دوى انفجار قذيفة هزت أركان الصيدلية، وملأت الزبائن فزعاً، فاندفعوا جميعاً نحو الصيدلي يستحثونه الإسراع بتحضير أدويتهم لينصرفوا إلى بيوتهم...

ودوى انفجار قذيفة ثالثة، زعزع الموجودين كلهم ووقع اثنان منهم على الأرض بتأثير قوة الانفجار وبكى طفل المرأة السافرة الوجه، فأثار بكاؤه انتباه المرأة الفرنسية فتركت مكانها خلف الصندوق وسحبت درجاً قريباً منها فأخذت منه شيئاً خبأته خلف ظهرها ثم اقتربت من الطفل باسمة ومدت له يدها بما خبأته خلف ظهرها فانبهر وهرب البكاء منه... كان لوحاً من الشوكولا، وإذ همَّ بتناوله تدفعه لهفته إليه فإنه منع نفسه بإصرار الصغار، وأخذ ينقّل نظراته بين أمه والسيدة الفرنسية ولوح الشوكولا، وكأنه يستأذن أمه في ذلك، وعند ذاك أشارت له أمه وهي تشكر السيدة الفرنسية بفرنسية طليقة أن يأخذ لوح الشوكولا وما كاد يفعل حتى دوى انفجار رابع بدا قريباً جداً وقعت على إثره بعض القناني والآنية المخبرية على خِوان المخبر دون أن تعيق عمل الصيدلي، الذي لم يعبأ بما حدث وظل يتابع عمله على الرغم من الذعر والاضطراب اللذين سادا من جديد بين المتواجدين في الصيدلية، بينما أمسكت الإمرأتان كل واحدة بيد الأخرى، وقد اهتزتا في مكانيهما اهتزازاً يسيراً ومن ثم احتضنتا الطفل فيما بينهما كأنهما تحميانه وعصام يصيح بالموجودين وقد اقتعد الأرض:

- اجلسوا على الأرض لتتفادوا السقوط عند كل انفجار.

وقاسم يهتف حانقاً وهو يقتعد الأرض إلى جوار عصام:

- إنهم يضربون المدينة بالمدفعية...

كانت أوامر الجنرال (اوليفاروجيه) باحتلال مدينة دمشق وضربها بالطيران والمدفعية، من الأوامر الرعناء التي أقدم عليها، فالمدينة فعليا احتلت منذ انتشرت مصفحات الشركس ودبابات الأرمن في ساحات المدينة ومراكزها الهامة ظهيرة ذلك اليوم. ويبدو أن الجنرال قد أراد أن يبطش بالمدينة عندما وجد أن

المظاهر المسلحة التي أخذ بها على مدى أيام لقمع المظاهرات والاضطرابات،لم تجدِ نفعاً مع المدينة العريقة، فأراد أن يصعّر جبهتها ورجالاتها وشعبها بتدميرها كي تقدم إليه خضوعها كاملاً. لذا كانت أوامره للكولونيل (علاء الدين الإمام) وهو دمشقي من حي سوق ساروجة، ولمساعده الكولونيل المغربي (عبد الغني) واضحة وصريحة، وتقضي بضرب القوى الوطنية كافة، والبرلمان والقلعة والأحياء التي تبدي مقاومة تمهيداً لاحتلال المدينة بأكملها.

كذلك أصدر الجنرال (اوليفاروجيه) أوامره لسلاح الطيران بمساندة الأسلحة الأخرى وقصف تجمعات المقاومة أينما وجدت، وأوامر أخرى للضباط الشراكسة والأرمن كي يساندوا بمصفحاتهم ودباباتهم الفرقة السنغالية ويساعدوها على احتلال الأهداف المحددة لها، وضرب التجمعات المسلحة وغير المسلحة وقوى الشرطة والدرك وإشاعة الفوضى والإرهاب لتأديب المدينة العاقّة التي ترفض المدنية الفرنسية.

وكان الكولونيل (علاء الدين الإمام) آمر سلاح المدفعية قد اتخذ من ثكنة المدفعية الواقعة في شارع جمال باشا والمعروفة بثكنة المغاربة مقراً لقيادته وتنفيذاً لأوامر الجنرال (روجيه) وجه الكولونيل (الأمام) أمر للكابتن (سليم الصفدي) آمر سلاح المدفعية في ثكنة السبع بحرات بضرب الأهداف المحددة له في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر يوم التاسع والعشرين من أيار.

وفي الموعد المحدد، أخذت مدفعية الثكنتين توجه قذائفها المركزة إلى القلعة والبرلمان وشارع الملك فؤاد، وفي الوقت نفسه تحركت الدبابات والمصفحات في ساحة الشهداء لتحصد بنيرانها أعداداً من المارة العزل الذين كانوا في طريقهم إلى منازلهم، قبل أن توجه نيران رشاشاتها نحو دار الحكومة لتجابه بمقاومة فعّالة من قوات الدرك والشرطة، الأمر الذي اضطرها للتراجع وبينما كانت معركة دار الحكومة (السراي) دائرة والمدفعية تصب قذائفها على البرلمان والقلعة، انطلقت أرتال أخرى من الدبابات والمصفحات من ساحة السبع بحرات وهي تطلق نيرانها

على الناس المتواجدين حولها وقربها وفي الشوارع المؤدية لها، باتجاه بوابة الصالحية وباتجاه البرلمان في شارع العابد، لتطوق خلال دقائق كل المنافذ المؤدية للبرلمان ولتطلق نيرانها وقذائفها على قوى الشرطة والدرك المتواجدة فيه، دون أن تحرز أي تقدم بسبب استبسال المدافعين عن رمز الأمة.

ومنذ بدأ قصف المدينة تأكد للدمشقيين بأن العدوان المرتقب وقوعه صباحاً قد وقع مساءً وأن عليهم أن يدافعوا عن مدينتهم وأن يذودوا عن الحرية التي اعتنقوا والاستقلال الذي يطمحون إليه، وأن عليهم أن يساندوا قوى الشرطة والدرك التي تصدت وحدها للعدوان بأسلحتها الخفيفة.

وهكذا هبّ المتطوعون وسكان دمشق كافة ليبدؤوا بما يملكون من أسلحة فقيرة في كل شيء، مقاومة بطولية طوال ثلاثة أيام بلياليها من بدء العدوان.

* * *

استغل المتطوعون المسلحون الليل وانقطاع الكهرباء واندفاع القوات الفرنسية لاحتلال المراكز الرئيسية في المدينة وبخاصة البرلمان، ليقوموا بهجمات مباغتة على القوات الفرنسية وثكناتها، وكانت ثكنة القدم التي لا تبعد كثيراً عن (بوابة الله) في حي الميدان الفوقاني أولى تلك الهجمات، إذ حمل أهالي الميدان المزودون بأسلحة جيدة بشدة على الثكنة فحاصروها وأصلوها ناراً حامية، ودمروا بقنابل مولوتوف محلية الصنع مصفحتين ودبابة، وفي الوقت نفسه أرسل المسؤولون رسلاً إلى درعا والسويداء يطلبون إنجادهم بالمقاتلين ، كذلك تمكن عدد من المتطوعين من التسلل عبر حواري وأزقة حي القنوات إلى جامعي (دنكز) و(المولوية) اللذين يقعان في مواجهة ثكنات الانيدوشنوا والسنغال والمغاربة، فأقاموا متاريس بسيطة وحصّنوا المأذنتين اللتين ربض فيهما عدد من المقاتلين مزودين بالبنادق والقنابل اليدوية والمولوتوفية انتظاراً للفجر، وهدفهم إسكات المدفعية التي كانت قذائفها المتتابعة تضيء سماء المدينة كالشهاب وتنصب بقسوة على البرلمان والقلعة المنيعة التي تمكن قائدها على الرغم من القذائف المتساقطة عليها من إقامة مواقع

دفاعية مزودة بالرشاشات عند جسر الزرابلية ومدخل السنجقدار ومدخل شارع الملك فيصل وعند ناحيتي مقهى المشيرية قرب سوق الحميدية وبنك سورية ومصر القريب من سوق الخجا.

المتطوعون في حي سوق ساروجة القريب من مجرى الأحداث في بوابة الصالحية والبرلمان سارعوا بأسلحتهم البسيطة عند اختلاط بقايا ضوء النهار بجيوش عتمة الليل الزاحفة، إلى مهاجمة مؤخرة عدد من المصفحات التي كانت تتقدم باتجاه البرلمان وهي تحمي أعداداً من مشاة السنغال، فانبرت هذه نحو حي سوق ساروجة وأخذت توجه نيرانها بصورة عشوائية، وبعد دقائق على ذلك أخذت المدفعية تقصف بوابة الصالحية ومدخل سوق ساروجة بعنف، إلى أن تمت السيطرة للفرنسيين وعند ذاك أرسل الكولونيل (علاء الدين الإمام) إلى وجهاء ومخاتير حي سوق ساروجة إنذاراً هدد فيه بتدمير الحي وإبادته على آخره إذا لم يرفعوا الأعلام البيضاء علامة الاستسلام وأمهلهم حتى الصباح ليتدبروا أمرهم.

أما سكان أحياء العمارة والقيمرية والسبع طوالع الذين وصلتهم أنباء العدوان فقد خرجوا من بيوتهم يحملون ما وقعت عليه أيديهم فمنهم من انتقى السكاكين والعصي، ومنهم من حمل بنادق ومسدسات تعود إلى أيام الثورة ومنهم من لم يحمل شيئاً سوى إيمانه بضرورة الدفاع عن المدينة، وكانت الجموع تتوجه إلى بيوت المخاتير لتتلقى التعليمات الموعزة إليهم من مخافر الشرطة وكان حي السبع طوالع أقرب تلك الأحياء إلى القلعة التي كانت قنابل المدفعية تتصب عليها صباً، وكان أبو دياب وابنه أحمد من أوائل الواصلين إلى بيت المختار صالح، الذي دعا مع الشيخ سعدو إلى اجتماع عاجل، وما كادت حديقة البيت تمتلئ بأهل الحي ويتعرفون بعضهم على بعض من خلال أضواء مصابيح الكاز الثلاثة حتى انبرى الشيخ سعدو يحضّ الناس على الجهاد من أجل الحرية والاستقلال، ويعدد المناقب التي سيحظى بها كل شهيد يستشهد في سبيل الوطن عند رب العالمين، ومن ثم أخذ المختار يقسم الموجودين إلى فئات حسب إمكاناتهم وحسب الأسلحة التي يملكون، وأناط بالذين لا يملكون سلاحاً أو غير قادرين على القتال، مهمات

انحصرت بالتعليمات التي تلقاها من مخفر الشرطة والتي تقضي بتأمين المؤن للمقاتلين وإسعاف الجرحى والاهتمام باحتياجات الحي، وعندما انتهى المختار من إيضاح كل شيء صاح به أبو دياب متذمراً:

- هذا ليس بعدل يا مختار.... وأنا ماذا أفعل!... هل أجلس في بيتي متفرجاً كالنساء!.

ورد عليه الشيخ سعدو ملاطفاً:

- عليك بالفرن يا أبا دياب، وتأمين أكبر عدد من الأرغفة فهذا العمل هو الجهاد بعينه، ولا تحسب أن المقاتلين الذين يقاتلون هم وحدهم المجاهدون...

- ولكن يا شيخ سعدو...

- لا أريد أن أسمع اعتراضاً لكلٍ ما فرضه عليه رب العالمين، أما النساء فلن يقفن متفرجات وسيعملون على العناية بالجرحى أسوة ببنات الحي اللائي تطوعن في المشافي وفي الجمعيات النسائية كممرضات أو مرشدات...

ولم يتمكن الشيخ سعدو من متابعة كلامه، فقد دخل علي الحجار كالعاصفة وهو يصيح:

- النجدة يا شباب.... سوق نصري والعصرونية والمخازن والمتاجر والبيوت القريبة من القلعة أصابتها القنابل ونشبت فيها الحرائق...

وهم الجميع بالاندفاع، ولكن أبا عدنان الذي يقطِن مع قاسم في بيت واحد صاح مرتاعاً:

- علينا أن ننجو بنسائنا وأطفالنا قبل أن يمتد القصف الذي تسمعون إلى الحي فيذهب به وبأهله...

وعلت صيحات من هنا وهناك تؤيد أبا عدنان محبذة الرحيل عن الحي خوفاً من امتداد القصف وأخرى تندد به وتنعته بالجبان، وكاد الأمر أن يتطور لولا أن الشيخ سعدو حسم الموضوع قائلاً:

- الحي حينا والبيوت بيوتنا، والوطن وطننا، والأفضل لنا أن تنهدم بيوتنا فوق رؤوسنا على أن نرحل عنها... هم الذين عليهم أن يرحلوا، ومهما فعلوا

ومهما ضربوا وقتلوا ودمروا فسيرحلون في النهاية، لأنهم غرباء معتدون، ولأننا أصحاب هذا البيت، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وثارت الحمية بين أهل الحي وهم يوافقون الشيخ سعدو على كل كلمة قالها بينما صاح صائح فيهم:

- عالعصرونية يا شباب...

وهمَّ الجميع بالاندفاع، ولكن المختار صالح صاح بأعلى صوته:

- لا نريد فوضى... فقط الجماعة المكلفة بإطفاء الحرائق، والأخرى المكلفة بإنقاذ المصابين والجرحى... واخترق الشيخ سعدو الصفوف نحو الباب صائحاً ومذكياً الحماس:

- اتبعوني...

* * *

كانت الحرائق تضيء الدمار الذي حاق بالعصرونية وسوق نصري والبيوت المجاورة من جراء القصف الذي لم ينقطع وكان عويل النساء وبكاء الأطفال وصبر الشيوخ وألم الشباب الذين نجوا من الموت بعد الدمار الذي حاق ببيوتهم يبعث الأسى في النفوس ومع ذلك فإن جماعة الإنقاذ التي فتحت البيوت القادرة في الحي لإيواء الأطفال والنساء والشيوخ استطاعت أن تعيد نوعاً من الطمأنينة إلى النفوس، أما الشباب الذين هدتهم الكارثة فقد انبروا والألم يعصرهم إلى مساعدة جماعة إطفاء الحرائق الذين اندفعوا مع سكان حي (الدقاقة) القريب بعزم وحزم لإطفاء الحرائق الناشبة في كل مكان كي لا تمتد إلى الأبنية الأخرى المجاورة، فاصطفوا في حبل طويل أوله عند صنبور مياه فيجة العصرونية وآخره عند نهاية الحرائق وبدأوا عملهم بهمة كبيرة، وكانت السطول والجرادل رائحة غادية بين أيدي حبل الرجال الطويل دون كلل، وبعد منتصف الليل بقليل تمكنت سواعد الأحياء المختلفة من إخماد الحرائق، وأخذوا يبحثون بين الأنقاض وفي البيوت المدمرة والمصابة جزئياً عن المصابين دون أن تفزعهم القنابل التي ما فتئت تدوي قبل أن تنفجر.

لم يكن عدد المصابين كبيراً ولم يزد عدد الضحايا عن خمسة وكان الشيخ سعدو يلقي بأوامره على جماعته وكأنه يلقي خطبة من خطبه أمام الناس في الجامع:

- انقلوا هذا الجريح لبيت علي الحجار، وانقلوا ذاك لبيت أبي دياب... غطوا وجه هذا الرجل الشهيد ولينتقم الله من قتلته... هذا ما به شيء فقط مصاب بصدمة رشوا على وجهه شيئاً من الماء فقد ينفعه ثم اذهبوا به إلى بيتي...

ولم يكد الفجر ينبلج حتى استطاعت الجماعة أن تمسح إلى حين وجه مأساة سوق العصرونية وسوق نصري...

لم ينتظر المتطوعون الذين تمترسوا في مأذنتي جامع (دنكز) وجامع (المولوية) الفجر كي يفجروا بقنابلهم المدافع التي تطلق قذائفها من ثكنة المغاربة فقد وجدوا في الليل وعتمة الليل خير ستار يحميهم من انكشاف أمرهم، فأخذوا يقذفون بكل ما أوتوا من قوة قنابلهم اليدوية إلى ثكنة المدفعية وكان جلّ هؤلاء من الجنود السوريين الفارين من جيش الشرق الفرنسي، ونتيجة لخبرتهم ودرايتهم فإنهم تمكنوا من إصابة عدد من الجنود وإسكات مدفعين، الأمر الذي أثار تساؤل ودهشة الضباط والجنود معاً فعمدوا إلى إلقاء بعض القنابل المضيئة لكشف مواقع المهاجمين الذين كانوا يتوارون سريعاً كلما أضاءت قنبلة ما سماء المنطقة، دون أن يتمكنوا من كشف مخبأ المهاجمين أو يخطر لهم بأن القنابل تتساقط عليهم من المأذنتين المتجاورتين وعندما أصيبت المصفحة المرابطة في وسط الشارع بين زقاق رامي ومبنى الهاتف اليدوي بقنبلة مولوتوفية، ذهب الظن بضباط المصفحات والدبابات أن المهاجمين يكمنون في أبنية زقاق رامي.

ولما كانت الدبابات والمصفحات من نوع رينو الفرنسي ومزودة بالرشاشات فقط، فإنهم خافوا مغبة اختراق زقاق رامي بها، فاتصلوا بثكنة مدفعية السبع بحرات لطلب المساندة وما هي إلا دقائق حتى انهالت عشرات القذائف على زقاق رامي ومدخل السنجقدار ومدخل شارع الملك فيصل فدمرت زقاق رامي برمته ومدخل السنجقدار لغاية حمام الناصري، وأصابت مدخل شارع الملك

فيصل وسوق التبن إصابات مباشرة دون أن ينقطع سيل القنابل والرصاص عن ثكنة المدفعية.

ومع ساعات الفجر الأولى اكتشف الكولونيل المغربي عبد الغني مصدر إطلاق النار، فأمر جنوده بتصفية المقاومين في مأذنة المولوية بأسلحتهم الرشاشة، كذلك اكتشف آمر ثكنة الاندوشينوا المقاومين المتمركزين في مأذنة جامع دنكز، وهكذا جرت معركة غير متكافئة استمرت نصف ساعة قتل على أثرها اثنان من المتطوعين في مأذنة المولوية وثالث في مأذنة دنكز، وعلى الفور توارى باقي المتطوعين إلى حين، بينما قام جنود من ثكنتي المغاربة والاندوشينوا بمحاصرة الجامعين لاقتحامهما. وأدرك المتطوعون أنهم هالكون لا محالة، فقذفوا المهاجمين بما تبقى معهم من قنابل مولوتوف فأردوا عدداً من الجنود وأصابوا آخرين بجراح بينما اختبأ الباقون فزعاً من قنابل أخرى.

الكولونيل علاء الدين الأمام، الذي ساءه ما لحق بجنوده وثكنته، أمر مساعده الكولونيل بقصف المأذنتين والجامعين إذا اقتضى الأمر، وهكذا أصيبت مأذنة جامع دنكز إصابة مباشرة قتل فيها على الفور آخر متطوعين من الذين كانوا يقاومون من خلالها، بينما استسلم ثلاثة آخرون في جامع المولوية بعد مصرع رفاقهم ونفاذ ذخيرتهم.

* * *

ثكنة القدم التي ظلت محاصرة من أهالي الميدان طوال الليل ظلت منيعة عليهم، على الرغم من الهجمات المتتالية التي شارك فيها العديد من جماعة الأستاذ إلى جانب سكان الحي، ومع شروق الشمس أخذت مدفعية (قبة السيّار) الواقعة في بطن جبل قاسيون تصب حممها على التجمعات المسلحة في ساحة (بوابة الله) و(القدم) فأصابت في ضربها العشوائي جانباً من معمل (كبريت الشام) ومطحنة القدم، والمقبرة والأحياء الفقيرة في القدم، وعلى الأثر ارتد المهاجمون عن الثكنة بعد أن أخلوا الإصابات التي وقعت في صفوفهم واتخذوا مواقع دفاعية تمكنهم من مقاومة أي تحرك يبدر عن الثكنة.

أما في سوق ساروجة فلم يكد الفرنسيون يلمحون مع تباشير الفجر الراية البيضاء التي ارتفعت على مأذنة جامع الورد والبيوت القريبة من بوابة الصالحية حتى أدركوا أن تهديد الكولونيل الأمام قد فعل فعله عند وجهاء الحي ومخاتيره الذين بادروا على الرغم من نقمة الشباب وإصرارهم على المقاومة على حمل الأهالي على رفع أردية بيضاء على منازلهم علامة الاستسلام.

وفي الساعة الثالثة صباحاً وبعد قصف طويل استمر ساعات للبرلمان ومحيطه، اقتحمت القوات الفرنسية المكونة في غالبيتها من السنغال المجلس النيابي، لتجري في أروقته وقاعاته بعد نفاذ ذخيرة قوات الدرك والشرطة أشرس معركة بالسلاح الأبيض تغلبت فيها الكثرة المسلحة على القلة العزلاء، ليستشهد بنتيجتها جميع المقاتلين الذين مثِّل بجثثهم أبشع تمثيل، عدا الشرطيين محمد مدور وإبراهيم الشلاح اللذين تظاهرا بالموت وتمكنا خلال نقل الجثث من الهرب.

ما كاد بحر الدم يتوقف في البرلمان حتى انبرى الجنود بنهب مخازن ومتاجر ودكاكين الصالحية، وكان الجنود وأمارهم لا يقتحمون بناء على التعليمات الصادرة إليهم سوى المتاجر والمخازن والدكاكين التي لا تحمل مغاليقها رسماً واضحاً لحرف إكس X، وكانت صيدلية الكمال واحدة من الدكاكين التي تحمل حرف X، وعندما اقتحُمت الصيدلية من قبل الجنود وهم يهددون الموجودين بأسلحتهم وسيطر الفزع على الجميع علا بكاء طفل المرأة السافرة الوجه في الوقت الذي أفسح فيه الجنود الطريق لضابط فرنسي برتبة ملازم ثاني يدعى (بيرسان) فألقى هذا نظرة شاملة على الجميع ثم تقدم نحو الطفل فمسح بيده على شعره مهدئاً وهو يبتسم في وجه أمه، ومن ثم التفت نحو الصيدلي والسيدة الفرنسية اللذين هرعا نحوه وأخذا يحييانه بحرارة تدل على عمق المعرفة الشخصية به، وأخذ يتحدث إليهما همساً والسيدة تشير بين الحين والآخر إلى المرأة وطفلها والضابط ينظر إليها وإلى طفلها بتودد، ثم أمر أحد العرفاء بالاقتراب وطلب منه أن يرافق مع جنديين آخرين المرأة وطفلها لأقرب مكان يقع فيه بيتها، وعند ذاك تقدمت منه المرأة السافرة الوجه التي فهمت كل

حرف تفوه به شاكرة، ثم عانقت السيدة الفرنسية بحرارة وأمسكت بيد طفلها. وخرجت برفقة الجنود وهي تقول لها بالفرنسية:

- لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت... ليس من أجلي، ولكن من أجل طفلي...

وتقدم الصيدلي من الموجودين وقد بدا الاضطراب والفزع على وجوههم على الرغم من تماسكهم فأوجز لهم الأمر الذي أصدره الضابط قائلاً:

- على كل منكم أن يتوجه إلى بيته مرفوع الذراعين ونظراته إلى الأرض، وأن يحاذر من النظر إلى البرلمان، وألا يرخي ذراعيه، أو أن يرفع عينيه عن الأرض قبل وصوله إلى بيته، وكل من يخالف هذا الأمر يقتل فوراً.

ثم التفت الصيدلي نحو الضابط فتحدث معه وهو يشير إلى قاسم الذي غاص قلبه بين جنبيه، فهز رأسه موافقاً، وعند ذاك قال الصيدلي لقاسم بلهجة المعلم:

- رافق الأستاذ عصام إلى منزله لتقوم بحقن والدته بالحقنة التي أعطيتك إياها.

وأدرك عصام وقاسم، أن الصيدلي قد ساعد قاسم على النجاة، فنظرا إليه شاكرين دون أن ينبث ببنت شفة.

وهكذا خرج الجميع واحداً بعد الآخر رافعي الأيدي مطأطئي الرؤوس لا ينظرون إلا إلى الأرض وانطلقوا باتجاهات مختلفة نحو بيوتهم وهم يشاهدون ويحِسون بأعمال النهب والسلب التي تجري في المخازن والدكاكين على طول امتداد الصالحية، وعلى الرغم من انصياع الجميع للأوامر فإن الأستاذ عصام وقاسم وأكثر الذين كانوا في الصيدلية لمحوا إشارات إكس x على عدد من المتاجر والمشارب والدكاكين المغلقة التي لم تمس بأذى ولم تنهب أسوة بالمخازن والمتاجر الأخرى، وكان مشرب (اللاكتاريوم) ومحل خودق (اللذان يقعان قبالة سينما رويال، والمحلات الأخرى المتاخمة لهما كمحل (أكزم) وأحذية (نوفس) ومحل (نيلوفرا) اليهودي الذي ترمز لوحة محله (نيلوفرا إلى من النيل إلى الفرات)، وأحذية (باشايان) وجريدة (اللوماتان) كلها مغلقة ومؤشر عليها بحرف x ،كذلك الأمر بالنسبة لمحلات (فميتا) و(الكوبراتيف)

الفرنسي وصيدلية (قرداحي) والدكاكين الأرمنية الثلاث المختصة ببيع الحلويات الإفرنجية، ومخزن (عرقتنجي) وصالون (حصروني) وجريدة (ليزيكو) التي تقع كلها على امتداد صيدلية الكمال وسينما رويال باتجاه عرنوس.

واخترق عصام وقاسم زقاق الخمارات باتجاه الشعلان، تجاوزا زقاق الشنواني ومسجده، وهما ما زالا يرفعان أيديهما ويخفضان رأسيهما حتى وصلا إلى صنبور مياه فيجة الشعلان الذي يقع إلى جوارها بيت شيخ عرب (الرولا) نوري الشعلان الذي سميت المحلة باسمه، وكان هذا جالساً مع عدد من عربانه أمام البيت، وكأن شيئاً ما لم يحدث في المدينة، فأسبلا عند ذاك أيديهما ونظرا نظرة ازدراء لذاك القابع في كرسيه، وقد أدركا أنهما صارا بعيدين عن مرمى رصاص جنود السنغال، فألقيا بالتحية على الشيخ نوري الشعلان ومن معه، وتابعا طريقهما وهما في دهشة من أمر هذا الشيخ الذي لم يكلف نفسه حتى بسؤالهما عما يجري في المدينة، حتى وصلا إلى البيت وما كاد عصام يدخل مع صاحبه البيت حتى انفجرت أمه التي عصف بها القلق وبقيت مسهدة طوال الليل بالبكاء، بينما سارع أخواه وأخته يستفسرون منه ومن قاسم، وكلهم لهفة عن المكان الذي أمضيا فيه ليلتهما.

* * *

لم يشأ قاسم الذي مكث حتى الظهيرة في بيت الأستاذ عصام أن يظل بعيداً عن المعارك التي امتدت حتى شملت أجزاء كبيرة من المدينة، إذ ما كاد يرتدي إحدى بزات الأستاذ حتى تسلل فوراً بعد أن ودعه وودع أسرته إلى بستان السبكي، الذي يقع قبالة بيت الأستاذ ثم انطلق منه إلى بساتين أبي رمانة وتوجه منها شرقاً إلى بساتين الصالحية، ونواطير هذه البساتين يدلونه على الطرق التي يجب أن يسلكها ويدعون له بالتوفيق، إلى أن وصل إلى بساتين الديوانية فالتقى بعدد من المسلحين الشباب الذين كانوا يرغبون بمهاجمة ثكنة السبع بحرات فنهاهم عن ذلك وطلب إليهم أن ينضموا إلى شباب العمارة ليقوموا بعمل مؤثر وموحد.

ومع أذان العصر الذي كان يصلهم من بعيد، توجهوا من بساتين الديوانية متسللين الواحد بعد الآخر إلى حي القزازين الذي كان يموج بالحركة ومنه إلى مصلبة العمارة لينضموا إلى شباب العمارة الذين كانوا يمتشقون بنادق فرنسية وإنكليزية، وفور ظهور قاسم ومعه أولئك الشباب، التهب الحي حماسة وتنادوا فوراً للانطلاق إلى خوض المعركة مع الفرنسيين.

ولكن قاسم الذي كان يعرف مكانته بينهم سألهم انتظاره عند المقهى ريثما يأتي ببندقيته، ومن ثم انطلق نحو بيته فعرج في طريقه على بيت علي الحجار فأطمأن على سميرة التي كانت قلقة بسبب غيابه، وعلم منها في الوقت نفسه بأن أباها يعمل مع المختار والشيخ سعدو وعند ذاك ودعها وانطلق نحو بيته وكلماته ترن في أذنيه:

- راوغ في القتال، ولا تلق بنفسك في التهلكة واحذر من كل شيء والله معكم جميعاً...

وأخذ بندقيته وتمنطق بالذخيرة التي كان يعدها لمثل هذا اليوم، وقفل راجعاً إلى شباب الحي الذين ينتظرونه في المقهى دون أن يعبأ بالتعب والإعياء اللذين استوليا عليه.

* * *

في الوقت الذي انطلق فيه (قاسم) من بيت الأستاذ عصام، سمح الفرنسيون لسيارات الإسعاف السورية ولسيارات الهلال الأحمر بإسعاف الجرحى ونقل جثث القتلى، فانطلقت هذه تجوب الشوارع مطلقة ولولتها الكئيبة لتمزق السكون بعد أن هدأ القتال نوعاً ما وكانت جثث القتلى والجرحى من رجال الشرطة والدرك والمتطوعين تملأ شارع الملك فؤاد الذي نهبت مخازنه ومحلاته التجارية عدا قلة منها لم تمس بفضل حرف x المؤشر عليها.

وبينما كان الدكتور مسلم البارودي يقوم بواجبه الإنساني عند محطة الحجاز فيسعف الجرحى والمصابين وينقل من يقتل منهم إلى المستشفيات تحت سمع وبصر الفرنسيين دون أن يعبأ بالمخاطر، تسلل عشرات المتطوعين يقودهم

عدد من الجنود المدربين الهاربين من جيش الشرق الفرنسي إلى حديقة (النعنع) التي تقع بين فندق الأوريان بالاس وملهى العباسية وفتحوا نيران بنادقهم على الجنود المحتمين بالدبابات والمصفحات الفرنسية المرابطة عند محطة الحجاز والفندق ووزارة الزراعة، فوقع بين صفوفهم العديد من الجرحى والقتلى، وعند ذاك اندفع الدكتور البارودي ليسعف جندياً فرنسياً وقع جريحاً دون أن يفرق من خلال واجبه كطبيب بين جريح فرنسي وآخر سوري، وبينما هو كذلك أطلق عليه جندي فرنسي عدة رصاصات أردته قتيلاً على الفور، فهب السائق والممرضة لمساعدته فحملاه إلى السيارة تحت وابل من الرصاص الذي تعرضا له إنما بعد فوات الأوان.

واستمرت المعركة نصف ساعة من الزمن والمتطوعون يقذفون كل مصفحة أو دبابة تقترب من الحديقة بالقنابل المولوتوفية لتفجيرها أو لعرقلة تقدمها، وأخيراً تمكنت المصفحات من اقتحام الحديقة وهي تطلق النار على المتطوعين، الذين تمكن أكثرهم من الانسحاب بينما قتل الذين صمدوا حتى النهاية ..ما لبثت المصفحات طويلا حتى انسحبت تاركة وراءها مصفحتين لحراسة الحديقة من تسلل المتطوعين.

* * *

لم ينس أحمد موعده مع (سكرة) عند باب السلام، وقبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الظهر انطلق بين الحواري والأزقة المتفرعة حتى أشرف على باب السلام من بعيد، وقد وطّدَ العزم على البقاء في دمشق بعد أن تبدلت الأوضاع بسبب العدوان، فأصبح عنصراً فاعلاً في جماعة الشيخ سعدو وهو عندما وصل إلى البيت في اليوم الفائت وجلس إلى أمه وأبيه وأخته المريضة وأخويه اللذين شبّا عن الطوق، طفق يروي لهم ما حدث معه مذ غادر المليحة وما قامت به سكرة، فأكبروا عملها، حتى أن أمه لامته لأنها تركها تبات ليلتها في الخان عوضاً من أن يستضيفها في بيتهم، وعندما أوضح لأمه وأبيه بأنها نورية لا تؤتمن قال الأب مؤنباً:

- حتى ولو كانت نورية، يكفي أنها أنقذتك من السنغالي وأوصلتك إلينا سالماً.

وقالت أمه:

- إذا لم تتمكنا من العودة إلى المليحة، فالواجب أن تدعوها لتبيت في ضيافتنا...

وضحك أحمد مستبعداً الفكرة وهو يقول:

- لوحدها أم مع حمارها!.

وضحك أبو دياب كما لم يضحك قبلاً...

* * *

تذكر أحمد كل هذا وهو في طريقه إلى لقاء (سكرة) وقبل أن يصل إلى باب السلام. صكَّ سمعه أزير عدد من الطائرات تهدر، وهي تحلق على علوٍ منخفض أعقبه دوي عدة انفجارات بدت له قريبة نوعاً ما، تبعها انفجاران قريبان جداً، هزّاَ الأرض تحت قدميه، وكاد يقع على الأرض ولكنه تحامل على نفسه واستند إلى جدار قريب ووجين قلبه يبحر فيه إلى متاهات الرعب وتنفسه المتسارع يوشك أن يخنقه...

وامتلأ الطريق فجأة بالناس الذين خرجوا من بيوتهم خوفاً من قنابل الطائرات التي كانت تغير على المدينة وتقصف دون تمييز مواقع المقاومة في القلعة والأحياء السكنية القريبة منها، واندفعوا في شتى المسالك نحو النهر يبغون الاحتماء به.

وشعر أحمد بإعياء شديد وأحس بالناس الذين لا يدري من أين يخرجوا مع أطفالهم ونسائهم يدفعونه أمامهم دون قصد، وهم في عجلة من أمرهم، وأصواتهم تنم عن ذعرهم وهلعهم، وتملأ فضاء الطريق، وحاول من خلال الزحام الذي كان يزداد كلما انصبّت أعداد جديدة من الهاربين الوافدين من الأزقة والحواري المجاورة إلى باب السلام أن يبحث عن سكرة في المكان الذي اتفقا على اللقاء به، وقد أخذ يسترد جأشه فلم يستطع... كانت الجموع في تراكضها واندفاعها تحجب عنه كل شيء وكان كلما دوى انفجار قريب أو بعيد، تعالى الصراخ والعويل، وازدادت هرولة الباحثين عن النجاة عند النهر، أو في البساتين والحدائق القريبة من شارع بغداد.

وظل أحمد يتلكأ، والناس يدفعونه، حتى وجد نفسه في مؤخرة الركب وحيداً وقد خلت منطقة باب السلام من الحياة، وفجأة لمح سكرة تشد حمارها من رسنه بصعوبة قاصدة الطريق التي جاء منها، فهرع نحوها وقد غمره فرح كبير لا يدري مصدره، وحين صافحها كانت يدها باردة وترتعد من الخوف، وعيناها ممتلئتين بالدموع وإن أحست إلى جواره بالطمأنينة التي تفتقدها وما كاد يسألها عن أحوالها، حتى انفجرت باكية، وأخذت تروي له والدموع تبلل مآقيها ما عانته من خوف من القصف الذي لم يهدأ طوال الليل، ومن قصف الطائرات الذي لم ينقطع هذا النهار ومن الناس الهائجين الهاربين الذين قذفوا بها وبحمارها بعيداً عن باب السلام وبعد أن أفرغت كل ما عندها هتفت به:

- هيا بنا... نستطيع مغادرة المدينة إلى المليحة عن طريق البساتين التي أعرفها كراحة يدي...

ورد بسرعة وقد فوجئ بما اعتزمته:

- لا يا سكرة. الشام محاصرة، والقصف شغّال، والمعارك دائرة ولن نستطيع مغادرة المدينة لا عن طريق البساتين ولا من أي طريق آخر...

- ولكن يا أحمد...

فقاطعها قائلا:

- لا تحاولي المستحيل، وأنت بالذات لن تغادري الشام...

- أنا!.

قالت ذلك مستغربة ثم أصاخت إلى دوي القنابل الذي ازداد شدة وأردفت:

- أحمد يا حبيبي... اسمعني جيداً، إذا استمر ضرب الشام على هذا النحو فسيدمرونها على رؤوسكم فانفد بجلدك وتعالي معي...

- إذا أردت الرحيل إلى قومك، فهذا شأنك، وإذا أحببت البقاء، فأهلي على استعداد لاستقبالك واستضافتك في بيتنا...

وشاعت فرحة غريبة برقت في وجهها الذي بدا من قسوة ما عانت مسحوب اللون ثم قالت مستفسرة:

- أهلك!؟.

- إنهم يعرفون كل شيء...

فقالت مستنكرة:

- يعرفون كل شيء وتريدني أن أذهب إليهم!.

فقال مهدئاً ومستحثاً:

- هيا لا تسيئي الظن... إنهم لا يعرفون سوى أنك التي تعنين بأمري في المليحة، والتي ساعدتني في الوصول إلى الشام...

- وهل قلت لهم بأني نورية؟! .

- أجل... هيا بنا تمكثين عندنا حتى تهدأ الأحوال ثم تعودين بعد ذلك إلى عشيرتك...

- وأنت معي...

- وأنا معك...

وسحبت حمارها خلفها، ومشت إلى جواره وقد غمرتها سعادة حقيقية لا تخلو من الغم، وعندما وصلا إلى البيت كان القصف الجوي قد توقف، والسماء خلت من الطائرات.

* * *

تسلل قاسم عندما أوغل الظلام مع عدد كبير من شباب الأحياء المسلحين إلى أسطحة الأبنية الحديثة والحواري القريبة من تواجد القوات الفرنسية وفق خطة مدروسة فانتشروا في ساحة الشهداء وعند بوابة الصالحية وفي حواري شرف المؤدية إلى شارع بغداد وشارع العابد، وفي ساحة النجمة وقرب إذاعة دمشق الفرنسية في الجبوبي الرابع، وكان شباب الميدان قد استعادوا المواقع التي أجلتهم عنها منذ الصباح مدفعية (قبة السيار)، وتمكنوا من محاصرة ثكنة القدم التي تقف عائقاً دون وصول المقاتلين من حوران وجبل العرب.

وفي الساعة الحادية عشرة، وانت الأنباء قد تواترت عن وصول طلائع النجدات القادمة من السويداء، والفرنسيون ينامون على انتصاراتهم والجنرال اوليفاروجيه والجنرال كوليه يعملان على تأليف الحكومة المرتقبة، اشتعلت المدينة في المواقع كافة، فتمكن قاسم والشباب الذين معه وجلّهم من الجنود الهاربين، من فك الحصار الذي تعاني منه حامية سراي الحكومة وشباب الحبوبي الرابع والإذاعة، وتدمير المصفحتين اللتين تحرسانها، وهرب مديرها الفرنسي الكومندان (بيل) بعد أن طلب النجدة هاتفياً، والتجأ إلى بيت موطن روسي من روسيا البيضاء يعيش لوحده في البيت المجاور للإذاعة، وعندما حاول المقاتلون اقتحام الإذاعة، وصلت نجدة فرنسية من المصفحات والدبابات وهي تطلق نيرانها على مصادر النيران، وعند ذاك انسحب المقاومون وهم يحمون بعضهم بعضاً إلى بستان السبكي الذي وجدوه خير ملاذ لهم. وفي الوقت نفسه قام عدد من رجال الدرك مع عدد آخر من المتطوعين بهجوم مضاد على القوات الفرنسية التي تحاصر القلعة. واندلعت معارك أخرى عند البرلمان، وقرب ساحة النجمة وفي شارع العابد والسبع بحرات، وكان لا يسمع خلال القتال الدائر في تلك الليلة سوى زخات الرصاص ونيران الرشاشات ودوي القنابل وهدير المصفحات والدبابات وهي تروح وتغدو هنا وهناك.

وسيطر نوع من الفزع على الفرنسيين عندما علموا بوصول النجدات من حوران وجبل العرب وقرى الغوطة، وكانت المدفعية ما تزال تطلق قذائفها والطائرات تصبّ قنابلها على المدينة الهرمة الصامدة التي هبت كلها للدفاع عن حريتها . حين بدا للفرنسيين الذين كانوا يحاصرون دمشق أنهم غدوا " هم " المحاصرين فيها. وما كاد الفجر ينبثق بأنواره معلناً ولادة يوم جديد، حتى توقف فجأة كل شيء، إلا من طلقات متناثرة من هنا وهناك، ثم أخذ الفرنسيون يخلون إصاباتهم وينسحبون إلى ثكناتهم وكان يستطيع أي إنسان أن يرى مع نور الفجر الحرائق المشتعلة، التي ظلت تضيء طوال الليل سماء المدينة الأسحم، وسُحب الدخان الكثيفة السوداء تشوه ألوان الشفق، وأن يشاهد عشرات الجرحى والقتلى في الساحات والشوارع التي شهدت المعارك الضارية.

كانت نكبة المدينة في ذلك الصباح الذي هدأ فيه القتال أكبر من أن توصف، وكان نضال المدينة من أجل حريتها هو أيضاً أكبر من أن يوصف وأسمى وأعظم من كل النكبات...

* * *

كانت الساعة تبرق في دمشق صباح يوم الخميس الواقع في الواحد والثلاثين من أيار عام ١٩٤٥ دقاتها السبع عندما أعلنت إذاعة الشرق الأدنى في نشرتها الإخبارية الأولى بياناً صادراً عن رئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل يستنكر فيه ما قامت به فرنسا من أعمال عدوانية على الجمهورية السورية.. المستقلة العضو في هيئة الأمم المتحدة، وأعلن البيان بلسان رئيس الوزراء البريطاني إنه بناء على الاستشارات التي أجرتها بريطانيا على أعلى المستويات أمر الجيش البريطاني الثامن المرابط في فلسطين بدخول سورية لوقف المجازر ووضع حد للعدوان الفرنسي، وأن بريطانيا ستسحب جيشها المذكور حالما يستتب الهدوء وتعود الحياة إلى طبيعتها في سورية.

* * *

وبدا هذا الإعلان للوهلة الأولى إنقاذ لسورية من الفرنسيين، ولكنه في واقع الحال غير ذلك فتدخل الجيش البريطاني وما رافقه من ملابسات قام بها الوزير المفوض البريطاني في سورية الجنرال (سبيرس) ومساعده الكولونيل (ستيرلينغ) بالاتفاق مع بعض رجالات الحكم الوطني المسؤولة، جاء لإنقاذ الفرنسيين من المصير المحتوم، فتحرير دمشق من قبل المجاهدين بات وشيكاً لولا تدخل بريطانيا واستسلام الفرنسيين في مدن حماة ودير الزور والرقة والحسكة والسويداء ودرعا، لم يدع مجالاً للشك في حتمية هزيمة المستعمر الفرنسي وما ضرب دمشق بكل أنواع الأسلحة، سوى المحاولة الأخيرة لليأس الذي استولى على الفرنسيين وبلغ مداه في معركة دمشق.

كان الدمشقيون يعرفون قبل العدوان عليهم من خلال خبراتهم السابقة في الثورة السورية وفي اضطرابات الثلاثينيات أن الفرنسيين لن يخرجوا من تلقاء

أنفسهم وأنهم سيدمرون كل شيء قبل أن يخرجوا صاغرين، ومع ذلك فإن إعلان رئيس وزراء بريطانيا ودخول الجيش الثامن البريطاني لسورية في ذلك اليوم جعل دمشق تثور غاضبة لأنها أدركت أن الكابوس البغيض الذي أرادت التخلص منه، سيحل محله كابوس بغيض آخر، أدهى وأشد خطراً ولؤماً لأنه جاء تحت ستار الإنقاذ، لإنقاذ الفرنسيين ولإقصاء فرنسا من المنطقة تحقيقاً لمطامع بريطانيا، ونتيجة لصراعهما الخفي .

كانت جماعة الأستاذ أول من نبّه إلى هذا الخطر، ودعت إلى مقاومته، فتمكنت من تحويل التظاهرات المختلفة التي خرجت بادئ ذي بدء فرحة مهللة ومستبشرة بالإعلان البريطاني، إلى مظاهرات مسلحة تندد بالاستعمار البريطاني وزميله الفرنسي، وانبرى شباب الأحياء وطلاب المدارس وجموع غفيرة من مختلف الهيئات والأحزاب وفي مقدمتهم قاسم وعلي الحجار وأحمد وحتى الشيخ سعدو إلى مهاجمة أوكار الفرنسيين ومكاتبهم في الصالحية، ومنها رئاسة الأركان الفرنسية التي يقع مبناها قبالة البرلمان وكان يبدو مساء ذلك اليوم العاصف أن كل شيء قد استتب لجماهير دمشق الغاضبة، خاصة بعد ورود أنباء من حمص وحلب عن استسلام بعض الحاميات الفرنسية بمساعدة الضباط والجنود السوريين الهاربين الذين كانوا يعملون في جيش الشرق الفرنسي، وكان الفرح غامراً وكان يمكن لهذا الفرح أن يتكلل بالنصر بعد أن حوصرت الثكنات وأصبح كل شيء في يد دمشق، لولا وصول طلائع الدبابات البريطانية الضخمة التي احتلت بسرعة كبيرة وبدعم من الحكومة السورية المراكز الحيوية وأوقفت المدّ الدمشقي الذي طال ثكنة القدم في الميدان وجميع الدوائر الفرنسية الرسمية، وفكت الحصار المضروب بقوة من مجاهدي جبل العرب وحوران عن ثكنات شارع جمال باشا المطوقة.

وعلى الرغم من كل هذا فإن الفرح ظل سائداً بين الجماهير وتجلى في مظاهرات الأحياء الشعبية التي لم تتوقف وكأنها في مباريات فيما بينها، وكانت تظاهرة في العمارة التي تضم العديد من الأحياء المجاورة لها من أضخم تلك

المظاهرات إذ لم يبق رجل أو شيخ أو طفل أو امرأة لم يخرج فيها، وحتى أبو دياب الذي يعيقه عرجه عن المشاركة رفعه شباب الحي على الأكتاف ليردد الهتافات والأهازيج التي كانت تعيدها وراءه جماهير تلك المظاهرة الضخمة.

واستمرت تظاهرات النصر والفرح حتى موهن من الليل، تحت حراسة الدبابات البريطانية، وكان يرى في تلك التظاهرات وجوه مألوفة... وجوه كلها قاسم والشيخ سعدو وأبي دياب وسميرة وعلي الحجار وعدنان وأحمد وسكرة والمختار صالح... فتلك الوجوه هي وجوه الناس البسطاء التي صنعت بمالها وعليها الفرح الكبير...

كان النصر رائعاً، والحرية أروع والذين أغفوا إغفاءتهم الأخيرة من رجال الدرك والشرطة والمتطوعين والضباط والجنود الفارين هم الذين حققوها وسطروها بدمائهم وهم الذين أتاحوا للناس... لكل الناس في ذلك اليوم الخالد في تاريخ دمشق أن يتنسموا هواءها وأن يستنشقوا عبيرها نقياً صافياً .

انتهت رواية المياه العائمة (المياه العائمة)

يليها رواية (الموظف يعود إلى المدينة) .. صميم الشريف.

قام بتنقيح رواية المياه العائمة زيد صميم الشريف

براغ في ٢٠١٣/١٠/٣

* * *

الطبعة الأولى / ٢٠١٥م

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة